دكتور سبوك يتحدث إلى الأمهات

"مشكلات الأطفال في أطوار نموهم"

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

يناير سنة ١٩٦٤

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

دكتور سبوك يتحدث إلى الأمهات

« مشكلات الأطفال فى أطوار نموهم »

تأليف

بنجامين سبوك

ترجمة

سعد الجبلاوى و عايدة أبادير

تقديم

الدكتور مصطفى الديوانى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

الدكتور بنجامين سپوك

طبيب وباحث ومدرس تخرج فى كلية الأطباء الجراحين فى جامعة نيويورك سنة ١٩٢٩ وتخصص فى أمراض الأطفال وفى الصحة العقلية والنفسية حتى سنة ١٩٣٣ . وبعد هذا الإعداد العلمى الطويل الدقيق بدأ فى ممارسة المهنة كطبيب معالج من ناحية ، وكأستاذ لأمراض الأطفال بجامعة نيويورك من ناحية أخرى . وذاع صيته واشتهر فعمل بالإضافة إلى ما تقدم كمستشار فنى فى أمراض الأطفال للادارة الصحية فى مدينة نيويورك ثم دعى للعمل فى « معهد تنمية الشخصية » ثم اختير مستشاراً فنياً لمصحة مايو المعروفة Mayo clinic وأستاذاً لمادته فى جامعة منيسوتا وأسهم إسهاماً كبيراً فى تدريس مادة جديدة هى « تطور الطفولة » . ألف الكثير من المراجع العلمية الهامة فى الصحة العقلية وفى طب الأطفال ، منها « الناحية النفسية من طب الأطفال » سنة ١٩٣٨ و « تفادى مشاكل الانحراف » سنة ١٩٤٥ . ولقد نشرت له هذه المؤسسة كتابه الشهير « دستور الأم » فى ثلاثة أجزاء .

المترجمان :

سعد الجبلاوى

يعمل مدرساً للأدب الإنجليزى بكلية المعلمين بالقاهرة . ولد سنة ١٩٢٧ . حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٧ . سافر فى بعثة دراسية إلى إنجلترا سنة ١٩٥٤ . حصل على دبلوم الدراسات الإنجليزية من جامعة اكستر فى سنة ١٩٥٦ وكانت رسالته عن « چورج هربرت » الشاعر الميتافيزيقى . نشرت له قصص مترجمة وبعض المقالات فى النقد الأدبى . اشترك فى ترجمة كتاب « داخل أفريقيا » لجون جنثر وكتاب « فى غياهب المجهول » لروى تشابمان اندروز ، وكتاب « الأبناء » لبيرل باك ، وهى من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة .

عايدة أبادير

زوجته . تعمل بالتعليم الثانوى . حصلت على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٣، وعلى دبلوم التربية من جامعة اكستر بإنجلترا فى سنة ١٩٥٥ . تقدمت برسالة عن أنظمة التعليم فى الجمهورية العربية المتحدة .

اشتركت مع زوجها فى ترجمة كتاب « داخل أفريقيا » وكتاب « فى غياهب المجهول » وكتاب « الأبناء » .

مصمم الغلاف : محمد إسماعيل صالح

تخرج فى كلية السلام الإنجليزية ، يعمل حالياً بشركة الطيران العربية المتحدة . صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

— ٤ —

مشكلات سلوك الطفل الصغير

— ٥ —

الارتباطات ومظاهر القلق فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة

— ٦ —

التحول إلى العالم الخارجي بعد سن السادسة

– ٧ –

توترات مرحلة المراهقة

تقديم

بقلم

الدكتور مصطفى الديواني

إن اسم مؤلف هذا الكتاب بنجامين سپوك يعتبر فى الولايات المتحدة اسم علم فى كل منزل يذرع فى جنباته ذلك المخلوق الجبار حيناً ، الضعيف حيناً ، والذى يسمونه الطفل . فمنذ ألف كتابه الأول[1] من سبعة عشر عاماً خلت عن العناية بالطفل ، أصبح اسمه أنيس كل أم فى الولايات المتحدة ، ترجع إلى الكتاب كلما عرضت لها مشكلة فى حياة طفلها ، حيث تجد فيه ما تبغى فى أسلوب سهل جذاب لكنه مقنع . والمشكلات فى حياة الطفل عديدة ، والطفل مخلوق ضعيف قاصر يرقب الأفق من بعيد فيخاله فى قبضة يده ويعيش للساعة التى هو فيها غير مفرق بين أمسه وغده . وهو أحياناً جبار عنيد عنيف ، يتخطى المسئوليات دون مبالاة ، حتى إذا ما وجد نفسه فجأة متمسكا بالعشب الأخضر النامى على حافة هاوية انزلق إليها دون أن يقصد بنفسه ضراً ، تلفت يميناً ويساراً عساه أن يجد من يأخذ بيده .

ومن بين السحب المتهادية فى انسياب لا ينتهى إلا مع الزمن يظهر الوجه الحبيب دائماً ، الطبيب الذى جاء ليرشد وينصح ويعالج ويدعم العلاقات بين

---

(١) هو كتاب The Common Sense Book Of Baby And Child Care ، الذى نشرته مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بعنوان « دستور الأم » بالاشتراك مع مكتبة الأنجلو المصرية مترجماً إلى العربية فى ثلاثة أجزاء ، يتناول الأول منها حياة الطفل فى عامه الأول ويتناول الجزء الثانى حياة الطفل حتى يبلغ الحادية عشرة ، ويتناول الجزء الثالث الأمراض التى تصيب الطفل ويصف وسائل علاجها .

[المؤسسة]

الطفل ووالديه ويحل مشكلاتهما النفسية ، وما فى حبال الروابط من عقد قد يغطيها ستار زائف من حنان حيث لا حنان ، ومن شفقة قد تنقلب إلى الضد إذا تمادت الأم فى ممارستها نحو طفلها ، وخاصة إذا كان وحيداً .

ولعل من أصعب الأمور على الطبيب أن يهبه الله القدرة على التحدث مع الأمهات ناصحاً مرشداً . لقد بدأ الدكتور سپوك هوايته – وما أصعبها من هواية ! فى سنة ١٩٤٦ ، وبدأتها أنا قبله بست سنوات ، وحاول كل منا وضع حد فاصل بين اعتقادات سادت فى الماضى القريب ، وبين تطورات حديثة كان يجب أن تدركها كل أم ، ويعيها كل والد ، لتسير السفينة بين الأمواج المتلاطمة باسم الله مجراها ومرساها فتصل بالطفل إلى بر السلامة ، مجنبة إياه صدمات الزمان التى قد تصيب من جسمه ضراً ، ومن نفسيته كدماً ، تبدو للعين المجردة خلال تصرفاته نحو نفسه ونحو من حوله من أهل بيته .

وما من والد مدّ له الله حبل العمر حتى عاصر ابنه المراهق ، إلا أدرك جو الحيرة الذى أحاط به لمواجهة هـذا الانقلاب الطارىء الذى ساد الجو العائلى فأظلته سحب الشقاء بعد أن كانت السعادة ترفرف بسخاء فى أرجائه ، يتساءل الوالدان معاً أو كل على حدة عما انتاب ابنهما المراهق الذى كان مثلا يحتذى فى النظام واحترام المخالطين له ، فإذا به يصبح مستحيلا بحيث ينقلب الجو العائلى إلى جحيم لا يطاق ، وقد تشق الأم صدرها باكية مكمودة وتهمس قائلة : ياليتنى مت قبل هذا ! ! وهنا تبدو فائدة مخطوط مثل كتاب الدكتور سپوك . إنه يشرح للأم ، وهو دائماً يتكلم إلى الأم ، كيف تتصرف بحكمة وكيف تتغلغل إلى أعماق نفسه لتكشف المجهول من ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يسمونه نفسية الطفل ، أو بالأحرى نفسه ، لعلها واجدة بين الأمثلة التى يسردها مايطابق حالة طفلها فتطبقه محاولة إعادة السعادة إلى تلك الوحدة التى لا تملك من العالم

غيرها وهى المنزل ، وهى مسئولة تماماً عن كل ما يجرى فيه ظاهراً وباطناً ، كان الله فى عونها .

وهناك فترة من حياة الطفل لاتقل حرجاً عن فترة المراهقة ، وهى الفترة بين السنة الثالثة والسادسة من العمر ، وفيها يصول الدكتور سپوك ويجول شارحاً ما خفى من مشكلات خالدة مثل الأحلام المزعجة والمخاوف والاهتمام الجنسى والأسئلة المحرجة التى قد يوجهها الطفل إلى أمه فى هذا الصدد .

وإنك حين تقلب صفحات هذا الكتاب تعجب كيف ينتقل بك الدكتور سپوك من دوح إلى دوح ، فهو لا يقتصر على النفسيات ، بل يلمس فى بعض الصفحات مشكلات مرضية وصحية ، مثل التبول الليلى ، وفوائد الهواء الطلق النقى ، وفوائد ومضار إعطاء الحلوى للأطفال ، ومشكلات الشهية للطعام ، ثم يرشد الأم كيف تربى فى طفلها ملكة (الضمير). ولم يفته أبداً الاهتمام بموضوع انحراف الشباب ، وهو مشكلة المجتمع فى كل مكان ، فأفرد له باباً خاصاً ، مفصلا بين أسبابه الاجتماعية والنفسية ، وسرد طريق تجنيب الولد اليافع من السقوط بين براثنه قبل فوات الأوان .

إن الأمسيات التى قضيتها فى تصفح هذا الكتاب القيم لم أندم عليها ، فقد أضافت إلى معلوماتى رغم إلمامى بالكثير منها ما جعلنى على يقين أن هذا كتاب كل والد ووالدة يهمهما أن ينشأ طفلهما نشأة صالحة مستقيمة لا تشوبها شائبة ، أو قد تشوبها شائبة يمكن تلافيها بالرجوع إلى سطور هذا الكتاب التى تضم كل غال وثمين .

وكان بودى أن أطيل فى غير ملل فأذكر المثل تلو الآخر مما حواه الكتاب من كل ممتع طريف ، ولكن مترجميه سعد الجبلاوى وعايدة أبادير لم يتركا شاردة دون ترجمتها فى أمانة ودقة وجزالة لفظ يهنآن عليها .

تصدير

عم يتحدث هذا الكتاب ؟

هناك موضوعات هامة فى تربية الطفل تحتاج إلى شىء من الشرح والتوضيح إذا أراد الآباء والأمهات أن يدركوا المعانى العميقة التى تكمن وراء السلوك السوى أو إنحراف السلوك عند أطفالهم .

المراهقة مثلا .. هذه مرحلة من مراحل النمو ، تثير كثيراً من المشكلات المحيرة . غير أن من المحال معالجة هذه المشكلات عن طريق بعض المقترحات البسيطة الساذجة . فإذا أرادت الأم أن تعالج بحكمة مراهقاً صعب القياد ، فإنها فى رأيى محتاجة فعلا إلى أن تكون لديها فكرة عما يجرى فى أعماق مشاعره ، هذه المشاعر التى لايدركها حتى هو نفسه . لذلك فقد حاولت جهدى أن أكشف الغموض عن هذه المسائل المعقدة ، وأن أوضحها بأمثلة مختلفة ، تتدرج من الحالات الشائعة إلى الحالات المريضة .

هناك أيضاً بعض المشكلات المتعلقة بالفترة ما بين سن الثالثة والسادسة من عمر الطفل — كمشكلة الأحلام المزعجة ، والمخاوف الوهمية ، ومشكلات النوم ، واللعب الجنسى ، وأسئلة الطفل بشأن حقائق الحياة — وهى جميعاً متصلة بعوامل الصراع والقلق الكامنة فى العقل الباطن للطفل الصغير . وقد ناقشت هذه المشكلات مناقشة صريحة فى هذا الكتاب .

كما أن مسألة النظام والتهذيب — ودور الأب فيها — من الموضوعات التى يثور حولها دائماً الكثير من الجدل ، حتى إن أحداً لا يستطيع أن يدل الآخر على الطريقة المثلى التى يمكن بها تنفيذ خطة النظام فى البيت . لذلك فقد حاولت

قدر استطاعتى أن أتناول بالتحليل بعض العوامل الحيوية فى هذه المسألة ، كى يصبح الآباء والأمهات فى موقف أفضل ، يتيح لهم أن يحصلوا على النتائج التى ينشدونها من أطفالهم .

ولكن فصول هذا الكتاب لا تقتصر على بحث المسائل النفسية ، فقد تناولت أيضاً بعض الأسئلة الأخرى مثل : ما مدى أهمية الهواء النقى ؟ ولماذا ترغب الأمهات فى إعطاء الحلوى لأطفالهن ؟ وقد عبرت عن آرائى الشخصية بشأن هذه الأسئلة ، راجياً أن تساعد هذه الآراء الأمهات على الوصول إلى بعض النتائج التى تتسم بالحكمة والتعقل ، على ضوء ظروفهن الخاصة .

والمادة الأساسية فى فصول هذا الكتاب ، مستمدة من بعض المقالات التى كنت قد كتبتها لمجلة «ليديز هوم» Ladies Home فى مناسبات مختلفة . لذا فإنى مدين بالشكر لرؤساء تحرير هذه المجلة لسماحهم لى باستغلال مادة المقالات مرة أخرى . على أنى أثناء إعدادى لهذا الكتاب ، توسعت فى هذه المادة ، وأضفت إليها أحدث الآراء العلمية ، كما أعدت تنسيقها وكتابتها ، حتى يتسنى لى عرض كل موضوع من الموضوعات الأساسية كوحدة متكاملة المعنى .

كما أعرب عن شكرى لهوفتون ميفلين ، لأنه عهد إلى جويس هارتمان بمهمة تحرير هذا الكتاب ؛ ذلك أن أداءها لعملها بمهارة ولباقة ، قد سهل علىّ عملى. وأشكر أيضاً مارى برجن وإليزابث دونتون ، لما قدمتا إلى من نصائح رشيدة ، أثناء كتابتى لبعض المقالات الأصلية . كذلك أقدم شكرى للدكتور مارفين شاپيرو ، لاشتراكه معى فى بحث وكتابة الأجزاء الخاصة بمركز الطفل فى الأسرة .

بنجامين سپوك

١

صحة طفلك

متى ينبغى استدعاء الطبيب ؟

« ليس المقصود أن تصبح الأمهات
متخصصات فى تشخيص الأمراض »

كتبت إلى إحدى الأمهات قائلة : «أرجو أن تتمكن من إسداء النصح إلى الأمهات الشابات بشأن الظروف التى ينبغى فيها استدعاء الطبيب . فقد نشأت ، بسبب نقص الأطباء ، نزعة أعتقد أنها تضر بأطفال هذا البلد ، تلك أن الأمهات ينتابهن شعور بالإثم بشأن استدعاء الطبيب . فرغم أنك وغيرك من الأطباء طالما حذرتم مراراً من أن العطس واحتقان الحلق مع ارتفاع طفيف فى درجة الحرارة ، قد تدل على الإصابة بأى مرض من الأمراض — ابتداء من نزلات البرد حتى الحمى القرمزية — رغم ذلك فإن الأمهات غالباً ما يترددن فى دعوة الطبيب ، خشية أن يظهرن بمظهر الحماقة والمغالاة فى القلق . لقد كدت أقع فى نفس الخطأ منذ بضعة أسابيع ، عندما ظهرت على طفلى البالغ من العمر سبع سنوات ، نفس هذه الأعراض يصحبها صداع حاد ، وكان الصداع هو الذى دفعنى إلى التصميم على استدعاء الطبيب ، فكانت نتيجة الفحص هى ما أسماه « التهاب الغشاء السحائى » . على أن المرض لم يشتد بصغيرى بفضل العلاج السريع من جانب الطبيب » .

وإنى أوافق بكل قوة على أن الأم التى يساورها القلق بشأن حالة طفلها ، ينبغى أن تتصل تليفونياً بالطبيب ، دون أن تتريث لتسائل نفسها عما إذا كان الطبيب سيرى أنه لم يكن هناك داع لاستدعائه ، وما إذا كانت ستحس بالخجل والارتباك عند حضوره . لكننا إذا اتفقنا على هذه النقطة ، فإن هذا سيؤدى

فقط لأن يتحول السؤال بالنسبة لكثير من الأمهات إلى سؤال آخر : « متى ينبغى أن نحس بالقلق على الطفل ؟ » .

* * *

المشكلة الأولى : وقد شغلت بالى طوال الفترة التى قضيتها فى تأليف كتابى « رعاية الرضيع والطفل »(١) — هى أنه ما من اثنتين من الأمهات تتشابهان تماماً بطبيعة الحال ، وأنه حتى إذا استطاع الطبيب أن يضع لإحدى الأمهات مجموعة من القواعد السليمة المأمونة إلى حد ما ، فإن هذه القواعد لن تكون مأمونة العواقب بالنسبة لأم أخرى . ولنأخذ مثالين يقفان على طرفى نقيض : لو أننى كنت أكتب كتابى فقط للأمهات اللاتى تؤرقهن ضمائرهن الحية ، ويستبد بهن القلق على أطفالهن ، لظللت أطمئنهن طوال الوقت إلى أن الكثير من الأعراض التى تبدو مخيفة فى ظاهرها لا تؤدى عادة إلى أى مرض وخيم العاقبة ؛ فالشعور بالألم خلف الأذن فى بداية إصابتها بالعدوى لا يدل فى العادة على التهاب عظمة النتوء الحلمى بمعناه المألوف . كما أن الإحساس بآلام فى البطن لا يدل على التهاب الزائدة الدودية إلا فى بعض الأحيان ، وهلم جرا . غير أننا على طرف النقيض الآخر نجد الأمهات اللائى يغالين أشد المغالاة فى الاستخفاف وعدم الاكتراث . فلو أنهن قرأن نفس هذه العبارات ، لتبادر إلى أذهانهن أنى أعنى أن الألم وراء الأذنين لا يدل على شىء مطلقاً ، وأن الأطفال لا يصابون أبداً بالتهاب الزائدة الدودية ، ومن ثم ليس هناك ما يدعو للاهتمام بآلام البطن التى تنتاب أطفالهن .

والواقع أن غالبية الأمهات يتحولن من المغالاة فى اللهفة والقلق على طفلهن الأول إلى التطرف فى عدم الاكتراث بالطفل الثالث أو الرابع ، وهو اتجاه طبيعى سوى ، وما زلت أذكر حتى الآن أن أماً تتسم بالعقل والإدراك السليم

---

(١) نشرته مؤسسة فرانكلين فى ثلاثة أجزاء تحت اسم « دستور الأم » .

بوجه عام ، دعتنى ذات يوم لعلاج مرض ألم بطفلتها الرابعة ، قائلة : « إننى أكره أن أزعجك ، غير أن ابنتى مريضة بعض الشىء منذ ثلاثة أيام ، فهى تعانى من الصداع مع ارتفاع حاد فى درجة الحرارة . هل تعتقد أن هناك ما يدعو لأن تفحصها ؟ » . إن هذين العرضين من أعراض المرض إذا ظهرا معاً كان فيهما الكفاية لأن يحملا الطبيب على الاشتباه فى احتمال الإصابة بالالتهاب السحائى . وقد حاولت أن أخفى انزعاجى عن الأم ، واندفعت خارجاً وسط ساعات العمل بالعيادة لزيارة المريضة فى البيت . (على أنها لم تكن مصابة بالالتهاب السحائى) .

من السهل أن أقول للأمهات : إن الحرارة المنخفضة لا تدل على مرض جسيم ، على حين أن الحرارة المرتفعة تكون دائماً أكثر خطورة . لكن هذا القول ليس صحيحاً فى الواقع . حقيقة إن الكثير من الأمراض الخطيرة ، كالالتهاب الرئوى ، والالتهاب السحائى ، والالتهاب البريتونى ، والتهاب عظمة النتوء الحلمى ، عادة ما يصحبها ارتفاع حاد فى درجة الحرارة ، لكنها جميعاً يمكن أن تنشأ مع ارتفاع طفيف فى الحرارة . كما أن الحصبة الألمانية – وهى من أمراض الطفولة المبكرة التى لا تشكل خطراً على الإطلاق – تتميز دائماً بحرارة مرتفعة تظل ثابتة عند ٣٩° لمدة ثلاثة أو أربعة أيام قبل ظهور الطفح .

وجدير بالذكر أن الجسم فى الشهور الأولى من مرحلة الرضاعة لا يجنح إلى رد فعل الميكروبات بارتفاع شديد فى درجة الحرارة ، حتى فى حالات العدوى الخطيرة . ثم تتغير الحال بالنسبة لغالبية الأطفال عندما يبلغون عاماً أو عامين من أعمارهم . ذلك أن الجسم فى هذه السن يميل إلى رد الفعل بارتفاع حاد فى الحرارة عند بدء الإصابة بالأمراض على شتى أنواعها ، الهينة والخطيرة على السواء . ومعظم الآباء والأمهات يعرفون هذه الحقيقة من خبراتهم الخاصة مع أطفالهم ؛ فمن القصص الشائعة أن الطفل تبدو عليه أمارات الصحة والعافية فى الصباح ، ثم يفقد شيئاً

من شهيته وحيويته عند الغداء ، فإذا ماانقضت فترة ما بعد الظهيرة تكون درجة حرارته قد بلغت ٤٠° . ويستدعى الطبيب فلا يسفر فحصه للطفل عن شىء يذكر اللهم إلا احتقان بسيط فى الحلق . وفى خلال يوم أو يومين تنخفض درجة الحرارة ويسترد الطفل عافيته ، أو قد يتبقى عنده مجرد رشح فى الأنف . وبعبارة أخرى ، فإن أخف نزلات البرد واحتقان الحلق أو الإنفلونزا قد تؤدى إلى ارتفاع حاد فى درجة الحرارة فى هذه السن من عمر الطفل . أما فى سن الخامسة أو السادسة أو السابعة ، فإن غالبية الأطفال يتجاوزون هذه المرحلة التى ترتفع فيها الحرارة دون ما سبب جدير بالذكر . فالأرجح الآن أن تبدأ إصابتهم بنزلات البرد أو احتقان الحلق بارتفاع طفيف فى الحرارة ، أما عندما تشتد عليهم فعلا وطأة الحمى فإنها قد تدل على مرض له خطورته .

وفى حالات أمراض معينة عديدة ، يمكنك القول بأن ارتفاع الحرارة عند بدء الإصابة بالمرض أهون كثيراً من ارتفاعها بعد مرور أيام قلائل . فالحرارة التى تبدأ فى الارتفاع بعد مضى عدة أيام من بدء الإصابة تدل فى الغالب على أن المرض يزداد سوءاً ، أو أنه قد نشأت بعض المضاعفات ، سواء أكان هناك ارتفاع فى الحرارة منذ البداية أم لا . وهذه الظاهرة تنطبق بصفة خاصة على نزلات البرد والتهابات الحلق ، ذلك أن ارتفاع الحرارة أو عودتها إلى الارتفاع تثير التساؤل عما إذا كانت نزلة البرد قد امتدت إلى الأذنين ، أو هبطت فى الشعب الرئوية (تسبب الإصابة بالنزلة الشعبية أو الالتهاب الرئوى لا سيما إذا اشتد السعال) ، أو تغلغلت فى الجهاز البولى (تسبب التهاب حوض الكلى) ، أو سرت فى الجيوب الأنفية أو فى غدد العنق . وبعبارة أخرى ، إنى أعانها كلمة واضحة صريحة : إن الحرارة التى ترتفع أو تعود إلى الارتفاع بعد اليوم الثانى من بداية المرض ، تستلزم الاتصال بالطبيب .

* * *

ألا توجد دلائل أخرى تنير السبيل أمام الأمهات العاقلات ، لا سيما اللاتى يقمن على بعد أميال عديدة من مقر الطبيب ولا يتسنى لهن الاتصال به تليفونياً ؟ لا أعتقد أن هناك دلائل يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كاملا ، ومع ذلك فهناك بضعة إرشادات قد تساعد الأمهات بعض الشىء . إننى أضع فى المقدمة المظهر العام للطفل : إلى أى مدى تبدو عليه علائم المرض ، مدى استرخائه فى الفراش ، مدى التغيير الذى طرأ على مظهره وتصرفاته بالنسبة لحالته المألوفة وهو متمتع بالصحة . فلو أن الطفل بدت عليه أمارات المرض فى مظهره ومسلكه ، فإنى أحاول جاهداً أن أستدعى طبيباً لفحصه أو أنقله إلى عيادة الطبيب ، أكثر مما لو كان يأكل ويلعب كالمعتاد مهما تكن درجة حرارته .

أود بعد ذلك أن أحصى لكن أعراضاً معينة متعددة تظهر فى أثناء نزلات البرد وتستدعى دائماً العناية الطبية السريعة . لعل أكثر هذه الأعراض شيوعاً هى آلام الأذنين . ولا يعنى هذا أن التهابات الأذن تكون دائماً وخيمة العاقبة ، ففى معظم الحالات يشفى الطفل منها دون متاعب خطيرة . غير أن التهابات الأذن التى تترك دون علاج ، تستمر أمداً طويلا فى بعض الأحيان ، وقد تخلف نوعاً من الصمم الدائم إذا طال مداها . على حين أن هذه الالتهابات يمكن فى العادة وقفها عند حدها إذا عولجت سريعاً بأحد العقاقير الحديثة . وليس هناك ما يبرر إهمال علاجها .

ثمة عرض آخر من أعراض المرض يدعو دائماً إلى العناية السريعة ، ذلك هو خشونة الصوت أو ضيق التنفس . حقيقة إن خشونة الصوت تدل غالباً على مجرد التهاب بسيط فى الحنجرة ، لا يؤدى إلى شىء له خطورته ، كما أن ضيق التنفس يرجع فى الغالب إلى ذبحة مؤقتة فى الحنجرة . ومع ذلك فإن خشونة

الصوت وضيق التنفس ، لا سيما إذا صحبهما ارتفاع فى الحرارة ، قد يدلان على حالات من التهاب الحنجرة ، والنزلة الشعبية أخطر من ذلك ، وتتطلب علاجاً قوياً فعالا .

لقد ناقشت حتى الآن مشكلة نزلات البرد والتهابات الحلق ومضاعفاتها . ومن المحتمل أن هذه النزلات مجتمعة هى التى تسبب تسعة أعشار الأمراض التى تصيب الأطفال . غير أن هناك فصيلة أخرى من الأمراض وهى نزلات المعدة والأمعاء التى تتمثل فى حالات الإسهال والقىء ، ويكون الطفل فى العادة أكثر تعرضاً لها فى العامين الأول والثانى من حياته ، لذا ينبغى علاجها بعناية خاصة فى هذه المرحلة من العمر . وأعتقد أن من الضرورى استشارة الطبيب كلما أصبح براز الطفل الصغير سائلا تماماً . وتضحى هذه الضرورة ملحة إذا أصبح البراز مخاطياً أو مختلطاً بالدم ، أو إذا صحبه قىء وارتفاع فى الحرارة أو استرخاء كامل فى الفراش . أما بعد السنة الثانية من عمر الطفل ، فإن الإسهال الخفيف لمدة يوم واحد قلما يكون خطيراً . ومع ذلك ينبغى استدعاء الطبيب إذا كان الإسهال مصحوباً بآلام فى البطن أو بأى عرض من الأعراض الأخرى التى أحصيتها فيما سلف .

هناك أيضاً بطبيعة الحال عشرات من الأمراض الأخرى التى تؤثر فى أعضاء الجسم المختلفة ، وهى من التعقيد بحيث تتعذر علينا مناقشتها ، كما أن غالبيتها من الندرة بحيث يتعذر على الذاكرة أن تحصيها جميعاً . ولقد كان من سوء حظ الأم التى كتبت لى الخطاب السالف الذكر ، أنها صادفت فى طفلها حالة من حالات الالتهاب السحائى ، وهى حالة نادرة جداً ، فقد أحست هذه السيدة — إن لم تكن قد تأملت الأمر ملياً — أن الصداع ، لا سيما الصداع الحاد ، ليس بالظاهرة المألوفة فى سنى الطفولة المبكرة ، وأنه ينبغى فحص هذه الحالة عند

الطفل على جناح السرعة . ومن المحتمل أيضاً أن يكون طفلها قد ظهرت عليه أمارات المرض فى حالة الالتهاب السحائى بصورة أشد منهـا فى غالبية حالات الأمراض الأخرى ؛ ذلك أن المظهر غير المألوف الذى يصحب المرض هو الذى ينبغى أن ينذر الأم بالخطر ، وهو الذى ينذرها فى العادة .

ويشكو الطفل من آلام فى بطنه ، عند بداية العدوى فى حالات أمراض عديدة . وقد تعنى هـذه الآلام شعور الطفل الصغير بالغثيان فى كثير من هذه الحالات . كما أن المغص من الأمراض الشائعة بين الأطفال الذين يعانون من مشكلات التغذية وغيرها من بواعث القلق . أما التهاب الزائدة الدودية فإنه من الحالات النادرة بلا ريب ، إذا قورن بغيره من الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى آلام البطن . غير أن احتمال الإصابة به من الخطورة بمكان ، بحيث ينبغى فحص آلام البطن فحصاً دقيقاً ، لا سيما إذا كانت هذه شكوى لم نعهدها من هذا الطفل بالذات ، وإذا استمرت هـذه الآلام ساعة أو أكثر . (لأن الألم الذى يستمر لبضع دقائق معدودات ثم يزول إلى غير رجعة لا يدل على التهاب الزائدة الدودية) .

عند هذه النقطة من الحديث ، يحتمل أن تراودك الرغبة فى أن تقولى : «إن كل هذا يبدو معقداً غاية التعقيد ، ثم إنه ليس وافياً بحيث يمكن أن يجدى نفعاً . أشك أننى سأتذكر هـذا الحديث حين يمرض طفلى فى المرة القادمة » . فى اعتقادى أن هذا هو رد الفعل الطبيعى ، إذ ليس المقصود أن تصبح الأمهـات متخصصات فى تشخيص الأمراض . فالأطباء لا تقوم دراستهم فى فترة التمرين على مجرد استيعاب قائمة بأسماء الأمراض وأعراضها . ثم نتوقع منهم بعد ذلك أن يقوموا بتشخيصها . بل إنهم يقضون سنوات عدة فى كلية الطب ، وقد يقضون سـنوات أخرى عديدة كأطباء مقيمين بالمستشفيات ، يدرسون الجسم البشرى

والميكروبات التى تغزوه ، وأعضاء الجسم التى غزتها الميكروبات ، والاختبارات المعملية الخاصة بالمرض ، وشرح الكتب الدراسية للأعراض المتباينة التى تظهر فى الحالات المختلفة ، وبعد ذلك كله يفحصون ويعالجون عشرات الحالات فى المستشفى . وهم حين يبدأون فى ممارسة المهنة لا بد أن يكونوا ملمين إلماماً تاماً بأعراض الالتهاب الرئوى أو التهابات الأذن أو التهاب الزائدة الدودية ، فى كل مظاهرها المألوفة ، ومن عشرات الزوايا المختلفة . وحتى بعد أن يبلغ الأطباء هذه المرحلة ، فإنهم يحسون عادة أن فراستهم تخونهم حين يحاولون تشخيص الأمراض وعلاجها فى أفراد أسرهم ، حتى إن جميعهم تقريباً يلجأون إلى غيرهم من الأطباء كى يقدموا لهم هذه المساعدة .

كيف يمكن إذن أن نتوقع من الأمهات اللائى لم يمارسن أى نوع من التدريب أن يبلغن شأواً بعيداً فى تحديد ما هو الخطير وما ليس بالخطير من الأمراض ؟

ومن الضرورى استدعاء الطبيب فى حالات التواء المفاصل التى تحدث ورماً أو ألماً مستمراً أو عجزاً عن استعمال العضو المصاب ، لأن هذه الحالات تتطلب مهارة طبية ، وأحياناً ما تحتاج إلى الفحص بأشعة إكس للتأكد من عدم حدوث كسر بالعظام . وينبغى أيضاً استشارة الطبيب بشأن الإصابات التى تحدث فى الرأس ، إذا صحبتها غيبوبة قصيرة المدى وميل إلى النعاس وقىء وصداع أو شحوب مستمر فى الوجه .

عندما يبتلع الطفل الصغير ، أو يشتبه فى أنه قد ابتلع ، مادة يحتمل أن تكون سامة — هناك عشرات من هذه الحالات فى كل البيوت فى هذه الأيام — فإن من الأسلم أن تستدعى طبيبك (بعد أن تحاولى بقوة ولفترة وجيزة أن تحملى الطفل على التقيؤ بأن تحركى إصبعك حركة دائرية فى مؤخرة حلقه) . وإذا لم يتسن لك الاتصال بالطبيب على الفور ، فإن هناك وسائل أخرى عديدة لعلاج

الموقف بدلا من ذلك ؛ منها أن كثيراً من المدن الكبرى بها الآن مراكز للاستعلامات بشأن السموم ، حيث يمكنك أن تحصلى على الاستشارة . ابحثى الآن عن رقم تليفون المركز ، وسجليه عندك فى مكان يكون فى متناول يدك . وإذا كنت تسكنين على مقربة من أحد المستشفيات فيمكنك أن تسارعى بالطفل إلى هناك . أما إذا كان بيتك بعيداً عن المستشفى ، فعليك فى هذه الحالة أن تطلبى من سكرتيرة طبيبك أو من عامل التليفون أن يجد لك طبيباً آخر على جناح السرعة ، أو اتصلى أنت بالمستشفى بنفسك .

إن معظم الجروح التى تصيب الأطفال عادة ما تكون كدمات وخدوشاً ثانوية ، تحس الأمهات من واقع تجاربهن أنها لا تدعو إلى القلق . وعندما يكشط الجلد أو يجرح جرحاً طفيفاً ، فإن غسل مكان الجرح بالماء والصابون هو أقرب الإسعافات إلى متناول اليد . أما إذا كان جرحاً حقيقياً مفتوحاً — لا سيما فى الوجه حيث يحتمل أن يخلف ندبة — أو إذا كان جرحاً وخزياً ، فإن الطبيب هو الذى ينبغى أن يقرر ما إذا كان من الضرورى خياطة الجرح أو حقن الطفل بالمصل المضاد لمرض التيتانوس .

إنى أعرف جيداً مدى ما يقدمه الآباء والأمهات من اعتذارات حين يستدعون الطبيب ، لاسيما إذا كانوا هم أنفسهم يشكون فى جدية المرض . لكننى أعتقد أنهم يجب أن يحاولوا قدر طاقاتهم التغلب على هذا الارتباك عند دعوة الطبيب . فحتى لو أحسوا بأنها قد تكون دعوة سخيفة ليس لها ما يبررها ، فإنه ينبغى لهم أن يستدعوه لفحص المريض على أية حال . وإلا فلست أرى داعياً لأن يكون للأسرة طبيب يعالجها . إن الطبيب لا يضيق عادة بدعوة سخيفة كما تتخيل الأم . ومع ذلك فحتى لو كانت الأم واثقة بأن الطبيب سيتكدر من هذه الدعوة ، فإن من واجبها أن تدعوه مهما يكن الأمر ، إذا ساورها القلق على طفلها . فمن البديهى أن صحة الطفل أهم من مشاعر الطبيب أو أحاسيس الأم .

معالجة الطفل فى فترة النقاهة

« من الممكن أن تتعاطفى معه
دون أن تعذبى نفسك »

إن الاحتفاظ بالطفل فى حالة من الرضا ، وتجنب الأم الشعور بالضيق والغيظ ، هما المشكلتان اللتان غالباً ما تواجههما الأمهات فى أثناء فترة النقاهة من المرض . ومن الجائز أن هنــاك أسباباً نفسية وجسمانية تؤدى إلى حالة العبوس والتبرم والمغالاة فى المطالب التى تلازم هذه الفترة فى الغالب .

فقد أدركنا من التحليل النفسى للأطفال الصغار أنهم كثيراً ما يفسرون إصابتهم بالمرض ، أو إجراء عملية لهم ، على أنها نوع من العقاب لحق بهم لأنهم اقترفوا عملا سيئاً ، أو لأنهم قد راودتهم أفكار عدائية نحو أحد أفراد الأسرة ؛ ذلك أن الطفل يحس بالذنب إذا ساورته فكرة شريرة مثلما يحس به إذا أقدم على عمل شرير ، فهو يظن أن فكرته الشريرة يمكن بطريقة سحرية أن تسبب ضرراً حقيقياً . والواقع أن غالبية الأطفال الكبار والراشدين يحملون فى أعماقهم — لا شعورياً — من أيام الطفولة ، شيئاً من هــذا الإيمان بالسحر الأسود ، ويؤمنون بخرافات شتى يدرأون بها خطر الأفكار السوداء .

فالأم تمسك الخشب عند ما تقول : إن طفلها لم يمرض طوال هذا الشتاء . ونحن الآباء غالباً ما نوحى للأطفال بأن الأمراض تنشأ من الشقاوة . فنقول للطفل : « لو أنك ارتديت سترتك الجلدية كما قلت لك ، لما أصبت بالبرد » . أو نقول له . « إن شجارك مع إخوتك قد سبب صداعاً لأمك » .

إن الطفل فى أثناء مرضه قد يخالجه شىء من الخوف من عامل العقاب ،

ومن أعراض المرض ، ومن خطر المرض ذاته ، وهذا الخوف الأخير من خطر المرض قد يسرى إليه من أمه ، التى تظهر أمارات الخوف على وجهها وهى تقرأ «الترمومتر» ، وتبدو فى نبرات صوتها وهى تتحدث تليفونياً إلى الطبيب ، وتتجلى فى قلقها وجزعها أثناء عنايتها بالطفل. على أنه عندما تنقضى شدة المرض ، فإن الطفل يبدأ فى استرداد قوته ، وهذه هى الفترة التى يحتمل أن يصبح فيها صعب المراس . فمن بين مظاهر رد الفعل عند الإنسان بعد انقضاء حالة الخوف ، أن يثور ثورة عارمة على الشخص الذى تسبب فى هذا الخوف . وهذه الظاهرة هى التى كثيراً ما تبدو واضحة فى ثورة الأم على طفلها الذى أوشك أن يسقط من النافذة ، أو كادت تدهمه سيارة فى الطريق بسبب رعونته . وما دام الطفل الصغير يميل إلى اعتبار المرض نوعاً من العقاب ، وما دام يعتقد أن الأم هى التى تعاقبه فى العادة ، فإنه من المحتمل أن يعتبرها — لا شعورياً — مسئولة إلى حد ما عن مرضه . كما أنه قد يلقى عليها اللوم لأنها لم تدفع عنه الأشياء الأليمة التى اضطر الطبيب إلى القيام بها أثناء علاجه . والأم العادية غالباً ما تعزز اعتقاده بأنها مسئولة نوعاً ما عن مرضه ، بما تبديه من اهتمام يفوق المعتاد ، ومن استعداد لإرضاء نزواته ، وتحمل لمضايقاته . وما من شك أن من بين أسباب مسلكها هذا ، هو أنها قد تتوهم أن الطفل قد اعتراه المرض أو أصيب فى حادث بسبب بعض الإهمال البسيط من جانبها . ومع أن الطبيب لا يوافقها عادة على هذا الرأى ، فإن هذه هى طبيعة تكوين الأم الطيبة .

إذا اعتقد الطفل أن أمه قد جلبت له المرض كنوع من العقاب ، واعتقدت الأم أنها قد تسببت فى مرضه بإهمالها ، فإن فى إمكانك أن ترى أن هاتين الفكرتين الخاطئتين تعزز إحداهما الأخرى . لكن الطفل ما إن يبدأ فى الشفاء من المرض حتى يزداد إحساسه براحة الضمير . فقد كفر عن خطاياه —

حقيقية كانت أو وهمية — وها هو ذا يرى أنه ما زال يتدفق بالحياة . على حين أن أى شعور بالذنب عند الأم ، لا يتلاشى منها بهذه السرعة ؛ ذلك لأنها تدرك أن المرض لم ينته بعد تماماً . وهذه هى الظروف التى يمكن أن توجد فيها حالة من عدم الاتزان النفسى تستمر بضعة أيام . وعلى قدر ما تبدى الأم من شعور بالذنب فى سلوكها مع الطفل — بمعنى الخضوع له خضوعا مطلقا والسماح له بالطغيان عليها — فإن هذا السلوك منها يشجعه على توجيه اللوم إليها وإيقاع العقاب بها .

ربما تبادر إلى أذهانكن أنى أنظر إلى الأمور نظرة سوداء أكثر من اللازم . لكنى لا أعنى بحديثى هذا أنه إذا وجدت مشاعر اللوم والإحساس بالذنب ، فلا بد بالضرورة أن تكون حادة وشديدة الوطأة . فهناك بطبيعة الحال حالات عديدة من المرض نظل فيها الأمهات محتفظات بطابعهن الواقعى العملى ، ويظل الأطفال محتفظين بطبيعتهم اللطيفة العذبة . إنى أعرض عليكن فقط احتمال وجود هذه العوامل النفسية ، كى تتأملها الأمهات اللائى يعانين المتاعب دائماً فى فترة نقاهة الأطفال من المرض .

* * *

من الحكمة أن تذكر الأم نفسها فى أثناء مرض أو إصابة طفلها أن من أيسر الأمور عليها أن تلقى اللوم على نفسها ، وبذلك يمكنها أن تحذر الخضوع والاستسلام له . وهى تستطيع أن تسأل طفلها عن أعراض مرضه فى لهجة واقعية عملية كالتى يستخدمها الطبيب فى حديثه ، دون أن تكرر عليه السؤال أكثر من اللازم . ولا أعنى بذلك أنه ينبغى لها أن تظهر أمامه بمظهر الشدة وعدم الاكتراث ، فمن الممكن أن تظهرى له العطف وتشاركيه فى مشاعره دون أن تحملى نفسك وطأة الضيق والألم .

وعندما يبدأ الطفل فى إظهار شىء من السيطرة والأمر والنهى فى مطالبه ، فإن فى وسع الأم أن توقفه عند حده بأن تذكره فى حزم أنها لا تحب أن يخاطبها بهذه اللهجة ، وأن لديها الكثير من الأعمال الأخرى التى ينبغى أداؤها . وإذا أظهر لها اشمئزازه من شراب قد طلبه بنفسه قبل فترة وجيزة ، فإنها تستطيع أن تقترح عليه أن يحاول تذوقه قدر إمكانه ، ريثما يحين الوقت الملائم لأن تعد له شيئاً آخر .

أما إذا شرع فى التسلق « الشعبطة » للخروج من الفراش مخالفاً بذلك أوامر الطبيب ، أو بدأ يمتطى جوانب السرير ، فإن من الأفضل فى هذه الحالة أن تتشدد الأم فى أوامرها وتظهر له سيطرتها بنفس الأسلوب الذى تتبعه معه ، وهو متمتع بكامل صحته ، بدلا من أن تغالى فى التشبث بأهداب الصبر ، أو تظل تحذره فى قلق من احتمال تدهور حالة مرضه . فهذا التحذير يعطى الطفل فرصة الاختيار بين إطاعة الأوامر أو تحمل العواقب ، لذا فهو دائماً أضعف أثراً من الأمر الحاسم القاطع .

من النواحى العملية فى هذا المجال ، تحديد مدى الوقت الذى تستطيع الأم أن تقضيه مع الطفل المريض . فهى تود أن تخصص له على الأقل بعض فترات وجيزة فى أثناء اليوم ، تستطيع أن تجالسه فيها ، حتى ولو كانت مثقلة بالعمل فى البيت . فالأطفال — شأنهم شأن البالغين — إذا تركوا بمفردهم فى أثناء المرض لا يعانون من الملل فحسب ، بل إنهم لا يتمالكون أنفسهم فى هذه الفترة من الشعور بالاعتماد على الأم أكثر من المعتاد . وما زلت أذكر حتى الآن مدى سرورى حين كانت أمى تأتى إلى المستشفى وتجلس معى فى غرفتى وتعطينى رشفات من الماء بعد عملية « استئصال اللوز » التى أجريت لى فى العشرين من عمرى .

وإذا بدأ الطفل يطالب أمه بأن تمنحه من وقتها واهتمامها أكثر مما تستطيع أن تمنحه ، فقد يكون من الأفكار الصائبة فى هذه الحالة أن تضع له جدولا قاطعاً تحدد فيه متى يمكنها أن تزوره فى حجرته ومتى يتعذر عليها ذلك . لكن الأهم من عدد الدقائق التى تحددها لزيارته ، هو نبرات صوتها حين تعان له جدول المواعيد ، أو حين يحاول الطفل فيما بعد أن يحملها على المجىء إليه فى غير المواعيد المحددة .

عندما تتنازع الأم مشاعرها المتباينة بشأن إجابة الطفل إلى مطالب ما ، فهى لا تريد أن تسلم له فى هذا المطلب الذى يبدو غير مناسب أو معقول فى نظرها ، لكنها فى نفس الوقت تسائل نفسها — تحت وطأة الشعور بالذنب : هل من الجائز أن تجيبه إليه ؟ فى هذه الحالة قد يظهر ترددها فى نبرات صوتها المترددة أو المتذمرة أو الغاضبة حين تقول له : « لا » . وفى التو يكتشف الطفل أنها ليست واثقة بالأرض التى تقف عليها فيشرع فى العمل على تحطيم مقاومتها ، عن طريق توسلاته المتكررة ، وحديثه عن أعراض جديدة يحسها ، ورثائه لنفسه فى وصفه لحالته ، بل ودموعه الماكرة أيضاً . لذلك يجب على الأم أن تبدى له تصميمها القاطع فى لهجة واثقة مرحة .

* * *

ولننتقل الآن إلى بعض المقترحات العملية البارعة التى بعثت بها إلى إحدى الأمهات .

بدأت السيدة الخطاب بقولها : « ما إن تتنهد الأم حمداً لله حين تعلم أن طفلها فى طريقه إلى الشفاء حتى تواجهها عبارتان : « احمليه على البقاء هادئاً فى الفراش لمدة يومين آخرين » ثم « ماذا سأفعل الآن يا ماما ؟ » فالطفل لا يلبث أن

يزهد فى مشاهدة التليفزيون والرسم بالطباشير الملون وألعاب التسلية المنزلية، ويريد منك أن تقرئى له قصصاً، أو أن تقصى له من جديد كل الحكايات التى تدور حول أيام طفولتك. غير أن قراءة كتب الأطفال المسلسلة، لا سيما الفكاهية منها، تحدث بالنسبة إلىَّ نفس الأثر الذى يحدثه المورفين، إذ تجعلنى أستغرق فى نوم عميق. لا مناص إذن من التفكير فى حلول أخرى:

« غيرى له الفراش دائماً. دعيه يمكث فترة فى فراشه، ثم ينتقل إلى الأريكة بعد أن تحوليها إلى فراش. ثم يعود ثانية إلى فراشه الأصلى. إن تغيير المنظر يبعث الراحة فى نفسه، ويجعل اللعب القديمة تبدو فى نظره أكثر إثارة وتسلية ».

« أعطيه جرساً يستعمله حين يناديك. فذلك يخفف من حدة الإغراء الذى يدفعه إلى القفز من الفراش بحثاً عنك. كما أنك تستطيعين سماع صوت الجرس عادة، لأنه أعلى من صوت المكنسة الكهربية أو الماء الجارى ».

« أعطيه الصندوق الذى يحتوى على زينات عيد ميلاده، مهما كان الوقت من السنة، فسوف يجد متعة فى تأمل كل قطعة منها على حدة، ويمتلىء رأسه بالأفكار السعيدة التى تدور حول هذا العيد وربما صنع لك بضع قطع جديدة تضاف إلى مجموعة الزينات ».

«عند ما كنا نتأهب للسفر فى إحدى الإجازات، نشأت مشكلة معينة بخصوص زينات العيد، إذ كان من الضرورى أن تكون هذه الزينات مسطحة وغير قابلة للكسر حتى يمكن وضعها فى الحقائب. لكنى عثرت على الحل. توجد على أغلفة الكتب الفكاهية التى يحبها الأطفال، رسوم كبيرة الحجم للقطة والثعلب والغراب والبطة وغيرها من الحيوانات الصديقة. فنقلت بعضها (مستخدمة ورق الكربون) على قطع من الورق المقوى الأبيض التى نأتى لنا

فى داخل القمصان عندما يرسلها إلينا محل الغسل والكى . ثم لوّن طفلى هذه الصور وقصها بالمقص ، واحتفظ بها فى عناية لتعليقها فى عيد الميلاد . لقد أحرزت هذه الزينات نجاحاً هائلا . أما الطفل الصغير ، فيمكنك أن تقصى له دوائر ومربعات ونجوماً كبيرة من الورق المقوى . وهذه أيضاً تبدو جميلة ، كما أنها تمنح الطفل متعة إعدادها بنفسه .

«أعطِى الطفل كومة من المجلات القديمة ، لا لمجرد التفرج عليها ، بل لتنفيذ مشروع محدد تهدفين إليه . ذلك أن فى وسعه أن « يُشيِّد » بيتاً أو مستشفى من هذه المجلات . فمن أجل بناء المستشفى ، عليه أن يفحص المجلات فحصاً دقيقاً ، ويقص منها كل صور الممرضات والأطباء والأطفال والأدوية والأزهار والأسرة والساعات أو أى شىء آخر يجب أن يكون عنده فى مستشفاه . وعند ما يفرغ من جمع كومة من الصور ، عليك أن تشبكيها بالدبابيس فى ساتر «باراڤان» قديم أو على (ستارة) بالقرب من فراشه . إذا كان الطفل غلاماً ، فإنه يستطيع أن يمثل دور كبير الأطباء ، يصدر أوامره من (مكتبه) على الوسادة . أما البنت فيمكنها أن تمثل دور كبيرة الممرضات ، وتتبع نفس خطوات اللعبة فى حالة بناء بيت ، سوى أن على الطفل فى هذه الحالة أن يبحث فى المجلات عن صور لحجرة الجلوس وحجرة النوم وصنوف الطعام والسيارات وما إلى ذلك ، كما أنه يستطيع أيضاً بناء حظيرة للسيارة (جراج) » .

« علبة الأزرار ! هناك أشياء عديدة يمكن صنعها بالأزرار ، لكنك يجب أن تراقبى الطفل جيداً أثناء لعبه بها ، إن كان صغير السن بحيث يحتمل أن يضعها فى فمه . من الممكن أن تصنف الأزرار كل نوع على حدة ، وتوضع فى أقداح حسب درجة بريقها التى تجعلها شبيهة بالمجوهرات ، أو حسب لونها ، أو شكلها . يمكن أيضاً أن يحركها الطفل بالملعقة ويقدمها كطعام فى الأطباق الصغيرة التى

يلعب بها الأطفال (من الأشياء المسـاية للطفل أن يستخدم المغرفة فى تقديم الأزرار) . ومن الممكن أيضاً أن ينظم الأزرار فى عقد كبير أو يكوّن منها نماذج على المنضدة التى بجوار فراشه . هل يوجد عندك شريط عريض من « الأستك » كالذى يمكن أن يتبقى من منامة (بيچامة) بالية ؟ يستطيع الطفل أن يخيط الأزرار أو يشبكها بالدبابيس الإنجليزى فى هـذا الشريط ، ليصنع منها حزاماً وهمياً .

« كما أن من الممكن أن تستخدم الأزرار بمثابة « نقود » لتسجيل النقط الرابحة فى لعبة من ألعاب التسلية المنزلية ، أو توضع فى صندوق من الصفيح ، فتصبح آلة موسيقية تصدر إيقاعاً جميلا عندما يهزها الطفل مع أنغام أسطوانة تدار على الحاكى .

« هل عندك علبة للحلى القديمة المستهلـكة ، تلقين فيها بحلى فصل الصيف التى لن تعودى إلى ارتدائها مطلقاً ، وكذلك « فرد » الأقراط بعد أن تيأسى من العثور يوماً على « الفرد » المفقودة التى توائمها ؟ يمكنك أن تعطيه هذه العلبة أو تعطيه علبة حليك اليومية بعد أن ترفعى منها كل شىء له قيمته . لقد أمضى طفلى ساعات طوالا يتفحص الحلى قطعة قطعة ويدقق النظر فى الأشياء المعلقة فى القلادات . وفى آخر الأمر أصبح إمبراطور زمانه ، بأن ارتدى الحلى كلها دفعة واحدة ، ولبس سترة النوم الخاصة بى ، ثم توج رأسه بتاج من الألومنيوم . ورغم أن هذه الفـكرة قد لا تبدو بعيدة الأثر ، فقد أتاحت لى أن أنعم بساعات من الهدوء وراحة البال .

« علبة الفضيات ! رغم أنى لم أدرك قط السبب فى ذلك على وجه الدقة ، فإن إخراج الأدوات الفضية من العلبة ثم إعادتها إليها ، من الأشـياء المسلية للأطفال .

« أعطيه صندوق الصور القديمة ، أو دفاتر حفظ الصور « الألبومات » . أو الكراسات التى تلصق فيها قصاصات الصحف . إن الطفل يجد متعة فى مشاهدة الصور ، لا سيما الصور الخاصة به ، لذلك يمتعه ويسليه الألبوم الذى يضم صور طفولته المبكرة . يجب أن تكونى مستعدة أيضاً لأن تريه إحدى صورك الجميلة فى أيام شبابك ، فيقول لك : « من هذه الفتاة ؟ أهى أنت ؟ إنها لاتشبهك ! » .

« وإذا كانت إحدى إجازات الأعياد وشيكة ، فهناك بطاقات المعايدة يمكن أن يعدها الطفل ، مثل بطاقات عيد الميـــلاد ، أو عيد الأم ، أو عيد القيامة ، أو عيد الربيع ، أو أى نوع آخر من بطاقات المعايدة . فنحن دائماً فى انتظار عيد أو آخر من هذه الأعياد من الممكن أن تكون هذه البطاقات مزينة بالزخارف أو مجرد صور مناسبة على رقعة كبيرة من الورق : صورة بيضة كبيرة الحجم فى عيد القيـــامة على سبيل المثال . المهم أن ننظر إلى هذه البطاقات على أنها شىء له قيمته ، ونرسلها فعلا بالبريد إلى الأشخاص الذين يدرجهم الطفل فى قائمة من يرغب فى معايدتهم . هناك أيضاً « صناعة الدانتلا » وهى من الألعاب القديمة التى يحبها الأطفال ؛ إذ يأخذ الطفل رقعة من الورق العادى الأبيض يطويها بضع مرات ثم يقص منها شرائح وأنصاف دوائر ، فإذا ما فتحها وجد «ورق الدانتلا المزركش» ، ثم تساعدينه على لصقه بالورق الملون .

« ها هو ذا تعاطى الدواء قد أصبح الآن مهمة مزعجة تبعث على الضيق . فقد استرد الطفل عافيته إلى الحد الذى يتيح له المقاومة والتهديد بأنه سيتقيأ الدواء كما أنه لم يعد يرغب فى تناول السوائل ، فى حين أن الطبيب يطالب إليك أن تحمليه على ابتلاعها . لقد ساعدنى مساعدة طيبة فى هذا السبيل ، إنى ارتديت قبعة من الورق كالتى ترتديها الممرضات كى أغريه بتناول الدواء .

« أما الفكرتان التاليتان فقد تمخضت عنهما قريحة طفلى ، أى إنهما من ابتكار

صاحب الشأن نفسه . الفكرة الأولى هى بناء مسرح مصغر . وقد استخدم فى بنائه صندوقاً من الورق المقوى بمثابة خشبة للمسرح ، غطاها بقطعة قديمة من القماش حسنة المظهر إلى درجة معقولة . ثم نسق المناظر فى الصندوق ، مستخدماً قطعاً دقيقة الحجم من الأثاث البلاستيك مع بعض المكعبات الخشبية وزينات عيد الميلاد أو بعض اللعب . وكان الممثلون هم الدمى الدقيقة والتماثيل الصغيرة المضحكة التى يشتريها من « محلات ألف صنف » وقد أدار إحدى أسطواناته لتكون بمثابة « المؤثرات الصوتية » ، مفترضاً أن الدمى يقمن بالتمثيل أو الغناء . كما أنه استخدم آلة السينما الملونة التى عندنا لتلقى ضوءاً كاشفاً يساطه على المسرح . غير أن ضوء البطارية الكاشفة قد يؤدى نفس الغرض تماماً ، أو حتى ضوء أى مصباح كهربى يصوب إلى خشبة المسرح » .

« أما الفكرة الثانية فهى تعتمد أيضاً على استخدام صناديق الورق المقوى والصور التى يقصها الطفل من المجلات . فهو يستطيع أن يلصق الصور بداخل صندوق كبير ، يضعه أمامه بحيث يكون الجانب المفتوح منه مواجهاً له ، بذلك تصبح عنده ثلاثة جدران وأرضية وسقف لبيت يشيده بنفسه ، ويستطيع أيضاً أن يضع صندوقاً آخر فوق الصندوق الأول على أنه الدور العلوى من البيت » .

« وإذا ألصق الطفل بعض صور السيارات بداخل الصندوق ، فإن فى إمكانه أن يستغل السيارات للعب أيضاً ، فيدخلها إلى هذه الحظيرة « الجاراج » ويخرجها منها . أما إذا كان المفروض أن يكون هذا الصندوق بيتاً للسكنى ، فيمكن عندئذ أن يعيش فيه بعض « الناس » وتضاف إليهم بضع قطع صغيرة من الأثاث . وفى هذه الحالة يستطيع الطفل أن يلصق صوراً للسجاجيد أو النوافذ على جوانب الصندوق » .

« كما أن صندوق السيجار حين يملأ بالدمى الدقيقة يصبح لعبة رائعة فى حالة الصحة والمرض على السواء . فهذه الدمى صغيرة الحجم بحيث تصلح للركوب فى عربات البضاعة (اللعب) ، وللسكنى فى المبانى المصنوعة من المكعبات الخشبية أو الورق المقوى ، فضلا عن أن ثمنها زهيد للغاية . كما أن هذه الدمى تستطيع أن تسير فى استعراضات طويلة ، وأن تقوم بمغامرات مثيرة فى الطائرات أو عربات الحريق ، وأن تركب فى بعض عربات القطار الكهربى (العربة المعلقة ، العربة القلابة ، العربة القافزة ، عربة التبريد ، أو عربة الخيل إن كان لها باب ينزلق على قضبان) . ويمكن أيضاً أن نثبت هذه الدمى فوق سطح القاطرة أو عربة الركاب بشريط من السيليولوز » .

« لقد تسلينا كثيراً — أنا وطفلى — بمشاهدة بعض المغامرات العنيفة التى قامت بها دمية دقيقة من المطاط تسمى « لوسى » . كانت « لوسى » تركب الطائرات بمفردها ، وتقفز من فوق المبانى الشاهقة ، وتقود القطارات بسرعة جنونية ، وتقوم فى الواقع بكل الحركات التى تروق للطفل . وعندما سألته عن رأى والدى « لوسى » فى تجاربها المثيرة ، صرح لى بأن « لوسى » ليس لها والدان ، لذا فإنه من المباح لها أن تأكل ما يروق لها من الطعام ، ولا تذهب للنوم على الإطلاق . فأدركت أن هذه الدمية تتمثل فيها أحلام ابنى فى التمتع بالحرية . وأظن أنه ينفس عن نفسه بهذه الوسيلة فى كثير من حالات الكبت والإحباط » .

« إن لم يعجبك أو يعجب طفلك شىء من هذه المقترحات ، فما عليك إلا أن تذكرى كيف أنه من الأفضل كثيراً للمرأة أن تكون أماً فى عصر المضادات الحيوية ! كيف كان من الممكن فى الماضى أن تعالج الأم التهابات الأذن

عند طفلها ، أثناء سفرها فى عربة مغلقة تجرها الجياد[1] ؟ لقد أصبح لدينا الكثير مما ينبغى أن نشكر الله عليه » .

* * *

إنى أحسد هذه الأم على خيالها الخصب ؛ ذلك لأنى لم أستطع يوماً أن أنمق قصة عن أيام طفولتى لأجعل منها شيئاً جديراً بالرواية ، كما أنى لا أستطيع أن أتخيل مجالات أخرى لنشاط الطفل عدا تلك المجالات التى أذكر أنى كنت مغرماً بها فى طفولتى . فالأولاد مثلا يمكنهم قضاء ساعات طوال فى اللعب بمجموعة من السيارات المصغرة . وهناك عشرات من هذه السيارات التى تخلب لب الأطفال بتركيبها المستمد من الواقع ، يمكن شراؤها من أى محل كبير من محال لعب الأطفال . ويمكنك أن تجدى فى هذه المحال أحياناً ، قطارات دقيقة الحجم (بغير محركات أو قضبان) يمكن دفعها فوق مسطحات صغيرة .

وعندما اضطر أحد أبنائى إلى ملازمة الفراش لمدة شهر كامل ، كان مما يبعث السعادة فى نفسه أن يلعب بوعاء متسع ملىء بالمـــاء ، يضعه على أرض الحجرة وينسق فيه أحواض السفن ، ثم يعوّم فيـــه السفن اللعب التى كنت أشتريها له أو أصنعها من خشب « البلسا » الخفيف ثم أطليها بالألوان التى تطلى بها نماذج الطائرات . ومن الممكن أيضاً فى هذه الأيام شراء تشكيلات لا نهاية لها من معدات التركيب التى يركب الأطفال أجزاءها المفككة ، ليصنعوا منها نماذج الطائرات والقطارات والسفن والسيارات والمناظر الطبيعية ، ابتداء من النماذج البسيطة التى لا تتطلب جهداً من الطفل ابن السادسة سوى أن يلصق أجزاءها معاً بالغراء ، حتى النماذج المعقدة التى يظل المراهق مشغولا فى تركيب أجزائها لمدة أسبوع كامل .

---

(١) فى القرن التاسع عشر كان المسافرون يقطعون مسافات شاسعة فى هذه العربات ، أثناء سفرهم عبر البرارى الأمريكية .

وهناك أيضاً للأولاد والبنات معدات للتطريز والخياطة ، ونظم الخرز فى عقود ، ونسج السلال وحمالات الأوانى ، وصناعة الجلود ، وقص العرائس من الورق . ومجموعات التركيب ذات الأجزاء الخشبية أو المعدنية ، عادة ما تتوافر فيها عشرات الإمكانيات لتكوين نماذج شتى غير التى يحتوى عليها كتاب الإرشادات المرفق معها . فالصبى يريد دائماً أن يخرج من نطاق النماذج المحددة له إلى تكوين نماذجه الخاصة ، كما أنه من الممكن أن نحيى فى البنت الرغبة فى اللعب بالعرائس ، بأن نضيف بضع قطع بسيطة إلى معدات التركيب .

غير أن المشكلة الرئيسية فيما يختص بمعدات التركيب الجاهزة هى أنها إذا كانت أعلى من مستوى قدرات الطفل ، ولا يستطيع أن يكيفها بحيث تتلاءم مع مستواه ، فإن ذلك لن يلبث أن يثبط من عزمه . لذا كان جديراً بنا أن نذكر دائماً أنه ليس من الضرورى أن نشترى اللعب الجديدة من المحال ؛ ذلك لأن عملية الخلق والإبداع تبعث الرضا فى نفس الطفل (وتستغرق وقته أيضاً) أكثر من اللعب الفعلى بشىء ما بعد الانتهاء من صنعه . وهذا هو السبب فى أن فراش الدمية الذى تصنعه الطفلة من صندوق للأحذية وتجهزه بالملاءات والبطاطين التى قصتها بنفسها من قطع القماش البالية ، يخلب لبها ويستهويها أكثر من أروع اللعب الجاهزة المشتراة من السوق . كما أن مجموعة طيبة من قطع البناء الخشبية يمكن أن تتحدى قدرة الغلام فى الفترة ما بين سن الثانية والثامنة ، فتدفعه دائماً إلى مزيد من الإتقان فى خلق النماذج الجديدة . أما إذا تعذر على الطفل أن يخلق شيئاً جديداً ، فإن المتعة التالية التى يؤثرها على غيرها ، هى أن يطور لعبة قديمة كى تحقق هدفاً جديداً . وهذا هو السبب فى أنه يرغب أحياناً فى انتزاع سقف عربة الركاب الصفيح من قطاره الكهربى ، كى يجعل العربة صالحة لحمل بضاعة حقيقية ، مما يكدر أباه أشد الكدر .

وأضيف أن المنضدة الخاصة بالمريض التى تمتد فوق الفراش ، من الوسائل السليمة التى يمكن أن تستغلها المائلة ليلعب عليها الطفل فى أثناء مرضه .

ليس من الضرورى أن تعودى بالذاكرة بعيداً إلى أيام العربات المغلقة التى تجرها الجياد ، لتدركى إلى أى مدى قد قصرت فترة النقاهة فى أيامنا هذه وأصبحت أهون كثيراً من ذى قبل ، فنحن منذ فترة لا تزيد على خمسة وعشرين سنة ، كنا نضطر إلى الانتظار أياماً وأياماً على أمل أن تخف حدة المرض فى حالة الالتهاب الرئوى . وكان الطفل المصاب بالحمى القرمزية — حتى ولو كانت خفيفة الوطأة — يضطر للمكوث فى الفراش ثلاثة أو أربعة أسابيع لأسباب قوية لا تحتمل الجدل . وكانت « الحمى الروماتيزمية » تحتاج إلى الراحة فى الفراش شهوراً عديدة . أما التهابات الأذن التى يمكن الآن عادة أن نوقفها عند حدها فى خلال يومين ، فقد كانت تعالج بالمشرط فى العادة ، ثم يشبك الطبيب والوالدان أصابعهم ، ويضرعون لله أن تتوقف الإفرازات قبل انقضاء أيام عديدة ، حتى لا يمتد الالتهاب إلى عظمة النتوء الحلمى .

لم تكن فترة النقاهة طويلة الأمد فحسب ، بل كانت عذاباً أليماً .

الطبيب يفحص طفلك

« إن كفاية الطبيب تتوقف
على توازن قـــدراته »

كتبت إلىّ إحدى الأمهات قائلة : إنها لا تحس بالرضا عن الطريقة السريعة التي يجرى بهـا الفحص الجسمانى على طفلها فى زياراتها الدورية للطبيب . وهى تريد أن تعرف « ما هى مقومات الفحص الجسمانى السليم ؟ » .

من الرعونة أن يحاول أحد الأطباء شرح أساليب مهنة الطب ، فى حين أن هناك ٢٠٠٫٠٠٠ من الأطبـاء الممارسين فى البلاد ، يؤمن كل واحد منهم بآراء تختلف بعض الشيء عن آراء الآخرين بشأن كل ناحيـة من نواحى المهنة . ومع ذلك فلنحاول أن نشرح هذا الموضوع .

أحب أن أوضح أولا أن الفحص الجسمانى لا يعدو أن يكون جانباً واحداً من العملية التى يقوّم بها الطبيب حالة الفرد . أما الجوانب الأخرى فهى بطبيعة الحال تاريخ المرض (الذى يرويه المريض أو الأم) والفحوص المعملية إن وجد شيء منها . ومن الصواب فى اعتقادى أن نقول إننا فى أكثر الزيارات الطبية — لاسيما حالات الفحص الدورى — نجد أن تاريخ المريض من حيث إحساسه العام بالمرض ومدى أداء جسمه لمهمته ، يكشف لنـــا عن حقائق بشأن حالته أكثر مما يكشفه الفحص الجسمانى . ونحن حين نفحص الأطفال الصغار يجب أن نفكر فى النواحى التى تنال أكبر قسط من اهتمام الأم والطبيب فى مرحلة الطفولة المبكرة : نوع الغذاء الذى يقدم للطفل ومدى تقبله له ، مدى الزيادة فى وزنه أو مقاساته الأخرى ، مدى تقدمه فى القدرات الآلية (قيادة الدراجة) ،

مدى تجاوبه مع المجتمع ، مدى قيام أمعائه بمهمتها ، التدريب على استعمال دورة المياه ، النوم ، مدى شعوره بالرضا بالمقارنة مع فترات الصراخ والبكاء ، إصابته بالعدوى فى الجهاز التنفسى أو غيره من أجهزة الجسم ، حالة الجلد ، أثر الطفل فى غيره من أفراد الأسرة . على حين أن الفحص الجسمانى لا يحتمل أن يلقى كثيراً من الضوء إلا على ثلاثة فقط من هذه الموضوعات الأحد عشر التى ذكرناها .

أما فى حالة الطفل الأكبر سناً الذى يأتى إلى عيادة الطبيب فى زيارة للفحص الدورى ، فإن الغذاء والنمو والنوم والعدوى تظل من الموضوعات التى يهتم بها الطبيب . وبالإضافة إليها ينبغى أن يسأل الطبيب عن مدى تكييف الطفل مع إخوته وأبويه وأصدقائه ومدرسته ومع نفسه أيضاً . وفى هذه الحالة كذلك لا يساعد الفحص الجسمانى فى الكشف عن هذه النواحى ، إلا فيما يتصل بالنمو والعدوى .

وحتى فيما يتصل بالنمو والعدوى ، فإن تاريخ حياة الطفل لا يقل أهمية عن الفحص الجسمانى فى الوصول إلى نتائج سليمة . فنحافة الطفل أو سمنته التى يكشف عنها الفحص الجسمانى فى يوم بالذات ، لا تعطينا بصيصاً من النور يوضح دلالتها ، ما لم نعرف تطورات وزنه وتكيفه مع البيئة فى الماضى . ولنأخذ مثالين لتوضيح هذه النقطة : هناك طفل يميل إلى النحافة والحساسية المفرطة منذ طفولته المبكرة ، وقد ظهر من اللوحة البيانية أن وزنه فى عدة زيارات قام بها للطبيب ظل قريباً من الخط العشرى ، أى إن عشرة فى المائة من الأطفال الذين هم فى مثل سنه يزنون أقل منه ، على حين أن تسعين فى المائة منهم يزنون أكثر منه . ثم اتضح من فحص اليوم أن وزنه قد زاد أكثر من المعتاد فى خلال الستة الأشهر التى انقضت منذ الفحص الماضى ، فأصبح وزنه الآن عند الخط الخمس والعشرينى — أى إن خمسة وعشرين فى المائة من الأطفال فى مثل سنه يزنون أقل منه . وتقول أمه للطبيب : إن حياة الطفل تسير على ما يرام فى

هذه الفترة بصفة خاصة . فى حالة هذا الطفل يحق للأم والطبيب أن يسعدا بحـالته الصحية ، رغم أن الفحص الجسمانى يدل على أنه ما زال نحيفاً بعض الشيء .

وعلى النقيض من هذا المثال ، نجد فى أقصى الطرف الآخر ، مثالا لطفل تبدو بنيته على خير ما يرام فى فحص اليوم ، غير أنه يتضح من سجله الصحى فى المـاضى أن وزنه كان دائماً فوق المعتاد ، وتذكر أمه أنه دأب على شرب السوائل والتبول أكثر من المعتاد فى الأسابيع الأخيرة . وهذه إحدى القصص التقليدية التى تنبىء عن بداية الإصابة بمرض السكر ، التى يمكن التحقق منهـا بإجراء التحاليل المعملية ، بحثاً عن السكر فى البول والدم .

* * *

ولنستعرض الآن الجوانب الأساسية من الفحص الجسمانى ، لنرى مدى أهميتها فى الفحص الدورى الذى يجرى على الطفل أو الرضيع .

ما دامت الطفولة تعنى النمو ، فإن وزن الطفل فى الميزان يعتبر وسيلة سهلة قائمة على الحقائق الثابتة ، يتتبع بها الطبيب تطورات نموه على وجه التقريب ، ما دام يفسر هذه التطورات على ضوء التقديرات السليمة . كما أنه يقيس طول الطفل دائماً فيعطيه هذا القياس بيانا عن أحد مظاهر بناء الجسم ونموه ، ذلك أن طول الجسم لا ينحرف فى العادة عن اتجاهه الطبيعى إلا نتيجة مرض حاد مزمن أو اضطراب عائلى عنيف .

إن الـكثيرين من الأطباء — وأنا من بينهم — لا يقيسون درجة حرارة الأطفال الـكبار أو الصغار الذين يأتون إليهم بهدف الفحص الدورى ، ما لم تظهر عليهم أعراض مرض عضوى . فالحرارة قلما تـكون مرتفعة فى الظروف العادية ، أما إذا كانت مرتفعة فإنها تدل عادة على مجرد حالة عدوى عادية فى الجهاز التنفسى ، فى مراحلها الأولى . كما أن معظم الأطفال الصغار يشعرون بأن

قياس حرارتهم من فتحة الشرج فيه إهدار لكرامتهم . غير أن الأطباء الآخرين يفضلون على أية حال أن يقيسوا الحرارة بصفة روتينية ، واضعين نصب أعينهم تلك الحالات النادرة التى يكون فيها ارتفاع الحرارة غير المشتبه فيه هو العلامة الأولى التى تنبىء عن بدء متاعب جدية .

والجانب الأول من فحص الطبيب يسمى عادة المظهر العام ، وهو يشمل بنيان الطفل وحالة تغذيته وسلوكه العام ، وما إذا كانت تبدو عليه أمارات الصحة أو المرض ؛ ذلك أن الطبيب دون أن يستخدم يديه أو أية أداة من أدواته ، يتلقى انطباعات عن هذه المظاهر الهامة طوال الفترة التى يقضيها مع الطفل ، كما أنه تلقائياً يقارن بينه وبين الأطفال الآخرين الذين فى مثل سنه . وهو أيضاً يرى حالة الجلد فى لمحة سريعة .

وفى حالة الطفل الرضيع يقيس الطبيب حجم الرأس ويتحسس اليافوخ (البقعة الرخوة فى الرأس) ، كى ينتفى احتمال إصابة الطفل بأحد الأمراض النادرة التى تؤدى إلى نمو حجم الرأس نمواً سريعاً أو بطيئاً أكثر من المعتاد .

وفى العادة يقلب الطبيب الجفن السفلى للعين ويفحصه ، لأن شحوب الأوعية الدموية فى هذا المكان ينبىء عن احتمال الإصابة بالأنيميا (وهى من الأمراض الشائعة فى النصف الثانى من العام الأول وفى العام الثانى) ، مما يتطلب عد الكرات الدموية للتأكد من الحالة . كما أن الطبيب يلحظ أيضاً توازى أو تناسق حدقتى العينين فى النظر إلى الأشياء .

أما الطفل الذى بلغ سن الذهاب إلى المدرسة ، فمن المهم أن تختبر قوة إبصاره مرة كل عام على الأقل بوساطة لوحة علامات النظر ، سواء أكان ذلك فى المدرسة ، أم عن طريق طبيبه الدائم ، أم إخصائى العيون . وهذا الفحص هام بصفة خاصة لاكتشاف قصر النظر الذى يحتمل أن يتطور سريعاً فى هذه

السن ، لا سيما إذا كان قصر النظر أو ضعف النظر المحورى « الاستجماتيزم » شائعاً فى الأسرة . (عندما توجد عيوب حادة من هذين النوعين فإن من المحتمل أن يلحظ المعلم أو الأم ، الوضع غير العادى الذى يمسك فيه الطفل بالكتاب ، أما حالات ضعف النظر البسيطة فقد لا يلحظها الآخرون ولا يشكو منها الطفل) .

ثمة نواح أخرى فى فحص العينين يستطيع الطبيب العام القيام بها : حجم واستدارة العينين ، ما إذا كانتا تتقلصان عندما يسلط عليهما ضوء ساطع أو يقرب منهما هذا الضوء ، مظهر الشبكية فى مؤخرة العين عندما تفحص فى ضوء جهاز فحص قاع العين . غير أن هذه الاختبارات غالباً ما يستغنى عنها الطبيب عند إجراء الفحص الدورى على الأطفال الأصحاء . لكنه يجريها بعناية بالغة عندما تكون ثمة أعراض تدل على أمراض فى الجهاز العصبى أو العينين . وفحص الشبكية يتطلب تعاوناً كبيراً من جانب المريض ، أو استخدام قطرة معينة لتوسيع الحدقتين .

ويفحص الأنف فحصاً سريعاً بالضوء الكاشف ، غير أن هذا الضوء لا يكشف عن شىء فى العادة إلا فى حالة الحساسية أو الإفرازات الناتجة عن نزلات البرد أو التهاب الجيوب الأنفية ، أو فى حالة وجود جسم غريب يكون الطفل قد حشاه فى أعلى الأنف .

كما أن فحص طبلتى الأذنين له أهمية بالغة فى حالة الأطفال الصغار عندما يكونون مصابين ، أو كانوا قد أصيبوا حديثاً ، بنزلة برد أو احتقان فى الحلق مع ارتفاع فى الحرارة ، ذلك لأنهم فى هذه السن يكونون أكثر استعداداً للاصابة بالتهابات الأذن من الأطفال الأكبر سناً والبالغين . غير أن بعض الأطباء — وأنا منهم — يفضلون ألا يثيروا غضب الطفل أو خوفه بفحص أذنيه ، إذا

كان رضيعاً أو طفلا صغيراً إلى الحد الذى يتعذر معه أن يتعاون مع الطبيب ، ما دام يتمتع بصحة جيدة منذ الفحص السابق .

لا يحاول الطبيب عادة أن يختبر قوة السمع فى سنى الطفولة المبكرة ، لأن نتيجة هذا الاختبار غير مؤكدة على الإطلاق ، ما لم يقم به أحد الإخصائيين . فإذا كان ثمة اشتباه من هذه الناحية ، أو إذا كان الطفل قد أصيب بالتهابات خطيرة فى أذنيه ، أو إذا كان بطيئاً فى النطق بكلام واضح ، فإنه ينبغى فى هذه الحالة أن يفحصه أحد الإخصائيين . أما فى حالة الطفل الذى تجاوز عامه الرابع أو الخامس ، الذى يأتى إلى الطبيب كل ستة أشهر لإجراء فحص دورى عام ، فإنه من الممكن اختبار قوة سمعه بوساطة دقات الساعة أو الصوت الهامس .

ويفحص الفم والحلق دائماً لتتبع حالة الأسنان واللوزتين ، ولاكتشاف بعض الالتهابات البسيطة مثل التهاب الغشاء المبطن للفم ، وهو من الأمراض الشائعة فى مرحلة الرضاعة ، ويعوق إرضاع الطفل . كما أنه عندما يصاب الطفل بأمراض حادة مصحوبة بارتفاع فى درجة الحرارة ، غالباً ما يكون الحلق هو المكان الذى توجد فيه بؤرة العدوى . ويفحص الطبيب أيضاً سقف الفم فى أول فحص يجريه على الطفل بعد ولادته ، كى يتأكد من عدم وجود انشقاق فى سقف الحلق .

فى الشهور الأولى من عمر الطفل يجب ملاحظة ما إذا كان الرأس معتدلا فوق العنق ، وهل يمكن تحريكه بسهولة إلى كلا الجانبين . وفى حالات المرض الحاد يثنى الطبيب رقبة الطفل لينفى احتمال الإصابة بتهيج فى الغشاء السحائى . وفى أثناء الفحص يتحسس الطبيب بسرعة ، الغدد الليمفاوية فى العنق وتحت الإبطين وأعلى الفخذين . والحالات الشائعة التى غالباً ما تتضخم فيها هذه الغدد هى حالات العدوى التى تصيب الحلق أو اللوزتين أو الجلد . غير أن تضخمها قد يدل أحياناً على أمراض أكثر خطورة .

وغالباً ما يطرق (ينقر) الطبيب على الرئتين ويصغى إلى صوتهما بسرعة ، أما إذا كان الطفل فى صحة جيدة فإن هذا الفحص يجرى أساساً بحكم العادة التى سار عليها الأطباء . فلئن سمع الطبيب صوتاً غير عادى يصدر عن رئتى هذا الطفل ، فإن ذلك خليق بأن يبعث فيه أشد الدهشة . غير أن الأمر يختلف كل الاختلاف إن كان الطفل يعانى من سعال حاد له خطورته ، فهذا يثير الاشتباه فى النزلة الشعبية أو الالتهاب الرئوى أو الربو ، وفى هذه الحالة تفحص الرئتان فحصاً دقيقاً فى كل أجزائهما .

ومن المحتمل أيضاً أن يطرق الطبيب على القلب ويصغى إلى ضرباته بسرعة. فاحتمال أن يكون الطفل قد أصيب بمرض فى قلبه ما بين زيارة وأخرى للطبيب احتمال ضئيل للغاية ، ما لم تظهر عليه فى القليل أعراض بسيطة تنبىء عن سوء الصحة ، مثل شحوب الوجه وسرعة الشعور بالتعب . وهناك نسبة كبيرة من الأطفال يظهر عندهم لغط بسيط «عرضى» فى القلب أثناء السنوات الأولى من أعمارهم ، وهذا اللغط ليست له أية دلالة من ناحية الصحة العامة ؛ إذ أنه لا يلبث أن يزول عندما يكبرون فى السن . غير أن الطبيب يفضل أن يتتبع هـــذه الحالات فى سجلاته ليرجع إليها إذا حدث اشتباه فى مرض القلب فيما بعد .

يقيس الطبيب ضغط الدم على فترات متباعدة فى مرحلة الطفولة المبكرة ، ما لم تكن هناك أعراض تشير إلى إحدى الحالات النـادرة التى ترفع ضغط الدم . كما أنه من العسير قياس الضغط بدون تعاون من جانب الطفل ، والجهد الذى يبذل فى هذا السبيل يضايق الأطفال الصغار فى العادة .

ثمة مظاهر عديدة فى البطن يفحصها الطبيب بصفة روتينية فى مرحلة الرضاعة . هل توجد كمية من الغازات أكثر من المعتاد ؟ إلى أى مدى قاربت الصرة على الالتئام ؟ (هذه المسألة تهم الأم أكثر مما تهم الطبيب) . ما هو حجم الكبد ؟ هل الطحال كبير الحجم إلى الحد الذى يسمح بتحسسه تحت الضلوع ؟ هل توجد أى كتل غير عادية فى البطن ؟

أما فى بقية مرحلة الطفولة فإن الطبيب يتحسس البطن بسرعة ، غير أنه قلما يجد به شيئاً ، اللهم إلا إذا كانت هناك أعراض تدل على مرض موضعى مثل التهاب الزائدة الدودية .

وفى مرحلة الرضاعة يفحص الطبيب الأعضاء التناسلية كى يتأكد من أنها سليمة التكوين ، وأن خصيتى الطفل قد نزلتا فى مكانهما الطبيعى وأن فتحة البول توجد فى مكانها الصحيح . وليس ثمة ما يدعو لأن يثابر الطبيب على فحص هذه النواحى بالذات ، ما لم تكن هناك بطبيعة الحال أعراض معينة كالحرقة والإفرازات وصعوبة التبول .

ويلاحظ الطبيب أيضاً ذراعى الطفل الصغير وساقيه كى يتأكد من أنه يستعملها بسهولة ، وأن عضلاته متماسكة . ويكون متيقظاً تماما فى بحثه عن الأعراض التى تدل على عيوب فى تكوين العظام مثل انتقال عظمة الحرقفة من مكانها أو ميل باطن القدمين الى التقعر ، لأن من المهم أن تعالج هذه الأعراض فى بدايتها . أما فى العام الثانى من عمر الطفل ، فإنه يجب ملاحظته جيداً للكشف عن حالات تقوس الساقين أو الصدف (تكون الركبتان مقبلتين إحداهما على الأخرى) ، أو ضعف الرسغين ، أو انحراف أصابع القدمين بدرجة متطرفة الى الداخل أو الخارج أثناء المشى (excessive toeing) . أما فى الفترة التالية من مرحلة الطفولة ، فإن جميع المتاعب تقريباً التى تصيب الساقين سوف تكشف عنها أعراض معينة يبلغها الطفل أو أمه إلى الطبيب .

وفى مرحلة الرضاعة يختبر الطبيب بضع انعكاسات عصبية فى الطفل ، مثل انتفاضات الركبتين (باستخدام المطرقة) وانتفاضات الرسغين ، وانعكاس بابينسكى (Babinski) (رد الفعل الذى يحدث فى أطراف أصابع القدمين عند خدش باطن القدم) . غير أن هناك تبايناً كبيراً فى هذه الانعكاسات بين الأطفال الصغار الأصحاء الذين ينمون نمواً طبيعياً ، لذا فإن هذه الاختبارات لاتعدو أن تكون مجرد إجراء شكلى يقوم به الطبيب . على أن هذه الانعكاسات

تزداد أهميتها ، وتزداد دقة الطبيب فى فحصها ، عندما يوجد أى اشتباه فى مرض عصبي (فى المخ أو الأعصاب) ، وفحص الأعصاب فحصاً تاماً دقيقاً قد يستغرق من الطبيب نصف ساعة أو أكثر بمنتهى البساطة .

* * *

أعتقد أنى قد قلت ما فيه الكفاية لإعطائكم فكرة تقريبية عن أنه لا توجد إجراءات محددة يتكون منها « الفحص الجسمانى السليم » ، ذلك لأن البؤرة التى يتركز عليها الفحص تختلف باختلاف مراحل العمر المتتالية . ثم إن الفحص الذى يجريه الطبيب الجديد على الطفل لأول مرة ، سواء فى مرحلة الرضاعة وفى مرحلة الطفولة بعد ذلك ، يجب أن يشمل نواحى أكثر من النواحى التى يتناولها الطبيب عند إعادة الفحص فى الزيارات الدورية التالية . كما أن فحص جزء معين من أجزاء الجسم يجب أن يجرى بدقة بالغة أكثر من المعتاد ، إذا ظهرت أعراض تدل على مرض حاد أو مزمن فى ذلك الجزء من الجسم . على أنه ، من زاوية معينة ، يمكن القول إن الفحص فى غالبية الزيارات للطبيب ، يعتبر أساساً مراجعة عامة لتاريخ صحة الطفل .

حقيقة أن الفحص يقصد منه أيضاً أن يتأكد المريض والطبيب من أن جميع أجزاء الجسم الرئيسية قد فحصت فحصا عاما ، خشية أن تكون هناك أمراض كامنة لم تظهر بوادرها بعد . وهو يحقق هذا الهدف إلى درجة معينة . غير أن هذه الدرجة محدودة للغاية ، فلو أن الطبيب حاول قصارى جهده فى كل زيارة ، أن يتأكد من عدم وجود أى احتمال لاضطرابات كامنة فى الجسم ، لصار لزاماً عليه أن يقضى ساعتين فى دراسة تاريخ صحة الطفل ، وأن يمضى نصف ساعة فى الفحص الجسمانى ، ثم يأمر بإجراء اختبارات معملية باهظة التكاليف . ولئن كان هذا كله فى مقدور الطبيب والمريض ، فما زال عليهما أن يحددا مواعيد أخرى لاستعراض نتائج الفحص والتحليل ، ثم مناقشة المسائل التى يثبت أنها تضايق الأم أو المريض بالفعل .

إن طالب الطب المبتدىء يستنفد أكثر من ساعة فى إجراء فحص جسمانى دورى على طفل صغير يتمتع بالصحة ، وفى تسجيل نتائج الفحص ، فهو يضطر أولا إلى التريث بعد كل خطوة ريثما يفكر فى الخطوة التالية ، ولنفترض أن هذه الخطوة هى فحص الرئتين . إنه فى هذه الحالة يسترجع فى ذهنه الترتيب السليم لخطوات الفحص : مراقبة مدى تعدد حجم القفص الصدرى ومعدله وتناسق حركته ، ثم الجس براحة اليد لفحص الأزيز الصوتى (الأزيز الذى تحسه اليد عندما يصدر المريض أصواتاً رنانة) ، والطرق على الصدر لسماع الرنين ، والفحص بالسماعة لمعرفة طبيعة أصوات التنفس والكلام ، وأيضاً لسماع أصوات الأزيز « التزييق » والطقطقة التى تدل على الإصابة بالنزلة الشعبية . وبعد كل هذا ، يكرر كل خطوة من خطوات الفحص على كل جزء من الرئتين ، مركزاً كل حواسه فى تأن شديد . على أن تحركات الطفل العنيفة كثيراً ما تعوق سير الفحص . كما أن الأصوات الخافتة عديمة الأهمية التى دائما ما يصدرها الأطفال الصغار — مثل التجشؤ والقرقرة والزمخرة والبقبقة — تبدو من خلال السماعة وكأنها عاصفة رعدية عاتية ، فتثير شتى أنواع الاشتباهات فى ذهن طالب الطب . أما إذا شرع الطفل فى الصراخ ، فإن ضجيجه الصاخب يبدو وكأنه يمحو تماماً صوت رنين الطرقات وأى صوت آخر يحتمل سماعه من خلال السماعة . أضف إلى ذلك أن طالب الطب يضطر إلى التوقف بعد كل خطوة من خطوات الفحص كى يسجل ملاحظاته عليها قبل أن تغرب ذاكرته .

أما الطبيب المجرب فإنه يطرق بأصابعه أجزاء عديدة ينتقيها بخبرته . فيتأكد من أن الرئتين صافيتان (تماما كما تبين له من دراسة تاريخ صحة الطفل) وأن القلب غير متضخم . ولئن طمست صرخات الطفل الصغير صوت السماعة . فإنه رغم ذلك يتلقى نفس الرسالة الصوتية الدالة على التجويف عن طريق إصبع بيده اليسرى التى يطرق عليها . وهو بدون تردد ينقل قمع السماعة المخروطى على

نفس الأجزاء التى طرق عليها بأصابعه ، فيتعرف فى التو الأصوات المميزة للرئة السليمة فى كل جزء منها . والطبيب لا تزعجه مطلقاً أصوات اللعاب والزنخرة العالية التى تصدر عن الأنف والحلق — الواقع أنه لا يكاد يلحظها — وهو فى أثناء إصغائه لصوت السماعة ، يلحظ بطريقة آلية ما إذا كانت الحالة طبيعية من ناحية معدل التنفس (الشهيق والزفير) وعمقه وسهولته . ومع كل هذا ، فإن فحص هاتين الرئتين الصغيرتين قد يستغرق منه أقل من دقيقة واحدة .

إن الجوانب الجوهرية فى الفحص الشهرى للطفل الصغير الذى يتمتع بصحة جيدة من جميع النواحى ، يمكن أن يقوم بها الطبيب فى خلال خمس دقائق فى معظم الحالات ، ذلك ما لم يتوقف عن الفحص فى بعض اللحظات للحديث إلى الأم وتوضيح بعض الأمور لها . أما الفحص الذى يجرى على الطفل الأكبر سناً قبل التحاقه بالمدرسة ، وهو يشمل قياس ضغط الدم وقوة الإبصار والسمع ، فإنه يستغرق وقتا أطول . كما أن فحص الطفل الذى كان مريضا بمرض واضح أو غامض ، قد يستغرق من الطبيب وقتاً أطول من ذلك أيضاً .

ومن ثم فإن كفاية الطبيب وقيمته بالنسبة للأسرة ، ليست لها سوى علاقة ضئيلة بالجهد الذى يبذله فى دراسة التفصيلات ، أو بالوقت الذى يستنفده عادة فى فحصه الجسمانى للطفل . بل إنها بالأحرى تتوقف على توازن قدراته : انتباهه وفهمه أثناء استماعه إلى النواحى المختلفة من تاريخ صحة الطفل ، الربط الذهنى بين الأعراض التى تبدو على الطفل وبين الاضطرابات المحتملة والممكنة (نفسية وجسمانية على حد سواء) ، الاهتمام اهتماماً خاصاً بنواحى الفحص الجسمانى التى يحتمل أن تلقى ضوءاً أكثر من غيرها على تشخيص المرض . ولكن دون أن يتجاهل أجزاء الجسم الأخرى . على أن يترك لنفسه وقتاً كافياً لدراسة النتائج التى يتوصل إليها من الفحص .

وما دام استغلال وقت الزيارة الطبية يشمل عامل التوفيق بين مختلف النواحي بصورة حكيمة معقولة ، وما دامت الأمهات — فى اعتقادى — يواجهن من المشكلات النفسية ومشكلات النمو فى أطفالهن ما يزيد مائة مرة على الأمراض الجسمانية غير المشتبه فيها ، فإننى سأعبر لكن عن رأيى الشخصى فى هذه المسألة ، وهو أن الفحص الجسمانى الذى يجرى على طفل تبدو عليه أمارات الصحة فى زياراته الدورية للطبيب ، ينبغى أن يكون سريعا بالقدر المعقول ، كى يتسنى للطبيب توجيه الاهتمام إلى المشكلات الحقيقية التى تشغل بال الأم .

بنيان الجسم، والرياضة، واللياقة الجسمانية

« ينبغى للأطفال أن ينموا عضلاتهم وقاماتهم
وطاقاتهم الحيوية إلى الحد الذى تتطلبه منهم الطبيعة »

يرغب الآباء والأمهات دائماً فى معرفة الوسيلة التى يمكن بها دفع عملية النمو الجسمانى السليم فى أطفالهم.

غير أنهم فى الآونة الأخيرة بدأوا يهتمون أيضاً بـ « اللياقة البدنية »، منذ نبهنا رجال التربية الرياضية إلى أن الأطفال الأمريكيين، الذين كنا نميل دائماً إلى اعتبارهم أصح الأطفال فى العالم، أصبحوا فى الواقع متخلفين عن الصغار فى كثير من البلاد الأخرى من ناحية لياقتهم البدنية. وأقرب تفسير لهذه الظاهرة يتبادر إلى الذهن هو أن عدداً كبيراً من أطفالنا لم يعد يحصل على قدر كبير من الرياضة البدنية؛ ذلك أنهم فى الماضى، أيام كانت الحياة أكثر بساطة، اعتادوا أن يذهبوا إلى المدرسة أو إلى أى مكان آخر يقصدونه، سيراً على الأقدام. أما الآن فإنهم ينتقلون إليها بالسيارة الخاصة أو سيارة المدرسة. كما أنهم كانوا فى أوقات فراغهم يدأبون على اللعب فى نشاط وحيوية، ويحبون أن يتسابقوا بعضهم مع بعض فى الخلاء خارج بيوتهم، لأنهم يجدون فيه من الحرية ومن صحبة الأطفال الآخرين ما يزيد كثيراً على ما يجدونه فى بيوتهم. أما الآن فإن التليفزيون يستهوى الصغار ويحملهم على الجلوس فى أماكنهم لفترات تبلغ زهاء عشرين ساعة أسبوعياً فى المتوسط، فضلا عن أن البعض منهم لهم حق الذهاب إلى السينما، حيث يجلسون فيها طوال فترة ما بعد الظهيرة من أيام السبت بانتظام.

إن طبيعة الهيكل العظمى فى كل واحد منا — سواء أكان ثقيل العظام أم خفيفها، عريض المنكبين أم نحيلها، طويل القامة أم قصيرها، وسيم الوجه

أم قبيحه — تتحدد أساساً بالصفات الوراثية التي يتصادف أن نرثها عن مختلف أسلافنا منذ اللحظة التي تحملنا فيها أمهاتنا . قد يؤدى مرض مزمن خطير أو توتر وجدانى عنيف فى الأسرة ، أو تحديد كمية الغذاء تحديداً متطرفاً ، إلى بطء نمو طول الطفل ، ولكن إلى حد معقول . على أن مثل هذه الظروف السيئة لا تمس الغالبية العظمى من الأطفال الأمريكيين .

كما أن حجم وشكل العضلات اللاصقة بعظامنا يتحددان أيضاً إلى حد بعيد بطبيعة الخلايا الميكروبية التى كونت كل واحد منا . حقيقة إن كمية المرانة التى نعطيها لمختلف العضلات تؤثر فى حجمها إلى حد ما . « فسمانة » ساق راقصة الباليه ونخذيها تكون عادة أكبر قليلا من غيرها نتيجة الساعات التى تقضيها فى عملها كل يوم ، كما أن الغلام المتحمس الذى يمارس الرياضة بالأثقال الحديدية لتمرين عضلاته ، يمكنه أن ينمى عضلات الكتف والفخذ إلى الحد الذى يستطيع معه قياس الفارق . ومع ذلك فإن هناك بعض راقصات الباليه وراقصى الزحافة على الجليد سيقانهم نحيفة ، بل إن الشاب النحيل « الجاف العود » الذى يأمل فى أن يجعل من جسمه كتلة صلبة من العضلات المفتولة ليكون مثل الرجل الذى يظهر فى إعلانات كمال الأجسام — هذا الشاب مكتوب عليه أن يخيب أمله فى مسعاه . على حين أن شاباً آخر فى مرحلة المراهقة لم يبذل قط أى جهد كبير فى مجال الرياضة أو العمل الشاق ، قد ينتهى به الأمر إلى تكوين جسم مفتول العضلات .

أما فيما يختص بكمية الأنسجة الرخوة (فالشحم كلمة منفرة للغاية) الموزعة فى مختلف أجزاء الجسم ، فأغلب الظن أن الصفات الوراثية التى يكتسبها الفرد (أو يحرم منها) وهو جنين فى بطن أمه ، هى أقوى العوامل التى تحددها . ويعتقد الدكتور وليم شلدون وزملاؤه الذين وضعوا نظرية فى وصف جسم الإنسان تسمى « تنميط الجسم البشرى » أن فى وسعهم معرفة النسب الجسمية لإنسان ما ولد وعنده اتجاه طبيعى إلى البدانة ، حتى ولو كان مصاباً بالهزال من

أثر الجوع الشديد ، فى اللحظة التى يتصادف أن يقيسوا فيها أبعاد جسمه ؛ ذلك أن « ذوى التكوين المستوعب (endomorphs) » وأعنى بهم ذلك النمط المتطرف من الناس الذين عندهم قابلية كبرى لتكوين الشحم ، على عكس الناس الذين تتميز عضلاتهم وعظامهم بالضخامة البالغة « ذوى التكوين الوسيط (mesomorphs) » ، والناس الذين يتسمون بالضآلة والنحافة المتطرفة «ذوى التكوين الطارد (ectomorphs) » — هؤلاء الناس تكون خصورهم ضخمة مستديرة ، غير أن لهم أطرافاً كأطراف الخنازير تستدق تدريجاً حتى تنتهى إلى أيد وأقدام صغيرة الجسم . بيد أن معظمنا بطبيعة الحال لا يغلب عليه نمط أو آخر من هذه الأنماط ، بل يكون خليطاً من هذه الاتجاهات الثلاثة معاً ، إلا أن الرجال بوجه عام عندهم استعداد أكبر للتكوين الوسيط ، على حين أن النساء يملن إلى البدانة .

لكن الآباء والأطباء ورجال التربية البدنية يدركون دائماً أن الكثير من الناس لا يحتفظون بنفس كمية الشحم طوال حياتهم . وقد لاحظ الدكتور شلدون أن معظم الناس ، سواء تميزوا بالنحافة أو البدانة ، تقترب أجسامهم من الشكل المثالى — بقدر الإمكان — فى بداية مرحلة البلوغ ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الطبيعة تدبر هذه الخطة ، تأييداً منها لعلاقات الحب والغرام فى هذه المرحلة . فالإنسان الذى يميل بطبيعته إلى البدانة ، غالباً ما تبدو عليه هذه الظاهرة فى الفترة التى تسبق المراهقة ، ثم يجنح إلى النحافة نوعاً ما فى مرحلة المراهقة ، ويبدأ فى البدانة مرة أخرى فى سنى العشرين والثلاثين من عمره .

* * *

هناك بالتأكيد عوامل وجدانية وبيئية تؤثر فى حالة تغذية الطفل . ففى أنحاء عديدة من العالم توجد أنواع شتى من سوء التغذية ، إما لأن الآباء لا يستطيعون الحصول على الغذاء لأطفالهم ، وإما لأنهم يجهلون العناصر الأساسية التى يجب أن تتوافر فى الغذاء السليم . غير أن هذه العوامل التى تبرر سوء التغذية ، أقل كثيراً فى أمريكا منها فى البلاد الأخرى .

إن أكثر أنواع النحافة الشاذة شيوعاً فى أمريكا ، قد يرجع فى الغالب إلى مشكلة مزمنة من مشكلات التغذية . وغالباً ما تنشأ المشكلة عندما يجتاز الطفل مرحلة تضعف فيها شهيته ، فى سن العام أو العامين من عمره ، أو فى أعقاب إصابته بمرض من الأمراض (أنظر باب الطفل ضعيف الشهية) ، الأمر الذى يثير شعوراً بالقلق وخيبة الأمل فى نفس أى أم لا تأخذ الأمور ببساطة بطبيعة تكوينها . غير أنها كلما أبدت غيظها للطفل أو حاولت إغراءه أو إرغامه على تناول الطعام ، ضعفت شهوته للطعام وزاد عناده . إنها بالضبط حلقة مفرغة أشد ما تكون تفشياً فى أمريكا ، حيث يتوافر الطعام ، وحيث تدقق الأمهات غاية التدقيق فى تزويد أطفالهن بوجبات غذائية متوازنة توازناً سليما .

وهذا النوع من مشكلات التغذية يجعل الآلاف من الأطفال الأمريكيين أكثر نحافة مما لو كانوا فى ظروف أخرى . كما أن هذه المشكلة قد تنشأ بصفة خاصة فى الأسر التى كانت فيها الأم ضعيفة الشهية إلى حد بعيد أيام طفولتها ، ذلك أن الشعور بالقلق على الطفل لعدم تناوله القدر الكافى من الطعام ، ينتقل من جيل إلى جيل ، فيخلق نفس الحالة التى يحاول جاهداً أن يمنعها . وإنى أذكر هذه النقطة فى بداية الحديث ، لأنها تبين لنا عدم جدوى المحاولة التى تبذلها الأم لدفع عملية النمو الجسمانى للطفل ، عن طريق إغرائه بتناول الطعام فى لهجة تتسم باللهفة والقلق .

ثمة نوع آخر من الأطفال الذين يتميزون بالنحافة الشاذة المتطرفة ، ذلك هو الطفل الذى يستنفد توتره العصبى المستمر كمية مفرطة من طاقته الحيوية (وغالباً ما يضعف من قابليته للطعام فى نفس الوقت) . ومثل هذا الطفل قد يكون قلقاً بائساً . على حين أن طفلاً غيره من نفس النوع قد يكون «دينامو» يتدفق بالحيوية والمرح .

كما أن العوامل الانفعالية يمكن أن تؤدى أيضاً إلى الإفراط فى الأكل . فرغم أن غالبية الأطفال الذين تحثهم أمهاتهم على تناول الطعام يكون رد الفعل

عندهم هو ضعف الشهية والعناد . إلا أن طائفة قليلة منهم تستسلم فى لين ووداعة لعملية حشو بطونهم بالطعام ، وبذلك يزدادون بدانة يوماً بعد يوم . وقد يتبادر إلى ذهنك أن الأم التى ترغم طفلها على تناول الطعام بسبب قلقها العميق على تغذيته ، سيكون فى وسعها أن ترخى أعصابها بمجرد أن ترى طفلها يتجاوز الوزن العادى . غير أن الشعور بالخوف يظل قائماً رغم ذلك — الأمر الذى تعرفه الأم البائسة التى تعانى هـذا القلق — بل إنها قد تأتى بطفلها البدين إلى الطبيب ، وهى ما زالت تشكو من أنه لا يأكل ما فيه الـكفاية .

وقد ينشأ الإفراط فى الأكل عن بعض العوامل الانفعالية داخل الفرد نفسه ، سواء أكان طفلا أم بالغاً . فهناك مثلا الشخص الذى لا تنمو فيـه قط النزعة إلى استقلال الشخصية أو القدرة على المبادأة ، لـكنه يظل دائمـاً ـ كالطفل الصغير ـ يتلقى شعوره الأساسى بالأمان والطمأنينة من تناول الطعام ومن رعاية الآخرين له . وهناك أيضاً طائفة قليلة من الناس يلاحظون على أنفسهم أنهم كلما صادفوا خيبة الفشل فى حياتهم ـ فى مجالات الصداقة أو الحب أو العمل ـ ازدادت « شهيتهم » للطعام وزاد وزنهم . على أن البدانة المفرطة ـ مهما كانت أسبابها ـ تصبح حلقة مفرغة ، لأنها تخلق فى الإنسان شعوراً حاداً بالذات ، وتقيد حياته الاجتماعية ، وتزيد من إحساسه بالشقاء ، وبذلك قد تؤدى إلى زيادة « شهيته » لتناول الطعام أكثر فأكثر . كما أن البدانة تقلل من ممارسة الإنسان للرياضة البدنية ، فيختزن الجسم الوحدات الحرارية .

وقد لمست ذات مرة بصـورة مجسمة ، الآثار المختلفة التى يحدثها التوتر الانفعالى على تغذية الطفل ، وذلك فى حالة أخوين كانت تستعر بينهما حمى المنافسة إلى درجة متطرفة ، فكان الغلام الأكبر إنساناً تخيم عليـه التعاسة ، يحنق على جميع أفراد أسرته الآخرين ، ليس له أصدقاء ، ومنطو على نفسه ، وكان بدين الجسم . أما الأصغر فقد كان إنساناً اجتماعياً متوتر الأعصاب مفرط النشاط يصر على أن يحصل لنفسه على أية ميزة يتمتع بها أخوه الأكبر ، وكان نحيل

الجسم . ولما كان الأكبر يتتابه هذا الشعور بالشقاء فى البيت ، فقد تقرر آخر الأمر أن يرسل إلى مدرسة داخلية تتميز بحسن إدراكها لظروف الصغار . وهناك استطاع الغلام أن يتكيف تكيفاً رائعاً مع البيئة ، فنقص وزنه ١٢ رطلا فى خلال أربعة أشهر دون أن يتبع أى نظام خاص فى الغذاء . أما الغلام الأصغر فقد أصبح أكثر راحة واسترخاء فى حياته بالبيت ، فزاد وزنه ثمانية أرطال فى نفس الفترة .

* * *

يستخدم رجال التربية الرياضية تعبير « اللياقة البدنية » ليشمل مجموعة من الصفات المختلفة كالقوة الجسمانية والقدرة على الاحتمال واعتدال القامة والمهارة والرشاقة .

ومن الضرورى أن ننظر إلى القوة الجسمانية بالنسبة لأعضاء الجسم المختلفة ، فالإنسان الطويل النحيف قد تكون له ساقان قويتان تصلحان للجرى والقفز ، ومع ذلك قد تكون ذراعاه من النحافة بحيث لا يكاد يستطيع أن يرفع جسمه على العقلة ولو مرة واحدة . (إنى أحس بالعطف على الأولاد الذين يتعرضون دائماً لاستهزاء زملائهم فى حصة الألعاب الرياضية ، لأنى أنا نفسى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أرفع جسمى على « العقلة » أو أن أرفع جسمى من على الأرض معتمداً على راحتى اليدين وأطراف أصابع القدمين) ، على حين أن الرباع « بطل حمل الأثقال » يجب أن يكون جسمه ثقيل الوزن قوى العضلات ، إذا أراد أن يصبح بطلا مجيداً حقيقة فى يوم من الأيام .

والمرانة المنتظمة تزيد من قوة أية مجموعة من عضلات الجسم إلى حد كبير ، غير أنها لن تحول شخصاً لا يصلح من الناحية العضلية لممارسة لعبة معينة إلى بطل من أبطال هذه اللعبة . كما أن العضلات التى تكتسب مزيداً من القوة عن طريق

المرانة المدروسة المتأنية ، سوف تفقد جانباً من هذه القوة المكتسبة بمجرد أن يكف اللاعب عن المرانة .

بل إن القدرة على الاحتمال تتوقف على المرانة أكثر مما تتوقف عليها القوة الجسمانية . فهذه القدرة تنشأ فى الإنسان نتيجة تقوية وتكييف عضلات الجسم التى تستخدم فى لعبة ما أو عمل معين من ناحية ، ونتيجة تقوية القلب وعضلات التنفس التى تؤدى إلى تحسن عملية نقل الأوكسچين وثانى أوكسيد الكربون من ناحية أخرى . كما أن القدرة على الاحتمال لا تلبث هى أيضاً أن تقل فى الإنسان بمجرد أن يتخلى عن المرانة العنيفة المستمرة .

ومما يبعث على خيبة الأمل أن يدرك المرء أن قوته الجسمانية وقدرته على الاحتمال سوف تتضاءلان ما لم تدع الحاجة إلى استخدامهما بانتظام. غير أن هذه الظاهرة ليست سوى الوجه الآخر من القدرة العجيبة التى تستجيب بها أجسامنا لدواعى الحاجة ، ذلك أن أجسامنا تتكيف بمهارة فائقة فى نواح عديدة ، فهى تتكيف فى الأجواء الباردة باختزان الحرارة ، وفى المناطق المرتفعة بزيادة كثافة الدم ، وفى المناطق المنخفضة بإنقاص كثافة الدم مرة أخرى ، وفى وهج الشمس الشديد بتلويح البشرة باللون القاتم ، وفى ضوء الشمس الباهت بشحوب لون البشرة ، وفى حالة استخدام راحتى اليدين فى عمل خشن بترسيب مادة الكيروتين التى تتقشر بعد انتهاء العمل ، فأنت لا تستطيع أن تصمم جسما يستجيب استجابة إيجابية لدواعى الحاجة ، ما لم يستجب أيضاً استجابة سلبية فى حالة عدم وجود الحاجة .

ومعنى هذا الكلام – فيما يختص بالقوة الجسمانية والقدرة على الاحتمال – هو أن الجسم لا يكتسب سوى القليل من الفائدة الدائمة ، إذا مارس الإنسان

الرياضة البدنية العنيفة لفترات قصيرة من الزمن ، ذلك أن المرانة التى يؤديها الفرد بانتظام طوال الأسبوع وطوال حياته هى التى تحافظ على مستوى لياقته البدنية .

يؤكد غالبية الناس الذين دأبوا على ممارسة الرياضة البدنية بانتظام أنهم يشعرون بتحسن فى حالتهم — بمعنى أنهم يصبحون أكثر حيوية وانطلاقاً ، وفى نفس الوقت أكثر اطمئناناً وارتياحاً إلى الحياة — كما أنهم يعتقدون أن منظرهم العام يتحسن أيضاً من أثر ممارستهم للرياضة . وهذا هو رأيى أيضاً . غير أنه من العسير علينا أن نتأكد من سلامة هذا الرأى ، لأن المخلوقات البشرية قابلة للايحاء إلى درجة متطرفة . حتى لقد أثبتت التجارب أن الإنسان إذا اعتقد أن المصل المضاد سوف يقلل من نزلات البرد التى تصيبه ، فإن المصل سوف يؤدى فعلا إلى هذه النتيجة ، سواء أكانت الحقن تحتوى على الميكروبات أم على مجرد الماء الملح .

أما العوامل التى تؤدى إلى تناسق الجسم واعتدال القامة ورشاقة الحركة ، فإنها من الأمور المحيرة التى يصعب تفسيرها . إنى أذكر جيداً فى هذا المقام أسرة فى طليعة الأسر التى كنت طبيباً لأطفالها . كانت كبرى الأطفال فى هذه الأسرة بنتاً تتسم برشاقة الحركة منذ نعومة أظفارها . وما إن بلغت الشهر السادس من عمرها إلا وكانت تتناول كل شىء فى رقة بالغة ، حتى إن والديها لم يضطرا فى يوم من الأيام إلى وضع الأشياء القابلة للكسر بعيداً عن متناول يدها ، لذلك كانت لعبها تبقى سليمة على الدوام . أما أخوها فقد اعتاد فى السنين الأولى من عمره أن ينقض على أية لعبة ينشدها ويختطفها بيده فى عنف ، وكان كلما عبر إحدى حجرات البيت لا بد وأن يتعثر فى شىء ما هنا أو هناك . ومع

ذلك فقد كان طفلا سعيداً لا يميل إلى التخريب . عند ما تظهر هذه الفروق بين الإخوة فى هذه المرحلة من مراحل العمر ، فإنك تظنين أنها وليدة الطبيعة إلى حد ما على الأقل . غير أن العوامل الانفعالية تعقد هذه الصورة فيما بعد .

إنى أنظر إلى الناس الذين يمارسون الرياضة ويتسمون بالرشاقة على أنهم من النوع المنطلق الذى يحس بالأمان والطمأنينة فى العادة . ولكن إذا كان هذا الرأى صحيحاً فإن هناك رغم ذلك حالات كثيرة تشذ عن هذه القاعدة . فبعض الناس المنطوين على أنفسهم ، المعرضين للاصابة بمرض الفصام العقلى ، يتسمون بالرشاقة بشكل خارق للعادة . ومن الأمثلة الشهيرة فى هذا المضمار ، نيجينسكى راقصة الباليه العظيمة . كما أذكر أيضاً فى هذا المجال صديقاً من أصدقاء الكلية كان رياضياً فذاً بطبيعته ، حتى لقد كان فى استطاعته أن يتقن أية لعبة من الألعاب الرياضية فى ربع المدة التى يستغرقها اللاعب الهاوى العادى ، ومع ذلك فقد كان فى حلبة الرقص يجر قدميه متثاقلا بصورة تدعو إلى الرثاء . كما أن بعض لاعبى التنس عندما يرون أن النصر قد أصبح ملك يمينهم يحسنون اللعب أكثر فأكثر ، على حين أن غيرهم لا يجيد اللعب إلا عند ما يكونون متخلفاً ثم يتخاذل تماماً بمجرد أن يتفوق على منافسه .

أما القامة فهى ناحية أخرى يلعب فيها الشكل الذى ولدت عليه ومشاعرك إزاء الحياة دوراً هاماً ، فالإنسان « ذو التكوين الوسيط » الذى يتميز بضخامة العظام والعضلات ، يكون له جسم متماسك يميل إلى اعتدال القامة . على حين أن الإنسان « ذا التكوين (الطارد) » الذى يتميز بالطول والنحافة ، يكون له عمود فقرى يميل إلى الانحناء عند العنق والخصر ، ما لم تكن له روح شامخة تشد من قامته .

والقامة المترهلة المسترخية قد تدل على مجموعة متباينة من الاتجاهات النفسية: الشعور بالذات ، الحياء ، نقص الثقة بالنفس، وهن العزيمة ، الامتعاض والنفور ، لا سيما فى الفرد الذى يتعذر عليه أن ينفس عن مشاعره فى كلمات . ولما كانت مرحلتا الطفولة والمراهقة من المراحل التى يصعب فيها على الإنسان أن يدرك كنه مشاعره ، وغالباً ما يكون من الخطر عليه أن يعبّر عنها ، فإن القامة مخرج سهل ملائم للتنفيس عن هذه المشاعر . لذا فإن الأم التى تتدفق بالنشاط والحيوية دائماً ما تزعجها القامة المترهلة لطفلها الواهن المسترخى ، فتظل تهمس قائلة له : « اجلس منتصب القامة » عشرين مرة فى أثناء اليوم . ولكن رد الفعل المميز عند هذا الطفل هو أنه بطبيعة الحال يستجيب لهذا الحث الاستفزازى استجابة سلبية تتسم بالعناد . وما إن يتحول عنه انتباه الأم حتى يزداد تراخياً عن ذى قبل دون أن يعى ذلك على الإطلاق .

أما فيما يتصل بتناسق الأعضاء واكتساب المهارات فإن الناحية التى تجزى الإنسان خير الجزاء عن جهده فيها هى أنه عند ما يتقن إحدى المهارات بالمرانة الشاقة — سواء أكانت المهارة التزحلق على الجليد ، أم العزف على البيانو ، أم الكتابة على الآلة الكاتبة — فإنه يظل يتقنها دائماً . حقيقة إن مهارة الإنسان تصدأ من قلة المرانة ، فضلا عن أن شعوره بمدى نسيانه لها قد يثبط من عزمه تماماً ، غير أن فى إمكانه أن يعود إلى نفس مستواه السابق من المهارة تقريباً ، فى فترة تعتبر وجيزة جدا إذا قورنت بالكفاح الطويل الذى تطلبه منه إتقان هذه المهارة فى بادىء الأمر .

وهذا بطبيعة الحال يؤيد الاتجاه إلى تعليم الأطفال — وهم صغار السن وقابلون للتكيف — لعبة أو مهارة معينة يستمتعون بها بقية حياتهم . ذلك إن كان لديهم الإدراك الكافى لتفهم هذه الحقيقة ! ! فالأطفال يمتلئون طبعاً بالحماسة

الدافقة حين يرون لأول مرة أحـد أبطال لعبة معينة وهو يؤديها أمامهم . ويتوهمون ، بحكم غرورهم الطفلى وبراءتهم المتطرفة ، أنهم لو استطاعوا مجرد الحصول على مضرب تنس أو ثياب رقص الباليه أو آلة الكمان ، فإنهم لن يلبثوا أن يؤدوا عرضاً لمهارتهم بين هتاف جماهير النظارة . والأطفال يثابرون مثابرة شديدة على اكتساب المهارات التى تكون فى نطاق قدرتهم والتى يمارسها جميع الأطفال الآخرين فى المناطق المحيطة (مثل تصويب الكرات على الشواخص الخشبية أو لعبة الهولا هوب) . غير أن معظمهم سرعان ما يفتر عزمه بمجرد أن يشعر أن أمامه شوطاً بعيداً حتى يصل إلى الإتقان الحقيقى . وعندما يجد الوالد أنه قد أصبح أكثر إلحاحاً من الطفل نفسه بشأن المرانة على ممارسة اللعبة ، فإن حماسة الطفل لها لا تلبث أن تتحول إلى نوع من التمرد عليها .

* * *

الظاهر أن معظم الأفكار التى عبرت عنها حتى الآن بشأن النمو الجسمانى واللياقة البدنية تتسم بالتشاؤم أو القدرية ، فالكثير منها يقوم على نوع الاستعداد الطبيعى الذى يتصادف أن يولد به أطفالنا ، على حين أن جهود الآباء غالباً ما تعمل فى الاتجاه المضاد لهذا الاستعداد . غير أن الصورة لا تبعث على اليأس إلى هذه الدرجة .

يجب علينا أن نتقبل تكوين أطفالنا العضلى والعظمى على علاته ، فنحن الذين أعطيناه لهم عن طريق الوراثة ، وليس فى وسعنا أن نغيره أو نبدله . على أن هناك طريقتين مختلفتين لتقبل هذه الحقيقة : إحداهما أن نتقبلها على مضض ، والأخرى أن نتقبلها فى هدوء رصين . فلو أننا شعرنا بالشقاء بسبب قصر قامة ابننا أو طول قامة ابنتنا فإننا نجعلهما يحسان بنفس شعورنا ، سواء حاولنا أم لم

نحاول إخفاء قلقنا واهتمامنا . أما إذا أظهرنا لأطفالنا أننا نعتقد أنهم فى غاية الروعة كما هم دون أدنى تغيير ، فإنهم أيضا سوف يحسون بالرضا عن أنفسهم .

وبالنسبة للبدانة أو النحافة ، يجب أن نعترف بأننا لا نستطيع التحكم فيها إلا لدرجة محدودة . فنحن لا نستطيع أن نحمل الطفل على الإكثار أو الإقلال من تناول الطعام عن طريق مناقرته ومناكفته ، فهذا الأسلوب قد يؤدى إلى نتيجة عكسية . لذا فمن المستحسن عندما يكون الطفل نحيفا أن ترجع الأم إلى طبيبه ومعلمه ، كى تتأكد من أنه ليس ثمة جهود أخرى ينبغى أن تبذل فى بحث حالته الصحية أو توافقه الاجتماعى .

وإذا كان الطفل على شىء قليل من البدانة ما بين سن السابعة والخامسة عشرة ، فالرأى عندى أن من الحكمة أن يغلق الآباء والأمهات أفواههم ويعقدوا أصابعهم فى هدوء ، لأن عدداً كبيراً من هؤلاء الأطفال ستقل بدانتهم من تلقاء نفسها فيما بعد ، إن لم نثر ضجة لا داعى لها حول الموضوع .

أما مشكلة البدانة المفرطة فإن حلها أصعب كثيراً ، ذلك لأن الطفل الذى يواجه مثل هذه العقبة فى حياته ، يميل إلى الإحساس بأن والديه يضطهدانه حين يحاولان فرض قيود على غذائه . لذلك ينبغى أن نشجعه على محاولة حل المشكلة بمساعدة شخص آخر خارج نطاق العائلة ، مثل طبيب العائلة الذى يوحى بالثقة ، أو أحد الأطباء النفسانيين ، أو إحدى الجماعات المدرسية التى تعمل على إنقاص الوزن تحت إشراف المدرسة . وتستطيع الأم أن تتعاون تعاوناً كبيراً فى حل المشكلة ، بأن تكيف أنواع الطعام التى تقدم للأسرة بحيث تتلاءم مع حالة الطفل ، فتعمل على أن تبعد الفطائر الدسمة والحلوى عن البيت معظم الوقت ، حتى يمكن إنقاص حدة الإغراء إلى الحد الأدنى .

وفيما يختص بالرياضة البدنية ، فإنى أعتقد شخصياً أن جميع الأطفال ينبغى أن يمكثوا فى الهواء الطلق خارج البيوت (فى حالة عدم سقوط المطر) لمدة ساعتين يومياً على أقل تقدير (على أن تزيد هـذه المدة عندما يكون الطقس لطيفاً وعند ما تكون عندهم عطلة من المدرسة) كى تنمو عضلاتهم وطاقاتهم الحيوية وقاماتهم إلى الحد الذى تتطلبه منهم الطبيعة . وهذا شىء يمكن تحقيقه إذا آمن به الآباء ، لأن الأطفال فى هذه الحالة يعتبرون هذه الرياضة أمراً بديهياً مسلماً به ، ويجدون متعة فيها . أما إذا أوحى لهم بعض أصدقائهم فيما بعد بأن من الأشياء المسلية أن يهرعوا إلى جهاز التليفزيون بعد انتهاء المدرسة مباشرة ، فما على الآباء والأمهات إلا أن يبينوا لهم بطريقة حاسمة أنه لن يكون هناك تليفزيون ، ولن يكون هناك دخول إلى البيت قبل الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف .

ويستطيع الآباء ، عن طريق مجلس الآباء وغيره من المنظمات ، أن يقوموا بحملة لتنظيم مباريات فى الملاعب — تحت إشراف المعلمين — بين تلاميذ المرحلة الأولى بعد انتهاء المدرسة ، ولتنظيم نشاط رياضى لجميع الأولاد المهتمين بالرياضة بين تلاميذ المرحلة الثانوية (لست من أنصار الألعاب الرياضية التى لا يشترك فيها سوى بضعة أفراد قلائل وتقوم على المنافسة الشديدة المغالى فيها ، لاسيما بين التلاميذ فى المرحلة الأولى) .

كما أنى لا أميل إلى إكراه البنات على الاشتراك فى المباريات الرياضية القائمة على التنافس ، لاسيما بعد بلوغهن مرحلة المراهقة . فالكثير منهن ليس عندهن قابلية للاشتراك فى مثل هذه المعارك التى ابتكرها الأولاد ليمارسها الأولاد فى الواقع . على أن من الأشياء المفيدة للبنات لو أمكن أن نقدم لهن بعض أنواع النشاط كالرقص الجماعى والسباحة ولعب التنس والجولف وركوب الخيل والانزلاق على الجليد .

وحيث يتعذر الحصول على مثل هذه الرياضات المترفة ، توجد كذلك رياضة المشى وركوب الدراجات للجنسين . وعلى الآباء أن يهتموا بأن يحصل أطفالهم على قدر معقول من هذه الوسائل المفيدة للصحة فى الانتقال من مكان إلى آخر . (كم تزعجنى رؤية طلبة المرحلة الثانوية وهم واقفون فى مفارق الطرق ، يحاولون الإشارة بالإبهام لبعض السائقين كى يصحبوهم فى سياراتهم مسافة نصف ميل) .

فى ختام تحليلى لهذه المشكلة ، يبدو لى أن أهم ما يسهم به الآباء فى نمو أطفالهم الجسمانى ، هو أن ينشئوهم بطريقة تجعلهم يشعرون بالثقة بأنفسهم ويحبون الحياة . فهذا هو الاتجاه الذى يمكن الاعتماد عليه ، أكثر من كل الحوافز الأخرى فى أن يحتفظ الأطفال بنشاطهم دائماً ، وأن تظل شهيتهم للطعام فى المستوى السليم ، وأن يقفوا على أقدامهم مرفوعى الهامة ؛ ذلك أن الروح المتألقة فى الإنسان هى التى تجعل أشكال الجسم المختلفة جذابة للناظرين . إن كلا من مارلين مونرو وأودرى هيبورن تتمتع بجاذبية فائقة . على حين كان النبل الذى يتسم به إبراهام لنكولن يجعل من هزاله الجسمى ذاته مصدر الجاذبية والإلهام .

ما مدى اهمية الهواء النقى ؟

« إن التحمس لفائدة الهواء النقى يتفاوت تفاوتاً كبيراً فى المناطق المختلفة بين البلاد ، وبين أنماط الشخصية المتباينة »

يؤمن بعض الناس إيماناً قوياً بفائدة الهواء النقى ، وكلما ازدادت برودته كان ذلك أفضل فى رأيهم . على حين أن غيرهم لا يهتم به ، حتى لو كانت درجة حرارته تبعث على الراحة ، ويمقته عند ما تسوده البرودة . ومع أن المفروض أن الهواء النقى له علاقة وثيقة بصحة الإنسان ، فمن عجب أن البحوث العلمية التى أجريت فى هذا المجال محدودة للغاية . فالناس الذين يؤمنون إيماناً قوياً بقيمة الهواء النقى ، يستمدون عادة هذه العقيدة من الطريقة التى نشئوا عليها ، وهى نفس الطريقة التى يُكون بها الناس غالبية معتقداتهم الأخرى . ولعل هذا ينطبق علىّ أنا أيضاً .

منذ خمسين عاماً مضت كان الهواء النقى هو « الموضة » السائدة ، إن كان من الممكن أن تستخدم كلمة « الموضة » فى الحديث عن شىء اعتاد النـــاس أن ينظروا إليه نظرة جدية للغاية ، حتى لقد كان الـكبار المصابون بالسل الرئوى ينقلون — إذا أمكن — إلى مصحة بين الجبال ، حيث كانوا يحملون فى غالبية الأحيان على المـكوث ليلا ونهاراً فى شرفات مسقوفة فى الهواء الطلق . بل إن الأطفال المصابين بسل العظام كانوا أحياناً ما يصلب عودهم إلى الحـــد الذى يستطيعون معه أن يلعبوا فى الخلاء أثناء فصل الشتاء ، ولا يكاد يستر أجسامهم شىء من الثياب .

فى تلك الأيام ، شيد أبواى سقيفة مكشوفة الجوانب ، تستقر فوق الشرفة

الأمامية ، للنوم فيها . ولم تلبث هذه السقيفة أن امتلأت تدريجياً بالصغار من آل سپوك . وكنا عند ما تشتد برودة الطقس ، نأتى بقرب الماء الساخن المصنوعة من المطاط ونحملها معنا إلى الفراش ، أو نأتى بالأباريق الخزفية الساخنة أو صفائح الماء الساخن المصنوعة من الألومنيوم ، التى كانت جوانبها تغوص إلى الداخل تدريجاً كلما تقلص الهواء بداخلها من شدة البرودة .

بل إنى فى سن التاسعة والعاشرة كنت أذهب إلى مدرسة فى الهواء الطلق . ذلك أن طائفة من الآباء الذين تربط الكثيرين منهم صلة بالجامعة ، نجحوا فى إقناع هيئة التعليم بأن تجهز المعدات وتعين معلمة لفصل مدرسى فى خيمة متسعة أقيمت فى الفناء الخلفى لبيت أحد أساتذة الجامعة . كنا فى فصل الشتاء نجلس إلى قماطرنا « أدراجنا » ، مدثرين فى سراويل « بنطلونات » من اللباد السميك ترتفع إلى الإبطين ، وأقدامنا فى أحذية طويلة مبطنة بصوف الغنم ، وسواعدنا وأصابعنا شبه عاجزة عن الحركة من جراء الصدارات الصوفية والمعاطف والقفازات التى كنا نرتديها . وكنا فى كل ساعة أثناء فصل الشتاء نخرج إلى المنصة المكشوفة خارج الفصل ، لأداء بعض الرقصات الشعبية نليِّن بها أجسامنا المتصلبة ، على الأنغام التى كانت معلمتنا تعزفها لنا على البيانو رغم القفاز الذى كانت ترتديه .

ثم بدأ التحمس المتطرف لفائدة الهواء النقى يتناقص تدريجاً ، كلما عرف الناس مزيداً من الحقائق عن أسباب الأمراض وعلاجها . وفى اعتقادى أن الإيمان بهذه الفائدة يتفاوت تفاوتاً كبيراً فى المناطق المختلفة من البلاد ، وبين أنماط الشخصية المتباينة . فعند ما كنت أمارس طب الأطفال بمدينة نيويورك فى الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٤٠ ، لم يكن من الضرورى أن أوصى الأمهات

باصطحاب أطفالهن فى نزهات خارج البيت كل يوم ، فقد اعتادت السيدات حديثات العهد بالأمومة أن يسألن الأطباء عن الأوقات التى يمكن وينبغى فيها الخروج بالطفل فى عربته ، على اعتبار أن ذلك أمر بديهى لا يحتمل الجدل ، تماماً كما يسألن عن الفيتامينات أو حمامات الطفل . وكانت غالبية الأمهات يحرصن أشد الحرص على الخروج بأطفالهن صيفاً وشتاءً فى نزهات إلى الحدائق ، لا مرة واحدة ، بل مرتين يومياً ، ما لم تسقط الأمطار أو الثلوج ، ويدأبن على ذلك حتى يلتحق الأطفال بالمدرسة . وكان هذا يبدو لى أمراً طبيعياً كما يبدو للأمهات على حد سواء . كما أن الأمهات تعلمن بالمرانة أن يرتدين ثياباً مريحة فى هذه النزهات وأن ينتقين أماكن جلوسهن حيث يحتمل أن يعثرن على صديقات لطيفات المعشر .

على أنى عند ما انتقلت إلى منطقة فى الغرب الأوسط تتميز بالبرودة فى الشتاء ، دهشت بل صدمت بعض الشىء — كما يمكن أن تتخيلن — لأنى لم أر أمهات يدفعن الأطفال الصغار فى عرباتهم ، ولم أر سوى عدد قليل جداً من الأطفال خارج البيوت ما بين شهرى نوفمبر ومايو ، اللهم إلا فى تلك اللحظات القلائل التى يهرعون فيها إلى المدرسة أو يعودون منها .

* * *

هل لدينا شىء محدد للاستطراد فى الحديث عن فائدة الهواء النقى من الناحية الصحية ؟ فى الواقع أنه لا يوجد الكثير مما يمكن قوله فى هذا الصدد كما كنا نرجو . على أن التجارب قد أثبتت أن الحالة التى تجعل الناس يشعرون قطعاً بالشقاء والعجز ، هى ارتفاع درجة الحرارة المصحوب بارتفاع فى نسبة الرطوبة ، كما تعرفن جميعاً يامن خبرتن أيام الصيف الحارة المشبعة بالرطوبة . بل إن هذا الطقس فى حالاته المتطرفة ، يمكن أن يصبح خطراً على حياة الإنسان . فقد كان الحر المصحوب برطوبة بلغت مائة فى المائة هو الذى قضى على حياة السجناء

المزدحمين فى سجن «بلاك هول» بمدينة كلكتا . غير أن تبخر العرق هو الوسيلة التى نعتمد عليها أشد الاعتماد فى الطقس الحار ، لطرد الحرارة التى تولدها أجسامنا دائماً . وكلما ازدادت نسبة الرطوبة فى الجو ، قلت سرعة التبخر . لذا فإننا تلقائياً نخلع عنا أكبر كمية من ثيابنا تسمح بها الظروف المحيطة ، ونحاول أن نعثر على تيار من الهواء ، أو نخلق هذا التيار باستخدام المروحة ، ذلك لأن تيار الهواء يحمل بعيداً عنا بعض حرارة أجسامنا ، ويسرع بعملية تبخر العرق بإزالة الهواء الملاصق لنا الذى تشبع فعلا ببخار الماء . إن زيادة التبخر هى أحد الأسباب التى من أجلها يحب الأطفال اللعب بالرشاشات وخراطيم الماء فى الطقس الحار . ولعلكم لاحظتم أنه يوم يكون الطقس كثير الرياح على شاطئ البحر ، فإنكم تحسون بالبرودة عند الخروج من الماء أكثر مما تشعرون بها وأنتم فيه .

ومن حسن حظ الأطفال الصغار فى هذه الأيام أنه يسمح لهم بارتداء ثياب خفيفة للغاية فى الجو الحار . ومع أن الأطفال الرضع ينبغى أن يستمتعوا بنفس الميزة ، فإنهم غالباً مايحرمون منها ، لأن الناس يتوجسون خوفاً من تدفئة الرضيع. وقد أخبرتنى بعض الأمهات — ممن تواتيهن الجرأة على الخروج بأطفالهن الصغار أمام الناس دون أن يسترن جسم الطفل بشىء سوى « الكفولة » عندما يكون الطقس شديد الحرارة — أخبرتنى هؤلاء الأمهات أن بعض الغرباء عنهن يوجهون إليهن اللوم أحياناً ، لا لأن هذا التصرف يجافى قواعد اللياقة ، بل لأنهم يفترضون أنه يعرض الطفل للإصابة بقشعريرة البرد ! مع أن أحداً لا يحس بالقلق على الطفل الصغير حين يكون على شاطئ البحر ، الذى هو أكثر برودة من شوارع المدينة . كما أن الأطفال الصغار الذين يمكثون فى عرباتهم عندما يكون الطقس دافئاً ، تنبغى وقايتهم من التعرض للشمس ومن ارتداء الملابس الثقيلة أكثر من اللازم ، لأن حركة الهواء من حولهم تكون قليلة محدودة . والطفل

الذى يأخذ « حمام شمس » ، يمتص جسمه كمية كبيرة من الحرارة ، لذا ينبغى إخراجه من عربته أو مهده المغطى ، كى يصل إليه الهواء الطلق .

ثمة مشكلة أخرى على نقيض مشكلة الرطوبة العالية ، تلك هى مشكلة المناخ الجاف أكثر من اللازم ، الذى يوجد فى كثير من المنازل « والشقق » التى يشيع فيها جو ساخن تخلقه وسائل التدفئة ، ذلك أن الهواء البارد لا يحمل من بخار الماء ما يحمله الهواء الدافىء . لذا فإن الهواء البارد من المناطق الخلوية لو رفعت درجة حرارته فى أحد الأفران ، تهبط درجة رطوبته النسبية هبوطاً حاداً ، وهذا هو السبب فى أنه عندما تتجاوز درجة الحرارة داخل البيت ٧٢° يلحظ الناس الذين لم يألفوا هذا الجو شعوراً بالضيق وعدم الارتياح ، لا سيما الشعور بجفاف الأنف والحلق .

غيرأن هذه الظاهرة لا تثير مشكلة فى غالبية المنازل الخاصة ، إمابسبب وجود ترموستات « جهاز قياس الحرارة » ، وإما لأن المنزل به من المنافذ التى يتسرب منها الهواء ما يجعل من العسير أن ترتفع درجة الحرارة إلى هـذا الحد . كما أن التدفئة فى المبانى المقسمة إلى شقق ومكاتب للعمل تجرى بطريقة أفضل منهـا فى المنازل الخاصة ، لأن العامل الذى يشرف على فرن التدفئة فى المبنى يستطيع أن يرفع الحرارة إلى درجة معقولة إن أراد ذلك . على أنه كلما زاد عـــدد الناس الموجودين فى داخل المبنى ، كان من المحتمل أن تجد من بينهم واحداً يشعر بالقشعريرة مهما تكن درجة الحرارة مرتفعة ، فيشكو البرد إلى ملاحظ المبنى . لذلك يبدو أن القـاعدة التى يسير عليها ملاحظو المبانى وعمال التدفئة هى أن « الحرارة الشديدة خير من البرودة الشديدة » . وكلما اعتاد الناس هذه الحرارة المتطرفة فى المبانى ، زاد اعتمادهم عليها وطلبوا المزيد منها ، حتى إن الأم فى بيتها ،

حين تحس يوماً بانحطاط فى قواها وبشىء من القشعريرة ، تراودها نفسها على رفع حرارة الترموستات « موازن الحرارة » درجتين . فإذا غاب عن بالها أن ترجعه إلى المستوى العادى بعدئذ ، فإنها تألف هذه الحرارة ، وعندما تحس بالقشعريرة فى المرة التاليسة ، تعود فترفع الترموستات « موازن الحرارة » أكثر من ذلك .

وفى أثناء الفصل البارد الذى يتطلب التدفئة ، يلمس الطبيب قيمة وجود كمية كافية من بخار الماء فى الهواء ، من التحسن السريع الذى يطرأ على كثير من حالات السعال وذبحة الزور والزكام ، حين يصف للمريض استخدام « غلاية » فعالة لتبخير الماء أثناء الإصابة بالنزلات .

وحتى فى حالة عدم وجود نزلات برد فى الأنف ، فإن بعض الأطفال الصغار فى البيوت والمستشفيات تنسد أنوفهم أثناء فصـل التدفئة ، من جراء المواد المخاطية التى تجف فى المسالك الأنفية ، لدرجة أنهم يجدون صعوبة حقيقية فى التنفس (فى هذه السن لا يكون عندهم الإدراك الكافى للتنفس من الفم) .

إن مسالك الأنف والحلق والقنوات الشعبية ، تحتوى على غـدد تفرز ما يكفى من المواد المخاطية لأن تظل هذه المسالك والقنوات رطبة بشكل يبعث على الارتياح فى درجات الرطوبة العادية . كما أن الخلايا المبطنة لهذه المسالك لها « أهداب » بارزة منها — زوائد ميكروسكوبية شبيهـة بالمجاديف — تدفع باستمرار المواد المخاطية والغبار والميكروبات وأية إفرازات ناتجة عن الالتهابات إلى أعلى وإلى الخارج . وهـذا هو السبب فى أن المواد المخاطية تتجمع عادة فى الأجزاء الأمامية من الأنف ، وفى أننا عندما نصاب بالنزلة الشعبية ، تصعد المواد المخاطية المتراكمة من الشعيبات الصغيرة إلى القصبة الهوائية الرئيسية ، ثم نبصقها

خارجاً . وعند ما تصاب هذه المسالك بالجفاف ، فإن هذا النظام للتطهير والوقاية لا يؤدى عمله جيداً .

وقد أثبتت التجارب أن بعض الميكروبات التى تسبب احتقان الحلق والالتهاب الرئوى ، تموت أسرع بكثير فى الجو المتوسط الرطوبة ، منها فى الجو شديد الحرارة أو شديد الرطوبة . ولهذا السبب يتعرض الناس تعرضاً شديداً لهذه الالتهابات فى بعض المناطق الواقعة على المنحدرات الشرقية فى جبال روكى ، حيث الهواء جاف أكثر من المعتاد بوجه عام ، ثم إنه يصبح جافاً كالحجر عند ما ترفع درجة حرارته .

ويلحظ كثير من الناس الذين عندهم قشور فى فروة الرأس ، أن هذه القشور تبدأ فى الظهور كل شتاء ، عند ما يعمل جهاز التدفئة بأقصى قوته ، مما يوحى بأن جفاف الهواء لدرجة متطرفة يسبب اضطراباً فى فروة الرأس أيضاً .

وقد ثبت أن وضع أوعية مليئة بالماء على أنابيب التدفئة المشعة للحرارة ، عديم الأثر فى رفع درجة رطوبة الحجرة ، فهذه الطريقة لا تنتج سوى نسبة ضئيلة جداً من بخار الماء المطلوب . إن الوسيلة الوحيدة العملية للاحتفاظ بنسبة معتدلة من الرطوبة فى بيت به نظام للتدفئة (لا يوجد به جهاز محكم لتكييف الهواء أو لا تستخدم به غلاية لتبخير الماء أثناء المرض) هى أن نجعل درجة حرارة البيت أقل من ٧٢° دائماً .

أحياناً ما يتساءل البعض فى قلق ، عما إذا كان الأوكسچين اللازم للتنفس يتوافر فى حجرة مكتظة بالناس ، وما إذا كان «الجو المكتوم» (الذى يعنون به رائحة الأجسام عادة) ضاراً بالصحة ، فى حجرة النوم أو الفصل المدرسى الذى لا تتوافر فيه التهوية الكافية .

هناك إجابات قاطعة لهذين السؤالين . إن حركة الهواء الجارى فى أية حجرة عادية كافية تماماً لأن تزود كل الناس الذين تستوعبهم الحجرة بكمية وفيرة من الأوكسجين . أما « الجو المكتوم » فى الحجرة ، الذى ينشأ عن وجود عدد كبير من الناس يشيع فيهم الدفء ، مع ندرة الهواء النقى فى المكان ، فليس له من أثر ضار فى حد ذاته (ومع ذلك أعود فأكرر أن ارتفاع نسبة الرطوبة هو الذى يسبب الشعور بالضيق) . والواقع أنك لا تكاد تلحظ هـذا « الجو المكتوم » بعد أن تمكث دقيقة واحدة فى الحجرة .

* * *

والآن ينبغى أن نعود إلى مناقشة الموضوع الخاص بقيمة الهواء النقى ، من ناحية التعرض للهواء البارد فى فصل الشتاء . لقد كنت أسخر من ذلك الإيمان الأعمى به ، الذى كان سائداً منذ خمسين عاماً ، لأن هذه النزعة السائدة كادت أن تصبح مسألة متعلقة بالقيم الأخلاقية أو بقوة الخلق عند الإنسان فى تلك الأيام . بل إن نفس هذا الاتجاه ما زال يعبر عنه فى بعض الأحيان ؛ ذلك الشخص (وهو دائماً من الرجال على قدر علمى) الذى يتفاخر بأنه يسير إلى عمله دون أن يرتدى معطفاً ، حتى ولو كان الطقس فى درجة الصفر .

لم تجمع حتى اليوم — على قدر علمى — أية حقائق علمية عن فائدة التعرض للهواء البارد . والواقع أنك لا تستطيع أن تصل إلى أية نتائج سليمة فى هذا الموضوع ، على أساس أقوال المؤمنين به . فالناس الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أن شيئاً ما سينعشهم — سواء أكان ذلك الشىء هو المشن «الدش» البارد ، أم النوم لتسع ساعات ، أم تناول بعض أقراص الفيتامينات — فإنهم سوف ينتعشون منه بالفعل . حتى لقد ثبت من إحدى التجارب المتقنة التى أجريت على المصل

المضاد لنزلات البرد ، أن الأشخاص الذين تطوعوا لأن يحقنوا بالمصل ، لكنهم حقنوا — دون علمهم — بالماء الملح بدلا منه ، قرروا أن مجموع فترات إصابتهم بنزلات البرد قد نقصت بنسبة ٧٥٪ تماماً كما كانت الحال بالنسبة للأشخاص الذين حقنوا بالمصل فعلاً .

لكنى أعتقد أن هناك بعض الدلائل البسيطة — إن رغبتم فى تصديقها (ويمكنكم أن تلمسوا تصديقى لها) — على أن التعرض المعقول للهواء البارد له بعض الفائدة على أقل تقدير ؛ فالرجل الذى يقطع الأخشاب فى الغابات ، والرجل الذى ينزلق على الجليد بانتظام ، والرجل الذى يذهب إلى عمله سيراً على الأقدام ، يوجد بأجسامهم نظام آلى لضبط الحرارة على درجة عالية ، تحفظ حرارة الجسم فى الشتاء ، وتقيه القشعريرة فى جميع الظروف عدا الحالات المتطرفة . أما الشخص الذى يمكث باستمرار تقريباً فى بيت دافىء ، فإن من السهل أن يصاب بقشعريرة البرد عند ما يتعرض للهواء البارد فى بعض الأحيان ، ما لم يكن مرتدياً الكمية المناسبة من الثياب . إذن فما دام من الضرورى أن يخرج الأطفال الصغار والكبار فى نزهات خارج البيت بين الفينة والفينة ، وما دام من المعتقد أن القشعريرة تلعب دوراً هاماً فى بدء بعض النزلات ، فإن الخروج بالأطفال فى نزهات منتظمة قد يكون فيه بعض الوقاية لهم من هذه النزلات .

وما من شك أن الأطفال والبالغين الذين يخرجون فى الهواء الطلق بانتظام أثناء فصل الشتاء ، تكون خدودهم متوردة أكثر من غيرهم ، على حين أن الأطفال الصغار الذين يعيشون دائما فى بيوت شديدة الحرارة تكون بشرتهم شاحبة شحوباً واضحاً . لكنى لست أدرى ما إذا كانت علائم الصحة التى تلوح على الخدود المتوردة تتجاوز سطح الجلد إلى داخل الجسم ، ومع ذلك فإن هذه الخدود تبدو رائعة للناظرين .

كما أن الأطفال والبالغين الذين يخرجون من بيوتهم للرياضة البدنية — مهما تكن الحرارة — تكون « شهيتهم » للطعام أقوى من غيرهم . وقد شكت لى مئات الأمهات من أن أطفالهن الصغار ينتابهم الملل وحدَّة الطبع عندما يتحتم عليهم البقاء فى البيوت أثناء الشتاء خوفاً من نزلات البرد ، وأن الحياة فى البيت تصبح أبهج كثيراً بمجرد أن يسمح لهم آخر الأمر بأن يفرغوا طاقتهم الحيوية خارج البيت .

وفى اعتقادى أنه من المسلى والمفيد للأطفال الصغار أن يألفوا مناظر أخرى غير جدران البيت الأربعة ، وهم يحبون بطبيعة الحال أن تدفعهم أمهاتهم فى عرباتهم ، أو حتى أن يرقدوا بداخلها فى فناء البيت ، يرقبون الأغصان وهى تتمايل . (إذا كان الطفل ينام فى غرفة باردة ، فسوف تتورد وجنتاه وتتفتح شهيته للطعام على أية حال) . كما أعتقد أن الدواء الناجع الذى ينعش كثيراً من الأمهات ، لا سيما فى الشهور الأولى المليئة بالمشاغل والأعباء ، هو أن يضطرهن أطفالهن إلى الخروج من البيت حينا من الزمن كل يوم ، يمددن فيه سيقانهن ويملأن رئاتهن بالهواء ، ويرين الأصدقاء والغرباء .

* * *

ثمة نقطة أخرى بشأن النزهات خارج البيت ، وهى الثياب . فهناك نوع من الدوافع القهرية التى تكاد تتعذر مقاومتها ، تدفع الأمهات إلى إلباس الأطفال الصغار ثياباً أكثر من اللازم . ويراهم الطبيب حين يأتون إلى عيادته فى عرباتهم الدافئة ، وهم ملفوفون فى طبقات فوق طبقات من الصدارات الصوفية والقمصان والمعاطف والشيلان والبطاطين والسراويل ، حتى إنهم أحياناً يتصببون عرقاً أو يظهر عليهم فى عز الشتاء الطفح الجلدى الذى ينشأ عن الحرارة . إنى متأكد أن الطبيعة قد بثت فينا جميعاً شيئاً من القلق المتطرف — على الأقل — بشأن

تدفئة الطفل وإعطائه كفايته من الطعــــام . وأعتقد أيضا أن الطبيعة قد أدركت — على مرّ العصور — أن بعض الأمهات يعوزهن النضج والإحساس بالمسئولية بعض الشيء ، وأدركت كذلك أن شعور الأمهات بشيء من الاهتمام والقلق بشأن تدفئة الأطفال وطعامهم ، فى مقدمة النواحى الجوهرية للمحافظة على حياة الأطفال الصغار ، حتى يتسنى لهم أن يبدأوا فى التعبير عن حاجاتهم ومطالبهم . ولكن المشكلة هى أن الأمهات الشابات ذوات الضمائر الحية اللاتى هن أقل الناس حاجة لهذا الحافز الطبيعى ، هن اللاتى يشعرن به شعوراً فى غاية الحدّة .

على أننا من ناحية أخرى قد نجـــد أحياناً إحدى الأمهات تريد أن تثبت تحررها من العرف السائد وأن تثبت صلابة طفلها الصغير ، فتغطيه بغطاء خفيف للغاية ، مما يبعث الرعب فى قلب جده وجدته والجيران أيضاً .

إن قدمى الطفل الصغير ويديه تكون فى العادة باردة إلا فى الطقس الحـــار ، ومن ثم فهـذه البرودة لا تدل على حاجته إلى مزيد من الغطاء . فحاجته إلى الغطاء — إن احتاج إليه — أقل من حاجة الطفل الأكبر سناً أو الشخص الراشـد . ولو أنه شعر بالبرودة أكثر من اللازم ، لأظهر هذا الشعور — كأى إنسان آخر — عن طريق الشكوى أو شحوب اللون .

أما بالنسبة للأطفال الذين بلغوا من السن ما يسمح لهم بالجرى هنا وهناك ، فإن احتمال مغالاة الأمهات فى إلباسهم ثياباً ثقيلة أقل كثيراً منه فى حالة الأطفـال الرضع ، وذلك يرجع فى اعتقادى إلى أنهم قادرون على العناية بأمر أنفسهم . وأظن أن طائفة قليلة جداً من الأطفال هى التى تلبس ثياباً خفيفة أكثر من اللازم أثناء الشتاء ، لا سيا فى أيامنا هذه التى ظهرت فيها « بدلة الثلج » . غير أن إطلاق اسم « بدلة الثلج » على رداء معين لا يعنى بالضرورة أنه يبعث على الدفء . إن « بدلة

الثلج » المبطنة ببطانة جيدة من الصوف أو بأية مادة أخرى عازلة ، تعتبر كافية جداً فى المناخ البارد ، وأسهل كثيراً فى ارتدائها بالنسبة للطفل والأم من المعطف الخشن والأرجل المنفصلة التى كانت شائعة فى الأزمنة الماضية . لكنى أحس بالقشعريرة حين أرى طفلا صغيراً قد ازرقّ لونه من شعوره بشدة البرد ، وهو يرتدى « بدلة الثلج » المزعومة ، التى ليس لها سوى بطانة خفيفة من القطن « الفانلاّ » . إن مثل هذه البدلة قد تكون بطبيعة الحال ملائمة تماماً فى مناخ أقل برودة من مناخنا .

ما هى الفترة الكافية للنوم ؟

« أنا نفسى أخطىء دائماً ، فأميل إلى
تشجيع زيادة فترة النوم قليلا عن معدلها ،
أكثر من نقصانها بعض الشىء عن المعدل »

ما هى فترة النوم التى ينبغى أن يحصل عليها الطفل ؟ كنت أعتقد عندما بدأت أمارس مهنة الطب أن الإجابة عن هذا السؤال سهلة وقاطعة ؛ إذ كانت معظم مراجع طب الأطفال وكتب رعاية الطفل ، تقدم لنا نوعاً معيناً من الجداول التى تحدد ساعات النوم المناسبة . فأحدها على سبيل المثال ، يقول إن الطفل العادى يحتاج إلى — ومن المحتمل أن يحصل على — ساعات للنوم تتراوح ما بين ١٦ و ٢٠ ساعة فى الأشهر الأولى ، وما بين ١٤ و ١٦ ساعة عندما يبلغ العام ، ثم ١٤ ساعة فى سن الثانية ، ١٢ ساعة فى سن السادسة ، ١١ ساعة فى سن التاسعة ، ١٠ ساعات فى الثانية عشرة (أى إنه يجب أن يذهب إلى الفراش فى التاسعة مساء إذا كان يستيقظ من نومه فى السابعة صباحاً) .

ولكن كلما ازدادت خبرتى فى ميدان الأطفال وجدت أنه من العسير على أن أقطع برأى فى هذا الموضوع . فهناك عوامل كثيرة جداً تتحكم فى النوم .

يوجد اختلاف كبير فى عدد الساعات التى ينامها مختلف الأطفال الصغار فى الأسابيع الأولى من حياتهم . وقد يقول البعض إن هذا الاختلاف إنما يدل فقط على أن أحد الأطفال يحتاج بطبيعة تكوينه إلى ساعات للنوم تقل كثيراً عما يحتاج إليه طفل آخر . لكننى غير واثق على الإطلاق أن الاختلافات الفطرية تلعب الدور الرئيسى فى الشهر الأول أو الثانى من عمر الطفل . فهذه هى السن

التى تنتاب فيها الطفل نوبات المغص ، وما أسميه الصراخ الانفعالى (فترات طويلة من الكدر لا سيا فى المساء) فضلا عن نوبات النكد المتقطعة . وهى أيضاً السن التى تظل فيها طائفة قليلة من الأطفال مستيقظة طوال النهار ، على حين يبقى غيرهم مستيقظاً نصف فترة الليل ، دون أن يتملكهم النكد فى هذه الفترة بصفة خاصة . على أنه فى معظم هذه الحالات ، يتضح أن اختلال نظام النوم ليس له صفة الدوام . فبالتوجيه العاقل المتزن تنام الغالبية العظمى من هؤلاء الأطفال العدد العادى من الساعات ، بعد أن يبلغوا الشهر الثالث من عمرهم .

ومع ذلك فهناك فئة قليلة من الأطفال الرضع ، لا يشقيهم شعور بالشقاء والكدر ولا تشذ حياتهم عن النمط المألوف ، غير أنهم ينامون ساعات تقل كثيراً عن المستوى العادى ، ويستمر عندهم هذا الاتجاه طوال مرحلة الطفولة . من المحتمل إذن أن يكون هناك نظام فطرى للنوم يولد فى الطفل ، ويختلف من واحد إلى آخر . فإذا كان مثل هذا النظام الفطرى موجوداً بالفعل ، فإنه لا يعنى بالضرورة أن الطفل الذى ينام ساعات أقل تكون حاجته إلى النوم أقل من غيره ، وإنما الأصح هو أن هذا الطفل له طبيعة أميل إلى اليقظة — وقد تكون أكثر توتراً — من غيره ، الأمر الذى لا يتيح له أن ينام المعدل العادى لساعات النوم . على أن أجهزة جسمه تكيف نفسها مع هذا الوضع ، وتحاول قدر استطاعتها أن تستفيد من فترات النوم التى يحصل عليها . لعلى أدقق أكثر من اللازم فى معالجة هذه النقطة ، لكنى أفعل هذا لهدف أرمى إليه ، ذلك أن بعض الأمهات — فى اعتقادى — لا ينظرن إلى مسألة النوم نظرة جدية ، فيقررن بكل بساطة أن أطفالهن من النوع الذى لا يحتاج إلا إلى القليل من النوم ، ويتركن الأمر عند هذا الحد ، مع أن نفس هؤلاء الأطفال يمكن أن نحملهم بالتوجيه العاقل على زيادة ساعات نومهم ، مما يعود عليهم بالنفع .

وليس هناك كبير شك فى أن الأطفال والراشدين يمكنهم — فى خلال فترة من الزمن — أن يعتادوا النوم فترة تزيد أو تقل بعض الشيء عما اعتادوه من قبل . فعلى سبيل المثال ، قد يكون فى حكم المستحيل أثناء رحلة أو زيارة أن نحمل الأطفال على الذهاب إلى الفراش فى موعدهم العادى . إنهم يتثاءبون كثيراً عندما يقبل موعد النوم فى الأيام القلائل الأولى ، ثم يبدو أنهم يتكيفون مع الموقف تدريجياً ، إلى حد ما على الأقل . كما أن الكبار عندما يكونون فى إجازة مريحة (خالية من شغب الأطفال) ، قد يجدون أنفسهم ينامون فترة تزيد ساعتين عما كانوا يعتقدون أنهم قادرون على نومها فى يوم من الأيام .

منذ عدد من الأعوام ، انطبع فى ذاكرتى مثال متطرف يدل على مدى إمكان تدريب الأطفال الكبار على زيادة ساعات نومهم . كان ذلك فى إحدى مستشفيات النقاهة الخاصة بالأطفال الذين كانوا مرضى بحمى روماتيزمية أصابت القلب . فى تلك الأيام لم يكن هناك شيء من تلك العقاقير العجيبة التى تقضى على إصابات الحمى الروماتيزمية قضاء مبرماً . كان العلاج الوحيد المعروف حينذاك هو الراحة التامة. وكان نظام الراحة فى هذا المستشفى ينفذ تنفيذاً صارماً، وإجراءات النظام تطبق بدقة وحزم . وكان هناك أطفال تتراوح أعمارهم بين سن الخامسة والثامنة عشرة يتحتم عليهم جميعاً — حتى الذين فى الثامنة عشرة — أن يذهبوا مبكرين إلى الفراش (وتطفأ الأنوار) وأن يأخذوا فضلا عن ذلك إغفاءة قصيرة لمدة ساعتين بعد تناول الغذاء ، لايسمح لهم فى أثنائها بالكلام أو القراءة أو أى شيء آخر يصرفهم عن النوم . وقد ذهلت حين عرفت أن الجميع — حتى المراهقين منهم — اعتادوا بعدقضاء بضعة أسابيع بالمستشفى أن يذهبوا للنوم بعد الغذاء وأن يتوجهوا إلى الفراش مبكرين فى المساء ، تماماً كما يفعل الأطفال فى الثانية والثالثة من عمرهم .

قد يكون صحيحاً أن الأطفال يمكن أن يعتادوا النوم فترة تقل بعض الشيء عن المعدل دون أن يلحق بهم أى ضرر ملموس ، غير أن هذه العادة لها حدودها . فهناك على سبيل المثال مشكلات النوم التى تنشأ فى العام الأول ، حين يتعلم الطفل الصغير أن يقاوم محاولات الأم لوضعه فى الفراش بالليل (حتى إنه بدلا من أن يستقر فى فراشه فى السابعة مساء ، يصر على أن تمشى به أمه فى البيت حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة) أو يعتاد أن يصحو من نومه مرتين أو ثلاثاً فى أثناء الليل طالباً صحبة أمه ، لفترات تتراوح ما بين ثلاث إلى خمس ساعات فى مجموعها . وتقرر غالبية الأمهات أن هؤلاء الأطفال الصغار لا يعوضون فترات النوم الضائعة بالإغفاء بعض الوقت أثناء النهار ، لذلك ينتابهم التعب وحدة الطبع والتوتر طوال اليوم . (علاج هذه المشكلات لن يستغرق سوى ليلتين أو ثلاث ، وهو أن تضع الأم طفلها الصغير فى فراشه فى موعد معقول ولا تعود إليه على الإطلاق) . وأحياناً ما يواجه المعلمون مشكلة الطفل الذى يظل شهراً بعد شهر يتثاءب أثناء الدراسة ، ثم يكتشفون بالتحرى عن حالته أنه يبقى مستيقظاً جانباً كبيراً من الليل ، بسبب اختلال نظام الأسرة أو إهمالها للطفل .

هناك أيضاً حالات شتى من التوتر الوجدانى ، من المعروف أنها تعوق النوم . وسوف أعالج فى أحد الفصول التالية مشكلة القلق الذى يترتب على انفصال الطفل عن أمه ، ومشكلات وقت النوم التى تنشأ فى حالة كثير من الأطفال عندما يناهزون العام الثانى من عمرهم ، على أن النوم يمكن أن يضطرب فى جميع مراحل الطفولة ، من جراء القلق أثناء النهار ، أو الخوف من الكابوس ، أو الشعور بالذنب بسبب بعض الأخطاء المستترة ، أو المنافسات الحادة بين الأطفال . وهذه الحالات لها دوافعها العميقة فضلا عن أسبابها السطحية . لكنها إذا استمرت طويلا ، فإنها تتطلب المساعدة من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة .

من المحتمل فى اعتقادى أن يكون أبعد العوامل أثراً فى كمية النوم التى يحصل عليها الأطفال ، هو نظام النوم الذى تربى عليه الآباء والأمهات أنفسهم . فالآباء يميلون فى معظم الحالات لأن يطبقوا على أطفالهم نفس القواعد التى طبقت عليهم فى الماضى . (غير أن قلة منهم تتمرد على هذه القواعد فتتجه إلى نقيضها) .

لقد تربيت فى إحدى المدن الشرقية على أيدى أبوين من ذوى الضمائر الحية التى يؤرقها الشعور بالواجب ، كانا هما نفساهما يوضعان فى الفراش مبكراً أثناء مرحلة الطفولة ، واعتادا أن ينظرا إلى القواعد الصحية الخاصة بالأطفال نظرة جدية للغاية . وعندما بلغت أنا وشقيقاتى الثامنة أو التاسعة من عمرنا ، كنا لا نزال نتناول عشاءنا من الحبوب والفاكهة والكاكاو على مائدة خاصة بالأطفال ، فى الساعة الخامسة والنصف مساء ، ثم نمكث بعد ذلك داخل البيت ، على أن نأوى إلى الفراش فى السابعة مساء ، حين يبدأ والدانا فى تناول العشاء . (وما زلت أذكر حتى الآن هزيم صوت أبى ذى النبرات الخافتة ، وهمهمات صوت أمى ذات النبرات العالية ، التى كانت تترامى إلينا فى الدور الثانى من خلال سقف الحجرة) ، ولم يكن أبى وأمى يعتقدان فقط أن الأطفال فى طور النمو يحتاجون إلى الكثير من النوم ، بل كانا يؤمنان أيضاً بأن من حق الآباء والأمهات أن يستمتعوا بعشاء هادىء على ضوء الشموع ، حتى إن أحداً منا لم يمنح حق « الترقية » من مائدة الأطفال إلى مائدة العشاء الكبيرة بما تحويه من وجبات الكبار ، إلا بعد أن ناهز العام الثانى عشر من عمره .

وعندما بدأت أمارس طب الأطفال فى مدينة نيويورك بعد عشرين عاماً ، كنت ما أزال أعتقد (ما دمت لم أر شيئاً آخر يختلف عن ذلك) أن جميع الأطفال الصغار الذين تحاط تربيتهم بالعناية والاهتمام ، يتناولون الحبوب والفواكه فى الخامسة والنصف ، ثم يذهبون إلى الفراش فى الساعة السابعة . والواقع أن غالبية

الأمهات اللائى كنت أسدى إليهن نصائحى فى تلك الآونة ، كن يسرن فى تربية أطفالهن على هدى نفس الاعتقاد .

وبعد خمسة عشر عاماً انتقلت إلى منطقة أخرى من البلاد ، حيث كانت الغالبية العظمى من الأمهات يؤمن بآراء مختلفة كل الاختلاف بشأن العشاء وموعد النوم . فقد اعتاد الأطفال هناك أن يتناولوا طعام العشاء فى وقت مبكر بصحبة آبائهم وأمهاتهم ، ثم يذهب الأطفال الصغار إلى الفراش قبل الأطفال الكبار فى العادة ، ولكن كانت هناك اختلافات عجيبة فى موعد النوم بالنسبة لكل سن ، فبعض الأطفال الذين لم يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة كانوا يذهبون إلى النوم فى السابعة ، على حين أن عدداً كبيراً منهم اعتاد أن يسهر حتى الثامنة أو التاسعة ، بل لقد كانت هناك طائفة قليلة منهم لا تأوى إلى الفراش قبل الساعة العاشرة ، أو حتى بعد ذلك . وقد صدمت لهذا الوضع فى بادىء الأمر ، وتوقعت أن الذين يتأخرون فى النوم — ولو حتى باعتدال — سوف ترتسم هالات سوداء تحت عيونهم وينتابهم التعب والإرهاق ويظلون يتثاءبون طوال اليوم . ومع ذلك فقد وجدت أن معظم أولئك الأطفال الذين لا يسرفون فى السهر لدرجة متطرفة ، تبدو عليهم أمارات الصحة بشكل معقول .

* * *

إن بعض الأمهات اللائى يؤمن إيماناً قوياً بأهمية النوم الكثير للأطفال ، يصادفن من المتاعب فى حمل أطفالهن على الذهاب إلى الفراش ما يزيد كثيراً عما تصادفه غيرهن من الأمهات ، فنحن قد نعتقد أننا نضع أطفالنا فى الفراش بطريقة عملية واقعية ، لمجرد أننا نعلم أنهم فى حاجة إلى النوم . غير أننا إذا تجاوزنا هذه النظرة السطحية ، نجد أن شتى الاتجاهات والنزعات تتداخل فى موعد النوم ، فأحد المتاعب التى تصحب فترة المساء هو أن الأم تكون عندئذ متعبة كالطفل

سواء بسواء ، وإذا كان الطفل قد اتبع معها كل وسائل « العفرتة » طوال النهار ، فإن من المحتمل أن تكون قد تراكمت فى نفسها كمية كبيرة من الغيظ والتوتر . لذا فإنها قد تنفس عن هذا الغيظ بكل جلاء ووضوح فى نداءاتها للطفل كى يذهب إلى الفراش ،فنبرات صوتها تقول له : « يمكننى الآن بحق أن أسوى حسابى معك آخر الأمر . سوف أجعلك تكف عن فعل الأشياء التى تحبها ، وأرغمك على أن تفعل آخر شىء تميل إليه » . إن هذه النغمة إذا استخدمتها الأم بانتظام ، كفيلة فى خلال أسبوعين بأن تحول الطفل الذى يحب الذهاب للفراش إلى طفل يناضل لعدم الذهاب إليه .

أو نجد أماً ينتابها شعور مزمن بالتوتر ، غير أنها تحس بالذنب من جراء ذلك ، فتعوزها قوة السيطرة . هـذه الأم تتراجع فى موقفها إذا عارضها الطفل معارضة شديدة . فهى تقول له غاضبة : « كان ينبغى أن تكون فى الفراش منذ نصف ساعة مضت — هيا أسرع » . وعلى الفور يجادلها الطفل الذى أصبح محامياً أريباً بحكم إدراكه لنواحى الضعف فى أمه : « لقد سمحت لى بالسهر حتى الساعة التاسعة يوم السبت الماضى » . أو : « إنك لم تقرئى لى قصة » أو : « أريد الانتظار حتى يعود بابا إلى البيت » . فتسائل الأم نفسها عما إذا كانت قد تسرعت فى تصرفها أو عاملته معاملة غير عادلة . وسواء قررت أن تقف موقفاً حازماً أو أن تتهاون معه ، فإنها تتردد المدة الكافية التى تشجعه على أن يعاود المحاولة فى المرة التالية . وعندما يستمر هذا النوع من الجدل شهوراً عديدة ، فإن من الممكن بكل سهولة أن يستنفد ساعة كل مساء من الوقت المفروض أنه مخصص للنوم .

وأنا لا أعنى بهذا الكلام أن بعض الأمهات ينجحن دائماً فى فرض سيطرتهن فيما يختص بموعد النوم ، على حين أن غيرهن يخفق دائماً فى هذا المجال . ولكننا جميعاً نصادف مواقف النجاح والفشل ، إذ أنها تتوقف على الطريقة التى نسير

بها أمورنا مع الطفل فى النواحى الأخرى ، وعلى مدى توفيقنا فى الحياة . كما أن الهفوات التى تحدث الفينة بعد الفينة ، لاتؤدى إلى القضاء على النظام الذى نرسمه للطفل . ومع ذلك فالأمر يتطلب منا قدراً معقولاً من الثبات والمثابرة ، فضلا عن خلق شعور أساسى بالصداقة مع الطفل ، كى يسير نظام مواعيد النوم بطريقة يسيرة هينة .

عند ما نتحدث عن حصول الأطفال على كفايتهم من النوم — أو حصول الآباء والأمهات على كفايتهم من الراحة — يجب ألا تغيب عن بالنا مشكلة ساعة « اليقظة » ؛ فهذه فى اعتقادى إحدى المشكلات التى يثمر فيها التدريب المبكر . ففى بعض الأسر يضطر أحد الوالدين — على الأقل — إلى الاستيقاظ فى السادسة صباحا ، لمجرد أن الأطفال يكونون فى تلك الساعة قد استيقظوا تماماً وفى حاجة إلى الرعاية . على حين نجد فى أسرة أخرى ، أن جميع أفرادها يكونون لا يزالون فى إغفاءة النوم ، حين ينطلق جرس المنبه فى الساعة الثامنة . فما هى الأسباب التى تؤدى إلى هذا الاختلاف ؟ قد نرجعها فى بعض الحالات إلى ميل فطرى لليقظة يظهر عند بعض الأطفال منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، أو على الأقل ميل إلى اليقظة عند طفل واحد فى الأسرة ، وهو الذى يوقظ الآخرين ، ولكن أغلب الظن عندى أن التدريب يلعب الدور الرئيسى فى هذه الناحية ، لاسيما تدريب الطفل الأول . ففى الشهور الأولى تستيقظ الغالبية العظمى من الأطفال الصغار فيما بين الخامسة والسادسة صباحا ، سواء أكان ذلك فى الصيف أم فى الشتاء ، وسواء أكانت الغرفة مظلمة أم مضيئة . وبعد أربعة أو خمسة أشهر ، يبدى معظمهم ميلا تدريجياً إلى التأخر فى النوم عن هذا الموعد . ولكن إذا كانت الأم من ذوات الضمائر الحية التى يؤرقها الشعور بالواجب فتنام وقد أرهفت إحدى أذنيها ، وتقفز من الفراش عند أول صوت أو همهمة تبدر من

غرفة الطفل الصغير ، فإنها بهذه الطريقة قد تصل إليه دائما قبل أن يفتح عينيه . وهذا الأسلوب يدربه على أن يستمر فى الاستيقاظ مبكراً ، وأن يتوقع رعاية أمه منذ اللحظة الأولى التى يستيقظ فيهـا . أما إذا تناومت الأم عند مطلع الفجر فى انتظار أن ترى هل سيعود الطفل إلى النوم ، أو — إن لم يفعل — هل سيقنع بعض الوقت على الأقل باللعب بيديه أو بإحدى لعبه ، فأغلب الظن أنها ستدهش وتبتهج لمدى التقدم الذى تحرزه مع الطفل بشأن موعد الاستيقاظ .

وإذا تدرب الطفل الأول على النوم حتى ساعة مناسبة من الصباح فإن هناك احتمالا قوياً أن يبث نفس النظام فى الأطفال التالين ، حتى لو اقتضت الظروف أن يشتركوا معاً فى حجرة النوم .

وجدير بالذكر — ونحن نناقش مسألة التدريب — أن غالبية الأطفال الصغار يمكن تدريبهم على النوم فى شتى أنواع الضجة المنزلية المألوفة ، حتى ولو لم يوجد باب مغلق يحول بين غرفة الطفل وهذه الضجة ، التى تتمثل فى أصـوات التليفون والتليفزيون ، ونداءات الأطفال الأكبر سنا ، وضحكات الضيوف الكبار فى الأمسيات . على أننا من ناحية أخرى نجد أنه إذا سار أهل البيت على أطراف أصابع أقدامهم ، أو لجأوا إلى الهمس حين يكونون على مقربة من حجرة الصغير فإنه يتدرب على أن يستيقظ كلما حدثت ضجة من باب الخطأ . ولـكن ليس جميع الأطفال يمكن تدريبهم على تحمل الضجيج بنفس السرعة . فالبعض منهم يكون بطبيعته متبلداً نسبياً منذ البداية . فى حين أن هناك ـ على النقيض ـ بعض الأطفال الذين يكادون يقفزون من جلدهم ذعراً إذا ما سقط جسم على الأرض أو صفق باب على مقربة منهم ، فى الأسابيع القلائل الأولى من حياتهم . ومع ذلك فحتى الأطفال ذوو الحساسية المفرطة يمكن أن يتحملوا بالتدريج

مزيداً من الضجة ، إذا أتحنا لهم الفرصة للتدريب على ذلك .

* * *

هل عقدت السؤال الخاص بالفترة التى ينبغى أن ينامها الطفل ، بدلا من أن أوضح الرد عليه ؟ أعتقد أنى قد بينت فى جلاء أنه لا يمكن أن تكون هناك إجابة واحدة محددة عن هذا السؤال ، فكمية النوم التى يحصل عليها الطفل أو يبدو أنه محتاج إليها ، تتأثر بعوامل عديدة ، كالفروق الفطرية الطبيعية بين الأطفال (التى لم تثبت علمياً فى الواقع) ، واضطرابات النوم التى تلازم الشهرين الأول والثانى من عمر الطفل ، وأفكار الأمهات بشأن النظام السليم للنوم ، ومدى لباقتهن وعزمهن فى حمل الطفل على الذهاب إلى الفراش ، وحالات التوتر التى يحتمل أن تحرم الطفل من النوم .

ومع أنى أعتقد أن الأمهات يجب أن يأخذن العوامل الفردية فى اعتبارهن ، فإنى لا أظن أن تحديد موعد النوم ينبغى أن يترك أمره للطفل . لكنى أنا نفسى أخطىء دائماً ، فأميل إلى تشجيع زيادة فترة النوم قليلا عن معدلها ، أكثر من نقصانها بعض الشىء عن هذا المعدل . وأحسب أن هذا الاتجاه عندى يرجع إلى الطريقة التى نشئت عليها ، وإلى أن الأطباء محافظون فى تفكيرهم عادة ، وإلى شعورى بأن الأطفال الذين ينشأون على أيدى أمهات حريصات على العناية بأمرهم ، يكونون بوجه عام أكثر تمتعا بالصحة من غيرهم . ومن ثم فإنه بعد أن يبلغ الطفل شهره الثالث ينبغى لى — كأحد الآباء — أن أضع له جدولا من جداول مواعيد النوم التى ذكرتها فى بداية هذا الفصل (على أن تشمل إغفاءة ما بعد الظهيرة حتى يبلغ الطفل عامه الرابع أو الخامس) . أما إذا كان طفلى يحصل على قدر من النوم يقل كثيراً عن الفترة المحددة ، فإنى فى هذه الحالة أفضل مناقشة الأمر مع الطبيب ، كى أعرف أهذه صفة لا أهمية لها يتميز بها الطفل ؟

أم أن هذه الظاهرة ترجع إلى سوء سياستى فى تدبير أموره ؟ لـكنى بطبيعة الحال لا أدعو الأم إلى أن تجلب على نفسها وعلى طفلها الشقاء بالإصرار على اتباع جدول جائر لمواعيد النوم لا يتناسب مع طبيعته ، فهذا الاتجاه ضرره أكثر من نفعه . إنى أنوه فقط أنه فى كثير من الحالات التى تقلّ فيها فترة النوم عن القدر المناسب ، قد توجد توترات فى نفس الطفل ، أو مشكلات معينة لا يراها الوالدان ، يمكن علاجها إذا عولجت فى الوقت المناسب . إن مرحلة الطفولة المبكرة هى المرحلة التى يسهل فيها تكييف نظام النوم عن طريق التوجيه السليم من جانب الآباء والأمهات . كما أن نظام النوم الذى يتبع فى هذه المرحلة قد يستمر مدى الحياة .

الأسنان والحلوى

« من المستحسن أن نبعد الحلوى عن الأطفال
بقـــدر المستطاع ، ولأطول مدة ممكنة »

عندما كنت أعمل فى « المركز الصحى للترسانة » بمـــدينة بيتسبرج كان الدكتور ميلتون نيكلسون من بين أفراد الهيئة الطبية هناك ، وهو أستاذ فى طب الأسنان يتسم ببعـــد النظر ويهتم اهتماماً شديداً بطب الأسنان الوقائى . وكنا — أنا وهو — دائماً ما نرثى أحدنا للآخر لما نصادفه من فشل فى إقناع الأمهات جميعا — على قدر ما استطعنا أن نلمس من خلال تجاربنا — بأن من المستحسن أن يبعدن عن الأطفال ، الحلوى والمياه الغازية والفطائر الدسمة وما إلى ذلك من الحلوى ، بقدر المستطاع ولأطول مدة ممكنة .

وأنت لا تستطيعين أن تبعدى الحلوى عن الأطفال إلى ما لا نهاية ، لأنهم عندما يكبرون فى السن ، يرتادون الحفـلات ، ويذهبون إلى المدرسة ، مارين بمحال الحلوى . وعندئذ تضطر الأمهات الطيبات إلى السماح بهـا للأطفال فى بعض الأحيان — حتى ولو كن يحددن كميتها إلى حد بعيد — لأنهن لا يردن أن يسلـكن مسلك العجائز العابسات المتعسفات .

على أية حال ، لماذا كنا — أنا والدكتور نيكلسون — نثير الضجة حول هذا الموضوع ؟ ذلك لأن هنـاك دلائل كثيرة على أن النشا والسكر هما السبب الرئيسى فى تسوس أو تآكل الأسنان . فالباحثون يعتقدون أن حامض اللبنيك يحلل قلب الأسنان من داخل الفجوات . وهذا الحامض تصنعه الميكروبات التى لا تعيش إلا فى النشا والسكر . كما أن الدراسات العلمية تؤكد أن مدى الفترة التى تحتك فيها المواد الـكربوهيدراتية بالأسنان — ساعة بعد ساعةوعاما بعد

عام — قد يكون هو العامل الرئيسى فى التسوس . لذلك فإن « المصاصات » التى تستغرق وقتاً فى امتصاصها قد تكون أكثر ضرراً من الحلوى التى تذوب فى الفم سريعاً .

كما أن « القراقيش » والفطائر التى تنحشر فى فجوات الأسنان وتلتصق بجوانبها قد تكون أسوأ أثراً من أصناف الحلوى شبه السائلة . وفضلا عن ذلك فإن تناول المواد الكربوهيدراتية فى خمس وجبات يومياً يضر بالأسنان أكثر مما لو تناولناها فى ثلاث وجبات فقط . ثم إن قضم الحلوى باستمرار فى جانب كبير من اليوم هو أسوأ هذه الأشياء جميعاً . غير أن صنوف الطعام التى تحتوى على كثير من المواد الخشنة مثل الفواكه الفجة « النيئة » والخضراوات واللحوم المتماسكة تنظف الأسنان بعض الشيء ، وشرب الماء أو اللبن فى نهاية الوجبة يغسلها إلى حد ما ، أما خير وسيلة ناجعة فهى أن ننظفها « بالفرشاة » بعد كل وجبة وقبل الذهاب إلى الفراش .

وغالبيتنا نحن الآباء نعرف هذه الحقائق معرفة عامة ، ومع ذلك فإن معظمنا يبدو أنه لا يهتم بها كثيراً (فى أسرتى أنا أيضاً) ، مع أننا لا نهمل فى صحة أبنائنا من النواحى الأخرى ، فنستدعى لهم الطبيب فى حالة المرض ، ونأخذهم للتطعيم ضد الأمراض ، ونعطيهم ڤيتامينات غالية الثمن كى تنمو عظامهم قوية .

إن أحسن تفسير لهذه الظاهرة يتبادر إلى ذهنى ، هو أن هناك ارتباطاً وثيقاً جداً فى أذهاننا وقلوبنا بين الحلوى وبين الحب . فعندما كنا أطفالا صغاراً ، كان آباؤنا كثيراً ما يظهرون إعجابهم بتصرفاتنا أو حبهم لنا بإعطائنا شيئاً من الحلوى : « لقد أكلت كل خضراواتك ، لذلك تستطيع أن تأخذ قطعة كبيرة من الكعك » . « لقد كنت ولداً مهذباً للغاية أثناء غياب ماما فى المدينة ، يمكنك أن تأخذ قطعة من الحلوى » . « إن ماما تخور بشجاعتك فى عيادة

الطبيب (أو حتى طبيب الأسنان !) ، لذا سنتوقف لشرب شيء من المياه الغازية فى طريقنا إلى البيت » . بل إن الطبيب الذى يجب عليه من دون الناس جميعاً أن يعطى القدوة الطيبة ، قد يكافىء الطفل الذى يسلك سلوكا حسناً فى عيادته بإعطائه « مصاصة » .

ومن ثم فالشعور بأن الحلوى تدل على الحب يغرس فينا منذ الطفولة المبكرة ، ويرسخ عميقاً قوياً فى نفوسنا ، وبعد أن نتجاوز مرحلة الطفولة ، يقدم الشاب منا إلى حبيبته علبة من الحلوى على شكل قلب تعبيراً عن حبه . بل إن المرأة الناضجة التى يؤرقها الشعور بالوحدة ومن عدم تقدير الرجال لها ، يمكنها أن تبعث فى قلبها الكثير من الراحة والسلوى ، بأن تشترى لنفسها علبة كبيرة من الشوكولاته ، فتلتهمها عن آخرها . كما أن من أحب الكلمات التى ندلل بها أحبابنا كلمتى : « يا حلوة » و « ياشربات » .

وعندما يأتى اليوم الذى ننجب فيه أطفالا من صلبنا ، فإننا لا نستطيع بسهولة أن نتجاهل هذا الاتجاه الراسخ فى أعماقنا ؛ إذ نحس برغبة جارفة فى أن نعبر لأطفالنا عن حبنا بنفس الطريقة التى كان آباؤنا يعبرون بها عن حبهم لنا . ورغم أننا قد نستمع بآذاننا إلى كلمات طبيب الأسنان أو الطبيب الباطنى أو إحدى المقالات التى تبين لنا أن الحلوى ضارة بالأسنان ، إلا أن هذه الكلمات لا تنفذ إلى ذلك الشيء الذى نسميه « القلب » .

وبعبارة أخرى ، إننى والدكتور نيكلسون وجميع الأطباء الآخرين الذين يحاولون وقف المد الزاحف على أطفالنا من المشروبات السكرية ، إنما نناضل فى وجه قوة عاتية . إننا كالصيادين الذين يحاولون وقف هجوم الفيلة ببنادق الرش .

* * *

هل من الممكن أن تكونى أماً عطوفاً ترضى الرغبات التى يشتهيها أطفالها بين الوجبات ، دون أن تضحى بأسنانهم غنيمة سائغة للميكروبات الكامنة فى حامض اللبنيك ؟

ابتداء من مرحلة الطفولة الأولى فصاعداً ، يمكنك أن تقدمى لهم « الحلو » بعد تناول الطعام ، من الفواكه المطبوخة التى لا تكون محلاة بالسكر أكثر من اللازم ، أو من الفواكه الفجة « النيئة » . ويمكنك أيضاً أن تعملى على أن يظل الأطفال فترة طويلة من الزمن يجهلون مذاق الكعك والفطائر ، بل إن فى وسعك بعد ذلك أن تجنبيهم إغراءها بوسيلة فى غاية البساطة ، هى أن تحرصى على ألا توجد مثل هذه الأصناف فى المطبخ ، ذلك إن لم يطلبها الكبار أنفسهم .

ويمكنك أن تبعدى الفواكه المسكرة عن البيت إلا فى القليل من المناسبات الخاصـة . كما أنى أمنع طفلى من شراء هذه المسكرات أو غيرها من الحلوى بانتظام فى أثناء عودته من المدرسة إلى البيت (أو فى أى وقت آخر) . والأهم من ذلك كله هو أن تتجنبى استخدام الفـاكهة المسكرة أو الحلوى كنوع من المكافأة أو الرشوة للطفل ، فإن هذا سيؤدى فقط إلى زيادة اشتهائه لها .

وإذا لم يبد على الطفل أنه فى حاجة إلى وجبة خفيفـة (تصبيره) فى منتصف الصباح أو بعد الظهيرة ، فإن من الأفيد لأسنانه أن تتخلى عن هذه الوجبة . أما إذا كان من الضرورى أن يتناول شيئاً ما فربما كان أخف الأضرار بالنسبة لأسنانه هو تناول اللبن ، أو الفواكه ، أو عصير الخضراوات ، أو عصير الفاكهة.

* * *

رغم أنه لم يعرف بعد سوى القليل من المعلومات العلمية عمـا هى بالضبط

العناصر الغذائية التي تؤدى إلى تكوين أسنان تقاوم التسوس ، فقد ثبت بالدليل القاطع أن وجود الكمية المناسبة من فلوريد الجير فى الماء الذى تستهلكه السيدات الحوامل والأطفال الصغار ، له قيمة كبرى فى هذا المجال . فهو ينقص — بنسبة الثلثين — من تسوس الأسنان فى حالات الأطفال الذين درجوا — منذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم — على تناول مثل هذا الماء (ذلك أن فلوريد الجير يجب أن ينفذ إلى الأجزاء العليا من الأسنان اللبن وهى بعد فى طور التكوين ، أى قبل مولد الطفل) . وفوائد هذا الفلوريد لا تعود فقط على الأسر التى تحرص على أداء واجبها نحو أطفالها ، بل تعود أيضاً على جميع الذين يدرجون فى مدارج النمو فى مجتمع يتمتع بشرب الماء الممزوج بفلوريد الجير .

وقد انتشرت عملية إضافة فلوريد الجير إلى مياه الشرب انتشاراً سريعاً فى الأعوام الأخيرة ، ومع ذلك فما زال أمامها شوط طويل عليها أن تقطعه . ذلك لأن هذه العملية عندما تدرس لأول مرة فى إحدى المدن ، يرغب الأهالى فى التأكد من سلامتها ، مما يستنفد بعض الوقت فى مناقشة الموضوع . لقد أجريت بطبيعة الحال تجارب فى غاية الدقة والإتقان على مياه الشرب بعد إضافة فلوريد الجير إليها ، ولم يوص باستخدامها على الإطلاق إلا بعد أن ثبتت سلامتها وحازت رضا السلطات الصحية والطبية وأطباء الأسنان . والواقع أن فلوريد الجير يوجد دائماً بطريقة طبيعية فى بعض أنواع مياه الشرب التى تمد بها المدن ، وقد أكتشفت قيمته لأول مرة من التجارب التى أجريت على هذه المياه . إنى أحس بالفخر لأنى قد عشت السنوات الأخيرة فى مدن توافر لها الإدراك السليم بحيث منحت أطفالها هذا النوع من الوقاية . فإذا ظهر اقتراح يدعو إلى تنفيذ هذا المشروع فى مدينتك فعليك أن تعضديه بكل الوسائل .

ولفائدة الأطفال الذين لم يحصلوا على فلوريد الجير عندما كانت أسنانهم فى

طور التكوين يستطيع طبيب الأسنان أن يطلى أسنانهم بفلوريد الجير القصديرى .. كما أن نفس المادة تدخل الآن فى تركيب نوع من معجون الأسنان ، يمكن أن تكون له قيمته فى المحافظة على الأسنان إذا استخدم بانتظام .

ولكى نعطى أطفالنا الفائدة الحقيقية من تنظيف الأسنان بالفرشاة ، يجب أن نغرس فيهم عادة تنظيفها بعد كل وجبة وعند الاستيقاظ من النوم وقبل الذهاب إلى الفراش . كما عليك أن تتذكرى دائما أن عملية تسوس الأسنان تحدث أساساً فى أثناء الساعة أو الساعتين اللتين تعقبان تناول النشا والحلوى .

٢

مركز الطفل في الأسرة

الطفل الأكبر والأوسط والأصغر

« رغم أن مركز الطفل فى الأسرة له أهميته ، فإن الأهم
منه ، هو نوع الأسرة من ناحيــة روحها واتجاهاتها »

عندما تصفحت المقالات التى نشرها رجال علم النفس وعلماء الاجتماع والأطباء النفسانيون ، لأرى ما جمعوه من حقائق علمية عن أثر مركز الطفل فى الأسرة على شخصيته وأخلاقه ، اعترتنى الدهشة لأول وهلة ؛ إذ لم أجد سوى القليل جداً من الإحصائيات التى تثبت أن الطفل الأكبر ينحو فى اتجاه معين ، على حين ينحو الأصغر فى اتجاه آخر . فالإحصائيات الموجودة تبين أنه بوجه عام لا توجد فروق كبيرة وثابتة بين الطفل الأكبر والأوسط والأصغر ، من ناحية طبيعة الشخصية أو نوع المشكلات التى تحيط بالطفل .

لعلك تحسين بالرغبة فى أن تقولى : « كلام فارغ ! إنى أعرف جيداً أننى وإخوتى وأخواتى جميعا قد تأثرنا تأثراً قويا ، كلٌّ بوضعه كطفل أول أو ثان أو أصغر . وأنا أعرف مواقف مشابهة فى أسر أخرى » . إنى أوافقك على هذا الرأى . وهذا هو السبب فى أنى أريد مناقشـــــة هذا الموضوع . فمن البديهى أن هناك اتجاهات شتى ومختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يتجه إليها الطفل الأكبر مثلا . فاتجاه الطفل إنما يتوقف على ظروفه فيما إذا كان ولداً أو بنتاً ، ضخماً أو ضئيلاً ، نشيطاً أو هادئاً . على حين أن الإحصائيات تدل فقط على أنك إذا جمعت الأنواع المختلفة من الأطفال الأوائل ، وقارنت المتوسط فيها بالمتوسط فى الأنواع المختلفة من أطفــال الوسط ، فإن النماذج الفردية التى نعرفها جميعا بين الأطفال ، تتساوى بعضها مع بعض أو تضيع معالمهــا فى الإحصائيات .

منذ أعوام مضت اعتادت هيئة التدريس بمدرسة الحضانة الملحقة بكلية « ساره لورنس » — وكنت إذ ذاك أعمل بها جانباً من الوقت — أن تناقش حالات عدد من الأطفال الأوائل الذين انحرف مزاجهم أشد الانحراف عند مولد الأخت أو الأخ الأصغر منهم . فقد تحول عدد كبير من هؤلاء — مؤقتاً على الأقل — من أطفال مجدين متحمسين يتسمون بالود والمرح إلى أطفال هادئين يخيم عليهم الحزن والكآبة . وكنا نحن أعضاء هيئة المدرسة نتعاطف مع الأطفال الأوائل بصفة عامة ، لشعورنا أن معظمهم يشق عليه أن يعزل من مركزه كطفل وحيد فى الأسرة . ثم حدث بعد ذلك أن قام أحد أفراد هيئة التدريس بمراجعة كل السجلات الخاصة بالأطفال الأوائل الذين التحقوا بهذه المدرسة — لعدة أعوام مضت — كى يرى مدى الزيادة التى طرأت على عددهم . ولدهشتنا الشديدة ، تبين من الإحصائيات غير الرسمية أنه مقابل كل طفل بدت عليه علائم الانحراف والكدر بصورة واضحة عند مولد الطفل التالى ، يوجد طفل آخر لم ينظر إلى المولود الجديد على أنه عقبة فى طريقه على الإطلاق ، بل ظل سعيداً فى حياته كما كان من ذى قبل .

من المحتمل أن هؤلاء الأطفال الذين يتقبلون مقدم الطفل الثانى بهذا الأسلوب الناجح ، يتمكنون من ذلك بسبب شعورهم شعوراً خاصاً بالأمان والطمأنينة ، ينبع من مجرد إحساس الطفل بأنه الأكبر .

وبهذه المناسبة قلما يتكدر الطفل الأول بسبب مولد الطفل الثالث ، فالظاهر أنه — أو أنها — قد جرب كل ما أوتى من مشاعر الغيرة عند مولد الطفل الثانى ، ثم تظهر من هذه المشاعر على نحو ما فى محاولته التكيف مع الوضع الجديد . والواقع أن غالبية الأمهات يَذْهان لمدى ما يبديه الطفل الأول من شغف بالثالث ، حتى ولو كان قد أظهر غيرة شديدة من الطفل الثانى . فهو يبدو الآن كما لو كان قادراً

على أن يشعر نحوه شعور الأب المحب لا المنافس الغيور . وهذا النمط السلوكى هو أقوى الأدلة الماثلة أمامنا ، على أن مرحلة الغيرة ، إذا لم تكن طاغية أكثر من اللازم ، وإذا تمثلها الطفل وهضمها تدريجياً ، فإنها يمكن أن تكون فى الحقيقة تجربة بناءة له ، وكأنما هى تحصنه وتقويه لمواجهة أية مشاعر من نفس النوع قد تهدده فى المستقبل .

ورغم أن مركز الطفل فى الأسرة عامل له أهميته ، فإن الأهم منه هو نوع الأسرة من ناحية روحها واتجاهاتهـا . فإذا كانت أسرة تأخذ الأمور ببساطة ويتقبل فيها الوالدان كل طفل على علاته بطريقة طبيعية ، فالأرجح فى هذه الحالة أن يشعر كل واحد من الأطفـال بالارتياح فى مركزه الخاص بين أفراد الأسرة ، أياً كان هذا المركز . غير أن معظمنا نحن الآباء ينظر إلى أبنائه نظرة ناقدة لا تتسم بهذه البساطة ، فيبدى لهم من الاستهجان بقدر ما يبدى من الاستحسان ، ويميل فى كلماته وتصرفاته إلى مقارنة أحد الأطفال بالآخر . لذلك فإن الأرجح فى هذه الحالة هوأن ينزع الأطفال إلى التنافس ؛ إذ يشتد إحساسهم بمن هو الأكبر فيهم ، أو من هو الأقوى ، أو من هو أكثرهم وسامة ، أو أكثرهم تمتعاً بالامتيازات ، أو أكثرهم نجاحاً فى حياته .

كما أن بعض الآباء والأمهات يسهـل عليهم التعامل مع ذلك النوع من الأطفال الذى يتسم بالهدوء والخضوع منذ مولده ، على حين أن غيرهم يجد متعة كبرى فى التعامل مع الأطفال الذين يتصفون بالجرأة والحيوية . كما أن بعضهم يشتهون البنين — على الأقل — فى مرحلة معينة من مراحل نمو الأسرة ، فى حين يتوق غيرهم إلى البنات . وهكذا يمكنك أن تلمس أن تجاوب الآباء والأمهات مع الأطفال ، يمكن أن يكون أكثر أهمية فى صياغة شخصية الطفل من مركزه كطفل أول أو ثان أو ثالث فى الأسرة .

هناك ناحية أخرى لها بعض الصلة بهذا الموضوع ، ألا وهى عدد أفراد الأسرة . فبوجه عام ، كلما كانت الأسرة أكبر عدداً ، قلّ الاحتمال أن يؤدى مولد طفل جديد إلى اختلال حالة التوازن التى وجدت قبل مولده . وما دام اهتمام الآباء والأمهات موزعا بين عدد كبير من الأطفال ، فإن هناك فرصة أكبر لأن ينمو كل واحد منهم فى نمطه الطبيعى . على أن هناك — على النقيض — بعض الآباء الذين لا يتيسر لهم أن ينجبوا أكثر من طفل أو طفلين ، أو الآباء الذين يعقدون العزم مقدما على ألا ينجبوا سوى هذا العدد . ومن ثم فإن هؤلاء فى غالبية الأحيان يكون عندهم استعداد أكبر لتركيز اهتمامهم وآمالهم وهواجسهم على هذا الطفل أو الطفلين .

إن طبيعة تكويننا نحن البشر — إذا كانت شخصيتنا سوية إلى حد معتدل — تجعلنا ننظر إلى طفلنا ، لا سيما الطفل الأول ، لا على اعتباره إنساناً جديداً مستقلا مجهول الشخصية ، بل على أنه تعبير عن ذاتنا . إننا بطبيعة الحال نعتبر أنفسنا من أبناء المدرسة الحديثة المستنيرين ، فنـدلى بأقوال حكيمة عن رغبتنا فى أن ينمو الطفل بطريقته الخاصة ، وأن يصوغ حياته على هواه ، ما دام يتمتع بالسعادة . ونحن إذ نقول هـذا الكلام ، نقوله فى إخلاص ، وسوف نحاول بالفعل أن نسير على نهجه . غير أن طبيعتنا الحقيقية — الطبيعة البشرية العاتية فى أعماقنا — لا تتوافر عادة عندها النية لأن تتبع هذا الأسلوب اللين المتساهل فى تربية الطفل . فالواقع أننا فى بعض الأحيان لا ننتظر حتى يولد الطفل ، كى نبدأ فى صياغته على نمط الشخصية التى نتخيلها . حتى لقد دهشت بعض السيدات اللائى كن يعالجن علاجاً نفسياً فى أثناء فترة الحمـل ، حين عرفن من تحليل أحلامهن وأحلام يقظتهن أنهن يتوقعن بصورة محددة قاطعة أن تتوافر صفات

مميزة خاصة فى المولود الذى ما زال فى علم الغيب من جميع نواحيه ، حتى بالنسبة لجنسه ، ذكراً كان أم أنثى .

ونحن نميل بوجه عام إلى أن يكون طفلنا شبيهاً بنا ، بل ربما نفضل أن يفوقنا وسامة بعض الشيء ، وأن يتمتع بنفس اهتماماتنا وهواياتنا ، وأن يتذوق نفس الأشياء التى نجدها فكهة أو ملهمة ، وأن يوفق فى مهنة من المهن التى نعجب بها .

على أن اهتمامنا لا يقتصر على النواحى الإيجابية فحسب ، بل إننا نخشى أيضاً أن ينشأ طفلنا ضعيفاً أو « شقياً » فى ناحية من النواحى التى كنا نعتبر فيها ضعافاً أو « أشقياء » أثناء طفولتنا ، أو أن يفشل فى مجال ما نحس أننا قد اقتربنا فيه من الفشل .

إن هذه المشاغل التى تشغل بال الآباء والأمهات ، لا تؤدى بالضرورة إلى إلحاق ضرر بالطفل . حقيقة أن الأب الذى يستبد به القلق من شدة لهفته على أن يلتحق ابنه بالكلية التى تخرج فيها هو ، وأن يمتهن نفس مهنته ، قد يؤثر فيه تأثيراً سيئاً ، إن كان غلاما لم يخلق لهذا الاتجاه بطبيعته . كما أن البنت قد ترهق إرهاقاً شديداً إذا أصرت أمها الطموح على أن تجعلها تتلقى دروساً فى الرقص ودروساً فى الموسيقى ، بل ودروساً فى السباحة . ومع ذلك فإن المطامح والآمال التى تراود الآباء والأمهات العقلاء ، دون أن يضغطوا على أطفالهم أكثر من اللازم ، يمكن أن يكون لها أثرها العميق فى خلق صفات قيمة بالفعل ، يفيد منها الطفل والمجتمع .

لقد تحدثت حتى الآن وكأنما الآباء يركزون اهتمامهم دائماً على الطفل الأول ، ويتمثلون أنفسهم فيه ، ويتركون طابعهم عليه . ومن البديهى أن هذا ليس صحيحاً بالضرورة فى كل الحالات . فالكثيرون من الآباء والأمهات يعاملون

طفلهم الأول معاملة تتسم بالبساطة وعدم التهافت لدرجة معقولة ، بل إن بعضهم يركز اهتمامه على الطفل الثانى أو الثالث . وهذا يحدث مثلا فى بعض الأحيان ، عندما ينتظر الوالدان إنجاب بنت على أحر من الجمر ، بعد أن يرزقا باثنين أو ثلاثة من البنين . لذلك فإن البنت التى تأتى لهما آخر الأمر ، قد تلقى قدراً كبيراً من اهتمامهما ورعايتهما ، وينتهى بهما الأمر إلى تكوين شخصية أشبه بشخصية الطفل الأول أو الطفل الوحيد .

* * *

يبدو أن مركز الطفل الأوسط أو أطفال الوسط هو خير مركز يشعر فيه الطفل بالارتياح فى عدد كبير من الأسر ؛ ذلك لأن الآباء يتعلمون دروساً كثيرة من خلال التجربة الشاقة مع الطفل الأول . ومن المحتمل أن يكونوا الآن أكثر ثقة بأنفسهم ، وأكثر راحة واسترخاء فى تربية الطفل . وقد عبرت لى كثير من الأمهات عن دهشتهن لهذه الظاهرة ، قائلات بنفس الألفاظ تقريباً : « إن تربية الثانى سهلة جداً . يبدو لى أنى لا أحمل له هماً على الإطلاق . بل إنى لا أحتاج إلى أن أسائل نفسى عما ينبغى أن أفعله معه . كل ما فى الأمر أنى أجد نفسى أفعل اللازم له ، ويتضح لى عادة أنى قد تصرفت التصرف السليم . عجباً ! بل إنى لا أتريث لأسائل نفسى هل ينبغى أن أعاقبه أو أتغاضى عن شقاوته . وإذا عاقبته بالفعل فإن هذا العقاب يصفى الجو بيننا دائماً ، فأنا لا أحس بالذنب لأنى عاقبته ، وهو لا يلبث أن يستعيد مرحه بعد العقاب . وأحياناً نسائل أنفسنا ، أنا وزوجى ، عما إذا كنا نعامله بإهمال ، فنحن نهتم به اهتماماً ضئيلا للغاية . ولكن إذا كان هذا إهمالا منا بالفعل ، فالظاهر أنه يزدهر وينتعش من هذا الإهمال . إنه يشغل نفسه بشتى المهام ، ويغمره شعور بالسعادة معظم الوقت . أما إذا رغب فى شىء من الصحبة ، فإن شخصيته جذابة للغاية ، لدرجة

أن أحداً لا يستطيع مقاومة إغرائه ، حتى الغرباء فى الشارع . كما أنه يجد متعة فى أن يحتضنه الناس ، على عكس الطفل الأكبر» .

بطبيعة الحال ، ليس كل الأطفال الثوانى يبدون حياتهم هذه البداية السهلة الهينة . فالأمهات اللائى يتحدثن على هذا النحو فى وصف أطفالهن ، إنما يبرزن ناحية واحدة فقط من الصورة . على أن هذا النوع من الاسترخاء من جانب الأم فى تربية الطفل ، كفيل بأن يحمى شخصيته من المغالاة فى الاعتماد عليها ، أو على غيرها من الناس فى ميدان الحياه . فهذا الطفل يستطيع فى العادة أن يشق طريقه بنفسه دون أن يرزح تحت وطأة القلق والارتباك .

والطفل الثانى ، أو الذى يليه من أطفال الأسرة ، يكون فى الغالب أكثر استعداداً من الطفل الأول لأن يتعلم منذ بداية حياته كيف يتعامل مع الأطفال الآخرين ، تعاملا إيجابياً أو سابياً على السواء . كما أنه يجد متعـــة فى اللعب العنيف والهرج والمرج مع الأطفال ، عندما يمارسه بطريقة طبيعية فى السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره . (على حين أن الطفل الأول أو الوحيد ، إذا أتيحت له بعض الفرص القليلة لمصاحبة غيره من الأطفال فى السنين الأولى ، فإنه يجدهم فى العادة غرباء عنه ويحس أن بهم شيئاً من النزق والعنف ، على عكس الكبار المهذبين الذين اعتاد صحبتهم) . وفى غالبية الأسر ، نجد أن الطفل الثانى أو الذى يليه ، لا يلبث أن يكتشف كيف يدافع عن نفسه دون تردد أو توان . إنه فى الشهر التاسع أو الثانى عشر ، قد يصرخ ويجفل ذعراً ، إذا اضطهده أخوه الأكبر . أما عندما يبلغ شهره الثامن عشر ، فالأرجح أنه سيتمكن من التشبث بمقتنياته كعزرائيل الموت ، ويدافع عن نفسه كالنمر الضارى . بل إن من المذهل أن الطفل الأصغر كثيراً ما ينتهى به الأمر إلى فرض سيطرته على طفل آخر يفوقه إلى حد بعيد فى السن والجسم والقوة البدنية . ولعل السبب الأساسى فى

أن هذا الطفل أقدر على العراك فى جرأة وشجاعة من أخيه الأكبر ، هو أنه لا يعانى من الشعور بالذنب الذى يبثه الوالدان عادة فى الطفل الأكبر ، إذا حاول أن يؤذى الطفل الصغير .

ومع ذلك فإن الحياة قد تكون شاقة عسيرة بالنسبة للطفل الثانى أيضاً . فمن بين أسباب التوتر عند كثيرين من الأطفال — لاسيما إذا لم يكن هناك سوى طفلين فى الأسرة ، كلاهما من الأولاد أو البنات — أن الطفل الثانى قد يكافح كفاحاً عنيفاً مستمراً كى يسير على قدم المساواة مع الطفل الأول ؛ يكافح لأن يتسلق الشجرة كلما تسلقها أخوه ، ويكافح للحصول على قبعة جديدة إذا حصل أخوه على قبعة جديدة ، ويكافح للسهر إلى وقت متأخر مثل أخيه ، ويلعب مع أصدقاء أخيه حتى ولو اضطر إلى إهمال أصدقائه . هذه المنافسة الشديدة قد تؤدى وقد لاتؤدى إلى شعور الأخ الأصغر بالكدر والشقاء ، ولكنه فى غالبية الأحيان يظل محتفظاً بروحه المرحة خلال هذا الكفاح الدائب ، وإن كان من المحتمل أن تجعله هذه المعركة نحيل الجسم متوتر الأعصاب دائماً ، كما أنها قد تسبب غيظاً شديداً لأخيه الأكبر . وأحياناً ما يؤدى هذا النوع من التطلع والطموح إلى خلق صفات قيادية بالغة القوة فى الطفل الثانى ، يتميز بها بين أفراد جماعته ، وتكون عادة من النوع البناء . لكنى صادفت مرتين حالة طفل ثان كان يبدى براعة فائقة فى اقتياد أخيه الأكبر أو أحد الأطفال الآخرين إلى المتاعب . كما أن المنافسة المتطرفة قد تؤثر تأثيراً عميقاً فى البنت الصغرى فى حياتها بعد مرحلة الطفولة ، فتدفعها مثلا إلى عقد خطبتها أو إلى الزواج أو إلى إنجاب الأطفال ، بمجرد أن تفعل أختها ذلك . أو قد تؤثر فى الولد الأصغر ، فتدفعه إلى اختيار نفس المهنة التى يتجه إليها أخوه الأكبر ، حتى ولو كانت شخصيتاهما مختلفتين تمام الاختلاف . والنتائج التى تترتب على المنافسة بين الأطفال ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ،

إنما تتوقف على طبيعة هذه المنافسة ، أهى من القوة بحيث تعمى الطفل ؟ أم أن هناك ما يوازنها من قدرة عادية على التمييز السليم ؟

بالرغم من أن الغالبية العظمى من الأطفال الثوانى يتوافقون توافقاً سليما لا مع الطفل الأول فحسب ، بل مع الطفل الثالث أيضاً بين أفراد الأسرة ، فإن بعضهم يقع أحياناً فى مأزق شديد من الناحية النفسية . إذ يخيم عليهم التشاؤم والخوف من أنهم لن يتمكنوا يوماً من الوصول إلى مستوى إخوتهم الكبار (لا توجد سوى فرص ضئيلة لأن يتفوق الطفل الثانى على الطفل الأول أثناء مرحلة الطفولة ، لكن هذا لا يثبط من عزيمة غالبيتهم) . وعند ما يولد الطفل الثالث ، يحس الثانى أن الهجوم ينصبّ عليه من ناحية هذا المولود أيضاً . ويحتمل فى هذه الحالة أن يتوقف هذا الطفل عن محاولة الظهور بمظهر الكبار ، ويفقد معظم قدرته على المبادأة ، ويطلب الكثير من المساعدة من الكبار ، بل إنه قد يرتد إلى طريقة الأطفال الصغار فى الكلام ، ويعود إلى مص إبهامه والتبول فى الفراش ، على أن هذه الأعراض لا تدل على حالة خطيرة ، إذا كانت مجرد رد فعل مؤقت لمقدم الطفل الثالث ، لكنها إذا استمرت طويلا ، فإنها تدل على أن الطفل الأوسط فى موقف عصيب ، ويحتاج إلى الكثير من المساعدة من جانب الأبوين أو المتخصصين . وترجع هذه الحالة فى بعض الأحيان إلى تخلف الطفل الأوسط تخلفاً واضحاً عن أخيه الأكبر ، أو الأصغر من ناحية الحجم ، أو القوة البدنية ، أو حسن السمت ، أو الصحة الجسمانية . كما نلمس هذه الحالة أيضاً عندما يكون الوالدان قد رزقا ببنتين وينتظران إنجاب ولد بفارغ الصبر ، فيرحبان بمولد الطفل الثالث الذكر ترحيبا حاراً ، لا يمكن إخفاؤه عن البنت الثانية ، مهما تكن لباقة الوالدين .

* * *

أما بالنسبة للطفل الأصغر فى الأسرة ، فإن الأمر يختلف كثيراً . وقصة التوراة عن يوسف الصديق الذى كان أحب الأبناء إلى قلب أبيه مما أثار حقد إخوته عليه لكنه وفق فى حياته آخر الأمر ، تعتبر نموذجاً للقصص والأساطير التى تدل على مدى اهتمام الجنس البشرى بمصير الطفل الأصغر . والحقيقة أن الغالبية العظمى من الأطفال الصغار — شأنهم فى ذلك شأن أطفال الوسط — لا تظهر عليهم سمات بارزة ، تنشأ عن مركزهم فى الأسرة . غير أننا كثيراً ما نلحظ على طائفة قليلة منهم ، نزعتين متناقضتين بعض الشىء : نزعة إلى الكفاح الدائب للحاق بالطفل الأكبر والتفوق عليه من ناحية ، أو نزعة إلى البقاء باستمرار فى وضع الأطفال الصغار من ناحية أخرى .

وهناك اتجاه طبيعى بين معظم الآباء والأمهات إلى التراخى تدريجاً فى تطبيق النظام على أطفالهم ، كلما تقدمت بهم السن وتوالى إنجابهم للأطفال ، ذلك لأنهم يزدادون إدراكا على مر السنين أن نمو الأطفال ونضجهم إنما يرجعان لدرجة كبيرة إلى غرائزهم الفطرية وتقليدهم لآبائهم ، وأنه لا داعى لتدخل الآباء أكثر من اللازم فى شئون أبنائهم . كما أن الآباء فى هذه المرحلة يكونون قد أرهقوا بعض الشىء من تربية الأطفال . وإذا تبين لهم عندئذ أن هذا الطفل قد يكون طفلهم الأخير ، فإن من البديهى فى هذه الحالة أن تراودهم الرغبة الطبيعية فى الاستمتاع بطفولته أطول مدة ممكنة . هذه العوامل مجتمعة غالباً ما تعنى أن الطفل الأصغر تفرض عليه مطالب أقل من المطالب التى تفرض على إخوته . حتى إن الآباء أحياناً ما يتغاضون عن لحظات نزقه ويتحملون نزعاته الطفلية — أكثر كثيراً مما يمكن أن يتحملوه من أطفالهم الأكبر سناً — بل إنهم قد يشجعونه على هذا «الدلع» . ومن الطبيعى إزاء هذا التدليل ، أن يصبح الطفل — مهما تكن سنه — ميالاً إلى الاعتماد على الآخرين ، مركزاً حول نفسه ،

مغالياً فى مطالبه . وعندما يثير هذا التدليل غيظ الإخوة والأخوات الكبار ، فإن غيظهم قد لا يبعث فى نفس الطفل الأصغر شعوراً بالخجل يدفعه إلى التخلى عن امتيازاته الخاصة ، بل إنه بدلا من ذلك قد يتخلى عن محاولة كسب رضاهم ويبذل جهداً أكبر لإثارة اهتمام والديه . هذه بعض الخطوات التى تحيل طائفة قليلة من الأطفال الصغار إلى مخلوقات مدللة بعض الشىء ، لا ترغب فى العمل الشاق ، لا من أجل نفسها ولا من أجل الآخرين . وقد تبين من أحد البحوث الطبية الطريفة التى أجريت على طائفة من المرضى أصيبوا بالعجز الدائم لأنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً فى التغلب على المرض ، أن نسبة كبيرة منهم كانوا أصغر الأطفال فى أسرهم .

على أننا نجد من ناحية أخرى أن شغف الآباء والأمهات بأصغر أطفالهم وتغاضيهم عن بعض أخطائهم (إن لم يصحبه تدليل أكثر من اللازم) ، قد يبث فى الطفل الأصغر ثقة مثالية بنفسه ، مما يتيح له استغلال جميع قدراته إلى أبعد مدى . وإذا كان هذا الطفل قد نمى فى نفسه قدرة كبيرة على المنافسة من خلال الرغبة فى اللحاق بإخوته وأخواته الكبار ، فإن امتزاج هذين العاملين — الثقة بالنفس والقدرة على المنافسة — قد يخلق منه شخصاً ناجحاً طموحاً بشكل خارق للعادة فى ميدان الحياة .

المركز الخاص الذى يشغله الطفل الأول

« طفلنا الأول هو ذاتنا »

المزايا والعيوب

أود مناقشة سمات معينة فى شخصية الطفـــل الأول ، تلمسها فئة قليلة من الأمهات فى هذا الطفل ، ويلمن أنفسهن عليها تحت وطأة الشعور بالذنب .

إليكن أولاً خليطاً من الشكاوى والاعترافات التى سمعتهـا من الأمهات عشرات المرات :

« إن طفلنا الأول لا يتمتع بالسعادة كما ينبغى ... يتملكه شىء من الخجل والرهبة حين يتعامل مع الأطفال الغرباء أو مع أولاد الحى الذين يفوقونه خشونة. لـكنه من ناحية أخرى يسـتطيع أن يفرض سيطرته تماماً على الأطفـال الذين يصغرونه فى السن . إن له أصـدقاء ، لـكنه يثير أحياناً عداءهم بسبب سلوكه الأنانى فيما يتصل بلعبه الخاصة ، أو بسبب إصراره الشديد على أن يوجه اللعب على هواه . ومع ذلك تجرح مشاعره جرحاً عميقاً ، عنـدما يولونه ظهورهم بعد أن يحتدم بينهم الجدل ، لـكنه بالطبـع يلقى اللوم عليهم دائماً ، وهو يحب أن يهتم به الـكبار ، لـكنه غالباً ما يفشل فى جذب اهتمامهم . وإذا لم يلتفتوا إليه ، فإنه قد يجنح إلى العبوس أو الوقاحة . إن مستوى عمله المدرسى متوسط ، لـكن معلمته تقول إنه يستغرق كثيراً فى أحلام اليقظة ، وإنه لا يعمل قدر طاقته . أما فى البيت فهو يبدى غيرة شديدة من أخته الصغرى التى تليه فى السن ، حتى إنه كان فى بادىء الأمر يعمد إلى إيذائها ، ولم يسمح لها قط أن تلعب بأشـيائه الخـاصة .

« لقد كانت تعوزنى دائماً الثقة بنفسى لأعرف كيف أسوسه وأسيِّر أموره ، ومع ذلك فإنى أحس بأنى أفهمه أكثر من بقية الأطفال جميعاً ، ربما لأن طبيعتنا متشابهة إلى حد بعيد . عند ما أنجبته لم أكن أفقه شيئاً عن رعاية الطفل ، لذلك كان يعوزنى الشعور بالأمان والطمأنينة ، فكنت أضطر للرجوع إلى الكتاب أو لاستدعاء الطبيب فى كل كبيرة وصغيرة . وفى الأشهر الثلاثة الأولى ، دأب على الصراخ والضجيج ، فلم تكن بداية طيبة ، ولم يكن يحب أن يحتضنه أحد على الإطلاق . كما أنى وجدته صعب القياد فى عامه الثانى أيضاً ؛ إذ أصبح مشكلة فى تغذيته ، فدأبت على مطاردته كى يتناول الطعام ، رغم علمى أنه لا ينبغى أن أفعل ذلك . إنه لم يبد قط رغبة فى تنفيذ ما أريده منه . وكنت أجادله وأناقشه بالمنطق ، لكن كثيراً ما كان يجن جنونى وأصرخ فى وجهه ، بل إنى كنت أنهال عليه بالصفعات فى بعض الأحيان ، غير أن هذه الوسيلة لم تثمر على الإطلاق . وكلما غضبت منه وثارت ثائرتى عليه ، ينتابنى شعور بالذنب بعد ذلك ، فأعاهد نفسى كل صباح على أن أكون أكثر صبراً فى معاملته ، ولكن الظاهر أنه يستغل صبرى ، وسرعان ما أعود فأغضب منه .

« إن طفلىّ الثانى والثالث لا يسببان لى أى عناء بالنسبة إليه ، فأى شىء أؤديه لهما ، وأى عقاب أوقعه بهما ، يحقق الهدف المنشود على خير وجه . ومع ذلك فإن معرفتى كيف أسوسهما وأدبر أمورهما ، لا تعيننى على تربية طفلى الأول » .

هذا بطبيعة الحال مجرد سرد سريع لخليط من الأقوال التى تدلى بها بعض الأمهات . كما أن نفس هذه الحالة من التوتر — بين الأم وطفلها الأول — قد توجد فى عائلات أخرى ، ولكن بدرجة أقل كثيراً فى حدتها . ومع ذلك فهناك أسر أخرى عديدة لا تنطبق عليها هذه الصورة على الإطلاق . ومن

البديهي أيضاً أن هذا التوتر قد لا يوجد بين الأم وطفلها الأول ، بل بينها وبين الثاني أو أي طفل آخر يليه في السن . لكني فقط أعتقد أن هذا التوتر أكثر شيوعاً في حالة الطفل الأول ، وأنه يلقي ضوءاً على بعض صور الضغط التي تعاني منها الأمهات في أول عهدهن بالأطفال .

ونقص التجربة له في حد ذاته أثر واضح في سلوك الأم ، لا سيما في حالة الأمهات ذوات الضمائر الحية اللائي يؤرقهن الشعور بالواجب ، وفي نفس الوقت تعوزهن الثقة الشاملة بأنفسهن . هؤلاء الأمهات يداخلهن الشك في قدرتهن على أداء هذا العمل الجديد ، لذلك فإنهن يغالين في التهيب تارة وفي تأكيد سلطتهن تارة أخرى على التوالي ، شأنهن في ذلك شأن الناس الذين يركبون الجياد لأول مرة ، فتكون أعصابهم متوترة مشدودة (الأطفال — كالجياد — سرعان ما يلمسون شعور أمهاتهم بعدم الاطمئنان) . كما أني أعتقد أن الأمهات اللائي تلقين قدراً كبيراً من التعليم ، غالباً ما ينتابهن الشك بشأن قدرتهن على تربية الطفل ، أكثر من الأمهات الأقل تعليما ، ذلك لأنك في الدراسة الجامعية إما أن تكون ملماً بدروسك وإما غير ملم بها ، فإن كنت غير ملم بها لابد وأن يكشف جهلك حتما . على أية حال ، سواء أكانت الأمهات مثقفات أم جاهلات ، فإن قلة قليلة منهن هي التي تتلقى أية دروس على الإطلاق في تربية الطفل قبل أن يحين أوانها . (حتى الآن ،بعد ثلاثين عاماً من تخرجي في كلية الطب ، ما زلت أرى في منامي أحلاماً مزعجة تدور حول دخولي امتحاناً لم أستعد له مطلقاً) .

* * *

ربما كانت أهم العوامل التي تؤثر في سلوك الأمهات حديثات العهد بالأمومة ، هو وجود بعض المشاعر — النافعة أو الضارة — التي ترسبت في نفوسهن من أيام الطفولة . لذلك فإن أسهل السبل لأن تصبحي أماً ناجحة في تربية أطفالك ،

هو أن تكونى قد قضيت طفولة ممتعة بصحبة أبوين محبين يلتزمان جانب العدالة ، يسيران على خطة ثابتة فى التربيـة ويتصفان بالحزم ، دون أن يستبد بهما الغيظ والانفعال . غير أن معظم الناس لا يتاح لهم آباء وأمهات على هذا القدر من الهدوء والسكينة .

ذلك أن مشاعر الغضب والإحساس بالذنب التى كنا نحسها فى لحظات معينة تجاه آبائنا وأمهاتنا ، والخوف الذى كان ينتابنـا فى بعض الأحيان من أن نفقد مكانتنا فى البيت والمدرسة ، والغيرة التى كنا نحسها نحو إخوتنا وأخواتنا ، كل هذه المشـاعر قد خلفت رواسب عميقة فى نفوس معظمنا . وهـذه الرواسب قد تتحرك فى نفوسنا عند ما ننجب أطفالا من صلبنا ، لا سيما فى حالة الطفل الأول أو فى حالة أى طفل بعده تكون له أهمية خاصة لدينا .

هل مثل هـذه التوترات فى نفوس الآباء والأمهات تحـدث أثراً سيئاً فى الأطفال ؟ إنها بلا شك تضايق الوالدين والطفـل فى الأعوام الأولى . لـكنها إذا لم تكن بالغة الحدة منذ البداية ، وإذا ظهرت دلائل على أنها تخف تدريجاً على مر السنين ، فإن أثرها فى الطفـل فى نهاية فترة المراهقة وفى بداية مرحلة البلوغ ، قد يكون أثراً مرضـياً فى غالبية النواحى ، ومرضياً للغاية فى بعض النواحى .

لقد دهشت وسررت سروراً بالغاً ، حين بلغنى من أمهات عـديدات فى الأعوام الأخيرة أن أطفالهن الأوائل الذين كنا منذ خمس عشرة أو عشرين سنة نناقش حالتهم بجد واهتمام فى عيادتى ، فتبدى لى الأمهات أشـد القلق بشأنهم ويوجهن إلى أنفسهن اللوم على فشلهن فى معالجتهم ، أن هؤلاء الأطفـال قد أصبحوا الآن لا يتمتعون بالسعادة فى حياتهم فحسب ، بل إنهم أيضاً قد أحرزوا

نجاحاً خارقاً للعادة فى مجالات تتطلب إدراك ظروف الآخرين والتعاطف معهم ، كالطب والتدريس والخدمة الاجتماعية والأبوة .

كيف يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ؟ أظن أن الطفل الذى يكون حساساً بطبيعته فيواجه بعض الصعوبات فى تعلم طريقة التعامل مع والديه وإخوته وأخواته وأصدقائه ، هذا الطفل إذا نجح فى التغلب على هذه الصعوبات ، قد يبدى اهتماماً بالناس ورغبة قوية فى العمل من أجلهم ، أكثر من أى طفل آخر لم يضطر فى يوم من الأيام إلى التفكير فى علاقاته بالناس . ولا أعنى بذلك أن من الأفضل للطفل أن يعانى بعض الشقاء فى أيام طفولته ، بل أعنى أن من الممكن أن يوجد فى حياته ما يعوضه كثيراً عن الشعور بالشقاء ، إن لم يتجاوز هذا الشعور الحد العادى .

ولعله ينبغى أيضاً أن أضيف فى هذا المقام ، أنى لا أريد أن يفهم من كلامى أن الطفل الأول يمكنه أن يتغلب على سوء تكيفه مع البيئة مهما كانت درجته ، أو أن سوء التكيف يؤدى إلى نتائج طيبة فى نهاية الأمر . فالطفل — أياً كانت مكانته فى الأسرة — الذى يبدأ حياته وهو يحس بشىء من الشقاء ، لا يمكن أن يحصل على السعادة إلا بالجهد والمساعدة . ومن حق هذا الطفل أن يحصل على شتى أنواع المساعدة التى يستطيع الوالدان والمعلمات ومرشدات المدرسة وأطباء الأطفال النفسانيون والمتخصصات الاجتماعيات أن يقدموها له .

ثمة ناحية أخرى تبعث على التفاؤل فى حالة الطفل الأول ، تلك أن تفانى الوالدين وقلقهما الشديد عليه ، رغم أنه قد يكون متطرفاً إلى درجة تبعث على الضيق ، قد يخلق فى الطفل فى الوقت نفسه — بل إنه غالباً ما يخلق فيه — شعوراً أساسياً بأن مركزه له أهمية خاصة بين أفراد الأسرة . وعندما يشب عن الطوق ، فإن هذا الشعور عنده قد يتحول إلى شعور بأن له رسالة هامة ينبغى أن

يحققها فى الحياة . كما أنه فى أثناء مرحلة الطفولة ، قد يتغلب على شعور المنافسة مع إخوته وأخواته الآخرين ، بأن يعتبر نفسه والداً ثالثاً لهم ، بدلاً من أن يكون منافساً يتعارك معهم . وهذه المشاعر — أن له أهمية خاصة عند الوالدين وأن له أهمية خاصة مثل الوالدين — قد تكون هى السبب فى ذلك الشعور بالتفاؤل وتلك الطاقة الدافعة وذلك الإحساس بالمسئولية التى تتميز بها طائفة كبيرة جداً من الأطفال الأوائل .

ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد ، أنه قد ثبت من دراسة حالات ١٠٠٠ من مشاهير الأمريكيين الذين تبوءوا مناصب « رفيعة » ، أن عدد الذين أحرزوا هذا النجاح الباهر من بين أكبر الأبناء ، يبلغ ضعف عدد الذين أحرزوه بين من يشغلون مراكز أخرى فى أسرهم . وهذا لا يعنى أننا — أنت أو أنا — نعتقد أن هذا هو بالضرورة خير مقياس للنجاح فى الحياة . غير أنه مما يبعث على الطمأنينة فى قلوب الآباء والأمهات الذين يعتقدون أنهم يغالون فى الاهتمام بأطفالهم الأوائل ، أن يدركوا أن هذا الاتجاه عندهم قد يؤدى إلى نتائج مفيدة تعود بالنفع على المجتمع .

تجنب الاعتماد المتطرف

يعلق كثير من الآباء ، بعد أن ينجبوا عديداً من الأطفال ، على مدى استقلال أطفالهم الآخرين ، بالمقارنة مع الطفل الأول . فهم يقولون مثلاً إن الأول يجد دائماً صعوبة أكثر من إخوته فى التعرف بالغرباء وفى الاستمتاع بالألعاب العنيفة مع الأطفال ، أو يقولون إنه يتهيب مواجهة المواقف الجديدة ، أو إنه يتعلق دائماً بالوالدين ويطلب منهما الكثير من الرعاية والاهتمام ، أو إنه طفل مدلل مفسود . على أن هذه المقارنة لا تنطبق بطبيعة الحال على جميع الأسر ،

بل ولا على الغالبية العظمى منها . . كما أنه فى بعض الأحيان قد يكون الطفل الثانى أو الثالث هو الأكثر اعتماداً على أبويه ، أو قد لا توجد هذه النزعة فى أى من الأطفال . ومع ذلك فمن السليم أن نقول إن هذه النزعة إلى الاعتماد المتطرف — إذا ظهرت على أحد الأطفال فى الأسرة — فإن الأقرب إلى الاحتمال هو أن تظهر على الطفل الأول .

عندما تنمو هذه النزعة إلى الاعتماد فى نفس أحد الأطفال ، فإنها تكون فى العادة عملية تدريجية بحيث لا يلاحظها الوالدان فى مبدئها . وإذا كان الطفل المعتمد هو الأكبر بين الأطفال ، فإن من المحتمل ألا يلمس الوالدان هذا الاتجاه فيه إلا بعد أن ينجبا طفلهما الثانى الذى يتميز باستقلال الشخصية بالمقارنة مع الأول .

هناك شعوران أساسيان يعتملان فى نفوسنا نحن الآباء ، غالباً ما يدفعاننا إلى التهافت على الطفل الأول ، وبذلك نشده إلينا برباط وثيق . الشعور الأول هو القلق. ذلك لأن معظمنا عادة ما تنقصه الخبرة عند ما يبدأ تجربته مع طفله الأول ، فيستبد به القلق عليه فى كل كبيرة وصغيرة : الزغطة ، درجة الحرارة ، الوزن ، التنفس .. الخ . بل إن أول سقطة يسقطها الطفل على الأرض ، تسبب لنا ذعراً شديداً ، فيطغى علينا الشعور بالإثم . وعندما يصاب الطفل بالزكام للمرة الأولى يبدو لنا هذا الزكام كما لو كان أحد الأمراض الخطيرة . وهذا القلق المتطرف فينا ، يلوح فى وجوهنا وأصواتنا ، ويتمثل فى السرعة الخاطفة التى نستجيب بها لصراخه ، فيسرى شىء من هذا القلق إلى نفس الطفل . على أن مخاوفنا بشأن سلامته الجسمانية تخف وطأتها فى العادة بمرور الشهور. لكن هذا القول لا ينطبق على مخاوفنا وقلقنا بشأن سلوكه العام وبشأن قدرتنا على التحكم فيه . فهذا القلق تزداد وطأته أثناء العام الثانى ، حين لا يعود الطفل مجرد دمية لطيفة ذكية تخضع

لرغباتنا ، فيبدأ فى إظهار مجموعة كاملة من الصفات التى تعودنا منـــذ نعومة أظفارنا أن ننظر إليها نظرة القلق والجزع : صلابة الرأى ، العناد ، التحدى ، حدة الطبع ، العدوان ، التهيب . والطريف أن الأم والطفل عندما يدخلان أحدهما مع الآخر فى مشاحنات متعددة — بشأن تناول الطعام أو ارتداء الثياب (الهندام) ، وبشأن أداء شتى المهام الأخرى التى ينبغى أن يؤديها ، أو عدم أداء شتى الأشياء التى لا ينبغى أن يفعلها — فإن هذه المشاحنات تشدهما أحدهما إلى الآخر برباط أوثق ، رغم الخلاف الذى بينهما .

كيف إذن يتأتى لمعظمنا نحن الآباء أن نتقبل أخطاء السلوك الهينة بطريقة أكثر تساهلا وبساطة فى حالة أطفالنا التالين ؟ أظن أن جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال ، هو أننا نتعلم من خلال تجربتنا مع طفلنا الأول ، أن فى مقدورنا السيطرة عليه بطريقة أو بأخرى ، سواء باللين أو بالعنف . وبهذا الشعور بالثقة فى قدرتنا ، نعالج الطفل الثانى بطريقة أكثر هدوءاً ، وبالتالى أبعد أثراً وأكثر فاعلية . إننا على أقل تقدير لا نتصيد المتاعب ، بمعنى تأديب الطفل فى كل كبيرة وصغيرة ، ذلك لأننا نفترض أن كل تصرفاته تخضع لسيطرتنا التامة ، حتى يثبت العكس. لذا فإن كثيراً من المشكلات المحتملة الحدوث لا تنشأ على الإطلاق ، وكنتيجة لذلك ، تكون حالة الطفل المزاجية أقل تأثراً وحساسية ، عندما نضطر إلى التدخل فى تصرفاته .

كما أن شعورنا بالفرح والبهجة الذى قد نحسه إحساساً طاغياً ونحن ننشىء طفلنا الأول ، عامل هام فى شده إلينا برباط وثيق ، لا يقل فى أهميته عن شعورنا بالقلق واللهفة عليه. فنحن حين يفتر ثغره عن أول بسمة حقيقية ، نطمع فى المزيد من البسمات ، وحين نستمع إلى أول ضحكة يضحكها من أعماقه ، يصبح من العسير علينا ألا نغالى فى دغدغته . كما أننا نشاركه بكل جوارحنا فى اكتشافه

لأصابع قدميه ، ونجاحه فى التصفيق بيديه ، وشعوره بالزهو حين يبدأ فى المشى ، ودهشته العميقة حين يسمع صوت أبيه ينبعث من مسماع التليفون ، وافتتانه بأول كلب أو قط يصادفه فى حياته . وعندما يكبر قليلا فى السن ، نصبح على أحر من الجمر لأن نريه حديقة الحيوان وحلبة السيرك ، وأن نريه « وابور الزلط » وهو يؤدى عمله . بل يحتمل أن يشترى له أبوه القطارات الكهربية قبل أن يئين أوانها بحوالى سنتين ، وأن يشرح له فى حماسة بعض النماذج التى قد لا تتلاءم مع مداركه إلا بعد خمس سنوات .

إن جميع الآباء ينزلون إلى مستوى أطفالهم الفينة بعد الفينة ، فيلعبون معهم ويرينهم عجائب الدنيا . وهم لا يعتبرون آباء مثاليين إذا عجزوا عن مسايرة أطفالهم ، فهذه الناحية تفيد الآباء والأمهات كما تفيد الأطفال على السواء .

بيد أن المشكلة التى تواجه معظمنا حين نقترب من مرحلة الأبوة أو الأمومة لأول مرة فى حياتنا ، هى أن الكثير من المشاعر الحبيسة تتراكم فى نفوسنا أثناء انتظارنا لمولد الطفل — القلق والحيرة والتوقع المفعم بالفرح والبهجة — حتى إن هذه المشاعر تنطلق كالفيضان الجارف للترحيب بمقدم طفلنا الأول . وبعبارة أخرى ، إننا نحس إلى حد ما كما لو كنا على وشك أن نبدأ حياتنا من جديد من خلال طفلنا الأول ، حياتنا بكل ما فيها من عوامل القلق التى نمت فينا أثناء طفولتنا (من جراء شعورنا بنقائصنا وشقاوتنا) ، وبكل ما فيها من آمال ومطامح حققناها فى أنفسنا أو لم ننجح فى تحقيقها ؛ ذلك أن طفلنا الأول هو ذاتنا ، لذا يتعذر علينا أن نأخذه ببساطة ، مثلما يتعذر علينا أن نأخذ أنفسنا ببساطة ، فلا عجب إذن أن نشعر عند مولده بشىء من التوتر . (هذا الشعور فى أسوأ حالاته أشبه بشعورك عند ما تعيد الامتحان للحصول على رخصة قيادة السيارة بعد رسوبك فى جزء من هذا الامتحان فى المرة الأولى) .

* * *

لقد اقتصر هذا الحديث حتى الآن على مناقشة الموضوع من الناحية النظرية دون أن نقدم الكثير من المساعدة العملية فى هذا المجال . لكنى لا أعتقد أن هناك أية وسيلة سحرية تمكنك من تربية الطفل الأول بنفس الراحة التى قد تحصلين عليها فى حالة الثانى أو الثالث . فالظاهر أن القلق يلازم تعلم الإنسان لأى شىء جديد عليه ، حتى إننا لم نعثر مطلقاً على وسيلة نعلم بها طلبة الطب بغير أن ينتابهم القلق فى مرحلة أو أخرى من مراحل الدراسة ، ولابد أن نفس الحالة تنطبق على الطلبة الذين يدرسون القانون أو اللاهوت أو الطيران أو صناعة السيارات أو التدريس ، وبقية الطلبة جميعاً . ربما كانت خير وسيلة تريحنا فى تعلم أى شىء جديد ، هى أن نتلقن هذا الشىء فى جرعات صغيرة ابتداء من مرحلة الطفولة ، ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى أن أبناء الفلاحين يقتفون غالباً خطى آبائهم ، أكثر مما يفعل أبناء المشتغلين بالمهن الأخرى . وقياساً على ذلك ، فإن نشأة الطفلة مع عدد من الأطفال الصغار وسط أسرة يحوطها السرور والبهجة ، هى خير وسيلة تتعلم بها رعاية الطفل ، غير أن هذا الوضع لا يتاح للأطفال فى كل الحالات .

على أية حال ، أعتقد أن هناك عدداً من الخطوات العملية تستطيع الأمهات الحديثات العهد أن يضعنها نصب أعينهن ، فيقللن من احتمالات اعتماد الأطفال الصغار عليهن اعتماداً متطرفاً . ومن حسن الحظ أن الأطفال الصغار فى الأشهر الثلاثة الأولى لا يكادون يشعرون : هل أمهاتهم متوترات الأعصاب أو لا ؟ ففى هذه الفترة يكون الأطفال مشغولين تماماً بمشاعرهم الداخلية : الشعور بالجوع أو النعاس أو المغص .

لكنهم — ابتداء من الشهر الثالث — يبدون اهتماماً أكبر بالعالم الخارجى . وعادة ما تكون نوبات المغص قد توقفت تقريباً فى هذه الفترة ، حمداً لله ، فلا تضطر

الأم إلى حمل الطفل طوال فترة المساء . أما إذا كانت قد تكونت عنده عادة توقع حمل أمه له ، فإن من الممكن دائماً أن تكسر الأم هذه العادة بأن تتركه يصرخ فترة وجيزة فى ليلتين متواليتين . وقلما يستغرق هذا الصراخ أكثر من عشرين دقيقة فى الليلة الأولى ، وخمس دقائق فى الثانية . قد يكون هذا التصرف أليماً لنفوس الأمهات ، لكنهن سوف يقتنعن بأنه تصرف سليم لا غبار عليه ، عندما يلمسن كيف أنه يحقق الهدف المنشود على خير وجه . فهذه التجربة الناجحة فى الانفصال عن الأم ، تعلم الطفل الصغير أنه ليس بحاجة إلى كل هذا الاعتماد على أمه وأبيه ، كما أنها تحرر الوالدين من رغبتهما الجارفة فى فرض حمايتهما عليه أكثر من اللازم .

كما أنى أفضل أن يعتاد الطفل تناول الرضعات فى مواعيد منتظمة نسبياً ، على الأقل بعد أن يبلغ شهره الثالث . وتستطيع الأم فى كل الحالات تقريباً أن تدرب جهازه الهضمى على هذه المواعيد رويداً رويداً ، بأن توقظه من نومه إذا اقتضى الأمر عندما يحين موعد الرضاعة ، وأن تمد الفترة بين الرضعتين إلى أربع ساعات بانتظام ، إذا كان الطفل معتاداً على تعدد الرضعات منذ البداية . وأنا لا أعنى بهذا — على الإطلاق — أن تعدد الرضعات بغير انتظام ، يؤدى دائماً إلى اعتماد الطفل اعتماداً متطرفاً على أمه . فالعامل الهام فى هذه الناحية هو حالة الأم النفسية . لذلك فإنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن الأم التى لا تحس بالأمان والطمأنينة فتهرع لإرضاع طفلها كلما تحرك فى مكانه ، لا تجعله يعتاد تعدد الرضعات وعدم انتظامها فحسب ، بل إنها تعلمه أيضاً أن يحتاج إليها سريعا كلما داخله أقل شعور بالضيق وعدم الارتياح . لذا تظل هذه الأم شهوراً عديدة تحيط الطفل بحمايتها أكثر من اللازم . وهذا يفسر لنا السبب فى أن بعض الأطفال الصغار يدأبون على الاستيقاظ لتناول رضعتين فى أثناء الليل حتى أواخر عامهم الأول ، وهو أمر لا داعى له من

الناحية الغذائية بطبيعة الحال . أما عندما تعتاد الأم والطفل اتباع مواعيد ثابتة للرضاعة بعد الشهر الثانى أو الثالث ، فإن هذا يخلق فى كل منهمـا شعوراً بالاطمئنان إلى اعتماده على الآخر ، كما ينمى فى كل منهما نوعاً من الاستقلال عن الآخر .

وفى اعتقادى أن النصف الثانى من العام الأول هو الفترة الحرجة التى تنمو فيها نزعة الطفل إما إلى الاستقلال عن أمه وإما إلى الاعتماد عليها ؛ ذلك لأنه فى هذه السن يستطيع الجلوس ، ثم لا يلبث بعد قليل أن يتمكن من الحبو والوقوف على قدميه . ويتجه ميله الطبيعى فى هذه الفترة لأن يمسك بمختلف الأشياء : الشخشيخات وعقود الخرز وأدوات المطبخ واللعب والمجلات . كما تزداد ساعات صحوه فتصبح ساعات عديدة فى النهار ، يقضى معظمها سعيداً فى استكشاف الأشياء هنا وهناك ، أو فى إخراج لعبه من خلال الفتحات ثم استعادتها مرة أخرى ، إذا كان داخل حظيرة اللعب . وهو يحب أيضاً أن ينقل الأشياء من إحدى يديه إلى الأخرى ويتذوقها فى فمه أو يعمل أسنانه فيها . كما أنه فى هذه السن يجد شيئاً من المتعة فى مصاحبة أمه ، فيميل لأن يحبو من آن لآن نحو الحجرة التى توجد فيها ، كما لو كان يستمد من أمه شحنة جديدة من الشعور بالأمن والطمأنينة . ومن المألوف أن تشكو الأم من طفلها الأول عندما يناهز سنة ، لأنه يدأب على البكاء كلما خرجت من الحجرة ، وهذا يبين لنا كيف أنه من السهل أن يلتقط الطفل الصغير من أمه شيئاً من قلقها الشديد عليه ، يتمشى مع شىء من اعتماده المتطرف عليها .

كما أن بعض الأطفال الذين اعتادوا من ذى قبل أن يناموا نوماً عميقاً طوال الليل ، يبدءون فى إظهار ميل إلى اليقظة فى حوالى منتصف السنة الأولى . قد يبدأ هذا الاتجاه عند الطفل من جراء نزلة برد شديدة أو التهاب فى الأذن ، يزعج

الوالدين ويجعلهما يسارعان إلى حمله فى ليال متتالية ، كلما نشج بالبكاء أو تحرك فى مكانه . وأحياناً يكون مجرد التسنين هو السبب فى يقظة الطفل . على أن الطفل إذا أدرك أنه يستطيع عن طريق البكاء أن يحمل أمه على رفعه من مهده وإعطائه «البزازة» وقضاء بعض الوقت بصحبته ، وإذا تبين له أنه يستطيع عن طريق الإكثار من مطالبه أن يستبد بوالديه فيدفعهما إلى إطالة الفترة التى تستغرقها « حفلة منتصف الليل » ، فقد ينتهى به الأمر إلى إيقاظ والديه لمدة ساعة ونصف ساعة مرتين أو ثلاث مرات كل ليلة ، مما يرهق الجميع إرهاقاً شديداً . إن تسلسل التطورات فى هذا الموقف هو : أن تعب الطفل أو مرضه يثير قلق الوالدين . وقلق الوالدين الذى يبدو فى مسارعتهما إلى حجرته لحمله من مهده ، يدفع الطفل إلى الاعتقاد بأنه حقاً فى مسيس الحاجة لأن ينقذه والداه من البقاء وحيداً فى المهد . كما أن خضوع الوالدين لرغبته يغذى فيه الميل إلى المغالاة فى مطالبه ، ولن يطول الوقت بالوالدين حتى يحسا بالاستياء والغضب من الحياة الشاقة التى يسببها لهما الطفل ، غير أنهما لا يدركان بالضبط ما هو الشىء الذى يلومانه عليه ، فيحسان بالخجل لشعورهما بالغضب ، ويزدادان خضوعاً واستسلاماً له .

إن استيقاظ الطفل أثناء الليل ، يمكن علاجه فى ليلتين لا أكثر ، إذا اقتنع الوالدان بأنه ليس فى صالح الطفل ، وليس فى صالحهما على حد سواء . عليهما أن يتوقفا عن الذهاب إليه فى حجرته ، ولو مرة واحدة . وبذلك يدرك الطفل ، بعد بضع دقائق من الصراخ العالى ، أنه لن يجنى شيئاً من الصراخ ، فيستغرق فى النوم . كما أن عدم مجىء الوالدين إلى الحجرة ، سوف يطمئنه إلى أنهما لا بد يعتقدان أنه ليس ثمة ما يدعو للخوف عليه بأى حال من الأحوال .

أما نزعة الطفل إلى الاعتماد على أمه فى أثناء النهار ، فإنها قد تطغى على الأم

التى تجد متعة جارفة فى اللعب مع طفلها باستمرار ، أو التى تعوزها الثقة بنفسها بحيث تعجز عن رفض مطالبه . ومن الجائز أن تتحول أم من النوع الأول إلى أم من النوع الثانى فى خلال بضعة أسابيع أو أشهر . فما إن يستيقظ الطفل من نومه بعد الظهر حتى تشترك معه الأم فى ألعاب شتى ؛ مثل الركوب على ظهرها ، أو « الاستغماية » ، أو التصفيق باليدين المصحوب بالغناء ، أو الرقص على أنغام الموسيقى ، أو مجرد حمله بين ذراعيها هنا وهناك ، ويدور بينهما حديث شبه متصل فى تلك الأثناء. لذلك يحتمل ، بعد انقضاء بضعة أسابيع فى هذا اللعب ، أن يفقد الطفل معظم قدرته على تسلية نفسه بنفسه. وعندما تحاول أمه — وقد نال منها التعب — أن تنزله على الأرض ، فإنه ينشج بالبكاء على الفور ويمد إليها ذراعيه . فإذا عجزت الأم عن مقاومة توسلاته ، فإنها تبدو فى هذه الحالة كما لو كانت تقول له : « إنك على حق ، فأنت تحس بالوحشة ، وربما يحيق بك الخطر ، عندما تكون فى أى مكان آخر غير ذراعى أمك » . كما أنى أعتقد أن الشعور بالاستياء الذى يتراكم فى نفس الأم — من جراء اضطرارها لأن تكون أماً للطفل — قد يسرى منها إلى الطفل ، فيبعث فيه شعوراً بالضيق والقلق ، غير أن هذا الشعور يستفزه فيدفعه لأن يعود فيستبد بأمه ثانية .

من البديهى أن كل أم ترغب فى أن تلعب أحياناً مع طفلها وأن تتحدث إليه أثناء أدائها لأعمالها المنزلية . على أنه من الأجدى بوجه عام لو أنها وفرت معظم هذا اللعب بعضهما مع بعض حتى نهاية فترة صحو الطفل . أما إذا لاعبته فى أوقات أخرى ، فإن من الضرورى أن تكون واثقة بنفسها بحيث تستطيع أن تعود إلى عملها أو إلى قراءة كتابها دون أن تعتذر له . وإذا شرع فى الصراخ والبكاء ، فما عليها إلا أن تذكر نفسها بأنه ليس ثمة ما يدعوها إلى الشعور بالقلق أو الإحساس بالذنب ، ثم تصرفه عنها وهى منبسطة الأسارير .

وعندما يصبح الطفل الصغير شديد الاعتماد على أمه ، فإن عملية تحرير الاثنين أحدهما من الآخر قد تكون أليمة للغاية وطويلة المدى ، ومع ذلك لامناص منها . وقد تحتاج الأم إلى بعض المساعدة من الطبيب النفسانى أو من إحدى المؤسسات الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . كما أن عليها أن تقوى أعصابها حتى يمكنها أن تتجاهل عويل الطفل حينما تصر على الاستمرار على أداء عملها . ومن الوسائل العملية المجدية فى هذا المجال ، أن تجالس الأم طفلها على الأرض عندما يتوافر لديها فعلا بعض الوقت للعب معه . فإذا حدث أن اعتراه الملل من الوقوف فى حجرها ، فإن فى إمكانه فى هذه الحالة أن يحبو مبتعداً عنها . أما إذا رفعته من على الأرض ، فسوف يثير لها المتاعب عندما تنزله على الأرض ثانية .

كما أن الطفل فى سنته الثانية يكون أقرب إلى مفترق الطرق بين الاستقلال عن الأم والاعتماد عليها . فهو فى هذه السن يستطيع أن يمشى على قدميه ، ويصبح لديه حافز قوى لأن يستكشف الأشياء من حوله فى مجالات يتسع نطاقها يوماً بعد يوم . كما يزداد اهتمامه بالأشخاص والأطفال الآخرين كشخصيات منفصلة عنه لها كيانها الخاص ، فيرغب فى الاقتراب منهم والتصادق معهم بأسلوب ساذج بسيط (يمد إليهم الأشياء ثم يسحبها ، أو يكدس أشياء لا حصر لها فى حجورهم) ، على أنه من ناحية أخرى يزداد شعوره بالاعتماد على أمه من أجل سلامته ، فيهرع إليها عندما يصيبه أذى أو ينتابه شعور بالخوف . أما بالنسبة للغرباء ، فلا بد أن يستغرق بعض الوقت فى قياسهم بعينيه للحكم عليهم قبل أن يقترب منهم . فإذا تسرعوا وضغطوا عليه قبل الأوان ، فإن هذا السلوك يدفعه للعودة إلى أمه كى يتعلق بطرف ردائها .

وما من شك أن من العوامل الهامة فى نمو نزعة الطفل إلى الاستقلال ، ألا يشتبك مع أمه فى بعض مشكلات التغذية ، أو بعض مشكلات النظام ؛

أو يشتبك معها فى صراع حول تدريبه على قضاء الحاجة فى « التواليت » ؛ ذلك أن الاصطدامات الجدية العنيفة فى هذه المجالات تربط الأم والطفل أحدهما بالآخر برباط وثيق معقد ، فيه شىء من العداء ، وشىء من الشعور بالقلق ، وشىء من الإحساس بالذنب . فهما لا يستطيعان أن يسيرا معاً فى وئام ، ومع ذلك لا يستطيع أحدهما أن ينسى الآخر أو يتركه فى حاله .

أما إذا كانت المشكلة أبسط من ذلك فإن هناك وسيلتين تستطيع الأم أن تضعهما نصب عينيها ، لا سيما إذا لمست فى نفسها ميلا إلى المغالاة فى فرض حمايتها على الطفل : أولاهما أن تقاوم الحافز الذى يدفعها إلى القفز من مكانها لنجدة الطفل كلما ورط نفسه فى حركات تنطوى على شىء من الخطر الهين ، كالتسلق فوق المقاعد أو الزحف إلى داخل الدواليب . فلو أن الطفل ترك لنفسه ، لاستطاع فى العادة أن يحل هذه المشكلات . أما إذا هرعت الأم لنجدته فى جزع وقلق ، فإن هذا المسلك منها يحمله على الاعتقاد بأن هناك أخطاراً تحيط به من كل جانب ، وأنه فى حاجة إلى انتباه أمه المستمر للبقاء على قيد الحياة .

أما الوسيلة الثانية فهى أن تصحبه أمه — إن أمكن ذلك — إلى حيث يلعب مع غيره من الأطفال الصغار . فبهذه الوسيلة يمكنه أن يعرف أن هناك أنواعاً عديدة من الناس فى الجنس البشرى ، وأن الأطفال رغم أنهم يثيرون الكثير من الصخب ويتسمون بالخشونة ويميلون غالباً إلى الإيذاء على عكس الكبار ، فإن صحبتهم مسلية وممتعة للغاية . على أن الأم التى تميل إلى فرض حمايتها على طفلها ، قد تجد أنها فى هذا الموقف أيضاً ، تراقب الطفل باستمرار وتقفز من مكانها لحمايته ، إذا بدا لها أن طفلا آخر يتهدده بالخطر . من البديهى أنها ينبغى أن تتدخل فى الأمر ، إذا تهدد الطفل خطر حقيقى أو إذا أرهبه طفل مشاغب عدوانى إرهاباً متزايداً ، بل إنها قد تضطر فى هذه الحال لأن تختار

ملعباً آخر تصحب الطفل إليه . لكن ينبغى لها أولا أن تعطيه فرصة معقولة لأن يتعلم كيف يدافع عن نفسه فى المشاجرات البسيطة . وسوف ترى الأم أن هذا هو الأسلوب الذى تتبعه غيرها من الأمهات مع أطفالهن ، كما أنها هى نفسها سوف تتقبله بطريقة طبيعية عندما تنجب طفلها الثانى .

لكنى أعتقد أن الغالبية العظمى منا ستظل دائماً تميل لأن تجعل الطفل الأول معتمداً عليها بعض الشىء ، لأن هذه هى طبيعة تكويننا . ومع ذلك فإننا قد نستطيع أن نضغط هذه النزعة فينا إلى الحد الأدنى ، إذا أدركنا بعض العثرات الشائعة .

المولود الجديد والطفل المعزول

« من الممكن أن تكون الغيرة تجربة بناءة »

أعتقد أن غالبية الأمهات كن فى الماضى يعتبرن شعور الطفل الصغير بالغيرة من المولود الجديد خطيئة ، بل إن بعضهن ما زلن ينظرن إلى الغيرة هذه النظرة . فعند ما كنت أسأل بعض الأمهات كيف يتقبل طفل الثانية مقدم الوليد الجديد ، كم كان يذهلنى أن الأم غالباً ما تقول فى نبرات احتجاج : « آه يا دكتور ! إنه مولع بها ، فهو يرغب دائماً فى أن يربتها ويحتضنها ، لكنه فى بعض الأحيان لا يدرك مدى عنفه حين يفعل ذلك معها ، فيدفعها إلى البكاء » . وكان ذلك يشعرنى كما لو كنت رجلا شرير التفكير ، لأنى أعتقد دائماً أن هذا السلوك من الطفل يحمل فى طياته شيئاً من الغيرة ، على حين أن كل هؤلاء الأمهات يصررن على تسميته حباً خالصاً ألفاً فى المائة . بل إنى عند ما سألت أمى منذ عدة سنوات خلت : كيف كنا أنا وإخوتى وأخواتى كل بدوره يتقبل مولد الطفل الذى يليه ، فإذا بها تنبرى للدفاع عنا قائلة : « الحمد لله أن أحداً من أطفالى لم تبد عليه الغيرة » . غير أنه من العسير علىّ أن أصدق هذا الرأى الآن .

ذلك أنى عند ما ذكرت كلمة « خطيئة » لم أكن أمزح فى الواقع ، وإنما كنت أعنى بها أن غالبية الأمهات كن يشعرن بأن غيرة الطفل من المولود الجديد خطأ فادح ، حتى إنهن لم يستطعن الاعتراف بهذه الغيرة — حتى لأنفسهن — فكان لزاماً عليهن أن يسمينها تعلقاً عاطفياً حاراً أو طيشاً من جانب الأطفال .

من البديهى أن الأطباء والمربين الذين يشيرون إلى تفشى الغيرة ، لا يهدفون من ذلك إلى ذم الأطفال . فنحن نعرف جيداً مدى الضرر البالغ الذى نلحقه

الغيرة ببعض الأطفال ، ونريد أن تدرك الأمهات أن هذه الغيرة شعور طبيعي وشائع ، حتى يتسنى لهن مساعدة أطفالهن فى التغلب عليها .

لقد كان من أصعب المهام فى الماضى ، حين كان عدد كبير من الآباء والأمهات يحاولون إنكار وجود الغيرة فى أطفالهم ، أن نجعلهم يدركون مدى الشعور المدمر الذى يمكن أن تسببه الغيرة للطفل الأول إن كان صغيراً جداً فى السن ، لأن مثل هـذا الطفل لا يستطيع أن يستغرق فى قراءة الكتب ، أو أن يمضى بعيداً عن البيت بحثاً عن النسيان ، ولا يملك عملا يمكنه أن يتحول إليه كى يسرى عن نفسه . وليست له مجموعة منتقاة « شلة » من الأصدقاء المخلصين يستطيع أن يستمد منهم السلوى ؛ ذلك أن كل حياته تنحصر فى بيته ، وكل شعوره بالأمن والطمأنينة يستمده من والديه اللذين يشعر أنهما قد انصرفا عنه بعد مقدم المولود الجديد .

إن أحسن تشخيص لحالته الأليمة سمعته فى حياتى ، قدمته طبيبة نفسانية كانت تلقى محاضرة فى جمعية « دراسات الطفولة » بمدينة نيويورك . قالت الطبيبة للأمهات المجتمعات : « تصورى ما يمكن أن تحسيه لو أن زوجك عاد من عمله إلى البيت بعد ظهر أحد الأيام ، يقتاد فى يده امرأة فاجرة متبهرجة وقال لك : « لقد قر رأيى على أنه ما دام من الممتع أن يكون للمرء زوجة ، فمن الأفضل بلا شك أن تكون له زوجتان . إنى أحب هذه الفتاة « مارلين » وأعلم أنك أيضاً سوف تحبينها » . من المحال طبعاً أن يتبادر لأذهاننا أن الزوجة يمكن أن تسعد مع هـذه الغريبة ، لمجرد أن زوجها يتوقع منها ذلك . ومع ذلك فهذا هو بالضبط ما نتوقعه من الطفل الصغير الغض إزاء المولود الجديد .

وأنا أعتقد من خلال تجربتى أن معظم الأطفال الصغار يظهرون مزيجاً من مشاعر الحب والغيظ نحو المولود الذى يعزلهم من مركز الطفل الأصغر فى الأسرة .

وحتى إذا لم يبد عليهم الغيظ والحنق فى الظاهر ، فإن من الحكمة فى رأيى أن نفترض أنهم يحسون على الأقل ببعض وخزات الغيظ فى أعماقهم الفينة بعد الفينة . على أن نسبة السرور أو النفور تتفاوت تفاوتاً جسيما من طفل إلى آخر ، فهى تتوقف على طبيعة الطفل ومركزه فى الأسرة ، فنحن نجد بوجه عام أن الطفل الذى تظهر عليه أشد حالات التوتر ، هو الطفل الأول الذى ظل طوال حياته يفترض أن والديه ملك له وحده ، غير أن هذا لا ينطبق بطبيعة الحال على كثير من الحالات الفردية . على حين أن الطفل الذى مارس كثيراً من الخبرات مع الأطفال الآخرين ، والطفل الذى يتمتع باستقلال نسبى عن أمه ، قد يكونان أقل كدراً من غيرهما إزاء المولود الجديد . أما بالنسبة للطفل الذى بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره ، فإن هناك احتمالا بسيطاً أن تظهر عليه أعراض اختلال جسيم فى السلوك ؛ ذلك لأنه يحس أنه أكبر كثيراً من المولود ، وأقل اعتماداً على رعاية والديه .

إن على الأمهات ـ بطبيعة الحال ـ أن يواجهن حقيقة الغيرة من المولود ، حتى فى الأيام الأولى حين تتخذ هذه الغيرة مظهراً منطلقاً لا يعوقه عائق : كأن يعمد الطفل إلى الهجوم المباشر على المولود بجسم ثقيل ، أو يدفعه دفعاً عامداً ، أو يقرصه فى غل وحقد . ولكنى أظن أن الأمهات يمكنهن فى العادة أن يتقبلن الغيرة التى يعبر عنها الطفل فى شكل كلام مهذب . والمثال التقليدى الذى نسوقه فى هذا المجال ، هو تلك العبارة التى تصدر عادة عن الطفل بعد يومين من مجىء المولود إلى البيت ، إذ يقول لأمه : « والآن يمكنك أن تعيديه إلى المستشفى » . كما أن بعض الأمهات يعتقدن أنه ما دام الطفل لا يعى مدى حدة مشاعره نحو المولود ، فإن فى وسعهن أن يتقبلن غيرته بابتسامة على وجوههن .

فى حالة كثير من الأطفال الصغار نجد أن رد الفعل لشعورهم بأنهم عزلوا من مركزهم فى الأسرة ، لا يتخذ مظهر العداء للمولود بقدر ما يتخذ المظهر الذى يسميه الأطباء النفسانيون « النكوص » . وهذا يعنى ارتداد الطفل إلى مرحلة أكثر طفولة من مراحل النمو ، فى محاولة جاهدة للحصول على الراحة والشعور بالأمن هناك . ومن الأمثلة الشائعة فى هذا المجال ، رغبة الطفل فى العودة إلى تناول البزازة ، والتبول على نفسه بالليل أو بالنهار ، أو حتى التبرز على نفسه ، والارتداد إلى طريقة الأطفال الصغار فى الكلام ، والرغبة فى أن تعود أمه فتطعمه بنفسها . على أننا نجد من ناحية معينة أن رد الفعل عن طريق النكوص ضار بالطفل ، أكثر مما لو انتابه الشعور بالغضب ، وعرف على وجه التحديد من الذى يثير فيه هذا الغضب ، وحاول أن يسوى حسابه معه . فهو فى الحالة الأخيرة يرفض أن يستسلم للمولود الجديد ، ويقوم بعمل إيجابى للدفاع عن حقوقه . على حين أنه فى حالة النكوص يكون قد فقد شيئاً من توازنه تحت وطأة الصدمة ، فأصبح فى حالة تراجع إلى الوراء . والواقع أن الأعراض العادية للنكوص شائعة بين الأطفال ، تكون عادة أعراضاً مؤقتة ليست لها صفة الدوام ، بحيث ندرك أنها لا تدل على حالة خطيرة فى مثل هذه الظروف . ولكنها عند ما تكون أعراضاً حادة ودائمة ، يتصرف الطفل كما لو كان رضيعاً تلوح عليه أمارات الكآبة طوال اليوم ، فإن هذا هو الوقت الملائم لأن نسارع إلى نجدته ، بمساعدة الطبيب النفسانى إذا تطلب الأمر .

والآن بعد أكثر من عشرين عاماً ظل خلالها الأطباء والمربون يلفتون الأنظار إلى مشكلة الغيرة ، انتهت غالبية الآباء والأمهات إلى الاعتقاد بأنها ظاهرة طبيعية ، فعملوا بإخلاص على مساعدة أطفالهم فى التغلب عليها والرضا بالأمر الواقع ، مدركين أن هذا هو أقصى ما يمكن أن يتوقعوه منهم . فلم تعد فى

هذه الأيام سوى نسبة ضئيلة من الأمهات هى التى تحاول إنكار وجود الغيرة . على أن طائفة قليلة من الأمهات الأخريات يورطن أنفسهن فى متاعب لا داعى لها فى اعتقادى ، بأن يربين فى أنفسهن شعوراً متطرفاً بالخوف من الغيرة . وقد يحملهن هذا الخوف على المغالاة فى الاهتمام بالطفل المعزول، والسماح له بامتيازات غير معقولة ، والتغاضى عن كثرة إلحاحه فى مطالبه أو حتى عن سلوكه الوقح . فإذا ضبط الطفل أبويه وهما يستمتعان بصحبة المولود ، فإنهما فى هذه الحالة قد يجفلان مذعورين وقد لاحت عليهما أمارات الشعور بالذنب وكأنهما مجرمان ضبطا فى حالة تلبس . وهو أسلوب خاطىء ، فما من طفل يمكن أن يظل متمتعاً بالسعادة أو الشعور بالأمن إذا لمس الخضوع والاستسلام فى أبويه . كما أنهما حين يتصرفان معه كما لو كانا قد أساءا إليه ، فإن ذلك المسلك يحمله على الاعتقاد بأنهما لا بد قد فعلا ذلك ، مما يزيد من شعوره بالغيرة . وفى اعتقادى أن الخوف المتطرف من الغيرة أساسه فرضان خاطئان : أن الغيرة شعور حاد فى العادة ، وأنها شر خالص . وربما كان تركيزنا الشديد ، أنا وغيرى من الكتاب ، على هذه الناحية — بإصرارنا على أنها سائدة بين الأطفال جميعاً وأنه ينبغى معالجتها — هو السبب فى ذلك الخوف منها الذى تولد فى نفوس بعض الآباء والأمهات ، لاسيما أولئك الذين يتسمون بالحساسية الفائقة والضمير الحى ، فضلا عن أولئك الذين عانوا أشد العناء من الشعور بالغيرة فى مرحلة طفولتهم .

* * *

على أية حال ، أود أن أشير إلى بعض الآثار البناءة التى يمكن أن يحدثها مولد الرضيع فى الطفل ، وهو عادة ما يحدث هذه الآثار بالفعل ، ذلك أن مقدم المولود الجديد يمكن أن يدفع عملية نضج الطفل ويسرع بها ويدعمها . وهناك مثال واضح فى غاية البساطة يدل على ذلك — أعترف أنه لا يحدث

كثيراً — وهو أن الطفل الذى ناهز الثانية قد يفاجىء أمه عند مقـدم المولود الجديد بأن يتقبل على حين فجأة التدريب على استخدام المرحاض « التواليت » أو يكف عن التبول على نفسه بالليل ، أو يتخلى عن البزازة . ومرد ذلك أن البون الشاسع بينه وبين المولود — من ناحية الحجم والقدرات والسلوك — يبدو أنه يجعله يدرك فجأة مدى ما أحرزه من نمو ، ويضفى عليه فخراً بهذا النمو ، ويحفزه إلى مزيد من التقدم فى هذه السبيل . ومثل هذه الحالات ، على ندرتها ، ينبغى أن تذكرنا بأنه حتى الطفل الذى يقاوم أثر المولود الجديد بالطريقة الطفولية المعتادة ، فيرتد إلى تناول البزازة أو إلى التبول فى الفراش ، حتى هـذا الطفل لا بد وأنه قد أصبح يدرك إدراكا جيداً مدى بعد المسافة التى تفصل بينه وبين مرحلة الرضاعة . وبعبارة أخرى ، إن الطفل وحيد أبويه يحس معظم الوقت بأنه ثابت فى موقف واحد لا يتغير ، وهو يسمع من الآخرين أنه سيكبر يوماً ما ، لـكنه لا يستطيع أن يلمس تغيراً كبيراً فى حالته من يوم إلى يوم أو من شهر إلى شهر . غير أن مقدم المولود الجديد يلقى ضوءاً جـديداً ساطعاً على حياة هـذا الطفل ، فيدرك فجأة أن هناك طريقاً طويلا يمتد من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة البلوغ ، وأنه قد قطع مسافة تدعو إلى الدهشة من هذا الطريق الطويل . حقيقة أن رغبته المؤقتة فى الشعور بالأمن تخلق فيه نزعة قوية لأن يندفع عائداً أدراجه طول هذا الطريق ، لـكنه فى نفس الوقت يزداد شعوراً بأنه يجب أن يتجه إلى الأمام فى نفس الطريق .

وأعتقد أن الأم يمكنها أن تنمى فى الطفل الشعور بالزهو والتحدى ، بأن تلفت نظره أحياناً — فى نبرات مشفقة رقيقة — إلى أن المولود لا يمكنه الجلوس والمشى والجرى والـكلام والفهم ، ولا يمكنه استخدام الملعقة والقدح والمرحاض « التواليت » . ولا يستطيع الخروج من البيت واللعب بلعب الأطفال ،

وما إلى ذلك ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله هـذا المولود هو أن يمتص اللبن الدافىء ويطلق صوته بالصراخ . كما أن الأم يمكنها فى بعض اللحظات الأخرى أن تتحين الفرص كى الملائمة تزجى المديح للطفل على أعماله ومهاراته الجديدة ، وتطلب منه فى أسلوب ناضج مهذب أن يساعدها بين الفينة والأخرى ، ثم تبدى تقديرها لمساعداته القيمة بنفس الأسلوب الناضج ، وتمنحه بعض الامتيازات الجديدة — مهما تكن تافهة — نتيجة لازدياد قدرته على أداء بعض الأعمال وزيادة اعتمادها عليه ، وتذكره بأن هناك مهارات وامتيازات أخرى فى طريقها إليه . إن هـذا البرنامج المزدوج ملائم تماماً للطفل ، إذا نفذته الأم فى صدق ولباقة . فالهدف منه هو أن يساعد الطفل على الاحتفاظ بتوازنه ، وأن يساعده أيضاً على تذوق متعة الشعور بالنضج ، فى وقت يحتمل أن تؤدى به عوامل التوتر إلى نسيان كلتا الناحيتين .

وفى بعض الأحيان يعقد الطفل مقارنات مباشرة بينه وبين المولود ويطلب من والديه الموافقة على أنه أكثر وسامة أو قوة منه . وفى رأيى أنه ليس هناك ما يمنع الوالدين من موافقته على ذلك أحياناً ، وتستطيع الأم أن تضيف إلى ذلك قولها بأنها كانت ستعانى أشد العناء فى رعاية المولود ، لو أنها لم تحصل منه على كل هذه المساعدة التى يقدمها إليها . لـكنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن الأم لا ينبغى أن تعقـد مقارنات مباشرة بين طفليها ، فتبدى وجهة نظرها الخاصة ، كما لو كانت تقدر أحدهما أكثر من الآخر ، أو تكنّ لأحدهما حباً يفوق حبها للآخر ؛ ذلك لأن التعبير الذى تبديه الأم فى مجـال المقارنة أو المفاضلة ، يزيد من حدة المنافسة بين الأطفـال ، كما أنه يخلق فى الطفل شعوراً بأن الأم تلعب « لعبة الأطفـال المفضلين » . فحتى لو بدا له دائماً أنها تعتبره طفلها المفضل ، فإن هذا سيؤدى فقط إلى تذكيره بأن من الممكن أن يفقد حظوته لديها ، وأن من الضرورى أن يطمئن نفسه دائماً إلى أنه ما زال يحظى بهذه

الحظوة . على حين أن البرنامج الذى أدعو إليه ، يقـــوم على تذكير الطفل بالعيوب الـكامنة فى مرحلة الرضاعة من وجهة نظره الخاصة ، فضلا عن تذكيره بالمباهج والمتع التى تترتب على كونه أكبر سناً من الرضيع من وجهة نظره أيضاً .

ويجدر بى أن أذكر تحذيراً آخر بشأن هذا البرنامج . فلو أن الطفل الذى استبدت به الغيرة من المولود لاح عليه أنه يميل إلى النـكوص لمرحلة الرضاعة أكثر من ميله إلى الشعور بالزهو لأنه أكبر سناً من الرضيع ، ولو أن الوالدين بالغا فى الإصرار على وصف كل شىء يرغب الطفل فى ممارسته بأنه من أعمـــال الصغار ، وعلى وصف كل شىء لا يرغب فيه بأنه من أعمال الـكبار ، فإن هذا الأسلوب سيؤدى فقط إلى زيادة اقتناع الطفل بأن حياة الرضيع هى بالضبط الحياة التى يرغب فيها . وبعبارة أخرى ، لا بد أن تظهر بعض الدلائل التى تشير إلى أن الطفل يستجيب لدعوة النضج ، كى يحقق هذا البرنامج الفائدة المنشودة .

* * *

ثمة ناحية أخرى تساعد الطفل الصغير على التقدم فى عملية النضج بعد مقدم المولود الجديد ، وهى أن نشجعه على أن يتقمص — إلى حد ما — شعور الوالدين . على أن هـــذه الناحية وإن كانت تمثل حقيقة مظهراً آخر من مظاهر النضج ، إلا أنها ناحية فى غاية الدقة . فهى لا تنطوى على مجرد شعور الطفل بالزهو لأنه أكبر حجما ومقدرة من المولود ، فهذا الشعور يلازم كل مرحلة تالية من مراحل الطفولة ، بل إنها تعنى قفزة واسعة إلى الأمام يقطع بها الطفل كل المسافة التى تفصل بينه وبين مرحلة البلوغ . فالأولاد والبنات ، لا سيما بين سن الثالثة والسادسة ، يستهويهم عادة أن يمثلوا دور الآباء والأمهات ، حتى ولو لم يأت مولود للأسرة . وفى اعتقادى أن هـــذه الرغبة هى أقوى الحوافز عند الأطفال فى هذه

السن ، لذا فهى تحقق الهدف المنشود دون أدنى تشجيع من جانب الوالدين . ولـكن إذا أدى مقدم المولود إلى خلق حالة نكوص عند الطفل وإلى إعاقة عملية نموه بعض الوقت ، فإن الأم تستطيع فى هـذه الحالة أن تعيد إليه توازنه بأن تستثير فيه الحافز الذى يدفعه للقيام بدور الوالدين . فالطفل يميل بطبيعته إلى الهروب من الموقف الأليم الذى يخلقه شعوره بالمنافسة مع المولود ، عن طريق التظاهر بأنه قد تجاوز مرحلة الطفولة تماماً ، ويقنع نفسه بأنه لا ينتمى مطلقاً إلى نفس الفئة التى ينتمى إليها الرضيع ، بذلك ينظر إليه من زاوية جديدة تماماً ، فيتعامل معه كما لو كان والداً ثالثاً له . وعلى هذا النحو تتحول مشاعر الغيرة التى تعتمل فى نفسه إلى مشاعر ناضجة تتسم بحب الغير والعمل من أجلهم .

والـكثير من الأمهات يعرفن جيداً مختلف الأساليب التى يمكن أن تنتهجها الأم فى هـذا المجال : كأن تسمى المولود « طفلنا الصغير » وأن تشجع الطفل على أن يؤدى دور المسئول عن إحضار البزازة من الثلاجة أو الـكافولة من كومة الـكوافيل ، وأن تسمح له بأن يساعدها فى تجفيف المولود بعد الحمام ، وأن تطلب إليه ملاحظة المولود عندما تكون مشغولة بالعمـل خارج الحجرة ، وأن تكلفه باصطحاب بعض الزوار إلى حجرة المولود كى يريهم محاسنه . والأم اللبقة يتمخض ذهنها كل يوم عن عشرات الوسائل التى يمكن عن طريقها أن تخلق فى الطفل شعوراً بأنه يعمل معها جنباً إلى جنب فى سبيل هدف مشترك ، حتى ولو كانت المهام التى يؤديها تتسبب فعلا فى تعطيلها بدلا من أن تساعدها على أداء عملها . فبعد فترة من الزمن قد يتضح لها أن المساعدة التى يقدمها إليها الطفل ، لها بعض الفائدة بالفعل . كما أن الطفلة الصغيرة قد تجد — بطريقة غير مباشرة — نفس الشعور بالرضا فى العناية بدميتها بطريقة تقلد بها أمها تقليداً دقيقاً ، فى أسلوبها وروحها .

على أن هذا الأسلوب فى معالجة الطفل له حدود عديدة غنية عن البيان . فالأم مثلا لا تجرؤ على السماح للطفل بأداء مهام معينة ، كأن يحمل المولود هنا وهناك فى أرجاء البيت . غير أننا نجد من ناحية أخرى أن اللهفة إلى حمل المولود شعور جارف عند الأطفال الصغار ، لذا أعتقد أنه مما يستحق تحمل بعض المشقة إلى جانب شيء من المخاطرة البسيطة ، أن نرتب للطفل والمولود مكاناً يجلسان فيه معاً على أريكة أو على الأرض ، حتى إذا سقط المولود لا يكون سقوطه من مكان عال .

ثمة حد آخر لهذا الأسلوب ، ذلك أن نزعة الطفل إلى القيام بدور الأم وتقمص شعورها ، تقل بشكل واضح بين الأطفال دون سن الثالثة . غير أننا لا نستطيع القول بأن هذه النزعة توجد دائماً بنسبة ضئيلة فى سن الثانية والنصف ثم تصبح هذه النسبة متوسطة فى سن الثانية وتسعة أشهر ، فهى تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين مختلف الأطفال ؛ إذ تتوقف على جنس الطفل وحالته المزاجية ، كما تتوقف أيضاً على مدى سهولة التعامل بينه وبين أمه .

على أن أهم الحدود بلا شك ، هو مدى المتعة التى يجدها الطفل فى القيام بدور الأم ؛ إذ ليس هناك ما يدعو لأن تفرض الأم هذا الدور على طفل ينفر منه بطبيعته . إذا لم يحس الطفل بمتعة فى الأمومة ، فإن المهام التى تلقى على عاتقه لن تؤدى إلا إلى زيادة نفوره من المولود ، أو على الأقل إلى شعوره بأن هذا المولود يتسبب أساساً فى مضايقته وإزعاجه . كما أنه لا ينبغى أن نحث الولد أو البنت على القيام بدور الأم طوال النهار . بل يجب أن نترك له — أو لها — كثيراً من الفرص لأن يكون طفلا مرحاً مجرداً من المسئوليات ، يتمتع باللعب مع أصدقائه .

كما أنى أعتقد أن الأم لا ينبغى أن تركز كل اهتمامها على المتعة التى يجدها الطفل فى العناية بالمولود ، لأن الطفل الذى تتملكه الغيرة ، يفضل فى كثير من الأحيان أن يمثل دور الأم التى تميل إلى اللوم والتحكم ، وهذا الطفل الذى يهرب من الشعور بالغيرة لمجرد أن يصبح أماً غضوباً مستبدة ، لا يعتبر أنه قد أحرز تقدماً كبيراً فى التغلب على مشكلاته ، بل إنه فى المستقبل سوف يصبح غصة فى حلق أصدقائه وإخوته وأخواته الصغار .

* * *

وثمة ناحية أخرى يمكن أن تكون فيها الغيرة تجربة بناءة ؛ فالطفل إذا لم ينحرف مزاجه إلى مرحلة خطيرة من أثر الشعور بالغيرة ، وساعده والدان محبان يتسمان باللباقة على تجاوز هذه المرحلة تدريجاً ، فإن من الممكن فى اعتقادى أن تنتهى به هذه التجربة إلى تكوين شخصية أقوى من شخصيته فى الماضى . فهو يظل فترة من الزمن يتوهم أن المولود سيكون حائلا بينه و بين والديه ، ويخشى ألا يمنحه والداه من حبهما ما كانا يمنحانه له من قبل ، لذا فإنه قد يحس بالغيظ والحنق على المولود أكثر من شعوره بالحب نحوه . لكنه يقتنع على مر الأسابيع والشهور بأن أبويه يتفانيان فى حبه كعهدهما دائماً . وإذ يبعث هذا الاقتناع الطمأنينة فى قلبه ، تزداد قدرته على الاستمتاع بالنواحى الطيبة فى المولود الجديد ، و ينمو فى قلبه ولع به يزداد يوماً بعد يوم . على أن الأمر لا يقتصر على مجرد عودته إلى نفس الحالة التى كان عليها قبل أن يسمع بالمولود على الإطلاق . فمادام قد خاض أزمة حقيقية ولم تهزمه هذه الأزمة ، فلابد وأنها قد صلّبت عوده . لذا فمن المؤكد أن تنتهى به هذه التجربة إلى أن يصبح أكثر ثقة فى حب والديه ، وأكثر تسامحاً مع الأطفال الآخرين ، وأكثر اطمئناناً إلى الحياة وإلى قدرته على مواجهتها . إن نفس الشىء يحدث مع الجندى بعد أن يخوض معركته الأولى

بنجاح ، ومع الأم بعد أن تمر بحالة الولادة الأولى فى حياتها ، ومع الطفل بعد أن يجتاز إحدى العمليات الجراحية . «فالنصل تشحذه النار» وفى اعتقادى أن هذا هو السبب فى أن الطفل الأول غالباً ما يبدى أكبر قدر من الحب وأقل قدر من الغيرة نحو الطفل الثالث بين أطفال الأسرة .

* * *

لقد كتبت إلى كثيرات من الأمهات خطابات ينوهن فيها إلى أن النصائح التى غالباً ما يسديها الأطباء — بشأن إعداد الطفل لاستقبال المولود الجديد — لا تنطبق إلا بدرجة محدودة على الأطفال دون سن الثالثة ، وتكاد لا تنطبق مطلقاً على الأطفال دون الثانية . وإنى أوافقهن على هذا الرأى . فمهما تحاولى فى صبر وأناة أن تشرحى الحدث القادم للطفل ابن السنة ، فإنك تشعرين بأنه لا يعى الكثير مما تقولين له . قد يستطيع ترديد كلماتك ، وقد يستطيع تكوين صورة ذهنية باهتة عن الموقف فى أثناء إعداد مهد المولود وجهازه ، وقد يمتعه أن يتصفح كتاباً مصوراً عن المولود الجديد . لكنه بطبيعة الحال لن يكون مستعداً نفسياً للمشاعر التى ستعتمل فى نفسه حين يرى أمه تعنى فعلا بالمولود . لذا أعتقد أن الأم لا ينبغى أن تبذل جهداً أكثر من اللازم فى هذا السبيل . على أنه مما يستحق الاهتمام أن تجرى التغييرات اللازمة فى ترتيب البيت قبل موعد الولادة بشهور كيلا يحس الطفل بأنه قد أقصى من مكانه حين يظهر الغريم . ولكن الأمهات يجب أن يعتمدن فى الغالب على لباقتهن وتقديرهن لظروف الطفل بعد مقدم المولود الجديد . فجوهر المسألة هو أن تتجنب الأم التحمس المتطرف للمولود ، والانشغال الدائم بأمره ، وهو أمر من العسير تنفيذه ، لأن هناك شيئاً فى طبيعة المولود ، يبدو أنه يثير هـذه النزعة الوالهة التى عادة ما يبديها نحوه الوالدان والجدان وأصدقاء الأسرة . على أنه ليس ثمة ما يدعو إلى تجاهل المولود تجاهلا

تاماً . فالطفل حتى فى سن سنة ، فى وسعه أن يشعر بشيء من الحب نحوه ، فضلا عن أن تقمصه لشخصية الأم المحبة الحنون يساعد على تنمية هذا الشعور فيه . كما أنه لاداعى لأن يحاول الوالدان إعطاء الطفل جرعات ضخمة من الاهتمام « المتكلف المغتصب » . فأكثر ما يبعث الطمأنينة فى قلبه هو أن يدرك طوال اليوم أن أمه وأباه لا ينسيانه ، بل يتحدثان إليه ويقدمان إليه المساعدة ويشاركانه فى اللعب أحياناً ، وينسجمان معه بنفس الطريقة الواثقة المستريحة التى اعتادها منهما .

ما من شك أن من واجب الوالدين أن يمنعا الطفل ابن السنة أو السنتين أو الثلاث من إلحاق الأذى بالمولود كلما وجد إلى ذلك سبيلا . وذلك عن طريق السهر على المولود بعين اليقظة ، ونهى الطفل نهياً حازماً صارماً ، والتدخل السريع لمنع الأذى ، ووضع المولود — إذا استدعى الأمر — فى غرفة مغلقة حين يكون مستغرقاً فى النوم أو تكون الأم مشغولة بالعمل . ورغم أن الطفل الصغير قد لا يستطيع مقاومة الحافز الذى يدفعه إلى إيذاء المولود ، فإنه يحس إحساساً شديداً بالذنب إن نجح فى ذلك . لذا فإنه — شأنه شأن المولود — فى حاجة لأن نحميه من مشاعره العدائية .

ثم أقول فى النهاية : إن كل ما تعلمناه من عملنا فى ميدان إرشاد الأمهات ، يعزز اقتناعنا الراسخ بأن من الأشياء التى تساعد الطفل فى هذه الأزمة أن نتيح له فرصة الحديث عن مشاعر الغيرة التى تعتمل فى نفسه (وهذا شيء يختلف تماماً عن السماح له بوضع هذه المشاعر موضع التنفيذ) . فحين يحاول الطفل إلحاق الأذى بالمولود ، أو حين تلحظ أمه أنه يشعر بالغضب أو الكآبة ، فإنها تستطيع فى هذه الحالة أن تذكره بأنها تعرف أنه يشعر بالغضب من المولود فى بعض

الأحيان ، وتعرف أنه يميل أحياناً لأن يبتعد المولود عن البيت ، كى يبقى هو بمفرده مع « بابا وماما » . إن هذا الأسلوب يؤدى عادة إلى تحسن مؤقت فى روحه المعنوية ، ثم إلى تحسن دائم بمرور الزمن . كما أنه يجنب الطفل الإحساس بالذنب إحساساً لا يطاق ، ويجعله يحس بأنه لا داعى لأن يخفى شعوره بالعداء فى أعماق أعماقه ، حيث يحتمل أن يستقر هذا الشعور مدة أطول ويلحق بشخصيته ضرراً أفدح ، فضلا عن أن هـذا الأسلوب يبين للطفل بطريقة مقنعة للغاية أن أمه ما زالت تفـكر فيه وتـكن له الحب ، الأمر الذى يساعده على المدى البعيد فى التغلب على شعوره باليأس .

مشاجرات الأطفال

«إن السبيل السليم الذى يجب أن تسلكه الأم هو أن تتعامل مع كل واحد من أطفالها على أنه فرد له كيانه المستقل » .

يحمل إلىّ البريد أسبوعياً خطاباً على أقل تقدير ، بشأن المشاحنات والمعارك التى تدور بين أطفال الأسرة . والأمهات اللائى يعانين من مشكلة إلى الحد الذى يدفعهن لكتابة الخطابات ، يلوح لى أنهن يعانين شعوراً بالخيبة والإرهاق. لقد كنت أزور أحياناً أسراً لا ينقطع فيها العراك بين الأطفال ، حتى إننى كنت أحس بالتعب والتوتر بعد انقضاء عشرين دقيقة من بدء الزيارة . وكنت أعتقد دائماً أنه عندما تصل الأمور إلى هذه الحالة من الفوضى (ما بين الصيحات وصرخات الاستغاثة بالأم والطرق وأصوات التحطيم والعويل والشكاوى إلى الأم ثم الشكاوى المضادة طوال النهار) ، فإن هذا النمط فى السلوك لا يتغير مطلقاً ، بل يظل ثابتاً فى الأسرة على الدوام . ولكنى أذكر جيداً ما اعترانى أنا وإحدى الأمهات من ذهول ذات مرة ، حين لمسنا مدى السرعة التى يمكن أن تتغير بها معالم الصورة . فقد استقر رأى هذه الأم هى والأب — وهما يحسان بشىء من الشعور بالذنب — على قضاء إجازة لمدة أسبوعين بعيداً عن البيت ، بغير أن يصطحبا معهما أطفالهما الثلاثة الذين لا يكفون عن العراك ويميلون إلى الفوضى (تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والثامنة) ، ثم تصادف أن وفق الوالدان فى التعاقد مع مربية لها سمعة ممتازة فى السيطرة على الأطفال أثناء غياب ذويهم . وبعد يومين من غيابهما ، اتصلا بالبيت تليفونياً كى يعرفا هل المربية والأطفال لا يزالون على قيد الحياة أم لا ، فرد عليهما صوت فرح مرح ينبئهما أن الجميع على خير ما يرام . كان من العسير عليهما تصديق ذلك ، غير أن النبأ تأيد فى خطاب

أرسلته إليهما الجدة ، التى اعتادت أن تزور البيت مفاجأة كل يوم كى تتفقد حال الأطفال . لقد كان الجميع يستمتعون بوقت طيب للغاية ، حتى إن الوالدين قررا مد إجازتهما أسبوعاً آخر . وعند ما عادا إلى البيت ، شملهما الذهول مرة أخرى ، فقد وجدا الأطفال فى غاية المرح والانشراح ، يتعاملون فى ود بعضهم مع بعض ، يتعاونون مع المربية ، ويعاملونها فى أدب جم . حتى لقد قالت الأم إن منظرهم وهم قابعون معاً على الأريكة يصغون إلى قصة تقرؤها لهم المربيـة ، ذكرها بالعبارة القائلة : « إن الأسد سوف يرقد جنباً إلى جنب مع الحمل » .

هناك عوامل عديدة تخلق الرغبة فى العراك عند الأطفال ، وهى تتفاوت كماً وكيفا باختلاف الأسر . ولنبدأ بعرض نوعين من الأنواع الشاذة الخطيرة . هناك الطفل الذى تتأصل النزعة العدوانية فى نفسه ، فلا يضطهد إخوته وأخواته فحسب ، بل يضطهد أيضاً أى طفل فى الحى ، إذا وجد أن فى استطاعته أن يفعل ذلك دون عقاب . وعادة ينشأ توتر شديد بين هذا الطفل وبين والديه ، يرجع إلى مرحلة طفولته المبـكرة . هذا النوع من الأطفال يحتاج فى العادة إلى مساعدة إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية ، لتقويم سلوكه . هناك نوع آخر يعانى أيضا من حالة مزمنة متأصلة ؛ ذلك هو الطفل الذى يدفعه شعوره بالعـــداء إلى البحث عن المتاعب ، غير أنه بطبيعة تـكوينه يعمل على استفزاز الأطفال الآخرين فيدفعهم إلى اضطهاده ، ودائمـاً ما ينتهى به الأمر إلى الظهور بمظهر الضحية المجنى عليها . مثل هذا الطفل يحتاج إلى مساعدة المتخصصين أكثر من الطفل العدوانى الذى يضطهد غيره من الأطفال ، لأن احتمال أن يتحسن هذا الأسلوب التعس فى السلوك تلقائياً كلما تقدم الطفل فى السن ، أقل منه فى حالة الطفل الآخر .

ومن العوامل البالغة الأهمية فى هذا المجال ، مدى مثابرة الأمهات على إبداء

رغبتهن فى أن يسود الهدوء أرجاء البيت . قد يتبادر إلى ذهنك أن جميع الأمهات يرغبن فى الهدوء . فكل الأمهات يعتقدن بطبيعة الحال أنهن يرغبن فى ذلك ، غير أن بعضهن لا يفعل شيئاً سوى التظاهر بإصدار الأوامر إلى أطفالهن بالتوقف عن الشجار والعراك . ولكن نبرات أصواتهن لا تحمل طابع الإقناع أو السلطة، كما أنهن لا يتابعن تنفيذ الأوامر إلى النهاية ، ومن ثم لا يصلن مع الأطفال إلى أية نتائج فعالة . فما يتوهمن أنه أوامر يصدرنها إلى أطفالهن ماهو إلا شكاوى من مشاجرات الأطفال . والواقع أن مثل هؤلاء الأمهات يتوقعن نشوب العراك بين أطفالهن ، كما أنهن على ما يبدو يحصلن ، لا شعورياً ، على شعور شاذ بالرضا والارتياح من هذا العراك . بل إنهن يكدن يتفاخرن بهذا الشغب والضوضاء فى حديثهن إلى الجارات — أحياناً فى حضور الأطفال أنفسهم — أو يبتسمن فى فتور ، ويهززن أكتافهن بغير اكتراث . هذه الحالة عند بعض الأمهات تمثل نوعاً من الاستسلام الغامض للشعور بالكدر ، تحمله الأم عادة فى أعماقها منذ أيام طفولتها التى كانت كذلك مليئة بالصخب والضجيج . فالآباء والأمهات الذين لا يحبون العراك بالفعل ، يمكنهم فى القليل أن يعملوا على أن تظل المشاجرات بين الأطفال دون مستوى الضجيج الهادر ، حتى ولو استمر الأطفال فى تبادل النظرات الحانقة وفى الزمجرة بأصوات خافتة . إننا جميعاً بطبيعة الحال نمر بأيام يفلت فيها الزمام منا ، فنتخلى عن بعض سيطرتنا على أطفالنا ، ونترك العواصف تهدر فى عنف . أما الآباء والأمهات الذين لا يتمكنون مطلقاً من الإمساك بزمام الأمور ، فإنهم بلا شك فى حاجة إلى مساعدة المتخصصين ، ويمكنهم الإفادة منها فى تربية أطفالهم .

وثمة عامل آخر منفصل بعض الشىء عن موضوع سيطرة الوالدين على الأطفال ، ألا وهو شعور الوالدين بالتوتر . وفى اعتقادى أن معظمنا قد أحس فى مناسبة أو أخرى أنه عندما يكون مزاجنا معتدلا (لأن الأمور تسير على

ما برام في المكتب ، والحياة الاجتماعية تبعث على الرضا ، ولا توجد عوامل شاذة تدعو إلى القلق على الأطفال أو الصحة أو المال) ، فإن نسبة العداء بين الأطفال تقل بشكل ملحوظ ، على حين أن العوامل التى تخلق عندنا استعداداً للغيظ والتوتر ، قد تؤدى إلى زيادة المشاجرات بين الأطفال . وبعبارة بسيطة : إذا أحس الطفل أن إنساناً ما يضطهده ، لكنه لا يستطيع الانتقام منه مباشرة ، فإنه يشعر بحافز لا يقاوم ، يدفعه لأن يضطهد بدوره إنساناً آخر يكون صغير الحجم بحيث يمكنه أن يسيطر عليه ، (شأنه فى ذلك شأن جميع المخلوقات البشرية) .

* * *

لكنى أعتقد أن عامل الغيرة هو أقوى العوامل التى تؤدى إلى المشاجرات العادية بين الأطفال ؛ ذلك أن أقوى العلاقات فى مرحلة الطفولة هى بطبيعة الحال العلاقة بين الطفل وأبويه . فالطفل يريد إلى حد ما أن يكون حب والديه خالصاً له وحده ، ويخاف أن ينتقص الحب الذى يمنحانه لإخوته وأخواته من حبهما له . وهذا الخوف يجعله يشعر بالشك فيهم والحنق عليهم . غير أن درجة هذا الشعور تتفاوت تفاوتاً جسيماً بين مختلف الأطفال ، فهى تتوقف على ظروف الطفل والأشياء التى اعتادها فى حياته . فالطفل الأكبر الذى ظل وحيد أبويه لمدة سنتين وظل يفترض كقضية مسلم بها أن كلا أبويه ينتميان إليه وحده لا شريك له ؛ مثل هـذا الطفل يحتمل أن يتكدر لمقدم المولود الجديد ، أكثر كثيراً من الطفل التالى الذى اعتاد منذ بداية حياته أن يشاركه غيره فى حب والديه . إن حالات مختلفة شبيهة جداً بهذه الحالة ، كثيراً ما تنشأ فى دوائر العمل عندما ينضم شخص جديد إلى هيئة الموظفين ، أو قد تنشأ فى مجالات الصداقة أيضاً .

بيد أننا يجب أن ندرك أن عنصر الغيرة والتملك فى الحب ليس مجرد عيب يؤسف له فى شخصية الإنسان ، بل إنه جزء لا يتجزأ من جوهر تكويننا البشرى . إنه جزء من ذلك الشيء الذى يجعلنا نرتبط ويتعلق بعضنا ببعض كأزواج وزوجات وكأسر ، وكأى جماعات متماسكة أخرى . ولولا ذلك لأصبحت العلاقات بيننا مجرد علاقات عارضة كالعلاقات بين الحشرات .

إن الأطفال المتقاربين فى السن أكثرهم ميلا إلى العراك والشجار بعضهم مع بعض ، لأن الأصغر سناً يعزل التالى الذى يكبره فى السن من مركز الطفل الأصغر فى الأسرة ، وهو مركز يشق على الطفل — من نواح عدة — أن يتخلى عنه . وإذا شرع الأكبر فى اضطهاد أخيه الأصغر ، فإن يطول الوقت بالأخير حتى يكتشف من هو غريمه بالذات بين أطفال الأسرة . على أن هناك بطبيعة الحال أسباباً أخرى تدفع الأطفال المتقاربين فى السن إلى العراك أكثر من غيرهم ، فهؤلاء الأطفال يوضعون دائماً جنباً إلى جنب فى ترتيبات الأسرة ، كما أنهم يهتمون بنفس اللعب و نفس الرفاق .

ويتوقف الكثير فى هذه المشكلة على شخصية الطفل وبنيان جسمه . فإنى أعتقد أن بعض الأطفال يولدون وعندهم ميل إلى اللطف والسماحة ، على حين أن البعض الآخر يميل إلى تأكيد ذاته . والأطفال الميالون إلى تأكيد الذات هم فى اعتقادى الذين يحتمل أن يثيروا ضجة أكثر من غيرهم إذا أحسوا بأنهم قد فقدوا مكانتهم فى الأسرة . كما أن الطفل بطىء التفكير وسط أسرة لماحة متوقدة الذكاء ، والبنت البسيطة بين مجموعة من البنات الفاتنات ، والطفل القصير بين الإخوة طوال القامة ، والبنت التى ينجبها أبوان يفضلان البنين ، كل هؤلاء قد ينتابهم شعور جارف بالغيرة ، إذا كانت الظروف الأخرى فى الأسرة تساعد على احتدام المنافسة بين الأطفال .

ينبغى أيضاً أن ندرس طبيعة الأثر الذى تحدثه اتجاهات الأمهات نحو الأطفال على شعورهم بالغيرة . قد نبادر فى التوّ ونتسرع فى الحكم قائلين إن عدم التكافؤ فى حب الأم لاثنين من أطفالها ، من العوامل التى تولد المنافسة . فهذا هو الرأى الذى تبينه كثير من قصص الأطفال والروايات الخيالية ، ويردده عديد من الناس . لكنى لا أعتقد أن المسألة بهذه البساطة ؛ ذلك أنها تثير لنا سؤالا ماكراً : « هل يوجد بالفعل شىء يمكن أن نسميه الحب المتكافىء » ؟

فى اعتقادى أن الأمهات الطيبات يتفانين فى حب أطفالهن جميعاً على قدم المساواة ، غير أنه من المحال أن تستمتع الأم بصحبة اثنين من أطفالها ، أو أن تغتاظ من تصرفاتهما بنفس الطريقة تماماً فى كلتا الحالتين ، لذلك لا ينبغى أن تحاول الأم معاملة الطفلين نفس المعاملة بالضبط ، فتعطى كلا منهما نفس لحظات الاهتمام ، ونفس عدد البسمات ونفس عدد التجهمات . فالأطفال والبالغون على حد سواء ، لا تخدعهم الاتجاهات المغتصبة المتكلفة . فهم على المدى البعيد لا يحبون فى الحقيقة أن تعقد مقارنات بينهم وبين غيرهم ، سواء أكانت المقارنة فى صالحهم أم فى غير صالحهم . إن أكثر ما يرغب فيه الطفل — فى رأيى — هو أن يحبه أبواه ويستمتعا بصحبته لذاته هو . فإذا تأكد فى أعماقه أن له مكانة طيبة فى قلب أمه ، فإنه لا يبالى كثيراً بالمكانة التى يشغلها إخوته وأخواته فى قلبها ، ما لم تدأب الأم على عقد المقارنات بين مكانة الأطفال عندها ، أو التهديد بأن تنبذ أحدهم من مكانه فى قلبها . هذا فى رأيى هو جوهر المشكلة الخاصة بمعالجة الغيرة أو منعها بين الأطفال .

إن أسهل السبل التى تثير بها الأم غيرة الطفل ، هى أن تدأب على المقارنة بينه وبين أخيه ، مؤثرة أخاه عليه . فهذا سلاح ذو حدين ، إذ أنه يثير فى الطفل إحساساً قاطعاً بأنه منبوذ من الأم ويخلق فيه شعوراً بالحنق على أخيه ، لأن أمه تجاهر بإيثارها له . غير أن غالبية الأمهات يدركن هذه الحقيقة ، وعندهن من اللباقة مايحول دون استخدام مثل هذا الأسلوب فى تقويم سلوك الطفل

ومع ذلك يبدو لى أن كثيراً من الأمهات المخلصات ذوات الضمائر الحية ، يلجأن إلى نوع آخر من المقارنات على اعتقاد أنه يمنع الغيرة ، مع أنه يثيرها فى الواقع . فهن يحاولن قدر طاقتهن أن يقدمن نفس الهدايا بالضبط ويمنحن نفس الامتيازات بالضبط لأطفالهن جميعاً بلا استثناء ، أو على الأقل لأولئك المتقاربين منهم فى السن . وفضلا عن ذلك ، فإن من المحتمل أن يوجهن نظر الأطفال إلى هذه المساواة فى المعاملة . فإذا حصل أحد الأولاد على سيارة زرقاء (لعبة) ، يحصل الآخر على سيارة زرقاء . وإذا حصلت إحدى البنات على معطف جديد للشتاء ، تحصل الأخرى على مثله ، حتى ولو لم تكن فى حاجة إليه بالفعل . وإذا خرج أحد الأطفال مع أمه لشراء بعض الحاجات من السوق ، أو خرج فى رحلة مع أبيه ، فإن الوالدين لا يفوتهما أن يدبرا نفس الميزة لكل واحد من الأطفال الآخرين ، ويعلناه بها فى الوقت الملائم . وما زلت أذكر تلك الأم المهمومة القلقة التى كان أطفالها الصغار الأربعة يتعاركون عراكا وحشياً على أيهم سيجلس بجوارها على المائدة ، مما اضطرها إلى أن تحتفظ بخريطة دقيقة تبين الترتيب الذى يغير به الأطفال أماكن جلوسهم حولها ، فى الوجبات الثلاث كل يوم ، فى أيام الأسبوع السبعة .

بيد أن السؤال الذى يجب أن نوجهه فى حدة إلى مثل هؤلاء الأمهات هو : « هل يقلل مثل هذا الأسلوب «الشرعى» فى العدل بين الأطفال من حدة المنافسة بينهم ؟ » فى رأيى الخاص أنه لا يقلل منها بالطبع . بل إن الأمهات اللائى لجأن إلى هذا الأسلوب ، أو أرغمن عليه تحت ضغط مطالب أطفالهن ، هن أول من يعترف بأن هؤلاء الأطفال لا يكفون عن مراقبة بعضهم البعض طوال النهار ، وعن مراقبة آبائهم وأمهاتهم ، كى يتأكدوا أن أحدهم لم يأخذ أو لم تعط له ميزة معينة فى الخفاء ، وأنهم لا يكفون عن المشاحنات الصاخبة .

إن هذه الاحتياطات التى تتخذها الأمهات درءاً للظلم بين الأطفال تذكر الطفل دائماً بأن هناك قطعاً خطراً حقيقياً يتهدد النـاس بالظلم ، ما لم ينتبهوا له جميعاً . كما أن تعاون الوالدين فى اتخاذ هذه الاحتياطات يوحى إلى الطفل بأنهما يخشيان أن تراودهما نفساهما على إلحاق الظلم به . وفى اعتقادى أن عقدة المسألة تكمن فى الآتى : إن الآباء والأمهـات الذين تدفعهم مناورات الأطفال إلى انتهاج هذا الأسلوب «الشرعى» ، تعوزهم فعلا الثقة الـكافية بقدرتهم على التزام الحيدة بين أطفـالهم . وربما كانوا يحملون فى أعماقهم من أيام طفولتهم شعوراً حاداً بالذنب من أثر مشاعر الغيرة التى كانوا يحسونها نحو إخوتهم وأخواتهم ، لذا فهم يخشون أن يستاء منهم أحد أطفـالهم ، إذا أظهروا — سهواً — أى نوع من المحاباة لطفل آخر ، مثلما كانوا يستاءون هم أنفسهم حين يبدو لهم أن آباءهم أو أمهاتهم يحابون شقيقاً أو شقيقة لهم . ولهذا السبب فهم يبذلون قصارى جهدهم لإرضاء رغبات أطفالهم جميعاً .

إنى أقول للأم التى تحاول محاولة مضنية أن تلتزم جانب العدالة بكل دقة وأمانة : لا تحسى أنك مضطرة لشراء نفس اللعب للغلامين (ما لم تكن هناك أسباب قوية من الناحية العملية) ، فإذا رفعا صوتيهما بالتذمر والشكوى ، فقولى لهما إنك سترجعين كلتا اللعبتين إلى المحل لو سمعت كلمة أخرى تبدر منهما . ولئن اعترضت ابنتك لأنك لم تؤثر لها معطفاً جديداً مثل أختها ، فما عليك إلا أن تذكريها بأنها ليست فى حاجة بعد إلى معطف جديد . وإذا احتدم الجدل بين الأطفال على أماكن جلوسهم أثناء تناول الوجبات ، فقولى لهم إن كل فرد فى الأسرة سوف يستمر فى الجلوس حيث اعتـاد أن يجلس دائماً . على أن النغمة الشرسة التى يبدو أنى أضفيتها على نبرات الأم ، ليست ضرورية فى الواقع . فالشىء الوحيد الضرورى هو أن تبين الأم لأطفالها أنها ليست خائفة على الإطلاق من أن تتهم بالتفرقة بينهم فى المعاملة ، وأنها لن تقبل أن يستبدوا بها

فيدفعوها إلى التصرف معهم كما لو كانت تفرق فعلا بينهم . إن السبيل السليم الذى يجب أن تسلكيه هو أن تتعاملى مع كل طفل على أنه فرد له كيانه المستقل . امتدحيه أو قوّمى سلوكه ، أو امنحيه هدية ، أو اشترى له معطفاً ، أو حددى موعد نومه ، أو كافيه ببعض الواجبات ، أو توقعى منه الدرجات المدرسية ، حسبما يتلاءم مع طبيعته الخاصة . وفى هذه الحالة أخرجى أطفالك الآخرين من نطاق الجدل ، ومن نطاق تفكيرك .

* * *

هناك ناحية واحدة أخرى متفرعة من هذا الموضوع ، لها فى نظرى أهمية كبرى من الناحية العملية ، ألا وهى : كيف تعالجن المشاجرات ذاتها ؟ إن الأمهات ذوات الضمائر الحية غالباً ما يحاولن أن يقفن من هذه المشاجرات موقف القضاة : من البادىء ؟ من فعل — ماذا — بمن ؟ من الذى يعتبر المذنب ؟ ما العقوبة المناسبة ؟ لكنى أعتقد شخصياً أن هذا القضاء ، هو أحد مواطن الزلل التى يستحسن أن تتفاداها الأمهات العاقلات ما استطعن إلى ذلك سبيلا . فلئن كنت مصيباً فى قولى إن الغيرة هى أحد الحوافز الرئيسية التى تدفع الأطفال إلى التشاجر بعضهم مع بعض ، إذن فاستعداد الأب والأم لأن يتدخلا كالقضاة كلما تشاجر الأطفال معاً ، إنما يؤكد ويثبت عامل الغيرة . فالطفل يدرك أن كل مشاجرة ما هى إلا فرصة سانحة كى يثبت ظافراً أن أمه أو أباه يستحسن تصرفاته ويستهجن تصرفات أخيه ، ومن ثم يصبح للشجار هدف أكبر واستهواء أكثر فى نظر الطفل ، لكنه يعرف بطبيعة الحال أنه لا يستطيع أن يبدأ المعركة علانية وإلا اعتبر الطرف المسىء المتجنى . غير أن الطفل الغيور يحس دائماً أن الطرف الآخر هو المعتدى فى الحقيقة . فما عليه إذن إلا أن يحصى عليه تصرفاته فى ارتياب ، متربصاً لأية دلائل توحى بالعدوان (فى وسعه أن يجد أو يتخيل

عشرات المعاذير كل يوم) ، ومن ثم يلتحم معه فى المعركة على اعتباره المجنى عليه . وبعبارة أخرى ، إن نيل الحظوة لدى الأب أو الأم يصبح جائزة ينشدها المتعاركون ، ويصبح باعثاً جديداً لكل مشاجرة ، ومن ثم يضحى حافزاً يدفع الأطفال إلى مزيد من المشاجرات .

ولكن ألا ينبغى للآباء والأمهات أن يوقفوا هذه المشاجرات ؟ ينبغى ذلك فى بعض الأحيان ، ولا ينبغى فى أحيان أخرى . فمثلا عندما يشتبك أحيانا طفلان صغيران متعادلان تقريباً فى القوة الجسمانية (قد يكونان متفاوتين تماماً فى الحجم والسن) ، فإنى أعتقد أننا لو تركناهما يصفيان المشكلة بينهما عن طريق الجدل أو الشد ، والجذب أو الضرب ، فإنهما غالباً ما يزدادان دراية بكيفية التعامل أحدهما مع الآخر . إنى أفضل أن تجرب الأم هذه الطريقة بضع مرات على أقل تقدير . أما إذا كان أحد الطفلين يسحق الآخر دائماً ، ويزيد من شعوره بالخوف والتهيب ، فإنها طريقة خاطئة فى هذه الحالة .

كما أن نسبة الشجار بين الأطفال من العوامل التى تحدد ما إذا كان يجدر بالآباء والأمهات أن يسمحوا بحدوثه أم لا . وهناك بالطبع اختلاف فى الرأى حول هذه النقطة . فغالبية الآباء والأمهات يؤثرون التغاضى عن بعض المشاجرات البسيطة كل يوم ، وعن معركة عنيفة بين الفينة والفينة ، لكن معظمهم لا يسمح عن طيب خاطر بأن يتعارك أطفالهم معظم ساعات اليوم ، سواء أكان ذلك من أجل صالح أطفالهم ، أم من أجل راحتهم الشخصية .

وإذا تطلب الأمر أن يتدخل الآباء بالفعل ، لأن أحد الأطفال يستبد بالآخر ، أو لأن المشاجرات كثيرة أو ضارية أو صاخبة بشكل لا يبعث على الراحة ، فإنى أعتقد أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك بنفس المقدرة والكفاية دون أن يلجأوا إلى إصدار الأحكام أو الانحياز إلى أحد الجانبين ، هذا الأسلوب

سوف يؤدى على المدى البعيد إلى نقص عدد المشاجرات بدلا من زيادتها .
وما على الآباء إلا أن يصروا على توقف العراك بين الأطفال ، وأن يرفضوا الإصغاء إلى الشكاوى . فإذا كانوا جادين فى ذلك فعلا ، وعملوا على أن يفض الأطفال عراكهم ، وإذا عادوا إلى التدخل فوراً فى حالة استئناف المعركة ، فإن الأطفال سوف يقتنعون بهذا الأسلوب ويذعنون للأوامر ، مثلما يخضعون لجميع النواهى التى يبدى فيها الآباء والأمهات إصراراً ومثابرة .

٣

التهذيبُ والمصاحبة

كيف أحمله على إطاعة الأوامر

«ينبغي للآباء والأمهات أن يسيروا على خطة ثابتة إلى حد معقول، وأن يتصرفوا كما لو كانوا يتوقعون الطاعة من أطفالهم»

كيف أحمله على إطاعة الأوامر؟ هذا هو السؤال الذى غالباً ما ترده بعض الأمهات. والواقع أنه ليس سؤالا بالمعنى المفهوم، لأنهن فى الحقيقة لا يتوقعن إجابة عنه من القريب أو الطبيب أو المعلم الذى يتحدثن إليه فى هذا الصدد. إنه بالأحرى شكاية له — من أن الطفل جامح لا يمكن السيطرة عليه — ورجاء إليه أن يبدى تأييده للأم وتعاطفه معها. إننا جميعاً بطبيعة الحال نفقد السيطرة على أطفالنا فى بعض الأحيان، لكنى أريد أن أتحدث هنا عن طائفة قليلة من الآباء والأمهات المساكين، الذين يبدو أنهم لا يملكون أى نوع من السيطرة على الإطلاق، لأننا نستطيع أن نلمس المشكلة بصورة أوضح من خلال هذه الحالات المتطرفة.

من الممكن أن نجيب مثل هؤلاء الأمهات بسؤال آخر: «هل تكونين جادة حقاً حين تطلبين إلى طفلك أن يستجيب لأوامرك؟» بطبيعة الحال سوف ترد الأم بالإيجاب فى صدق وإخلاص. غير أن هذا الرد لا يحمل سوى جانب من الحقيقة. فلو أننا — أنت وأنا — راقبنا تصرفات هذه الأم أثناء إحدى أزمات الإخلال بالنظام فى البيت (ولنقل إنها الأم، لا لأن الآباء لا يواجهون مثل هذه الأزمات، بل لأن من الأيسر علينا أن نقول «هى» فى الحديث عن الأم، ونزعم أن جميع الأطفال سيئى السلوك «هم» من الأولاد) — أعود فأقول لو أننا راقبنا تصرفات هذه الأم، فمن المحتمل أن نتمكن على الفور من تحديد سبب المتاعب (لو أن هذه الأم رأتك أو رأتنى ونحن نواجه بعض المتاعب مع

أطفالنا ، لاستطاعت أن تلمس موطن الخطأ فى سلوكنا ، فنحن دائماً يتضح لنا الخطأ فى حالة الآخرين) .

وإليكم بعض الأمثلة التى لمستها بنفسى :

السيدة « أ » لا يبدو أنها تلتفت إلى طفلها الصغير حين يعبث بكوب اللبن الخاص به ، فهى لا تتيقظ للأمر إلا بعد أن يسكب الكوب عن آخره .

السيدة «ب» تصيح بالطفل : «لا تعبث باللبن» بمجرد أن تراه يشرع فى ذلك ، ثم تنصرف عنه بعدئذ ، رغم أنه ليس ثمة ما يدل على أن الطفل قد استجاب لأمرها . إنها لا تعود فتلتفت إليه مرة أخرى إلا بعد أن يسكب اللبن .

السيدة « ج » تصفع ابنها عندما تضبطه وهو يتسلق حاجز الاصطدام فى السيارة ، لكنها حين تراه يكرر نفس الفعلة بعد دقيقتين لا تقول أو تفعل به شيئاً .

السيدة « د » حين يعود طفلها فيتسلق حاجز الاصطدام مرة أخرى ، تقول لإحدى صديقاتها على مسمع منه : « هأنتذى ترين أنى لا أستطيع أن أفعل معه شيئاً » .

السيدة « هـ » يسمع الجيران صيحاتها وهى تهدد الطفل طوال النهار : (سوف أضعك فى الفراش ، سوف أنادى رجال البوليس ، سوف أعطيك « علقة ») . ولكن على قدر ما يلمسه الجيران ، فإن هذه التهديدات لا تجدى نفعاً على الإطلاق ، لأن السيدة لا تنفذ قط أى تهديد منها .

السيدة « و » تشرع فى توبيخ ابنها (لأنه يؤذى أحد الجيران) ، فينقلب عليها صائحاً : « لا يهمنى كلامك أيتها البلهاء . » والعجيب أنها لا تتصرف معه

كما لو كانت قد صدمت من كلمته ، أو تلحق به العقاب ، بل تظل هى وهو يرفعان صوتيهما ، ، كل يحاول أن يعلو صوته على الآخر ، وهما يتبادلان الصيحات ، حتى ينتاب أحدهما السأم ، فينصرف مبتعداً عن الآخر .

السيدة « ز » حين تترك ابنها فى مدرسة الحضانة للمرة الأولى فى حياته ، تقول للمعلمة على مسمع من الطفل : « إنه جِنّ مصور » . (على أن المعلمة لا تصادف أية متاعب مع الطفل) .

السيدة « ح » يدخل ابنها البالغ من العمر سنة واحدة غرفة الجلوس دون أية نية سيئة ، فتقول له على الفور : «لا تامس جهاز التليفزيون» ، والواقع أن هذه الفكرة لم تراوده على الإطلاق ، لكنه الآن إزاء هذا التحدى يخطو ببطء نحو الجهاز ، على حين تجلس أمه ساكنة تحملق فيه ، ثم تتحول إلى إحدى الزائرات قائلة : «هل فهمت قصدى من تحذيره ؟» .

السيدة «ط» كان أبوها من مدمنى الخمر ، لذا فإنها حين يعود ابنها البالغ ست عشرة سنة من إحدى الحفلات ، تسأله فى ارتياب : «هل تناولت شيئاً من الشراب ؟» (الواقع أنه لم يفعل) .

أما المثال التالى والأخير فهو مختلف بعض الشىء ، لكنه يدخل فى نطاق مناقشتنا . يؤتى للسيدة «ك» بمولودها الأول كى تراه للمرة الأولى فى المستشفى ، وقد وضع المولود إبهامه فى فمه ، فإذا بها تقول : «يا له من طفل شقى ! » — تقولها فى غضب لا على سبيل المزاح ! .

من المحتمل أن يكون قد انتابكم الغيظ والتوتر من أثر هذه الأمثلة السيئة المتتالية ، وربما اعتقدتم أنى أبالغ فيها أكثر من اللازم . إنها بالفعل أمثلة متطرفة ، لكنها جميعاً مستمدة من الواقع بحذافيرها ، وهى تبرز لنا كثيراً من

العوامل التى تعوق تهذيب الأطفال . فالآباء والأمهات فى مثل هـذه المواقف التى ذكرتها ، يظنون أنهم يحاولون حث أطفالهم على انتهاج السـلوك الحميد ، وأنا واثق أنهم من الناحية الشعورية يرغبون فى ذلك . لـكن يمكننا أن نلمس أن البعض منهم — فى أحسن حالاته — لا يبذل سوى نصف محاولة فى هذه السبيل ، على حين أن غيرهم لا يحاول شيئاً على الإطلاق ، بل إن بعضهم يوحى لأطفاله بسوء السلوك على غير قصد منه .

ويتضح لنا أيضاً من هـذه الأمثلة أن الأمهات يتوقعن — إلى حد ما — سوء السلوك من أطفالهن (حتى منذ مولدهم !) ، ولا يتوقعن فى الحقيقة أن تكون عندهن القدرة للسيطرة عليهم . ومثل هـذه الاتجاهات عند الأمهات يصعب علينا تصديقها وفهمها لأول وهلة ، على أن العمل فى عيادات توجيه الأطفال النفسية غالباً ما يبين لنا — كما يمكن أن تتوقعن — أن موقف الأم فى أيام طفولتها كان شبيهاً بعض الشىء بموقف طفلها . فكثيراً ما وصفها أبواها بأنها سيئة السلوك ، وتوقعا منها أن تكون سيئة السلوك ، وسمحا لها بأن تكون سيئة السلوك . (سيئة السلوك بمعنى الشقاوة الطفلية) .

لذا فإنها عند ما تصبح هى نفسها أماً ، تنتهج نفس أساليب أبويها ، وتحمل فى نفسها كل المشاعر التى تتمشى مع هذه الأساليب : عـــدم الثقة بطفلها منذ البداية ، عدم الثقة بقدرتها على أن تعرف ماهو الصواب كى تعلمه لطفلها ، عدم الشعور بأن من حقها أن تحصل على احترامه ، فضلاً عن استعدادها للشجار معه ، بل وشعورها بنوع من المتعة الخفية فى هذا الشجار .

حسناً ، فى هذا الـكفاية من هذه الأمثلة المؤسفة . على أن الأمهات اللائى تهن عزيمتهن تماماً بشأن قدرتهن على تسيير أمور أطفالهن ، يحتجن إلى المساعدة من إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الطفل والأسرة ، أو من

إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، أو غيرها من الهيئات التي تبذل المشورة للأمهات ، كي يدركن الجذور الدفينة لمشكلاتهن .

* * *

أما بقيتنا نحن الآباء فلا تهن عزائمنا إلا في بعض اللحظات العابرة . بيد أننا جميعاً في أيام طفولتنا كان يسمح لنا أحياناً بسوء السلوك «العبث» دون عقاب ، وكنا نتهم أحياناً بسوء السلوك ، فتتخلف في نفوسنا مشاعر غامضة مضطربة بشأن بعض المواقف بين الأطفال والآباء . لذا فإننا حين نتعرض لمواقف مشابهة مع أطفالنا — لا سيما عند ما تكون حالتنا المعنوية سيئة من أثر عوامل التوتر الأخرى — فإننا نتخلى عن دورنا كقادة وموجهين يعرفون نوع السلوك الذي ينشدونه في أطفالهم ، ولا نفعل سوى أن نتشاجر معهم على مستواهم ، كما لو كنا جميعاً أطفالا سيئي السلوك .

أما عند ما تكون حالتنا المزاجية معتدلة ، وننتهج الأسلوب السليم ، فإننا نجد أن في استطاعتنا السيطرة على أطفالنا دون تفكير عميق أو جهد كبير . والواقع أننا في هذه الحالة نلجأ إلى مجموعة كبيرة متباينة من الأساليب الدقيقة المتقنة في تربية الطفل ، ولكن دون كبير اكتراث ، شأننا في ذلك شأن الشخص الذي يجلس إلى البيانو ويعزف مقطوعة موسيقية تدرب عليها منذ عشر سنوات مضت . فالطفل هو الذي يؤدي جانباً كبيراً من المهمة ، ونحن ندرك أننا نستطيع في غالبية الأحيان أن نعتمد على رغبته في إرضائنا ، لأنه يحبنا مثلما نحبه ، فهو يحاول منذ أن يبلغ سنة واحدة من عمره ، ثم يحاول بكل قوة ما بين الثالثة والسادسة ، أن يبدو كبيراً ناضجاً مثلنا ، من ناحية الأدب والمهارة وخدمة الآخرين . كما أنه في سني المدرسة يبذل جهداً كبيراً كي يساير مستوى أصدقائه ومستوى الأطفال في المدرسة .

إننا بوجه عام نسير أمور أطفالنا فى السنوات الأولى من أعمارهم ، عن طريق القدوة الطيبة والإيحاء الإيجابى ، وعن طريق صرف انتباههم عن مواطن الضرر والأخذ بأيديهم ، واستغلال رغبتهم فى الظهور بمظهر الكبار ، ونقلهم من مكانهم بالقوة إذا استدعى الأمر . أما فى السنة الثانية عند ما يتوافر للطفل شىء من الإدراك لما نريد وما لا نريد منه ، فإننا فى هذه المرحلة نبدأ جميعاً فى الاعتماد بالتدريج على المطالب والنواهى الكلامية ، ونحن ندرك — بما يتوافر فينا من صفات القيادة — أننا ينبغى أن نسير مع الأطفال على خطة ثابتة إلى درجة معقولة (فنحن لا ننشد الكمال لحسن الحظ) ، وأن نحس نحوهم ونتحدث إليهم ونتصرف معهم ، كما لو كنا نتوقع منهم الطاعة ، على أن نخاطبهم بلهجة فيها — على أقل تقدير — شىء من الود والصداقة ، كاللهجة التى نعمد إليها حين نطلب مطلباً من أحد أصدقائنا . وهذا الأمر الأخير هو أصعب شىء يشق على الوالدين المثابرة عليه خلال ساعات النهار الطويلة ، فنحن نحمل فى أعماقنا — من آثار نشأتنا — رغبة شديدة فى اللوم والاستنكار ، بحيث نتورط بسهولة فى لهجة الغيظ والانفعال ، تلك اللهجة التى تبدو كما لو كانت تقول للطفل : « لا أظن أنك ستطيع أوامرى » ، أو : « لقد تملكنى الغضب منك ، لذا فإنى الآن سوف أسوى حسابى معك ، بأن أطلب إليك أن تفعل شيئاً تكرهه (أو تكف عن شىء تستمتع به) » .

وعند ما يعرف أطفالنا نوع السلوك الذى نتطلبه منهم ، ويعرفون أننا جادون فيما نقول لهم ، وأننا نقوله لسبب وجيه ، فإن من الممكن فى هذه الحالة أن نخضعهم للنظام ، فى غالبية الأحيان ، عن طريق التوجيهات والكلمات المقتضبة التى تذكرهم بواجبهم .

نستطيع أن نعبر عن هذه الجوانب البناءة من مشكلة التهذيب بطريقة

أخرى ، فنقول بعبارة بسيطة : إن الأم تدرك بالفطرة أن مهمتها الرئيسية هى أن توجه أطفالها توجيهاً إيجابياً . والصورة المثالية لهذا التوجيه هى أن تبادر بالتدخل السريع كى تمنع سوء السلوك ، عندما تلمس أن الأمور قد بدأت تنحرف عن اتجاهها السليم (فهى تنمى فى نفسها حاسة سادسة كالرادار ، لا تكف عن العمل طوال النهار ، حتى ولو كان أطفالها على بعد مئات الأمتار منها) . وبهذا الأسلوب ، قلما تضطر الأم لأن تتهم طفلها بسوء السلوك ، لأنه قلما يجد الفرصة لأن يسلك سلوكا رديئاً .

مشكلة العقاب

« العقاب هو الوسيلة التى تستخدم بدلا من الوسائل الأخرى فى حالة الضرورة القصوى ، عندما يفشل الأسلوب المعتاد فى التهذيب »

ما من مرة ألقيت فيها محاضرة بإحدى جمعيات الآباء والمعلمين وجاءت فترة توجيه الأسئلة من المستمعين ، إلا وجدت رجـلا وقوراً فى الصف الخامس تقريباً ، ينهض واقفاً على قدميه فى تؤدة ، ثم يتنحنح ويسألنى فى لهجة متأنية كلهجة المحامين : « ما رأيك يا دكتور فى مشكلة العقاب ؟ » فـكنت أشعر دائما أن هذا الرجل قد ظل منذ مولد طفله الأول يحاول إقناع زوجته بضرورة العقاب العادل فى تربية الطفل ، وأن زوجته ظلت تعارضـه فى ذلك بحزم وإصرار ، وتمنعه من توقيع العقاب فى غالبية الأحيان ، لذا فإنه يبحث هنا أو هناك عن أناس آخرين يمكن أن ينحازوا إلى رأيه .

وأنا لا أعنى بهذا المثال أن الآباء يؤيدون فـكرة العقاب دائماً ، على حين تعارضها الأمهات . ففى بعض الأحيان نجد أن العكس هو الصحيح . غير أنه غالباً ما يشترك الأب والأم فى نفس الرأى ، ولـكن حتى لو التقت وجهـات نظرهما تقريباً ، فقد يوجد بينهما رغم ذلك من الاختلاف فى الرأى ما يثير بعض الجدل .

ما من شك أن الصحف تعتبر مسألة العقاب — لا سيما العقاب الجسمانى — من الموضوعات الجذابة المثيرة دائمـاً وأبداً . فما من مرة يلقى فيها أحد رجال التربية أو علم النفس أو الأطباء محاضرة دقيقة مستفيضة عن مشكلة السيطرة على الأطفال ، ويشير فيها إشارة عابرة إلى أن عقاب الطفل بين الفينة والفينة أمر طبيعى ، إلا وتظهر هذه الملاحظة العابرة فى العناوين الـكبرى بالصحف على أنها : « أحد المتخصصين يؤيد العقاب البدنى » . فالظاهر أن أهم مشكلات

رعاية الطفل، فى نظر طائفة من الناس ، هى :هل نلجأ إلى الضرب أم لا . وهذه الفكرة التى تسيطر على عقول هؤلاء الناس إنما تدل على اتجاه غير سليم عندهم . فالواقع أن هذا التركيز المغالى فيه على مسألة العقاب ليس له معنى على الإطلاق . فلو أننا وقفنا نتفكر فى أسلوب التربية الذى نشىء عليه زملاؤنا فى المدرسة وأصدقاؤنا وأقرباؤنا ، ونحن أنفسنا ، لوجدنا أن بعض الذين كانوا يتعرضون للعقاب كثيراً قد نجحوا فى حياتهم ، على حين فشل الآخرون ، ولوجدنا أيضاً أن أولئك الذين لم يكونوا يتعرضون للعقاب إلا نادراً — إن كانوا قد تعرضوا له على الإطلاق — قد تفاوت نصيبهم من النجاح والفشل بنفس الطريقة .

* * *

إن العامل الهام حقاً فى تهذيب الطفل تهذيبا حسنا ، هو شعور الوالدين نحو الطفل ، وشعور الطفل نحو الوالدين ، وما هما إلا وجهان لشعور واحد ، أما أساليب العقاب — إن وجدت — فهى مجرد تفصيلات عارضة .

فنحن نعرف أن أهم العوامل الحيوية فى هذا المجال ، هو حب الوالدين للطفل ، بمعنى تفانيهما فى شخصه ، ورغبتهما فى نجاحه ، واستمتاعهما بصفاته الطيبة (لا السيئة) . فحرارة حبهما له هى التى تغذى فيه حبه للناس وحب الناس له . وبعبارة أكثر تحديداً ، فإن الطفل يعامل الناس معاملة لطيفة فى معظم الأحيان ، لا لسبب إلا لأنه يحب الناس (فهو يميل إلى اللطف أكثر من ميله إلى النفور) . وفضلا عن ذلك ، فإنه يسلك سلوكا حسناً كى يحتفظ بحب الناس له ؛ إذ يدرك مدى الشعور بالارتياح الذى يبعثه فيه حبهم له ، كما يدرك على النقيض من ذلك مدى الشعور بالضيق الذى يبعثه فيه عدم استحسانهم له . والظاهر أن هذين العاملين الأساسيين فى مشكلة التهذيب من الأمور البديهية الواضحة فى نظر معظمنا ، حتى إنه يسهو علينا أن نضعهما فى اعتبارنا .

ثمة عامل ثالث له أهميته الحيوية أيضاً ؛ ذلك أن الطفل — خاصة ما بين سن الثالثة والسادسة — يعبر عن نفانيه فى شخص والديه بأن يصوغ نفسه على صورتهما ، لا بمعنى أن يقلدهما فى المهارات والعمل وطريقة الكلام فحسب ، بل إنه يحاول محاولة مخلصة أن يكون دمث الأخلاق مسئولا عن تصرفاته مثلهما . ومن هذه السبيل يكتسب الغلام جانباً كبيراً من رغبته فى أن يتعاون مع الناس ، وأن يبدى بسالة فى لحظات الخطر ، وأن يعامل النساء فى لطف ودماثة ، وأن يخلص فى أداء عمله ، مثل أبيه تماما . كما أن هذا هو الذى يوحى للبنت بأن تساعد فى الأعمال المنزلية ، وأن تتفانى فى خدمة الأطفال الصغار (الأطفال الآدميين والدمى) ، وأن تحنو على أفراد الأسرة الآخرين ، مثل أمها تماما . وبعبارة أخرى ، فإن الأطفال الذين يتمتعون بالحب ، يؤدون كمية هائلة من العمل ، فتنمو بذلك شخصياتهم ، ويزداد احترامهم للنظام من تلقاء أنفسهم.

ولكن — حسبما يعلم كل الآباء والأمهات — ما زال أمامهم الكثير مما يجب عليهم أداؤه بأنفسهم . فمهما تكن نوايا الطفل طيبة ، فإنه رغم ذلك تنقصه التجربة وتتحكم فيه أهواؤه ويسهل تضايله . وعلى الأم أن تظل تردد فى كل ساعة من كل يوم: «حينما تسمح لأختك بالركوب فى عربتك ينبغى أن تجذب العربة بلطف » : « يجب أن تحضر الآن لتناول الغداء فهو جاهز على المائدة » « تذكر أنه يجب ألا تغير أسطوانات الحاكى ، فهذا من شأن ماما » . « لا تعبر الشارع ما لم يكن معك أحد الكبار » .

وفضلا عن ذلك ، فهناك بعض الفترات التى يأبى فيها الطفل أن يسلك سلوكا حسناً ، حين يستاء من شىء فعله أو لم يفعله الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت أو الصديق . وهذه الفترات العاصفة تحتاج إلى نوع من الحزم يقوم على الدراية والخبرة .

لقد رأينا كيف أنه من الضرورى أن يكون هناك قدر معقول من الثبات والإخلاص فى النواحى المتصلة بتوجيه الأطفال لاتباع قواعد النظام . وهذا لا يعنى أن الأطفال ليست عندهم القدرة على التكيف مع التغييرات التى تطرأ على القواعد المرسومة — فى المواقف المختلفة ومع مختلف الراشدين — ففى الواقع أن عندهم قدرة مذهلة على التكيف . وإنما ذلك يعنى أن من واجب الراشد أن يحس حقيقة إحساس إنسان يحمل المسئولية على عاتقه ، وأن يتوقع السلوك السوىّ من الطفل ، ويتأكد من أنه يسلك سلوكا سوياً . أما الوالد الذى تعوزه الثقة فى نفسه كرائد للطفل ، وتعوزه الثقة فى إيثار الطفل للسلوك السوى ، فإنه يجنح للهبوط إلى مستوى الطفل ، فيهدد ويصرخ ويصفع دون اقتناع بما يفعله ، بل إنه قد يستفز مشاعر الطفل بطريقة خفية مبهمة ، فيدفعه إلى سوء السلوك .

حسناً ، لقد بدأت حديثى عن مشكلة العقاب ، غير أنى اضطررت أن أستنفد بعض الوقت كيما أوضح أن التأديب يعتمد على عوامل أخرى غير العقاب ، فليس العقاب هو العامل الرئيسى الذى يردع الطفل عن سوء السلوك ، كما أنه ليس العامل الرئيسى الذى يردعنى أو يردعك عن السرقة أو القتل أو الحرق العمد ، بل إنه وسيلة تحل محل الوسائل الأخرى فى حالة الضرورة القصوى ، حين يفشل الأسلوب المعتاد فى تهذيب الطفل . وحتى فى هذه الحالة ، فإنه لا يجدى كثيراً ، ما لم تكن وراءه شخصية سوية وعلاقة حب قوية ، كما ثبت من جميع حالات المجرمين معتادى الإجرام .

* * *

ما هى الأسباب التى تؤدى إلى تداعى النظام فى بعض الأحيان ؟ إن طفلك قد تراوده نفسه على العبث بشىء محظور عليه ، يبدو له اليوم أكثر استهواء

مما كان فى الماضى (ربما لأنه فى هذه الفترة قد كبر بما فيه الكفاية لأن يلمس فى هذا الشىء احتمالات للتسلية لم يكن يلمسها فيه من قبل) ، وهو ينتهز فرصة أنك لم تكونى جادة تماماً حين حظرت عليه لمسه فى المرة الأخيرة ، فيعبث به على اعتقاد أنه لن يتلفه على أية حال ، أو قد يحطم شيئاً عزيزاً عليك بسبب إهماله ليس إلا ، أو قد يثور عليك لأنك تبدين له الغضب بغير وجه حق ، أو لأنك تحابين أخاه ، أو قد يعاملك فى شىء من الوقاحة حين تكونين متوترة الأعصاب لسبب آخر سواه ، أو قد يفلت بمعجزة من أن تدهمه سيارة وهو يجرى وراء الكرة فى الشارع . فى كل هذه الحالات يجيش فى نفسك شعور بالغيظ أو الغضب له ما يسوغه ، فتوقعين به العقاب ، أو على الأقل تراودك الرغبة فى عقابه .

إن من المحال أن تملكى زمام الطفل فى يسر وسهولة ، بحيث لا تثور ثائرتك عليه فى بعض الأحيان . وهذه الثورة عليه لا ينبغى أن تثير فى نفسك شعوراً بالذنب ، عند ما يتملكك الغضب منه ، فإنى أعتقد أنه لا يهم كثيراً ما إذا كنت تصفعينه على وجهه أو تنبذينه فى حجرته أو مجرد أن تنظرى اليه شذراً .

كما أنى أعتقد أن عقاب الأم أو عدم عقابها للطفل ، وضربها أو عدم ضربها له ، إنما يتوقف فى الغالب على ما إذا كانت الأم قد تعرضت لنفس النوع من العقاب فى أيام طفولتها .

فأولئك الآباء والأمهات الذين نشئوا دون عقاب إلا فى النادر أو دون عقاب على الإطلاق ، لأنه كان فى مقدور آبائهم وأمهاتهم المحافظة على النظام فى البيت عن طريق التوجيه الإيجابى والحزم لا أكثر ، مثل هؤلاء الآباء والأمهات يستوعبون فى العادة نفس الاتجاهات فى أسلوب التوجيه والريادة ، ولا يجدون العقاب لازماً إلا فى النادر .

أما الناس الذين كانوا أيام طفولتهم يعاقبون لأسباب وجيهة فى بعض الأحيان فإنهم بطريقة تلقائية يتبعون نفس أسلوب العقاب مع أطفالهم . فإذا كانت علاقة الأم مع الطفل سليمة بوجه عام ، وإذا كان مسوغ العقاب واضحاً ، وإذا كان العقاب نفسه مناسباً لهذا الطفل بالذات ، فإن الأثر يكون مفيداً وناجعاً فى العادة ، ذلك لأن الطفل يدرك أنه قد جر على نفسه العقاب ، ويشعر بالتأديب والتقويم أكثر من شعوره بالغيظ والاستياء . كما أن هذه الطريقة التأكيدية تذكره بأن أمه كانت تعنى ما قالته بالفعل . فضلا عن أن الأم تفرغ — بهذه الوسيلة — شحنة الغضب والغيظ التى تجيش فى نفسها . وإذا كان العقاب فى محله ، فإن الجو يصفو بينها وبين الطفل ، ويسلك سلوكا حسناً من هذه الناحية (التى عوقب عليها) لفترة طويلة إلى حد معقول .

وغنىٌّ عن البيان أنى قد استخدمت كثيراً من الجمل الشرطية فى الفقرة السابقة ، لكنى رغم ذلك سوف أضطر إلى إضافة بعض الجمل الشرطية الأخرى إذا اضطرت الأم إلى عقاب الطفل فى كثير من الأحيان ، وإذا كانت العلاقة بينه وبينها متوترة دائماً ، وإذا كانت العقوبات تخلف فى نفسه شعوراً بالرعب أو الحنق (أو تخلف فى نفس الأم شعوراً دائمــاً بالذنب) ، وإذا لم تؤد هذه العقوبات إلى تحسن فى سلوكه ، فهى إذن عديمة الجدوى تماماً . ولا بد أن هناك خطأ ما فى النظام الأساسى الذى يطبقه الوالدان على الطفل ، أو فى حياة الطفل نفسه ، وكلتا الحالتين تتطلبان المساعدة من مرشد عاقل يتميز بحسن إدراكه للأمور : طبيب نفسانى ، أو أخصائى فى إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، أو معلم يتسم بالعقل والحكمة ، أو أحد رجال الدين .

* * *

عند ما نلجأ إلى العقاب ، هل ينبغى أن نوقعه بالطفل على الفور ؟ أو نؤجله إلى وقت آخر ؟ فى بداية هذا القرن عندما كان الاعتقاد السائد بين الناس هو أن الآباء يمكنهم أن يختاروا نظرية فى تربية الطفل ثم يطبقوها بقوة الإرادة وحدها (متجاهلين بذلك المشاعر العميقة التى تعتمل فى نفوس الآباء والأطفال) ، كان البعض يقولون : إن العقاب لا ينبغى مطلقاً أن يوضع موضع التنفيذ فى حالة الغضب ، بل يجب أن ينفذ فيما بعد فى جو من الإدراك السليم الهادىء . وهذا رأى بعيد عن الواقع تماماً ؛ إذ يفوته أن الآباء والأمهات — حتى أشدهم عقلا واتزاناً — يدفعهم حافز قوى إلى عقاب الطفل حين يتملكهم شعور بالغضب له ما يسوغه . وعلى أية حال ، فهذا لا يعنى أنه لا توجد بعض المناسبات التى يفضل فيها الأم أو الأب — عن حق — أن يتروى فى الأمر ، وربما تشاور فيه مع شريكه الآخر . ومع ذلك فإنى أرى أن من الأفضل بوجه عام أن يطبق العقاب على الفور وبشكل لا يطول مداه . فمن العذاب الأليم للطفل أن ينتظر ساعات طوالا حتى يواجه أباه ، كما أن من الشاق على الأب الذى يعود إلى بيته متطلعاً إلى الراحة والاسترخاء أن يجد لزاماً عليه أولا أن يقوم بدور المؤدب العابس المتجهم ، لذلك أحس شخصياً أننا يجب أن نتجنب تأجيل الحكم على الطفل وعقابه ، ما لم تكن الحالة خطيرة أكثر من المعتاد . أضف إلى ذلك أن العقاب الذى يمتد أسبوعاً أو أسبوعين فى بعض الأحيان ، يسبب الشقاء لجميع أفراد الأسرة .

وإذا كنتم ستسألوننى : « ما هو أفضل أنواع العقاب ؟ » فسوف أعيد إليكم سؤالكم ؛ إذ ليست هناك إجابة واحدة عليه ، تماماً كما أنه ليست هناك إجابة واحدة على من يسأل : « أيهما أفضل ، شرائح اللحم المحمر أم الآيس كريم ؟ » أو : « أى اللونين أجمل : الأحمر أم الأزرق ؟ » فالعقاب المناسب هو الذى يبدو مناسباً فى نظر الأم ، ويحقق الهدف منه ، فالأمر كله يتوقف على طبيعة الأم ، وعلى طبيعة الطفل ، وعلى طبيعة الخطأ فى سلوكه .

إن صفعة على اليد أو على الإلية ، لها فعل السحر بالنسبة لإحدى الأمهات مع طفلها ، على حين أن أماً أخرى تظل ساعات بعدها فريسة الشعور بالندم ، كما أن طفلا آخر قد يستبد به غضب جنونى من أثر هـذه الإهانة . كذلك نجد أن عزل أحد الأطفال فترة وجيزة فى غرفته يلين عريكته فى خلال خمس دقائق ، على حين يسبب طفل آخر الشقاء والكدر لأفراد الأسرة بصراخه الذى يستمر زهاء ساعة . كما أن توقيع الغرامات وسحب الامتيازات يلائمان الأطفال فى سن المدرسة أكثر من غيرهم . وهذه العقوبات عندما تكون عادلة ولا تضيع فى الأرض هباء ، فإنها تخاطب فى الطفل الشعور بالعدالة . غير أنها فى بعض الحالات تفقد قيمتها الأخلاقية ولا تؤدى إلا إلى تسجيل الأخطاء فى الدفاتر وإثارة الجدل العقيم .

وهكذا يتضح أنه لا يوجد أسلوب معين فى العقاب يتميز بالدقة والبراعة ، أو يؤتى نفس الأثر بالنسبة لأسرتين مختلفتين ، أو يحقق الهدف المنشود بطريقة آلية .

والعقاب وحده لن يحول إنساناً سيء السلوك إلى إنسان حسن السلوك ، بل إنه لن يضمن استمرار السلوك الحسن ولو بصفة مؤقتة .

فالتهذيب السليم يقوم أساساً على الحب والاحترام المتبادلين بين الطفل والوالدين ، ويجب تعزيزه فى مرحلة الطفولة عن طريق التعليم والحزم وتذكرة الطفل بواجباته . وما العقاب إلا وسيلة واحدة من وسائل التذكرة ؛ وسيلة عنيفة تستخدم عنـد الضرورة القصوى — وتنطوى عادة على مشاعر قوية — كى تعيد الطفل إلى الطريق السوى . أما إذا لم يكن هناك طريق سوى فى سلوكه ، فالمهمة فى هذه الحالة أكبر من أن يؤديها العقاب وحده . بيد أن الواجب الحقيقى الذى يقع على عاتق الأم ، هو أن تجنب طفلها المتاعب ، بأن توضح له

دائماً نوع السلوك الذى تتطلبه منــه ، و بأن تتدخل تدخلا حازماً منذ البداية عند ما يبدأ فى الانحراف عن الطريق السليم ، بدلا من أن تترك له الحبل على الغارب حتى يفلت منها الزمام ، ثم يتحتم عليها بعــد ذلك أن تحدد ما إذا كان عليها أن تعاقب الطفل وكيف تعاقبــه ، ومع ذلك فإن تقويم الطفل مهمة تقصم ظهور الأمهات فى غالبية الأحيان ، فـكلما زاد الجهد الذى تبذلينــه فى تقويم الطفل ، ازدادت سورة غضبك فى لحظات الفشل ، و إنى لواثق أن هذه كانت الحال دائماً فى جميع الأسر الطيبة منذ العصور الأولى للجنس البشرى .

دور الأب فى تأديب الطفل

« يرتاح الأطفال إلى الآباء الذين
يلعبون دوراً إيجابياً فى تأديبهم » .

ما هو الدور الذى ينبغى أن يلعبه الأب فى تأديب الأطفال ؟ وأنا لا أعنى بكلمة « التأديب » مجرد العقاب ، بل أعنى بها مسألة أشمل من ذلك كثيراً ، وهى مسألة تدبير أمور الطفل وتوجيهه توجيهاً ناجحاً . وسوف أقتبس كلمات اثنتين من الأمهات ، كى أبين نوعين متناقضين من المشكلات . تقول الأولى : « إن زوجى —وهو أب رائع— يريد من الطفل أن يذعن لجميع الأوامر على الفور ، قائلاً إن هذا الأسلوب قد ينقذ حياة ابننا لو أنه واجه موقفــاً يحف به الخطر . أما أنا فأكثر ميلا إلى الرفق واللين ؛ إذ أحس أن الطفل الصغير (طفلنا سـنه ١٤ شهراً) لا يمكنه بعد أن يستجيب للأوامر على الفور » . أما الأم الأخرى فتقول : « ابننا الصغير سنه سنتان . والمشكلة هى ولعــه بضرب الآخرين ، لاسيما والده . ويقول زوجى إنه لا يجد متعة فى اللعب معه لأنه دائماً ما يصفعه على وجهه ، أو يضع أصابعه فى عينيه ، أو يضربه على رأسه بأية لعبة فى متناول يده . وهو لا يفعل ذلك وهو غاضب ، بل إنه يفعله وهو يقهقه فى مرح شديد » .

قد تقلن على الفور إن هذه المشكلات ليست مقصورة على الآباء فحسب ، بل إن بعض الأمهات أيضاً يعانين منها . وهذا صحيح ، لــكنى مع ذلك أعتقــد أن هذا النوع من المشكلات بالذات غالباً ما ينشأ مع الآباء أكثر من الأمهات .

قبل أن نركز حديثنا على مشكلة الآباء ، جدير بنا أن نفــكر فى الأدوار المختلفة التى يلعبها الآباء والأمهات فى تأديب الأطفال وتهذيبهم . وما عليــكن

إلا أن تتطلعن حولكن لتلمسن أن الأمر يختلف بعض الشيء من أسرة إلى أخرى ، فهو يتوقف على نشأة كل من الوالدين وشخصيته ، وعلى طبيعة كل واحد من الأطفال ، وهذا شيء طبيعي بلا ريب .

إن عدداً يبعث على الدهشة من الأمهات ، قد ذكرن لى أن أزواجهن يسيطرون على الأطفال خيراً منهن . ومما يثير ثائرة هؤلاء الأمهات أن أزواجهن يتدخلون تدخلا هيناً عند عودتهم فى نهاية اليوم ، ومع ذلك يسهل عليهم السيطرة على الأطفال أكثر منهن . وهذا لا يرجع فى الغالب إلى قدرة سحرية عند الآباء ، بل يرجع أساساً إلى أن أسلوب الأم فى التأديب والتهذيب قد أصبح عديم الأثر ، لأنها تضطر إلى استخدامه ساعة بعد ساعة طوال اليوم .

ربما كان هناك سبب آخر ؛ وهو أن الرجال يتعلمون منذ مرحلة الطفولة المبكرة أن يكبحوا نزعاتهم العدوانية عن طريق التدريب المستمر على اتباع قواعد السلوك : «عليك أن تلعب طبقاً للقواعد المرسومة» . « لا تفقد أعصابك عند الهزيمة » . « لا تضرب رجلا بعد أن يسقط على الأرض » . « لا تبدأ بالضرب ، ولكن لا مانع من أن ترد اللطمة التى تكال لك » . وأظن أن هذا التدريب الطويل يجعل الرجال أكثر قدرة من النساء على أن يحددوا قواعد السلوك لغيرهم من الناس بطريقة مقنعة توحى بالسلطة والسيطرة . أما البنات فإنهن بوجه عام أقل عنفاً وشراسة من الأولاد ، لذا يمكن السيطرة عليهن بطريقة أقل حدة وصرامة ، كما أنهن ينشأن وقد استقر عندهن اقتناع راسخ بأن فى وسعهن التعامل مع غيرهن عن طريق الإقناع الشخصى ، بدلا من قواعد السلوك المجردة ، بل إنهن يملن إلى الاعتقاد بأن الكثير من القواعد والقوانين التى يضعها الرجال سخيفة ولا معنى لها .

جدير بنا أن نتذكر أيضاً أن تهذيب الأطفال فى غالبية الأسر يجرى بطريقة

أكثر يسراً — وفى نفس الوقت أكثر ليناً ورفقاً — بين الجنسين المختلفين . فالآباء فى معظم الأسر لا يلتزمون مع بناتهم نفس الحزم الذى يعاملون به أبناءهم ، ومع ذلك فقد تبدى البنات استعداداً لطاعتهم أكثر من البنين . كما أن الأمهات قد يتغاضين عن بعض أخطاء أولادهن . ومع أننا كآباء لا نعترف بأننا نفرق بينهم فى المعاملة ، فإن أطفالنا غالباً ما يتمكنون من تحديد اتجاهاتنا نحوهم فى حديثهم بعضهم إلى بعض . غير أنه ليس هناك سر غامض أو نزعة مريضة فى هذه التفرقة . فالمخلوقات البشرية قد خلقت لتستهوى الجنس المناقض لها وتتنافس إلى حد ما مع نفس جنسها ، شأنها فى ذلك شأن الكثير من المخلوقات الأخرى . وهذا يبدو صحيحاً فى غالبية الأسر ، حتى ولو كان الآباء والأبناء يحبون بعضهم بعضاً حباً عميقاً ، وكانت الأمهات والبنات يحملن لبعضهن البعض نفس الحب العميق. فأنا لا أكاد أعرف أبى حين أسمع وصف شقيقاتى له ، فهن يؤكدن أنه كان شخصية ممتعة تتسم بالسماحة وتميل إلى المرح والفكاهة ، على حين أنى أذكره كرجل فى منتهى الحزم والصرامة ، وإن كان يتفانى فى أداء واجبه ويلتزم العدالة المطلقة . ولا يقتصر الأمر على أن الأب قد يكون أكثر تدقيقاً فى معاملة أبنائه ، بل إن الأبناء أنفسهم يرونه مهيباً أكثر مما هو فى الحقيقة ، نتيجة شعورهم بالتنافس معه .

ثمة تفسير آخر يوضح لنا السبب فى أن الآباء عادة ما يكونون أكثر حزماً مع أبنائهم ؛ ذلك أن الآباء قد اعتادوا فى أيام صباهم أن يحاولوا الارتفاع إلى مستوى الرجال ، وكثيراً ما انتقدهم آباؤهم وانتقدوا هم أنفسهم حين كانوا يخفقون فى أن يسلكوا سلوك الرجال . ونحن عندما نتقدم فى السن ، نميل ميلاً شديداً لأن ننقد نفس الأشياء التى كنا نتعرض بسببها للنقد فى أيام طفولتنا ، حين نلمسها فى أطفالنا وأطفال الآخرين . وكذلك الأمهات ، وقد

ظللن بنات صغيرات لسنوات عديدة ، يعرفن تمام المعرفة نوع السلوك الذى يتطلبنه من بناتهن .

* * *

والآن لقد حان الوقت الملائم لأن نعود إلى مناقشة المشكلات الخاصة التى يواجهها بعض الآباء . فلنناقش أولا مشكلة ذلك الأب الذى يتوقع الطاعة على الفور من ابنه البالغ أربعة عشر شهراً . وإذا سمحتن لى بشىء من التخمين ، فإنى أخمن أن هـذا الغلام هو الطفل الأول فى الأسرة (فنحن نـكون عادة أكثر استرخاء فى تربية طفلنا الثانى أو الثالث) ، وأخمن أيضاً أن هذا الأب قد نشىء تنشئة تتسم بالحزم والصرامة أكثر من المعتاد ، مع التركيز بصفة خاصة على أهمية إطاعة الأوامر على الفور . وهـذا الأسلوب فى التربية لم يحدد له نمطاً معيناً فى السلوك أو يخلق فيه عادة معينة فحسب ، بل إنه تغلغل فى مشاعره إلى أبعد من ذلك بكثير ، فنحن جميعاً حين كنا أطفالا وكان يوبخنا آباؤنا توبيخاً صارماً على تصرفات معينة يقولون إنها سيئة أو وخيمة العاقبة ، كان يتولد فى نفوسنا قلق حقيقى من هذه العواقب الوخيمة ، وحتى ولو لم نبد اهتماماً كبيراً بالأمر فى حينه . وهذا هو السبب فى أننا — حين نـكون آباء حديثى العهد — ننقض على أطفالنا بعنف شديد ، قبل أن نتيح لأنفسنا فرصة التفكير والتأنى . فالأب الذى نحن بصدده لا بد أنه خائف حقاً من أن يتعرض ابنه للمتاعب فى حياته المستقبلة ، لو أنه لم يـكتسب منذ نعومة أظفاره عادة إطاعة الأوامر على الفور — مهما يبدو هذا الاتجاه بعيداً عن العقل والمنطق فى نظرك وفى نظرى — فهذا الاتجاه قد نشأ عند الأب من أثر مشاعر القلق العميقة التى ترسبت فى نفسه عن طريقة تربيته . كما أن عدم إحساس زوجته بهذا الخطر الذى يحيق بالطفل ، يزيد من شعوره بالقلق عليه . على أن معظمنا بوسعه أن ينظر إلى الطفل ابن السنة

نظرة أكثر هدوءاً واتزاناً من هذا الأب ، لإدراكنا أن مثل هذا الطفل مستعد فقط لتلقي بعض الدروس الأولية البسيطة في الخضوع للنظام ، وأن هناك وسائل عديدة إلى جانب الطاعة يمكن بها أن نجنبه مواطن الخطر ونحميه من سوء السلوك .

كما أن الصرامة قد تشتد وطأتها ، حين يحس الزوج لأى سبب من الأسباب المختلفة أن زوجته تحابى الابن على حسابه أو تنحاز إلى جانبه ضده . وهذا الاتجاه يظهر بصورة مجسمة فى القصص التى تدور حول زوج الأم الحقود الذى يحنق على ابن زوجته لأنه قد تمتع بحب الأم من قبله بأمد بعيد . غير أنه من الممكن أن يشعر الأب بنفس الشعور نحو ابنه ، إذا كان هو نفسه يعانى دائماً من عدم الشعور بالأمن والطمأنينة (ربما منذ أيام طفولته حين كان يحس بأن أمه تؤثر أخاه الأصغر عليه) أو إذا كانت زوجته تكن له العداء والنفور ، وتستغل — لا شعورياً — علاقتها الوثيقة مع ابنها فى إثارة المشاجرات معه .

لقد كانت بعض العوامل التى تؤدى إلى مغالاة الأب فى الشدة والصرامة ، تظهر بصورة جلية حين يعود أحد الآباء إلى بيته من الحرب العالمية الثانية ، التى كان يتحتم عليه أثناءها أن يخضع لاستبداد النظام العسكرى ؛ يعود فيجد ابناً فى الثانية أو الثالثة من عمره ، يتمتع بكل وسائل الراحة فى البيت ، ويبدو أنه يستنفد معظم وقت الزوجة واهتمامها ، ولا يلوح عليه أن لديه أدنى فكرة عن أى نوع من النظام . ومما يزيد الأمر سوءاً على سوء أن الغلام قد يبدى من جانبه استياء عنيفاً من هذا المارد الذى اقتحم عليه بيته وحاول أن يتصرف فيه كما لو كان يمتلك أمه الحبيبة .

ولئن حاولت زوجة الأب الصارم أن تعوض الابن عن عنف الأب

وشدته ، فإن هـذا السلوك منها يزيد من خشية الأب أن ينشأ ابنه مدللاً ، ومن ثم يميل إلى أخذه بمزيد من الشدة . كما أن جهود الأم لحماية الابن تزيد من عداء الأب لـكليهما على المدى البعيد ، وهذا يبث فى الغلام شعوراً بأنه هو وأمه عدوان لأبيه ، وهو شعور ضار من جميع النواحى .

فإن استطاعت الأم أن تـكبح جماح الحافز الذى يجعلها تنبرى للدفاع عن الغلام ، وأمكنها أن تتوارى عن الأنظار حين يقوم الأب بتأديبه ، فإن هذا الأسلوب يخلق فى العادة أحسن موقف يستطيع فيه الأب والابن تصفية العلاقة بينهما . وإذا استطاعت الأم أيضاً أن تبدى فهماً عميقاً قائماً على التعاطف لما يعتمل فى نفس زوجها من قلق على شخصية الغلام ، فإن هـذا قد يساعد على إنقاص عامل الوهم فى شعور الأب بالجزع والقلق . أما إذا كانت الأمور قد تجاوزت المرحلة التى تجدى فيها هذه الوسائل ، فإن المشكلة فى هذه الحالة تستحق أن يناقشها الأب مع ناصح أمين يوليه ثقته ، كالطبيب أو أحد رجال الدين .

* * *

ولننتقل الآن إلى النموذج الثانى : الأب الذى يصفعه طفله ابن السنتين وهو مغرق فى الضحك . إنه يبدو على النقيض من الأب الشديد الصارم ، لـكنه ليس على نقيضه تماماً . فلو أنك سألت مثل هذا الأب عن شعوره ، فإنه فى الغالب سيجيبك قائلا : « لقد كنت أعامل معاملة فى غاية الشدة أيام طفولتى . ولا أريد أن يحنق على ابنى يوماً مثلما كنت أحنق على أبى فى كثير من الأحيان » . وهـكذا نرى أن كلا الاتجاهين ينشآن من أثر التربية الصارمة . غير أن الأب فى الحالة الأولى ينحاز إلى جانب الجد — أبيه — فى خوفه من العواقب التى تترتب على عدم تهذيب الطفل وتأديبه ، على حين أن الأب فى الحالة الثانية يخاف من العواقب التى تترتب على المغالاة فى التأديب والتهذيب .

وهذا الاتجاه عنده قد يجعله خائفاً من تأكيد سلطته ، أو حتى الدفاع عن نفسه ، لدرجة أنه يكاد يشجع الطفل على الاستبداد به .

إن كل طفل عندما يناهز السنة من عمره ، يبدأ فى اللهو بإيذاء الآخرين ، حين تتملكه نزواته وأهواؤه ، فهو يشد شعر أمه أو ينشب أسنانه فى خد أبيه . غير أن الأب الذى لا يخشى اتخاذ موقف الحزم لإدراكه أن الطفل يحتاج إلى التوجيه المستمر ، يكبح جماح طفله الصغير على الفور ، ويبدى له على ملامح وجهه شيئاً من الاستنكار لهذا السلوك ، فإذا عاود الطفل المحاولة ، يعود الأب تلقائياً فيكبح جماحه مرة أخرى . إن هذا الدرس الهادىء — الذى يبين للطفل أن الأب لا يحب أن يؤذيه أحد ولا ينوى السماح لأحد بإيذائه وسوف يمنع الطفل من إيذائه — هذا الدرس يرسب رويداً رويداً فى عقل الطفل الصغير ، حتى ولو كان ابن سنة واحدة . قد لا يستوعب الطفل هذا الدرس تماماً من أول مرة ، لكن تكراره بضع مرات قلائل سوف يحقق الهدف المنشود على وجه معقول .

أما إذا كان الأب يخشى إبداء حزمه للطفل (الواقع أنه يخشى إبداء شعوره بالغضب) ، حتى إنه يسمح له بالهجوم عليه دون عقاب ، فإن هذا الأسلوب يغرى الطفل بتكرار المحاولة . والشيء المذهل أنه حتى الطفل ابن السنة يدرك أنه ليس من الصواب أن يستسلم له الأب كل هذا الاستسلام ، وأنه ليس من الصواب أن يتمكن من السيطرة على أبيه بهذه السهولة ، بل إن إيذاءه للأب أو الأم دون عقاب يبعث فيه شعوراً بالقلق والضيق . وحين تقول الأم إن طفلها ابن السنتين يقهقه فى سرور عند إيذائه لأبيه ، لا يمكننى أن أصدق أنه سعيد حقاً ، وأظن أن مشاعر الطفل فى هذه الحالة تكون مزيجاً من الانفعال المثير والشعور بالذنب . بل إنى سوف أتمادى إلى أبعد من ذلك ، فأخمن أن

الطفل يرجو من أبيه شيئاً من الكبح والقمع ، حتى يتسنى له أن يستمتع حقيقة باللعب معه .

إن الصورة التى رسمتها لنا هذه الأم عن طفلها ليست من الصور المألوفة على الإطلاق ، حتى لقد يتبادر إلى أذهانكن أنها لا تنطبق على كثير من الأسر . غير أن هناك مشكلة أخرى ترددها الأمهات فى طائفة قليلة من الأسر ، إذ تقول الأم : « إن شكايتى — أساساً — هى أن زوجى يترك لى كل كبيرة وصغيرة فيما يتصل بتأديب الأطفال وتهذيبهم ، حتى أثناء وجوده بالبيت فى المساء وفى عطلات نهاية الأسبوع » . وهناك أعذار عديدة يسوقها مثل هذا الآب لتسويغ هذا السلوك ، كأن يقول إنه يكون مجهداً فى نهاية اليوم ، أو إنه يريد أن يستمتع فقط بالراحة والاسترخاء فى عطلات نهاية الأسبوع ، أو يقول إن الأم هى التى تدبر أمور الأطفال معظم ساعات اليوم على أية حال ، ومن ثم فهو لا يدرى شيئاً عن قواعد السلوك التى تطلب منهم اتباعها . ولكن هذه المعاذير ضعيفة واهية بلا شك . كما قد يشكو الأب — وله فى ذلك عذر أقوى — من أن زوجته تضرب بتعليماته عرض الحائط حين يحاول الاشتراك معها فى تدبير أمور الأطفال ، وأنها كثيراً ما تستبد بالأطفال وتفرض عليهم أوامرها بلا مسوغ ، ثم تتوقع منه أن يساندها فى ذلك . من البديهى أن مثل هذه الاختلافات الثانوية فى وجهات النظر بين الأب والأم تحدث فى غالبية الأسر بين الفينة والفينة ، ولكنها تصبح مصدراً دائماً للشكوى فى بعض الأسر . والظاهرة المميزة فى هذه الأسر هى أن الأم تحمل العبء الأكبر فى تسيير أمور الأطفال ، على حين يكون الأب متساهلا أو متباعداً نسبياً ، وهذا الآب قد يكون شخصية قوية بالغة الأثر فى ميدان عمله .

إن المشكلة الهامة هى : ما هو الأثر الذى يحدث فى الأطفال حين لا يسهم

الأب إلا إسهاماً ضئيلا فى تأديبهم وتهذيبهم ؟ لقد ذكرت من قبل أن السبب الحقيقى الذى يدفع الأب إلى انتهاج هـذا الأسلوب فى الغالب هو أنه يخشى أن ينفر منه أطفاله — لا سيما الأولاد — إن هو غالى فى الحزم والصرامة ، لذلك فهو يبذل قصارى جهده لإرضاء رغباتهم . ولـكن البحوث التى تقوم بها عيادات توجيه الأطفال النفسية ، تبين لنا فى جلاء أن الأطفال لا يزداد حبهم للأب واستمتاعهم بصحبته ، إن هو وقف جانباً بمعزل عنهم ، دون أن يؤدبهم إلا فى القليل النادر . والواقع أن الحقيقة التى يستخلصها الطبيب النفسانى من قصص الأطفال الوهمية ومن أحلامهم المزعجة ، هى أنهم غالباً ما يشعرون بالخوف من الأب المنطوى على نفسه . ولعل أحد التفسيرات لهذا الشعور ، هو أن نقول إن الأطفال جميعاً يدركون — بما عندهم من دهاء بدائى — أن كل الآباء يحسون بالغضب فى دخيلتهم حين يسىء الأطفال سلوكهم ، لذلك يزداد خوفهم من الغضب الذى لا يجاهر به الآباء إلا نادراً أو لا يجاهرون به على الإطلاق ، إذ يسائلون أنفسهم عن مدى فظاعة هذا الغضب الدفين. ولنعكس الوضع فنقول : إن الطفل الذى يسىء السلوك يدرك أنه ينبغى تقويمه ، ويرغب فعلا فى هـذا التقويم ، كيما يحس أنه قد عاد إلى الطريق السوىّ . فإذا لم يبد أبوه أى تردد فى استخدام الحزم والتوبيخ المناسبين ، فإن شعور الطفل بالذنب تخف وطأته . كما يدرك الطفل هذه المرة أيضاً أن غضب أبيه يبعث على الطمأنينة ، فهو يكدره لـكنه لا يؤدى إلى موته ، بل إنه كلما احتك بأبيه ثم وجد أنه ما زال سالماً آمناً بعد هذا الاحتكاك ، ينمو عنده شعور معين بالثقة بنفسه . فهذا الموقف بينه وبين أبيه يبث فيه الشجاعة لمواجهة الأولاد والرجال الآخرين الذين سيضطر لمواجهتهم بقية حياته ، دون أن يستبد به الخوف من غضبهم .

ويمكننا أن نلخص هذا الموضوع بأن نقول عن الأب الذى يحجم عن

المساهمة فى تأديب أطفاله تأديباً معقولا : إنه ليس هناك ما يدعو للخوف من حنقهم واستيائهم ، وإنهم على العكس سوف يزدادون حباً له وارتياحاً إليه واستمتاعاً بصحبته إن هو أكد سلطته بالأسلوب الأبوى المعتاد . كما أن زوجته تستطيع مساعدته فى هذا المضمار ، لا بأن تحثه على تأديب الأطفال عندما تعتقد هى أن الموقف يستلزم التأديب ، بل بألا تعترض عليه عندما يحس هو أن الموقف يتطلب الحزم منه ، وبأن تظهر للأطفال فى جلاء أنها تحترم تقديره السليم ومكانته فى الأسرة .

مصاحبة أطفالك

« لا داعى لأن تكون هذه المصاحبة على كره منك »

ما مدى أهمية مصاحبة الآباء والأمهات لأطفالهم ؟ إن هذا السؤال يقلق بصفة خاصة أولئك الأمهات اللائى يبدى أزواجهن ميلا قليلا للعب مع الأطفال ، أو لا يوجدون بالبيت ، والأطفال مستيقظون ، إلا فترات محدودة للغاية .

وفى اعتقادى أن جانباً كبيراً من الاهتمام السائد فى أمريكا بشأن ضرورة اقتراب الأب من أطفاله ، إنما نشأ نتيجة للمقالات والأحاديث المستمدة من تجارب الأطباء فى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، والتى تشير إلى أن بعض الأطفال قد ساءت قدرتهم على التوافق مع البيئة ، من أثر علاقة التباعد التى لا تبعث على الرضا بينهم وبين آبائهم . ومما أثار الاهتمام أيضاً أن نسبة الرجال المشتغلين بالتعليم فى المدارس الابتدائية الأمريكية نسبة ضئيلة للغاية ، على عكس الحال فى كثير من البلاد المتحضرة الأخرى ، حتى إنه يقال إن النساء فقط هن اللائى يحطن بأطفالنا وينشئنهم .

على أن طائفة قليلة نسبياً من الأمهات — فيما يبـدو لى — هن اللائى يساورهن القلق حول ما إذا كان يجدر بهن تخصيص فترة من الوقت يلعبن فيها مع الأطفال . وهذا يرجع فى رأيى إلى أن الأمهات ينفقن اثنتى عشرة ساعة أو أكثر مع أطفالهن . وهذا الجهد لا يخلف لمعظمهن سوى القليل من الطاقة للعب والمزاح ، كما أنه يخلف فيهن شعوراً براحة الضمير لأنهن لايهملن أطفالهن .

ومن الطريف أن السيدة التى تحس أن زوجها ينبغى أن يمضى مزيداً من

وقته مع الأطفال ، غالباً ما تعبر عن ذلك بقولها له : « العب معهم » أو « اشترك معهم فى عمل بعض الأشياء » . إن هذه الكلمات تضفى على مصاحبة الأطفال طابعاً متكلفاً فيه شىء من الإكراه ، كما لو كان من واجب الأب أن يتوقف عن أداء الأشياء الأخرى التى يحس أن من واجبه أداءها، وأن يكف عن ممارسة هواياته الخاصة ، كى يعطى الأطفال حقهم . وأظن أن هذا التكلف الذى يتمثل فى اختلاق « شىء نفعله مع الأطفال » هو أحد العوامل فى العناد المستمر الذى يبديه بعض الآباء من هذه الناحية ، لأن الكثير من الآباء الطيبين يعتبرون أن تخصيص فترة من الوقت يكرسونها تماماً لمصاحبة الأطفال شىء يبعث على السأم .

على أن الآباء فى غالبية المجتمعات البدائية ، لا يضطرون إلى ابتكار أشياء يؤدونها مع أطفالهم فى أيام العطلة ، كى يعوضوهم عن غيابهم فى المكتب أو فى الطريق أو فى اجتماعات اللجان طوال الأسبوع ، لأن عمل الأب — فى صيد الحيوانات أو صيد الأسماك أو فلاحة الأرض — قد يكون على مقربة من بيته ، مما يتيح له أن يمكث جانباً كبيرا من الوقت فى البيت . وفى كثير من أنحاء العالم التى لا توجد بها مدارس نظامية عادة ما تكون مسئولية الأب — وموطن فخره — أن يعلم ابنه مهارات الرجال التى سوف يكسب منها رزقه ، فيصطحبه معه إلى العمل بمثابة « صبى » له يساعده ويتعلم منه الحرفة ، بمجرد أن يصبح الابن قادراً على ذلك .

ونحن عندما نراقب الأطفال عن كثب ، كى نرى نوع المشاركة التى ينشدونها من آبائهم ، نجد أنهم وإن كانوا يريدون أحياناً أن يلعب الأب معهم على مستواهم الطفلى ، فإنهم فى غالبية الأحيان يفضلون أن يلعبوا لعبة تقليد الكبار ، سواء اشترك الآباء فى اللعب معهم أو لم يشتركوا . فالبنات الصغيرات

يرغبن فى أداء بعض الأعمال المنزلية الحقيقية وفى رعاية المولود إلى جانب أمهاتهن، كما أن الأولاد الصغار يرغبون فى أداء بعض أعمال التجارة وفى تشذيب الحضيرة وفى قيادة السيارة مثل آبائهم . وهذه هى الوسيلة الرئيسية التى تزداد بها معلومات الأطفال وتنمو شخصياتهم .

بيد أن هناك أنواعاً شتى من الآباء الطيبين : الآباء الذين يتسمون بالهيبة والجلال ، والآباء الذين يميلون إلى اللعب والمزاح ، والآباء ذوى المهارة اليدوية الذين يحبون صنع الأشياء بأيديهم ، والآباء المرتبكين «اللخمة» الذين يكرهون كل الهوايات اليدوية ، والآباء الذين يحبون الألعاب الرياضية ، والآباء الذين يجلسون فى المقاعد طوال الوقت ، والآباء الذين يتمتعون بخيال خصب ، والآباء الذين يفكرون تفكيراً حرفياً متزمتاً . وكل واحد من هؤلاء الآباء تربطه بأطفاله علاقة مختلفة ويؤثر فيهم تأثيراً مختلفاً عن الآخرين . وهذا أمر طبيعى ما دام العالم يتسع لأنماط لا حصر لها من الناس . على أنه من الممكن أن يكون هؤلاء جميعاً آباء مثاليين ، لو أنهم بثوا فى أطفالهم شعوراً عميقاً بأنهم يتقبلونهم ويستمتعون بصحبتهم ويكنون لهم الحب . ومن ثم فلا أساس للقول بأن كل أب ينبغى أن يلعب مع ابنه بطريقة معينة ، أو ينبغى أن يخصص عدداً معيناً من الساعات لمصاحبته كل أسبوع . فهذا الأسلوب ما هو إلا عذاب أليم لبعض الآباء والأمهات ، وفى مثل هذه الحالات يتضح أنه مصدر ألم لأطفالهم أيضاً .

* * *

إذا كان الأب من النوع النشيط الودود الذى يحب لعب كرة القدم ، وكان أطفاله لا يستمتعون بشىء قدر استمتاعهم بالاشتراك فى مباراة معه بعد ظهر يوم العطلة ، فإن هذا الشىء رائع لهم جميعاً . ولكن فلنأخذ مثالا آخر : إذا كان

الأب شديد اللهفة على أن يجعل ابنه بطلا من أبطال الرياضة ، لاعتقاده أن هذا هو السبيل إلى الرجولة وإلى النجاح فى الحياة الجامعية ، فإن ابنه قد ينتهى به الأمر سريعاً إلى الشعور بالخوف من فترات التدريب الرياضى المشحونة بالتوتر ، التى تفرض عليه فرضاً ، بل إن من المحتمل أن يتولد عنده شعور بالنفور من كل ضروب الرياضة .

قبل أن نبتعد عن موضوع الأب المولع بالرياضة ، أود أن أذكر كلمة موجزة بشأن الألعاب العنيفة . إن طائفة قليلة من الآباء تعتقد أن الألعاب البهلوانية والعراك والدغدغة وتمثيل دور الغول أو الحيوانات المتوحشة ، هى خير الوسائل الطبيعية لتسلية أطفالهم واللهو معهم . كما أن غالبية الأطفال يستجيبون لهذه الألعاب فى حماسة ، مما يدفع الآباء إلى التمادى فيها . على أن العمل فى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، يبين لنا أن هذه الألعاب تثير انفعالات الطفل أكثر من اللازم — فى بعض الحالات على الأقل — لاسيما الطفل الصغير الذى لا يستطيع بعد أن يميز بين التمثيل والحقيقة . وقد ثبت أن بعض هذه الألعاب يبعث خوفاً طاغياً فى قلوب الأطفال ، وأن بعضها يثيرهم إثارة شديدة مشحونة بالمتعة الجارفة ، لدرجة قد تضر بصحتهم النفسية . لذلك ينبغى أن تمارس هذه الألعاب بحكمة وتعطى للأطفال فى جرعات صغيرة .

ومن بين المشكلات التى تنشأ فى بعض الأحيان ، أن أحد الآباء المتحمسين قد يستهويه اللعب بالمكعبات الخشبية أو القطارات أو مجموعات تكوين نماذج المبانى الخاصة بابنه ، فإذا به — دون قصد منه — يتولى تصميم النماذج بدلا من الطفل نفسه . وقد يخطط تصميما يتجاوز قدرة الطفل ، ثم يدربه على كيفية تنفيذه تدريباً عنيفاً ، بل إنه كثيراً ما يبدى ضجره من بطء الطفل فى إنجاز النموذج ، فلا يلبث الطفل أن ينسحب من هذه المهمة ، متجهاً إلى مهمة أخرى

يمكنه أن يسير فيها على مهل ، ويحصل منها على شعور بالرضا لأنه قد حقق شيئاً بجهده الخاص ، تاركا لأبيه مهمة تنفيذ النموذج الأصلى بنفسه .

وإذا كان الأب من النوع الذى يستطيع أن يحيي مباهج طفولته من خلال الخبرات التى يتيحها لأطفاله ، فيحب أن يصطحبهم إلى المتاحف والاستعراضات العسكرية وحدائق الحيوان وحلبات السيرك ، فإن هذا يكون شيئاً ممتعاً للجميع . أما إذا كان يقوم بهذه الرحلات لمجرد أن الأسرة تاكفته حتى أكرهته عليها ، فإن العبوس الذى يرتسم على وجهه أثناءها لن يفيد فى تنمية العلاقة بينه وبين أطفاله .

ومن الأوقات المثلى التى يمكن أن يصاحب فيها الأب ابنه ، ذلك الوقت الذى يمضيه معه فى أداء عمل ، يجد فيه الأب متعة حقيقية ، فى حين يجد الابن نفس المتعة فى أدائه معه ، سواء أكان ذلك بعض أعمال النجارة فى « بدروم » البيت أم صيد الأسماك أم مشاهدة مباراة فى الكرة . إذ ليس هناك أى تكلف أو ادعاء فى مثل هذه المواقف ، بل إن فيها متعة مشتركة ، ممتزجة بالتعليم والتثقيف ، وكلاهما من العوامل القيمة فى تنمية العلاقة بين الطفل والأب . على أن هناك الكثير من العثرات ، حتى فى التسليات المشتركة التى تبشر بكل خير فى ظاهرها ، كما يعلم جميع الآباء المجربين ، لذا ينبغى أن ننبه إليها الأب الذى تعوزه التجربة ، ذلك أن فترة تركيز الانتباه عند الأطفال عادة ما تكون طويلة المدى حين يتابعون هواياتهم الخاصة ، لكنها تكون قصيرة الأمد حين يتصل الأمر باعتبارات لا يقدرها سوى الكبار وحدهم . فالغلام دون سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، قد لا يلقى بصره إلى الجوانب الرائعة فى إحدى المباريات الرياضية بعد انقضاء نصف ساعة من بدء المباراة ، بل يتحول انتباهه إلى بائعى الهدايا التذكارية والمشروبات الخفيفة . (ما هو السبب يا ترى فى

أن الأطفال ، حتى صعاف « الشهية » منهم ، يقرصهم الجوع على الفور فى الأماكن العامة ؟ ولماذا يصرون جميعاً بلا استثناء على التوقف فى الطريق لتناول زجاجة من المشروبات فى نهاية رحلة من الرحلات ، بدلا من الرضا بالانتظار عشرين دقيقة حتى يحصلوا على نفس الزجاجة من الثلاجة فى البيت ؟) وفى أثناء المباراة يظل الطفل يوجه أسئلة إلى أبيه عن الطريقة التى تعمل بها لوحة تسجيل الأهداف ، وعن الفرقة الموسيقية ، وعن الشخصيات المضحكة التى تجلس فى المنصة الرئيسية ، وعن كل شىء يخطر بالبال ، عدا المباراة . وهذا النقص فى قدرة الطفل على تذوق متعة المباراة الرياضية ، يثير غضب الأب غير المجرب وضجره فى المرات الأولى ، ثم يدرك بالمرانة أنه اتجاه طبيعى عند الطفل ، فيحاول أن يصل إلى حل وسط يرضى الطرفين : كألا يصطحب الطفل معه إلا عندما يأنس فى نفسه قدرة على الصبر أكثر من المعتاد ، أو لا يصحبه معه إلا عندما تكون المباراة زهيدة الثمن أو قليلة الأهمية ، أو يذهبا جماعة مع أب آخر وابنه كى يتسنى لكل منهما أن يشارك قرينه فى السن فى الاهتمامات التى تناسب سنه.

كما أن الأب الحكيم الفطن يتوقع سلفاً أن الغلام الذى يدعى الحماسة لصيد السمك ، قد ينصرف عن الصيد سريعاً إلى إلقاء الأحجار فى مجرى الماء ، أو بناء سد من الطين .

وعندما يبدى أحد الأبناء رغبة فى العمل إلى جانب أبيه فى أعمال النجارة ، فإن الأمر يتطلب من الأب قدراً كبيراً من اللباقة والدبلوماسية ؛ ذلك أن الغلام قد يريد الاشتراك فى تنفيذ مشروع يقوم به أبوه ، ويحتمل أن يصيبه بالتلف ، أو قد يستقر عزمه على تنفيذ مشروع من بنات أفكاره ، لكنه مشروع معقد بدرجة لا تتناسب مع سنه ، أو قد توجد بالمكان معدات خطرة أو معقدة التركيب أو قابلة للكسر ، بحيث لا تصلح لأن يستخدمها غلام صغير

السن ، لـكنه سوف يحس بإهانة بالغة لو أننا أفهمناه هذه الحقيقة بطريقة تنتقص من قدره وكرامته .

إن خير وسيلة مجدية فى هذه الحالة ، هى أن يضع له الأب بضع قواعد يسير على هديها منذ البداية . كأن يقول له : « يمكنك أن تستعمل هذه المعدات دون مساعدة من أحد ، لـكنى سوف أساعدك حين ترغب فى استخدام هذه الأداة . أما هذه فيمكنك استعمالها عند ما تكون أكبر سناً » ثم يدع الغلام يختار المشروع الذى يروق له ، ويتركه يدرس تفصيلاته بنفسه ، دون أن يقدم له سوى أقل قدر من المقترحات والانتقادات . والعجيب أن غالبية الأطفال يكشفون عن تقدير سليم فى « تقييم » قدراتهم ، ويسعدون فى العادة سعادة غامرة بالنتائج التى يحققونها بأنفسهم ، حتى ولو كان إنتاجهم بعيداً عن الإتقان والتناسق من وجهة نظر الـكبار .

هناك الـكثير من المهام العادية يستطيع الرجال والأولاد أداءها معاً هنا أو هناك فى أرجاء البيت مثل : قطع الحشائش من الحضيرة ، جمع أوراق الأشجار بالجرفة ، غسل السيارة ، تنظيف المخزن ، أعمال السباكة والطلاء . لـكنى أعتقد أن الأب يميل فى بعض الأحيان إلى إعفاء ابنه من هذه المهام عندما يكون حدثاً صغير السن ، ثم يلقيها على عاتقه فيما بعد . غير أنه من المفيد للغلام أن يحس بأنه يسهم فى عمل نافع ، حتى ولو كان فى سن تجعل إسهامه فى العمل مصدراً للمتاعب ، لا يستأهل الجهد الذى يبذله فيه . كما أنه من خلال المثابرة على أداء بعض المهام كل عام ، يكتسب مزيداً من الصبر والجلد شيئاً فشيئاً . وحين يبلغ الغلام السن التى يستطيع فيها القيام بمثل هذه المهام بمفرده ، يستحسن ألا يكف الأب عن مشاركته فى أدائها . وليس هـذا بهدف مصاحبة الغلام فحسب ، بل لأن من العسير على معظم الصبية أثناء مرحلة المراهقة ألا يتلـكأوا

ويسوفوا فى أداء المهام الملقاة على عاتقهم ، أو يتخلوا عنها قبل أن ينجزوها تماماً ، ما لم يصحبهم أحد الكبار ويعطهم شيئاً من التوجيه والإرشاد .

وهكذا نرى أن التسلية المشتركة والعمل المشترك بين الآباء والأبناء لهما فائدة جمة ، إن وجدت الفرصة الملائمة ، وتوافر الميل عند الطرفين . غير أنه من المهم ألا يغيب عن بالنا أن العلاقة الطيبة بين الأب والابن تتوقف أساساً على الروح التى يتعاملان بها معاً فى ماجريات الحياة اليومية : عملية الاستيقاظ من النوم فى الصباح ، تناول الوجبات ، أشتات الأحاديث المتناثرة حول الأخبار العامة والأحوال فى المدرسة ، تحديد الواجبات والمهام للطفل وأدائه لها ، تعنيف الأب له على أخطاء السلوك . فإذا كان الأب والابن يحترمان أحدهما الآخر ، ويحبان أحدهما الآخر ، ويرتاحان أحدهما إلى الآخر ، فليست هناك حاجة ماسة فى هذه الحالة لأن يتعمد الأب افتعال أشياء يؤديها مع ابنه . فهناك بالطبع بعض الآباء الذين لا تسمح لهم ميولهم وارتباطاتهم بأن « يفعلوا شيئاً » على الإطلاق مع أبنائهم ، ومع ذلك فإن لهم أثراً فيهم يبعث على الرضا التام . وأنا إذ أقول هذا لا أنكر قيمة المصاحبة الخاصة بين الآباء والأبناء ، فعندما يعمل اثنان من الناس معاً فى مهمة ما ، أو يشتركان معاً فى رحلة ما (سواء أكانا أباً وابنه ، أم زوجاً وزوجته ، أم اثنين من الأصدقاء) ، فإنهما قد يكتشفان فى بعضهما البعض صفات واستجابات ومشاركات وجدانية ، لا يمكن على الإطلاق أن تتكشف لهما بهذا الوضوح فى خضم الحياة اليومية . ومثل هذه المناسبات قد يذكرها المرء طوال حياته وتضيف أبعاداً جديدة إلى علاقته بالناس .

* * *

يبدو لى أن الحياة فى أمريكا تتيح يومياً فرصاً طبيعية للغاية لأن تصاحب الأمهات بناتهن ، أكثر من الفرص التى تتاح للآباء لمصاحبة أبنائهم ؛ ذلك لأن غالبية الأمهات مرتبطات بالبيت لأداء الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال .

وهذه صور من النشاط تبدو هامة فى نظر البنات الصغيرات ويحسدن عليها أمهاتهن ، لاسيما فى الفترة التى تسبق دخول المدرسة . والأم الحكيمة هى التى يمكنها أن توجه ابنتها التوجيه السليم — عن طريق الإرشاد والتقدير والود — حتى تتحول المساعدة المزعومة التى تقدمها البنت لأمها فى بعض الفترات القصيرة إلى مساعدة حقيقية تثابر عليها طوال مرحلة الطفولة والمراهقة . فالمشاركة فى عمل البيت تفيد الطفل نفسيا ، وتضع أساساً متينا لأسلم صور المصاحبة بينه وبين والديه . (فى بعض الأسر يعتبر إعداد الوجبات وتنظيف المائدة بعد الأكل من المهام التى تلائم الأمهات والبنات فقط ، على حين يعتبر العمل فى الحديقة والورشة والجراج من مهام الرجال والأولاد . وفى بعض الأسر الأخرى يقوم الذكور أيضاً بغسل الصحاف « الأطباق » وتجفيفها . فالشىء الوحيد الهام فى هذا المجال هو أن يحس الجميع بأنهم يؤدون نصيبهم فى العمل) .

ومن بين المناسبات التى تحصل فيها الأم وابنتها غالباً على صحبة ممتعة إحداهما للأخرى ، تلك الفترات التى تقضيانها معاً أثناء تجوالهما فى السوق لشراء السلع المختلفة ، لا سيما الثياب .

إن العلاقات بين الأمهات وأبنائهن ، وبين الآباء وبناتهم ، لها أثر عميق فى شخصيات الأطفال واتجاهاتهم وزواجهم فى المستقبل . لأن شخصية الطفل واتجاهاته تنمو أثناء مرحلة الطفولة ، نتيجة للاتصالات والاحتكاكات اليومية العادية فى حياة الأسرة ، أولا وقبل كل شىء . فالأم هى التى تطعم أبناءها وتريحهم « وتهندمهم » وتؤدبهم وتروى لهم القصص ، لا سيا فى الأعوام الأولى من حياتهم ، مثلما تفعل مع بناتها تماماً . كما أن الأب أثناء وجوده فى البيت يمكن أن يكون المحدث والمؤدب والرائد ولاعب المباريات وقائد الرحلات بالنسبة لبناته وأبنائه ، على حد سواء . غير أننا كآباء لا نرسم لبناتنا برامج خاصة بعيدة

المدى لمصاحبتهن وتثقيفهن بأنفسنا ، كما أن الأمهات لا يفعلن ذلك مع أبنائهن . وهذا اتجاه طبيعى لا غبار عليه . فالواقع أن الأم أو الأب الذى يحاول أن يكون رفيقاً خاصاً وصديقاً حميماً أكثر من اللازم لأحد أطفاله من الجنس الآخر ، يحتمل أن يقف حجر عثرة فى سبيل نمو الطفل بدلا من أن يدفعه إلى الأمام .

وأنا لا أعنى بهذا الكلام أن الأب ينبغى أن يأخذ ابنته على علاتها ، أو أن يميل إلى الابتعاد عنها . فهى فى حاجة لأن تحس أن أباها يقدرها كفتاة ويقدرها كفرد له كيانه . فى إمكان الأب مثلا أن يبدى لها هذا الشعور بأن يزجى إليها كلمة إطراء حارة ، عندما تخبز كعكة شهية فى الفرن ، أو عندما تهندم نفسها فتبدو جميلة للناظرين . يمكنه أيضاً أن يبدى هذا الشعور نحوها ، بأن يظهر استمتاعه بالقصص التى ترويها له ، وبأن يشترك معها فى بعض ألعاب التسلية بعد قضائه فترة من الوقت مع إخوتها فى مكان ما خارج البيت . أما الأم فيمكنها أن تنمى علاقة الود والصداقة مع ابنها ، بأن تقرأ له بعض الكتب وتصغى إلى القصص التى يرويها لها عن الأعمال الباهرة التى قام بها ، وبأن تطلب إليه أن يؤدى لها بعض أعمال السباكة فى البيت ، أو أن يشرح لها كيف يمكنه التمييز بين أنواع السيارات المختلفة . لكن ليس من شأنها ــ حتى ولو كانت أرملة ــ أن تعلمه كرة القدم ، وليس من الفطنة أن تجذبه إليها ، عن طريق إثارة اهتمامه بزخرفة البيت وتنسيقه من الداخل . ويمكننا أن نعبر بطريقة أخرى عن الحدود الطبيعية لهذه العلاقة ، فنقول : إن الأب إذا كان يبدى اهتماما بابنته يفوق كثيراً اهتمامه بابنه ، أو يجد متعة فى مناقشة مشكلات عمله وهواياته مع ابنته أكثر من المتعة التى يجدها مع زوجته ، وإن الأم إذا كانت تميل إلى صحبة ابنها أكثر من صحبة ابنتها أو زوجها فإن هذه الحالة توحى بأن هناك توترات نفسية فى الأسرة تتعارض مع النمط الطبيعى السوى الذى ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين الزوج والزوجة والأب والابن والأم والابنة .

* * *

ما الذى ينبغى عمله حين يفشل أحد الوالدين فى إيجاد أساس يمكن أن تقوم عليه علاقة المودة ، أو حتى الشعور بالارتياح مع أحد أطفاله ؟ إن الأمر فى هذه الحالة يستحق أن يبذل الوالد جهداً عامداً كى ينمى هواية مشتركة بينه وبين الطفل ، على أمل أن يترتب على هذه الهواية نمو الصداقة بينهما تلقائياً ، وهى أشبه بعملية صب الماء فى المضخة قصد إعدادها للعمل . ولكن إذا لم تؤد هذه الوسيلة إلى أية متعة أو أى تقدم فى العلاقة ، فلا داعى لأن نحاول الوصول إلى نتيجة بالإكراه . ومن الأفضل فى هذه الحالة أن يستشير الوالد ـ إذا أمكن ـ إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، كى تعينه على اكتشاف أسباب المشكلة . فأحياناً يكون السبب سوء تفاهم دفيناً ، أو شعوراً بالحنق والاستياء من جانب الطفل ، يجعله يعامل الأب أو الأم فى نفور وجفاء ، كالقنفذ النافر الذى ينشر أشواكه من حوله . وفى أحيان أخرى قد ترجع أسباب المشكلة إلى مرحلة الطفولة فى حياة الوالد نفسه ، إلى توتر معقد فى مشاعره نحو أخيه أو أبيه ، مما يعوق الآن استمتاعه بصحبة طفله . لذا فإنه مما يستحق الجهد أن نزيل مثل هذه العقبات ، لا لمجرد أن نجعل حياة الأسرة أكثر بهجة وسروراً فى الحاضر ، بل لكى نقال أيضاً من احتمال أن ينقل الطفل النافر هذه المشكلة إلى أطفاله بدورهم فى المستقبل .

ثمة ناحية واحدة أخرى فى مشكلة المصاحبة ، قد يكون من المفيد أن نذكرها ، تلك أن بعض الآباء والأمهات الذين يحسون أن آباءهم كانوا يعاملونهم معاملة فى غاية الشدة والصرامة ، يتخذ رد الفعل عندهم لهذه المعاملة ، طابع الرغبة فى أن يصبحوا أساساً رفاقاً وأصحاباً لأطفالهم . لذا نجدهم يستخفون فى مرح بجميع الأنظمة المتبعة فى البيت ، ويحاولون أن يتحاشوا فى تربية أطفالهم ، لا لمجرد الغضب

والعقاب فحسب ، بل الحزم والتوجيه أيضا . إنى أحبذ بكل جوارحى أن نجعل الحياة العائلية سارة ومبهجة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وأعتقد أن أنجح الآباء والأمهات — مع أسعد الأطفال وأحسنهم سلوكا — لا يلجأون إلى العبوس أو التجهم على الإطلاق ، لأن من الواضح أنهم وأطفالهم يجدون متعة فى الحياة بعضهم مع بعض . لكنك إذا راقبت سلوك هؤلاء الآباء والأمهات عن كثب ، تجدين أنهم يقومون بدورهم كآباء أولا وقبل كل شىء . فهم لا يخشون على الإطلاق أن يوجهوا أطفالهم التوجيه اليومى المألوف ، وأن يلجأوا بين الفينة والفينة إلى التقويم الحازم الذى يحتاج إليه الأطفال جميعا ، وفضلا عن ذلك فإن فى وسع هؤلاء الآباء أن يعاملوا أطفالهم معاملة فى غاية الود والصداقة ، لأنهم آباء محبون تفيض قلوبهم بالحنان من ناحية ، ولأنهم بأسلوبهم فى تربية أطفالهم قد جعلوا منهم أطفالا لطاف المعشر يبعثون على الحب من ناحية أخرى . أما عندما يحاول بعض الآباء والأمهات أن يكونوا مجرد أصدقاء لأطفالهم لا أكثر ولا أقل ، خشية أن ينفر منهم الأطفال لو أنهم قاموا بدورهم كآباء ، فإنهم أحيانا ينتهى بهم الأمر إلى خلق أطفال مدللين مفسودين ، لا يبدون نحوهم أى شعور بالاحترام ، أو حتى بالود والصداقة . وأنتن حين تتأملن الأمر مليا ، تجدن أن المصاحبة السليمة تقوم عادة على الاحترام المتبادل ، سواء أكانت هذه المصاحبة داخل نطاق الأسرة أم خارجها .

٤

مشكلات سلوك الطفل الصغير

الطفل العدوانى

« إن معظم الحالات تبدأ بتوترات
نفسية فى داخـل الأسرة » .

تسأل الأمهات : « ما العوامل التى تجعل الطفل عدوانياً ؟ وما الذى يمكن عمله فى هذه الحالة ؟ » توجد إجابات عديدة شتى لهذا السؤال . فالإجابة عنـه تتوقف على المعنى الذى نقصـده من كلمة « عدوانى » ؛ لأن ما تعتبره إحدى الأمهات سلوكا عدوانياً مزعجاً ، قد تعتبره أم أخرى نشاطاً يدل على الصحة والحيوية .

وكثيراً ما يسأل دارسو التربية والطب وعلم النفس : « هل العدوان نزعة طبيعية فى الإنسان ؟ » والواقع أن الطبيعة قد وهبت كل إنسان القدرة على أن يسلك سلوكا عدوانياً تحت وطأة الشعور بالخطر على مختلف صوره ، أو رداً على عداء الآخرين له . فأكثر الأمهات رقة وعذوبة لا تتردد فى الهجوم على كلب يهدد طفلها . كما أن الرجال الذين تجيش قلوبهم بالشفقة والرحمة ، يمكن أن يتدربوا على القتل بين صفوف الجيش فى أثناء الحرب ، حيث يكون البديل الوحيد للقتل هو أن يقتلوا على أيدى الأعداء .

إن غالبية علماء النفس يستخدمون عبارة « نزعة العدوان الطبيعية » لتشمل الحافز أو القوة التى يفرغها الناس العاديون فى مجالات النشاط اليومى كالمباريات الرياضية والـكفاح فى ميدان العمل . من هذه الزاوية لا توجد أية نزعة شاذة فى العدوان ، ما لم يتطرف فيتجاوز حدود الموقف .

وأعتقـد — شأنى فى ذلك شأن أكثر المشتغلين بعلم النفس وأكثر الآباء

أيضاً — أن الأطفال يولدون وعنـدهم نسب متفاوتة من الحافز أو النزعة إلى العدوان ، وإن كان من الممكن أن تتغير هـذه النزعة كثيراً من أثر الخبرات التى يمر بها الأطفال فى مراحل النمو التالية . فالأمهات يعلقن أحياناً على النشاط المفرط الذى يتميز به أحد أطفالهن وهو بعد جنين فى الرحم ، ثم يستمر عليـه فى أثناء مرحلة الطفولة . وغنى عن البيان أن أحد الأطفال الصغار يبدو عليه الرضا والوداعة منذ الشهور الأولى ، على حين أن طفـلا آخر يبدى طبيعته النشطة ونفاد صبره منـذ بلوغه شهراً واحداً من عمره ؛ فهو يجاهد بكل قواه كى يرفع رأسه الثقيل فوق رقبته الصغيرة الواهنة ، كلما استيقظ من نومه فى طلب الطعام . وبعد شهرين ، يجاهد كى يشد جسمه للجلوس بمجرد أن تمسكى بيديه .

لقد كان من الأنسب لو أننا سمينا الطفل الوديع « الطفلة الوديعة » لأنى أشعر أن البنـات يمثان الجانب الأكبر من الأطفال الذين يتسمون بالرقة والوداعة .

* * *

تتفاوت النزعة الطبيعية إلى العدوان ، وكذلك صور العدوان المتطرفة ، فى مختلف مراحل النمو . ويبدو لى أن من بين النواحى الساحرة التى تستهوينا فى السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل ، أنه وإن كانت تثور ثائرته فى بعض الأحيان ، فإنه لا يصبّ جام غضبه على الآخرين فى العادة . بل إنه عند ما يبلغ سنة ونصف سنة ، ويدرك على وجه التحديد من هو الشخص الذى يثير ثائرته (حين تمنع عنه أمه شيئاً قابلاً للـكسر أو شيئاً ذا ضرر له) ، فإنه يفرغ غضبه فى نفسه وفى أرض الحجرة ، بأن يدق عليها بذراعيه وساقيه ورأسـه ، كما لو كان عنده رادع فطرى يمنعـه من الهجوم على الناس ، ولا يمكنه أن يتغلب على هذا الرادع إلا بالتدريج ، كلما ازدادت خبراته فى هذه الحياة العنيفة القاسية ، كما أن

الطفل فى سن ستة أو ثمانية أشهر يحرص عادة على ألا يعض حلمة ثدى أمه أثناء الرضاعة ، فى الوقت الذى يشقيه التسنين ، فيحاول أن يعض سياج مهده ، كى يحطمه تحطيما . أما إذا استسلم لإغراء العض فى بعض اللحظات ، فإن من الممكن فى غالبية الحالات أن تردعه أمه عن ذلك بكلمة حادة أو بأية وسيلة أخرى من وسائل التقويم . بل إن صغار القطط والكلاب يبدو فى سلوكها نفس الرادع الفطرى الذى نلمسه فى الطفل الصغير ، فهى تحب أن تلهو وتلعب كما لو كانت ستمزق بعضها بعضاً ، أو ستمزق أيدى الناس إرباً إرباً ، ولكن العجيب أنها تحرص على ألا تغالى فى هذا اللهو .

على أن الطفل الصغير عند ما يناهز سنة من عمره ، يجرب إيذاء الآخرين برفق ، فهو فى فترات كدره يسدد إلى عينى أمه نظرات حانقة ، ويشرع فى مد يديه نحوها ليشد شعرها ، أو يقترب من خدها رويداً رويداً وقد فغر فمه ليعضها . فيبدو فى هذه الحالة كما لو كان يحس بحافز يدفعه إلى الإيذاء ، لكنه فى نفس الوقت يدرك أن هذا السلوك يجافى طبيعته . والأم العاقلة تذكر طفلها على الفور بأنها لا تحب منه هذا السلوك ولن تسمح له به ، بأن تتراجع إلى الوراء ، أو بأن تردع يده أو فمه ، إن هو عاد إلى المحاولة . على حين أن أماً أخرى قد يكون فى مشاعرها شيء من الانحراف ، وعندها استعداد لأن تلعب مع طفلها الصغير لعبة « تؤذينى وأوذيك » فتدعه ينشب فيها أسنانه ، ثم لا تفعل شيئاً سوى أن ترسم على وجهها أمارات اللوم ، أو تتظاهر بالبكاء والنحيب . فيعود الطفل إلى تكرار فعلته بطريقة أعنف فى المرة التالية ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنانه ، فى شيء من « السادية »[1] .

---

(١) السادية صورة من صور الشذوذ الجنسى تتسم بحب القسوة ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى الكونت دى ساد . (المترجم)

هكذا يمكنكم أن تلمسوا أنى أومن بنظرية مؤداها أن الطفل دون سن الثالثة لا يهاجم الآخرين هجوماً عنيفاً ، ما لم يلقنه أحد هذا السلوك ، أو يشجعه عليه . وكثيراً ما شكت لى بعض الأمهات من أن طفلهن الأول يكون فى سن الثانية عاجزاً عن الدفاع عن نفسه ، حين يخطف الأطفال الآخرون لعبه أو يوقعونه على الأرض . وتبدو عليه فى هذه الحالة أمارات الحيرة والارتباك ، أو ينخرط فى البكاء ويهرع إلى أمه ، فيداخل الوالدين شعور بالقلق ، خيفة أن ينشأ الطفل خائراً مغلوباً على أمره . على أن الأمهات يقررن فى غالبية الحالات أن هذا الطفل حين يبلغ الثالثة من عمره ، يكون قد تعلم بالتجربة المريرة كيف يدافع عن نفسه .

لكنى لا أذكر أنى قد سمعت يوماً شكوى من هذا النوع بشأن الطفل الثانى فى الأسرة . فهذا الطفل عندما يبلغ الشهر الخامس عشر أو الثامن عشر من عمره ، يكون فى العادة قد تلقى كفايته من العقاب على يدى الطفل الأكبر الغيور ، بحيث يعرف عند الهجوم كيف يتشبث بمقتنياته كالموت العابس ، أو يضرب بها أخاه ، وهو يطلق صوته بالصراخ طوال الوقت ، فى طلب النجدة من أبيه أو أمه .

يبدو أن الطفل يميل بطبيعته إلى العض فى سن سنة أو سنتين كوسيلة أولى للدفاع أو الهجوم . غير أن دفع الغريم لإيقاعه على الأرض ، أو ضربه بجسم ثقيل ، من الأساليب الشائعة أيضاً فى هذه السن . وبعبارة أخرى ، فإن النزعة إلى العدوان التى تظهر فى مرحلة الطفولة المبكرة ، تتخذ مظهراً بدائياً ومباشراً . أما عندما يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة من عمره ، فإنك تلمسين فى سلوكه لأول مرة آثار المدنية والنضج . ففى هذه السن ، نجد أن الأطفال ذوى القلوب الطيبة غالباً ما يلجأون أولا إلى الاستفسار أو التفسير أو الاحتجاج ، بدلا من أن يعمدوا إلى الهجوم على الفور . والأهم من ذلك هو أن المشاعر العدوانية تتخذ

مظهر اللعب . فالطفل يمثل عادة دور راعى البقر الذى يطلق النار على الفتى الشرير ، أو دور المارد الذى ينقض على البيت فيحطمه تحطيما (البيت مصنوع من المكعبات الخشبية) ، أو يمثل دور رجل البوليس (يقود موتوسيكلا) وهو يطارد اللص . وهذا اللعب يمكن أن نسميه بكل بساطة « صمام الأمان » الذى يقى الطفل من الشعور بالعداء ، فهو تنفيس عن مشاعر الغضب التى كان من الممكن أن تتراكم فى نفسه نحو أبيه أو أخيه . كما أن هذا اللعب أبعد أهمية من ذلك ، فهو تدريب للطفل فى السيطرة على مشاعره ، كى تتمشى هذه المشاعر مع القواعد المتبعة فى عالم الكبار الذى قد بدأ يتولد عنده شعور بالاحترام نحوه .

على أن بعض الآباء والأمهات من ذوى الضمائر الحية يقلبون هذا الوضع ، فلا يشجعون اللعب بالمسدسات والبنادق فى الفترة ما بين سن الرابعة والثامنة ، خشية أن يؤدى هذا اللعب إلى أن يتبع أطفالهم أسلوب رجال العصابات أو يسلكوا سلوكا وحشياً فى حياتهم ، عندما يشبون عن الطوق . على حين أن اللعب بالمسدسات فى هذه المرحلة من عمر الأطفال ، إنما يمثل فى الحقيقة محطة على الطريق الذى يقطعونه أثناء تقدمهم نحو الحضارة .

والمرحلة ما بين سن الثالثة والسادسة هى الفترة التى يتعامل فيها غالبية الأطفال معاملة طيبة نسبياً مع آبائهم وأمهاتهم ، إذ يزداد إدراكهم لمدى الحب الذى يكنونه لهم ، وتتملكهم رغبة جارفة فى أن يكونوا مثلهم . على أن الغلام فى هذه المرحلة يشعر عادة نحو أمه شعوراً خاصاً بالحب الخيالى القائم على الرغبة فى التملك ، — كما تشعر البنت نحو أبيها — مما يؤدى إلى نشوء تيار خفى من المنافسة بين الابن والأب وبين البنت والأم . ولكن هذه المنافسة لا تطفو على السطح بطريقة ملموسة فى غالبية الحالات ، لأن الطفل يبذل قصارى جهده لكبت هذا

الشعور ، ولأن الوالدين يحافظان على العلاقة السليمة أحدهما مع الآخر ومع كل واحد من أطفالهما ، الأمر الذى لا يشجع كثيراً على احترام هذه المنافسة . غير أننا فى طائفة قليلة من الأسر التى اختلت فيها موازين الأمور ، نجد أن الأم قد تستبد بها الحيرة ، حين ترى ابنتها فى الرابعة أو الخامسة من عمرها ، وقد أصبحت تظهر لها العداء بصورة تبعث على الدهشة ، دون ما سبب واضح . (قد تحس الأم بطريقة مشابهة أنها قد أصبحت سماً زعافاً فى فم ابنتها أثناء مرحلة المراهقة ، التى يشتد فيها الشعور بالمنافسة حتى عن ذى قبل) . على أن الشعور بالعداء الذى يكنه الأبناء لآبائهم بسبب المنافسة ، لا يطفو على السطح كثيراً مثلما يحدث فى حالة البنات ، لأن الظاهر أن الأبناء بوجه عام يهابون آباءهم أكثر مما تهاب البنات أمهاتهن .

أما بعد سن الثامنة أو التاسعة ، فإن التمثيل الساذج لأدوار العداء يفقد شيئاً من سحره بالنسبة للأطفال ؛ ففى هذه المرحلة تدخل حياتهم المجلات الفكاهية وأفلام السينما والتليفزيون . كما أن أفلام رعاة البقر وقصص الجرائم تطلق العنان للخيال ، فتصور شتى أنواع العدوان الوهمية ، ثم تخضع المعتدين لعقوبة القانون فى نهاية القصة .

والفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة هى المرحلة التى نجد فيها أن طبيعة الطفل الآخذة فى النضج ، تجعله يحاول قمع الحوافز والنوازع التى يحس أنها خاطئة . فيسيطر سيطرة حازمة على رغبته فى التعبير السافر عن شعوره بالعداء ، لا سيما نحو والديه ، حتى ولو اتخذ هذا التعبير مظهر اللعب . فى حين أن الغلام ابن الرابعة قد يصوب مسدساً وهمياً نحو أمه ، ويكشر عن أسنانه قائلا لها : إنه سيقتلها رمياً بالرصاص . لكنه حين يبلغ التاسعة من عمره ، يكون ضميره قد أصبح حازماً فى ردعه ، لدرجة أنه يدفعه لأن يتخطى أى شق يصادفه فى طوار

الشارع ، لو أن مثل هـذه الفـكرة — فـكرة قتل أمه — عبرت خاطره فى لحة خاطفة .

وفى هـذه المرحلة لا يعود الطفل يحس بأن له مطلق الحرية فى الهجوم على أحد إخوته أو أخواته ، ما لم يتحرش به . إن الطفل فى هذه السن قد يحمل فى أعماقه شعوراً بالعداء يكاد يـكون نفس شعوره فى الماضى ، لـكنه رغم ذلك لا يشتبك فى معركة مع الآخرين إلا خطوة خطوة ، فيستفز خصمه بطريقة خفية كى يدفعه إلى هجوم مضاد عليه ، مما يحمل الطفل على الاعتقاد بأنه إنما يدافع عن حقوقه فى كل مرحلة من مراحل المعركة .

* * *

والآن نأتى إلى المشـكلة الأكثر تعقيداً ، مشـكلة الدور الذى تلعبه البيئة المحيطة فى التغيير من طبيعة النزعة العدوانية ودرجة شدتها . إن أهم العوامل بطبيعة الحال هو التوافق بين طبيعة الطفل وشخصية الأب والأم .

ذلك أن الوالدين يجب أن يتوافقا مع طبيعة الطفل الذى يرزقانه ، تماماً مثلما يجب عليه أن يتوافق معهما . غير أن بعض الآباء والأمهات يألفون البنات أكثر كثيراً من البنين ، على حين أن غيرهم يألفون البنين . كما أن البعض منهم بارع فى معالجة الطفل الخشن العنيف ، على حين أن غيرهم ينجح بصفة خاصة فى تربية الطفل الخجول الحريص بطبيعته . بل إنى لم أتحدث قط إلى إحدى الأمهات ، إلا وجدت أن أحد أطفالها يحيرها فى تربيته أكثر من طفلها الآخر .

إن الطفـل الذى يتميز بنشاطه المفرط غالباً ما يغرى أمه باتباع أساليب فى معاملته تزيد من نشاطه الزائد . وأذكر الآن طفلا نشيطاً ابن سنة ونصف سنة ، مـكثت أراقبه وهو يلعب فى إحدى الحدائق العامة ذات صباح ، فـكان بين

الفينة والفينة يهيم على وجهه متجهاً إلى الطريق العام ، أو يورط نفسه فى مواقف تعتقد أمه أنها تهدده بالخطر . لذا ظلت الأم تندفع وراءه ، وتجذبه بعنف عائدة به إلى الأمان ، وكان من الممكن أن تلاحظ كلما تقدم الصباح ، أن الطفل قد أصابه ضرب من الهوس من جراء كبتها المستمر له ، ففقد اهتمامه بكل شيء ، ما عدا شيئاً واحداً سيطر على تفكيره تماماً ، هو أن يندفع مبتعداً عنها ويتجه إلى الطريق. وبطبيعة الحال ، يمكنك أن تلمسى فى هذا الموقف ، لا مجرد حالة طفل يتدفق بالنشاط ، وأم تكبح جماحه ، بل يمكنك أن تتبينى أيضاً أن هناك نزعة مريضة بعض الشيء فى استعداد الأم للبقاء ساعتين فى ذلك المكان ، تاركة الموقف يتدهور إلى هذا الحد الذى بعث شعوراً بالخيبة والإحباط فى نفسها ونفس طفلها .

وكان فرويد هو أول من بيَّن لنا أن الصراع الذى يطول مداه بين الطفل والأم حول التدريب على استعمال المرحاض « التواليت » فى الفترة ما بين سنة وثلاث سنين ، يمكن أن يخلق كثيراً من الشعور بالعداء فى نفس الطفل سريع التأثر ، وقد يؤدى هذا الصراع فى بضع حالات إلى خلق طفل تظهر عليه النزعة العدوانية . على أنه فى غالبية الحالات نجد أن العلاقة السليمة التى تنشأ بين الأم والطفل فى النواحى الأخرى ، فضلا عن اعتزاز الطفل بحب أمه له ، وشعوره بالذنب حين يتحداها ، كل هذه العوامل تجعله يسيطر على شعوره بالعداء نحوها (ويسيطر على أمعائه أيضاً فى نهاية الأمر). ومن ثم فالأقرب إلى الاحتمال فى هذه الحالة هو أن ينتهى الأمر بالطفل إلى تكوين شخصية تجمع بين العناد المتطرف والشعور الحاد بالذنب ، بدلا من تكوين شخصية تجاهر بالعداء بصورة سافرة .

وقد كتبت لى إحدى الأمهات خطاباً ، بشأن الصعوبات التى

تعانيها فى تربية طفلها الثالث ، وهو غلام فى الرابعة من عمره . لقد كان طفلاها الأول والثانى من البنات ، إحداهما الآن فى الرابعة والعشرين ، والأخرى فى الثانية والعشرين ، وكانت تربيتهما سهلة ، بل ممتعة لها . وهى لا تتذكر أنها قد صادفت يوما أية مشكلات خاصة فى محيط الأسرة . ولكن ينبغى أن نأخذ كلامها هذا بشىء من التحفظ ، حيث إن الزمن يسدل ستاراً ورديا على مشكلات الماضى . ومع ذلك فلا بد أن البنتين قد ائتلفتا بوجه عام إيلافا حسناً مع البيئة ، بدليل أنهما أحرزتا نجاحاً رائعاً فى المدرسة والكلية ، سواء من الناحية الأكاديمية أو من الناحية الاجتماعية . على أن الأم فى خلال السبع عشرة سنة التى تلت مولد ابنتها الثانية ، راودها شىء من الشك فى بادىء الأمر ، ثم بالتدريج أصبح الشك يقينا ، أنها لن تنجب أطفالا آخرين على الإطلاق . وعند ما جاوزت الأربعين من عمرها ، كانت راضية كل الرضا عن حياتها المليئة بالنشاط الاجتماعى ، فضلا عن مصاحبتها لزوجها فى رحلات العمل التى يقوم بها إلى بعض الأماكن النائية . ولم تكن هى وزوجها يريان ابنتيهما إلا أثناء « الإجازات » ولفترات محدودة ، (كما يعرف معظم أولياء أمور طلبة الكليات) . وحين أنبأها طبيبها وهى فى الثانية والأربعين أنها حامل ، لم تصدقه فى بادىء الأمر ، ثم استولى عليها شعور بالقنوط والاستياء . لكنها كإنسانة واقعية استطاعت آخر الأمر أن تكيف تفكيرها وخططها بحيث تتلاءم مع الوضع الجديد . غير أنها فى أعماق مشاعرها ، لم تستطع قط — مهما حاولت — أن تتحمس للمولود القادم ، مما أضاف الشعور بالذنب إلى متاعبها الأخرى . ثم تبين لها أن المولود من أولئك الأطفال الذين يستبد بهم النكد بحيث يجعلون أشد الأمهات فرحاً وهناءة يشعرن بالغيظ والنفور . وكلما تقدم المولود الجديد فى مرحلة الرضاعة ، صار من الجلى أنه سيصبح من النوع القلق المتبرم اللحوح الذى لا يعرف التعب أو الكلل .

وبعد سنة ، حين دخل الطفل المرحلة التى يزداد فيها استقلاله عن أمه ، وجدته ينزع إلى الشقاوة والعصيان بصورة متزايدة . وهى تقول : إنها ظلت تواليه بالتوجيه ، وتجرب معه وسائل عديدة فى التأديب والتهذيب ، دون جدوى . وتقول أيضاً إنه أصبح مفرط النشاط فى سن الرابعة ، يسلك فى البيت سلوكا وقحاً مليئاً بالتحدى فى كثير من الأحيان ، ويخرب ممتلكات الجيران فى بعض الأحيان ، ويلحق الأذى بالأطفال الآخرين . إن هذه الحالة تنطوى على عوامل شاذة عن المألوف ، ولكنها تعطينا مثالا واضحاً يبين لنا أن الأطفال يسببون متاعب لآبائهم ، على قدر المتاعب التى يسببها لهم آباؤهم . فإنى أعتقد أن هذا الطفل قد ازداد سلوكه العدوانى لأن أمه تستفزه وتثير غيظه بسرعة انفعالها وحدة طبعها ، فضلا عن أن شعورها بالذنب يمنعها من ممارسة سياسة ثابتة فى السيطرة عليه . وعلى أية حال ، فقد اتخذت هذه الأم قراراً حكيما ، بأنها فى حاجة إلى بعض المساعدة من المتخصصين النفسانيين . فربما استطاعت أن تستفيد هى وطفلها من هذه المساعدة .

* * *

كما أن النزعة العدوانية قد تثيرها فى الطفل بعض العلاقات الأخرى فى محيط الأسرة . فغالبية الآباء الذين أنجبوا طفلين أو أكثر ، قد لمسوا أن الغيرة التى يحسها الطفل الصغير نحو المولود الجديد ، تثير فيه النزعة إلى العدوان . والطفل دون سن الثالثة عرضة بصفة خاصة لأن يظهر شعوره بالعداء بصورة سافرة ، ويوجهه إلى المولود فى شكل ضرب أو قرص أو ضغط عليه . لكنى أذكر قصة محددة واضحة المعالم تبين لنا كيف أن هذا الشعور بالعداء يمكن أن ينحرف إلى خارج نطاق الأسرة . كانت هناك طفلة عمرها سنتان ونصف سنة ، تذهب إلى إحدى مدارس الحضانة ، وهى مدرسة لا تسير على النظام المألوف ،

إذ تقبل أطفالا دون سن الثالثة . وعند ما ولد أخ للطفلة ، لم تبد نحوه أى عداء ظاهر فى البيت ، لـكنها بدأت على الفور تشن هجمات مفاجئة على الطفلين الوحيدين الأصغر منها سناً فى المدرسة . فعند ما كان أحدهما يقترب على بعد خطوات منها ، إذا بها تنقض عليه كالفهد ، وتغرس أسنانها فى ذراعه ، مما حدا بالمدرسة إلى تعيين إحدى الحاضنات « الدادات » للبقاء بجوارها ، لا لشىء سوى أن تمنعها من شن هذه الهجمات على الطفلين . ولـكن كان لا مناص من أن يتحول عنها انتباه الحاضنة آجلا أو عاجلا ، فتحدث عملية العض مرة أخرى .

وأنت بين الحين والحين قد ترين طفلا تعتريه نزعة إلى العدوان بصفة مؤقتة ، من أثر ضغط متطرف يقع عليـه خارج البيت ؛ كأن يتعرض مثلا لاستبداد مستمر من أحد أطفال الجيران ، أو يعانى من عجز شديد عن القراءة فى السنة الأولى بالمدرسة ، مما يجعله يحس فجأة بالقصور والغيظ ، وبأنه موضع الهزء والسخرية .

على أن غالبية حالات العدوان تبدأ من جراء توترات نفسية فى داخل نطاق الأسرة ، وينبغى إيجاد حل لها بالتخفيف من حدة هـذه التوترات . فى بعض هذه الحالات يحار الآباء تماماً فى معرفة موطن الداء ، وفى حالات أخرى يعتقدون أنهم يدركون جوانب المشكلة ، ومع ذلك فإن وسائل العلاج التى يطبقونها لا تجدى نفعاً . والتفسير الطبيعى لهذه الظاهرة هو أن السبب الرئيسى للمشكلة لا يتضح للآباء ، وهذه هى الناحية التى يستطيع متخصص خارج نطاق الأسرة أن يسهم فى إلقاء ضوء عليها ، لأنه لا يعيش فى قلب المشكلة .

إن خير الوسائل المباشرة لحل مشكلات السلوك هو أن تستشير الأم أحد أطباء الأطفال النفسانيين فى عيادته الخاصة ، أو تستشير إحدى عيادات توجيه

الأطفال النفسية ، لكن هذه الوسائل الميسرة لا تتاح إلا فى المدن الكبرى ، وأحياناً توجد بهذه العيادات قوائم بأسماء المرضى الذين ينتظرون دورهم فى العلاج . على أن هناك وسيلة أخرى ، وهى استشارة إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . (يمكن الحصول على اسم الجمعية المناسبة من مكتب الخدمات) ؛ ذلك لأن تدريب الإخصائية الاجتماعية وخبرتها يؤهلانها لأن تمنح الأمهات المساعدة التى يحتجن إليها فى حل معظم هذه المشكلات . أما إذا وجدت الإخصائية الاجتماعية أن الحالة تتطلب نوعاً مختلفاً من العلاج ، فإنها بحكم عملها تستطيع مساعدة الأم فى العثور على طبيب نفسانى ، أو إحدى عيادات التوجيه النفسى ، للقيام بالمهمة. وفى حالة تلاميذ المدارس غالباً ما توجد بالمدرسة أو بالمنطقة التعليمية وحدة للخدمات النفسية تبذل النصح للأمهات .

الطفل المتلكىء

« كلما أحس الطفل بالضغط عليه ، تمادى فى البطء » .

حين تشكو الأمهات من ظاهرة التسويف والتلكؤ فى الأطفال ، فإن أوصاف المشكلة غالباً ما تكون واحدة . وقد لمست من خلال خبرتى أنه وإن كان هناك بعض البنات المتلكئات ، فإن عدد المتلكئين من البنين يفوقهن كثيراً . كما أن الأمهات هن اللائى يجن جنونهن من هذه الظاهرة أكثر من الآباء فى الغالب . ومع أن بعض الأطفال يظهرون ميلا إلى التلكؤ والتوانى فى السنين التى تسبق التحاقهم بالمدرسة ، فإن المشكلة تزداد سوءاً فى العادة فى السنين الأولى من دخول المدرسة .

وهذه حالة تمثل المشكلة خير تمثيل : أم تتحدث عن ابنها البالغ من العمر تسع سنوات . إنها تبدأ حديثها بوصف المتاعب التى تلاقيها فى فترة الصباح . وهذه هى الفترة التى تحتاج فيها الأسرة إلى الإسراع بقدر الإمكان ، وهى أيضاً الفترة التى يكون فيها الطفل المتلكىء فى أسوأ حالاته ، إذ تقول الأم : إنها تضطر للتردد على حجرته مراراً كى تحثه على النهوض من الفراش . كما أنها تضطر أثناء إعدادها لطعام الفطور إلى مراجعته باستمرار كى تتأكد من أنه يرتدى ملابسه . وغالباً ما تجد أنه لا يرتديها ، فتذكره فى لهجة تزداد عنفاً شيئاً فشيئاً ، بأن يسرع فى حركته . فإذا ما حان موعد الفطور ، فربما تجده جالساً على حافة الفراش ، عارياً تماماً من ثيابه . والظاهر أنه قد بدأ منذ حين فى ارتداء أحد جوربيه ، لكنه تجمد فى هذا الوضع ، وعكف على قراءة كتاب فكاهى .

وعندما يصل إلى المائدة ، يكون قد تأخر طويلا عن موعد الفطور ،

لكنك لا تلمس من سلوكه أنه يحس بهذا التأخير ، فهو يستغرق فى أحلامه بين الفينة والفينة ويتناول طعامه بحركات متأنية بطيئة ، فتخبره أمه فى ثورة عارمة أنه سيتأخر عن موعد المدرسة ، أو قد تفوته سيارة المدرسة ، ومع ذلك لا يبدو عليه أنه قد سمع شيئاً مما تقول . وإذا كان له إخوة وأخوات يضطرون لانتظاره كى يذهبوا معاً إلى المدرسة ، فإنهم يضيفون إلى صياح الأم تحذيراتهم الصاخبة من التأخير . ولئن خرجوا من البيت بدونه ، أو رأى أن سيارة المدرسة قد وصلت ، فإنه قد يصطنع شيئاً من السرعة المفاجئة فى اللحظة الأخيرة .

ويتكرر نفس الموقف فى فترة الغداء . كما تنشأ المتاعب أيضاً فى فترة ما بعد الظهيرة أو فى عطلة نهاية الأسبوع ، إذا كانت هناك مهام يجب على الطفل أداؤها فى البيت ، أو مواعيد ينبغى للأسرة المحافظة عليها . فحين تكون الأسرة ذاهبة إلى مكان ما ، يأخذ الجميع أماكنهم فى السيارة قبل أن يصل هذا الطفل المتلكىء ، ويأخذون فى ندائه كى يسارع بالمجىء . وعادة ما تنشأ متاعب أخرى فى موعد النوم ؛ لأن الطفل المتلكىء لابد من حثه أكثر من المعتاد كى يغتسل فى الحمام ، ثم لابد من الصياح به مراراً كى يخرج من الحمام . بل إنه فى بعض الأحيان قد يتحصن داخل الحمام لفترات طويلة ، مما يبعث على الغيظ والغضب . أما إذا كان يحب القراءة ، فإنه قد يستغرق تماماً فى قراءة الكتب كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، كما لو كانت الكتب ملجأ يلوذ به من شتى صور الضغط التى يفرضها عليه المجتمع .

* * *

ما هى العوامل التى تؤدى إلى التلكؤ والمماطلة ؟ من الجائز أن المزاج الفطرى للطفل يلعب دوراً فى هذه المشكلة ، لكن هذا الرأى لم يثبت بصفة قاطعة . وتنشأ المشكلة أحياناً أثناء فترة التدريب على استعمال «التواليت» ، ذلك

لأن الكثيرين من الأطفال الصغار يدركون على حين فجأة ، فى وقت من الأوقات ما بين الشهر الثانى عشر والثامن عشر من عمرهم ، أن برازهم — الذى ظلوا حتى ذلك الحين يودعونه المرحاض أو « القصرية » دون تفكير عميق — يدركون أن هذا البراز إنما هو مسألة شخصية تخصهم وحدهم ، فهو نتاج تبرزه أجسامهم . ويمكن القول بأن الطفل يكتشف برازه ، مثلما يكتشف أجزاء أخرى من جسمه ، ويداخله شىء من الزهو به والشعور بملكيته له ، حتى إنه قد لا يعود مستعداً للتفريط فيه ، فيحتجزه فى أمعائه ، على الأقل ، طوال الفترة التى تحمله فيها أمه على الجلوس فوق مقعد «التواليت» . فإذا دأبت الأم على متابعته باستمرار فى عملية التبرز ، فإنه قد يتعلم بالمرانة أن يحتجز البراز ساعات بل أياماً . وعلى هذا النحو تتكون عنده عادة مقاومة الضغط عن طريق التسويف والمماطلة . فإذا ظلت أمه شهوراً عديدة تطالبه دائماً بالتبرز ، وقد استولى عليها الحنق والغيظ ، وآثر هو أن يستمر فى عناده بنفس الطريقة ، فإن أسلوب التسويف والمماطلة قد يصبح نمطاً دائماً فى سلوكه ، ويمتد إلى مواقف أخرى فى حياته ، إلى جانب الموقف الخاص بقضاء الحاجة فى «التواليت» .

على أن النزعة إلى التلكؤ والمماطلة قد تتولد عند طفل آخر ، دون أن يمر بأى صراع سافر مع أمه حول التدريب على استعمال «التواليت» . والظاهر أنه مما يساعد على نمو هذه النزعة ، اجتماع أم نشيطة ضجرة بطبعها مع طفل بطىء متأن بطبعه . لكن هذا الوضع لا يسبب متاعب فى أثناء السنة الأولى التى لا تفرض فيها أية مطالب على الطفل الصغير بأى حال من الأحوال . أما عندما يبلغ سنة أو سنتين من عمره ، فإن والديه يتوقعان منه أن يأتى إلى المائدة فى مواعيد الوجبات ، وأن يطعم نفسه بنفسه ، وأن يساير خطى أمه حين تمشى به إلى الملعب أو تتجول به فى أرجاء السوق . وهذه هى السن التى تكون فيها

حركات الطفل بطيئة ويتشتت انتباهه فى شتى الاتجاهات ، الأمر الذى يستنفد صبر الأم . والأهم من ذلك أنها السن التى فيها تلح عليه طبيعته أن يظهر استقلاله عن أمه ؛ إذ يحس أن من الواجب عليه أن يؤكد كرامته وحقوقه كفرد له كيانه ، لذا فهو يقول : « لا » كلما وجد أمامه موضوعاً للجدل ، حتى ولو كان هـذا الجدل حول أشياء يحب أن يفعلها . كما أنه بطبيعة الحال يأبى أن يسيطر عليـه الآخرون سيطرة صريحة سافرة ، ويصر على أن يحاول أداء حاجاته بنفسه — مثل ارتداء الحذاء — وإن كان من الجلى أنه لا يملك المهارة اللازمة لأدائها . بل إنه إذا تخلف كثيراً عن أمه أثناء سيرهما على الطوار وتوقفت كى تناديه ، فإنه قد يتوقف أيضاً عن المسير ، لـكنه يتظاهر بأنه لم يلحظ وقوفها . فإذا بدأت تعود أدراجها لتمسك به ، فإنه قد يتحرك مفلتاً منها فى الاتجاه المضاد .

إن الأم يستبد بها الغيظ من تلـكؤ الطفل ، وتتملـكها رغبة حادة فى حثه على الإسراع . على أن هذه المرحلة من عمر الطفل تقل مشقتها كثيراً بالنسبة لبعض الأمهات عنها بالنسبة لغيرهن . فالأم التى تأخذ الأمور ببساطة ، لا تحاول أن توجه الطفل حسب مشيئتها طوال اليوم ، ولا تقلق نفسها كثيراً بشأن صياغة شخصيته . فإن من طبيعة هذه الأم أن تعيش وتدع غيرها يعيش ، لذلك لا توجد مناسبات عديدة تدعوها إلى الاشتباك مع المتمرد الصغير . كما أن الأم التى تشق طريقها فى الحياة بسحرها ولباقتها ، تجد متعة فى استخدام ذكائها ومهارتها لتحمل طفلها على تلبية رغباتها . أما الأم التى لا تحس أنهـا ملزمة بالسيطرة على مشاعرها ، فإنها تنفجر فى طفلها الصغير العنيد بين الفينة والفينة عند ما يستبد بهـا الغيظ منه ، ثم تشعر بالراحة بعد ذلك وتتركه فى حاله .

وفى اعتقادى أن الأمهات اللائى يتسمن بنفاد الصبر وحب السيطرة أكثر من المعتاد ، ولـكنهن فى نفس الوقت يحاولن محاولة مخلصة السيطرة على أية

نزعة عدوانية يلمسنها فى أنفسهن ، هؤلاء الأمهات هن بصفة خاصـــة أكثر الأمهات عرضة لأن يوالين أطفالهن بالحث والضغط ، وبذلك ينمين فيهم النزعة إلى التلكؤ . وفى بعض الأحيان نجد أن الأم التى تحس فى أعماقها بالرغبة فى نقد تصرفات الرجال والتنافس معهم (ربما نتيجة توترات نفسية مع أب أو أخ أثناء مرحلة الطفولة) هى التى تكون أشد الأمهات ضجرا فى معاملة ابنها .

ومهما تكن الظروف التى تنشأ منها المشكلة ، فإن الأم الضجرة تراودها الرغبة فى حث الطفل عند ما يتلكأ . وكلما أحس الطفل بالضغط عليه ، تمادى فى البطء . وهى طريقة بارعة فى الدفاع عن نفسه ورد الهجوم ، فهو يؤكد بها حقه فى مقاومة السيطرة ، وفى نفس الوقت يرد هجوم أمه عليه بطريقة تثير غيظها بصفة خاصة ، دون أن يضطر إلى انتهاج السبيل الخطر ، سبيل تحدى أمه تحدياً سافراً (وهو السبيل الذى قد ينتهجه طفل آخر تكون سيطرة والديه عليه أقل حزماً وصرامة) ، فيبدو الموقف بينه وبين أمه كما لو كان كلاهما خائفاً من المجاهرة بالعداء السافر ، فالأم خائفة بسبب ضميرها الحى وسيطرتها على نفسها ، والطفل خائف لأنه يخشى أن يفقد حب أمه ، لذا فإنهما بدلا من ذلك يتفقان اتفاقاً صامتاً ضمنياً على أن يشتبكا فى معركة محدودة الأثر ، فهى لا تؤدى إلى الموت قط ، لـكنها لا تنتهى أبداً .

* * *

إن الوقاية أسهل كثيراً من العلاج ، ففى حالة ذلك الطفل ابن السنة ونصف السنة الذى عقد عزمه على أن يحتجز برازه فى أمعائه — حتى ينهض من فوق مقعد «التواليت» على أقل تقدير — قد تعتقد أمه الحائرة أنه ليس أمامها سوى سبيلين لا ثالث لها : إما أن تكف لأجل غير مسمى عن جهودها فى تدريبه على استعمال « التواليت » — وهو أمر لا يطاق من وجهة نظرها — وإما أن تبقى

الطفل جالساً على «القصرية» أطول مدة تحتمها الضرورة وتحثه على التبرز فى لهجة جادة أو حادة . إن الوسيلة الثانية أصدق تعبيراً عن مشاعر الأم من الأولى ، لكن العيب فيها هو أن أضعف الأطفال عزيمة يمكنه دائماً أن ينتصر على أمه فى هذه المباراة . على أية حال ، هناك وسيلة ثالثة لعلاج المشكلة ، هى أن تقول الأم للطفل كل يوم فى لهجة متفائلة مستبشرة ، وهى تنظف آثار الحادثة : «من الجائز أنك ستخبر ماما غداً حين ترغب فى قضاء حاجتك ، كى تفعلها فى التواليت كالأولاد الكبار» . وهذا ليس إصراراً منها على انتزاع شىء منه ، ولكنه مجرد اقتراح أنه يوماً ما سيرغب فى أن يسلك مسلك الكبار . على أن هذا الأسلوب لن يغير من تفكيره على الفور ، ما من شىء يمكن أن يغير من تفكيره على الفور . لكنه على أية حال سوف يؤدى إلى نتيجة أسرع مما لو ألحت عليه الأم فى لهجة حادة عابسة. ومع أن هذه النصيحة تبدو منطقية إلى حد بعيد ، فإن من العسير تنفيذها على أولئك الأمهات اللائى يعتبرن أن عناد الطفل وتبرزه فى ثيابه هما أسوأ تصرفات تثير الغيظ فى سلوكه .

أما فى حالة الطفل ابن السنتين الذى يدأب على التلكؤ فى الطريق إلى السوق ، فإن هناك وسائل عديدة لعلاجه ، بدلا من حثه على الإسراع . لو أن الأم مضت قدماً فى طريقها إلى الأمام ، فإن الطفل يتبعها فى العادة رغم كل وقفاته وجولاته الجانبية ، تماماً كما تتبع صغار البط البطة الأم . غير أن هذا النوع من المسير يثير بصفة خاصة شعوراً بالخيبة والإحباط فى نفوس بعض الأمهات ، لذا فإن الوسيلة العملية فى هذه الحالة ، هى أن تضع الأم طفلها على حين فجأة فى عربته الصغيرة ، وتدفعه بسرعة على طول الطريق ، مرجئة جولة المشى إلى وقت آخر من اليوم لا يكون فيه ما يدعو إلى العجلة ، أو تتركه مع إحدى الجارات .

ولكن لنفرض أنه قد سبق السيف العذل ، بمعنى أن الطفل قد بلغ الآن السابعة أو الثامنة من عمره ، وأصبح عريقاً فى المماطلة والتلكؤ ، ذلك أن كفاح الطفل فى الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة للحصول على مزيد من الاستقلال عن والديه وتدبير أمور حياته بنفسه ، يبدو أنه يثبت فيه النزعة إلى استخدام المماطلة كسلاح يشهره للدفاع عن نفسه فى كل الظروف . وفضلا عن ذلك فإن ضرورة النهوض من الفراش وتناول الفطور ، والذهاب إلى المدرسة ، تثير له كل صباح — فى خمسة أيام من الأسبوع — أزمة لا يمكنه أن يتفاداها بنفس الطريقة التى اعتاد أن يتفادى بها بعض المواقف المزعجة فى المرحلة التى سبقت التحاقه بالمدرسة .

إن خير خطة أعرفها لعلاج هذه الحالة (ولا أعنى بذلك أنها ستحقق الهدف يقينا) تتكون من شقين :

الشق الأول : هو أن يتجنب كلا الوالدين التدخل فى الموقف بقدر الإمكان ، كى يتيحا بذلك الفرصة المثلى لأن يصبح شعور الطفل بالواجب وإحساسه بالزهو بشأن الذهاب إلى المدرسة فى الميعاد ، هو الحافز الذى يدفعه إلى الإسراع . على أن الآباء والأمهات الذين ظلوا شهوراً عديدة يحثون أطفالهم ويتوعدونهم بالويل والثبور دون جدوى ، يؤكدون تأكيداً قاطعاً أن الطفل لا يراوده مطلقاً أى شعور بالعجلة بشأن الذهاب إلى المدرسة . لكن هذا ليس صحيحاً فى جميع الحالات . فنحن نجد أن تسعة وتسعين فى المائة من الأطفال الذين نشأوا وسط أسر تخلص فى أداء الواجب ، يهابون القوانين المدرسية إلى حد بعيد ، وعندهم حساسية شديدة من ناحية استهجان رفاقهم فى الفصل لتصرفاتهم واستهزائهم بهم فى حالة التأخير عن موعد المدرسة . لكن السبب فى أن هذه الظاهرة لا تبدو فى حالة الطفل المتلكىء ، هو أن الشد والجذب بينه وبين

والديه ، والضجة التى تثار فى البيت كل صباح ، يشغلان باله تماماً ، بحيث لا يكاد يجد ، حتى اللحظة الأخيرة ، فسحة من الوقت للتفكير فى موعد المدرسة .

وعند ما يستقر الرأى على أن يفتح أفراد الأسرة صفحة جديدة فى حياتهم ، فإن من الحكمة فى هذه الحالة أن يحاولوا الإفادة من هذا الموقف إلى أقصى حد ، عن طريق عقد اجتماع ودى بينهم . تستطيع الأم أن تقول فيه للطفل : « لقد وجدت أن من الحماقة أن أظل ألاحيك « أناقرك » وأنا كفك فى كل لحظة بشأن النهوض من الفراش والاستعداد للمدرسة . لابد أن هذا المسلك منى يثير غيظك ويدفعك إلى التمادى فى البطء ، كما أنه يرهقنى أنا كذلك بطبيعة الحال . لذلك سوف أحاول أن أهتم بعملى فقط وأدعك أنت تهتم بعملك . سوف أناديك مرة واحدة فحسب ، ثم أدعك أنت تقوم ببقية المهمة » . على أن هذا الأسلوب لا يؤدى فى معظم الحالات إلى إصلاح حال الطفل بين عشية وضحاها ؛ فالواقع أن الطفل الذى تطورت فيه نزعة التلكؤ والمماطلة إلى درجة حادة ، لابد فى العادة من أن يختبر نوايا والديه إلى الحد الأقصى ، لذا فإن « الصبحيات » القلائل الأولى التى تعقب إبرام الاتفاق بينه وبينهما ، ستكون عذاباً أليماً لهما . ولزاماً على الأب أو الأم الأميل إلى الصبر أن يقدم التشجيع المعنوى لرفيقه النافد الصبر ، كما أنه قد يضطر فى الواقع إلى كبح جماحه — أو جماحها — باستخدام شىء من العنف الرقيق الرفيق . ومن المحتمل فى الأيام الأولى أن ينزل الطفل مهرولا إلى الطابق السفلى ، لمغادرة البيت فى اللحظة الأخيرة بالضبط . وهذا فى حد ذاته نجاح كبير للخطة كنقطة البداية . ولكن لنفترض جدلا أن سيارة المدرسة فاتته ، فما الحل فى هذه الحالة ؟ الحل هو أن أدعها تفوته ، وأحرص على ألا أوجه إليه لوماً أو تعنيفاً ، بل إنى بدلا من ذلك أحاول أن أبدى تعاطفى معه ، لأن الهدف من الخطة هو الأخذ بيده لا الأخذ بالثأر منه . (أظن أن هذا شىء عسير عليك فى أول الأمر ، لأنك معتادة أن تذكريه

بواجبه دائماً) . ولئن توسل إلىّ أن أصحبه إلى المدرسة فى سيارتى الخاصة ، فإنى أوافق على ذلك فى التو ، لكنى أذكره فى نفس الوقت بأنه لو اعتمد على اصطحابى له فى السيارة كل يوم ، فإن هذا لن يساعده قط على أن يتعلم كيف يدبر شئون حياته بنفسه .

فالأمل المعقود على هذه الخطة هو أن الطفل سيقتنع بمرور الأيام أن الضغط قد رفع عنه ، فيمكنه بالتدريج أن يتخلى عن الهدف الذى ينشده من هذا الصراع .

فلننتقل الآن إلى الشق الثانى من الخطة ، ومن الممكن أن يطبق جنباً إلى جنب مع الشق الأول ، أو أن يحل محله إذا لم يكن هناك ما يدل على أن الوسيلة الأولى تحقق الهدف المنشود . ويتوقف هذا الجانب من الخطة على أن يتولى الأب أو الأم الأميل إلى الصبر معالجة أمور الطفل المتلكئ فى المواقف التى تكون فيها المشكلة هى التلكؤ والمماطلة . وبطبيعة الحال ، فإن هذه الوسيلة لن تجدى نفعاً إذا كان كلا الوالدين قد فقدا صوابهما من جراء مسلك الطفل ، أو إذا وجد الوالد الذى يتولى المهمة أن صبره سرعان ما يتلاشى من أثر استفزاز الطفل . على أنه فى معظم الأسر ، يستطيع أحد الوالدين أن يتشبث بمزيد من الصبر ، ويتجاهل مماطلة الطفل وتلكأه . وفى هذه الحالة قد يستطيع الوالد أن يغير من طبيعة الجو الذى يسود البيت فى فترة الصباح ، عن طريق « الدردشة » مع الطفل من غرفة إلى غرفة ، أثناء ارتدائه لملابسه وتناوله لطعام الإفطار .

هل من السليم أن نمنح الطفل جائزة شهرية مقابل أن يسجل رقماً قياسياً فى السرعة ؟ قد يتضح أن هذه الوسيلة من مواطن الزلل ، إذا أصبحت مجرد ذريعة جديدة يتذرع بها الوالدان لحث الطفل على الإسراع : « تذكر أنك لن تحصل على جائزتك إذا تأخرت عن موعدك » ومع ذلك فقد رأيتها تستخدم بنجاح ،

إلى جانب غيرها من الوسائل الأخرى ، على أيدى بعض الآباء والأمهات الذين لا يتسمون بالصبر .

كما أنى أعرف بعض الأسر التى يسبب فيها تلكؤ الأطفال أثناء تناول الطعام كدراً شديداً لأحد الوالدين ، بحيث ثبت أنه مما يستأهل الجهد أن تقدم الوجبات للأطفال على انفراد ، مهما يكن فى ذلك من تعب ومشقة .

أما إذا استمرت المشكلة فترة تتجاوز الحدود المعقولة ، رغم كل الجهود التى تبذل لمعالجتها ، فإن من الأفضل أن يطلب الوالدان المساعدة من أحد المتخصصين فى سبيل راحتهما وراحة الطفل على حد سواء .

الطفل كثير العويل « البكّاء »

« إن الطفل والأم يتخبطان
معاً في حلقة مفرغــة »

أعتقد أن ظاهرة العويل أكثر شيوعاً فى حوالى سن السنتين أو الثلاث السنين من عمر الطفل . لكنى أذكر حالتين من الحالات السيئة ، لمستهما فى طفلين صغيرين دون سن السنة . كما أن هناك قلة من الناس يدأبون على العويل حتى فى سن الشيخوخة .

من الجدير بنا أن نحاول أولا تفسير ظاهرة العويل فى هذين الطفلين الصغيرين ، لأن المفروض أن نفسية الطفل الصغير أقل تعقيداً من غيره . ففى حالة الطفل الأول — وهو غلام — نجد أن الوالدين قد استبد بهما الفرح حين رزقا به ، لأنهما ظلا سنين عديدة يتشوقان إلى إنجاب طفل . فدأبا — حين رزقا به — على حمله وملاعبته معظم ساعات يقظته ، لذا أعتقد أنه كان هناك شيء من التدليل البسيط فى تربيته منذ البداية ، فقد اعتاد الطفل أن يسليه والداه باستمرار ، ومن ثم فقد شيئاً من قدرته على تسلية نفسه بنفسه . لكنه عند ما ناهز سنة من عمره ، بدأ يطالبهما بألوان من التسلية أكثر تشويقاً وإمتاعاً — لساعات أكثر أثناء النهار — بحكم ميله إلى البقاء مستيقظاً لفترات أطول من ذى قبل ، فضلا عن تطور اهتماماته ، فبدأ هذا الاتجاه عنده يستنفد صبر الأم . على أن هناك عاملا آخر أدى إلى نفاد صبرها ، ذلك أن الحافز الذى يدفع الوالدين إلى تدليل الطفل والتدله فى حبه ، يتناقص تدريجياً كلما كبر الطفل فتجاوز حالة العجز التام التى تلازم مرحلة الطفولة المبكرة . وإذا لم يكن ذلك كذلك ، لظل

الآباء والأمهات يتحدثون حديثاً طفلياً إلى أطفالهم ، ويربتونهم بلطف تحت ذقونهم ، ويطعمونهم من زجاجات الرضاعة ، ويحملونهم على أكتافهم من مكان إلى آخر ، حتى بعد أن يبلغوا السنة الثانية والثالثة من أعمارهم .

وقد اعتاد هذا الطفل الصغير ، حيثما كان جالساً ، أن يمد ذراعيه إلى أعلى ويأخذ فى العويل ، كى تحمله أمه ، فتحاول الأم أن تتجاهله ، غير أن حالة الغيظ والنكد التى تنتابه ، تجعلها بعد برهة تحس بعدم الارتياح ووخز الضمير ، فتحمله وتلاعبه بضع دقائق ، ثم تحاول أن تنزله مرة أخرى ، فيعود إلى مد اليدين والعويل على الفور . وبالتدريج ضعفت قدرة الأم على الاحتمال ، وأحست فى أعماقها بالحنق والاستياء من مغالاة الطفل فى مطالبه . لكنها كانت حية الضمير — وتنقصها التجربة — بحيث تعذر عليها أن تعترف بشعور العداء الذى كان ينمو فى أعماقها ، ولذلك ظلت تكبت هذا الشعور دائماً وتخضع لرغبات الطفل .

وفى اعتقادى أن الطفل الصغير — حتى فى سن عشرة أشهر — يلمس شعور أمه بالغيظ رغم محاولتها إخفاء هذا الشعور عنه ، مما يبعث فيه شعورا بالغضب والقلق . وهذا المزيج من مشاعر الغضب والقلق يدفعه إلى مطالبتها بالمزيد من الانتباه والاهتمام به . كما أنه يدرك أيضا مدى السلطة التى يفرضها عليها ، بمعنى أنه يعرف إحساسها بأنها ليس من حقها أن تعترض على مطالبه المتطرفة ، مما يشجعه على التمادى فى طغيانه . وهكذا تتخبط الأم والطفل معا فى حلقة مفرغة ، فهو لا يتمالك نفسه من الاستمرار فى مناكفتها ، وهى لا تستطيع أن ترفض مطالبه ، لكنها فى نفس الوقت لا تستطيع أن تشعر نحوه بالود .

أما الحالة الثانية فهى حالة طفلة فى الشهر الثامن من عمرها ، كانت قصة حياتها أكثر تعقيداً من قصة الطفل الأول ؛ فقد ولدت هذه الطفلة بعد سنة

واحد فقط من زواج والديها ، ولم يلبث أبوها أن جند فى الجيش بعد مولدها مباشرة ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فظلت أمها — وهى إنسانة قلقة بطبعها — تعيش شهورا عديدة على مقربة من معسكرات الجيش ، وقد استبد بها الخوف من اليوم الذى يرحل فيه زوجها إلى ما وراء البحار . وبعد أن رحل زوجها ، عاشت مع طفلتها حياة مغلقة منطوية على نفسها ؛ إذ لم يكن لها من أقرباء يناسب أن تعيش معهم .

كان رد الفعل عند الطفلة لكل هذا التوتر فى محيط الأسرة ، أنها أصبحت إنسانة قلقة تغالى فى مطالبها أكثر من المعتاد ، وتحمل سيماء عجوز شمطاء يتملكها القلق والغضب والنكد ، فكانت أمها تضطر إلى حملها طوال النهار وإلى ساعة متأخرة من المساء ، حتى وهى تطهو الطعام وتقوم بغسل الثياب وكيها . وكانت الطفلة تأبى أن تلمسها إحدى مرافقات الأطفال ، أو أن تدع أمها تغيب عن ناظريها ، حتى يغلبها النوم آخر الأمر فى حوالى العاشرة أو الحادية عشرة مساء . لذا لم تكن الأم تحظى قط بلحظة تنعم فيها بالراحة ، لأن عويل الطفلة وإن كان خافتا شارداً فى بعض الأحيان ، وعالياً مستبداً فى أحيان أخرى ، لم يكن يتوقف لحظة على الإطلاق .

وأغلب ظنى أن الأم قد راودها منذ البداية شعور واضح بالاستياء من هذه الطفلة التى خرجت إلى الحياة بهذه السرعة ، وعقدت لها حياتها الزوجية التى لم تستمر سوى أمد قصير . ولا بد أن الأم قد راودها أيضاً شعور حاد بالاستياء من استبداد الطفلة المتزايد ، لكنها أحجمت عن أن تعترف بهذا الشعور ، وأذعنت لجميع رغباتها دون اعتراض .

إن هذه الحالة الثانية أكثر تطرفا من الأولى ، لكنى أعتقد أنها تبين لنا بصورة أوضح نفس النموذج الذى نلمسه فى كثير جدا من حالات العويل :

نموذج الطفل الذى يدأب دائما على مطالبة أمه بمطالب أكثر مما يمكنها أن تستجيب له ، فتحس الأم بالاستياء فى دخيلة نفسها ، لكن شعورها الحاد بالذنب يمنعها من الاعتراض عليه . كما أن إدراك الطفل لشعور الغيظ الذى ينتابها ، وإدراكه لمدى سلطته عليها ، يدفعانه إلى التمادى فى وخزها بمطالبه .

على أن الموقف قلما يكون بهذا العنف فى حالة الطفل الذى بلغ الثانية أو الثالثة أو تجاوزها ؛ ذلك لأن هذا الطفل يمكنه أن يمضى بنفسه إلى بعض الأماكن دون مساعدة من أحد ، وتلهيه جانبا من الوقت الأشياء المختلفة المنتشرة فى أرجاء البيت ، ومجالات النشاط هنا وهناك ، فضلا عن صحبة الأطفال الآخرين خارج البيت . لذا فإننا فى هذه السن نرى حالات العويل الهينة التى لا تنشأ إلا فى ظروف خاصة ؛ كحالة الطفل الذى لا يحس بأنه محتاج إلى المزيد من اهتمام أمه إلا عند ما يجدها مستغرقة فى حديث مع أحد الناس فى الطريق أو فى حديث تليفونى ، أو الطفل الذى يدأب على العويل فى الأيام الممطرة ، أو ذلك الذى يعول لأنه يفتقد صديقا من خيرة أصدقائه يكون قد رحل بعيدا ، أو ذلك الذى يردد دائما : « لا يوجد شىء أفعله » . أو : « ماذا أفعل الآن ؟ » .

* * *

وفى اعتقادى أن عويل الأطفال يسبب نوعين من رد الفعل عند الأمهات، مع شىء من التداخل بينهما . فهناك أم يتجلى فيها ضبط النفس والشعور الحاد بالواجب . ومثل هذه الأم تستطيع دائما الاحتفاظ بطابع الود على قسمات وجهها ونغمة الصبر فى نبرات صوتها ، حتى بعد أن يستفزها الطفل ساعات طوالا . على حين أن أما أخرى قد يبدو عليها الكدر ، بل الغضب من جراء عويل الطفل ، ومع ذلك، يمكنك أن تتبينى أنها لا تظهر أى نوع من السيطرة فى محاولة

وقف هذا العويل . ومن ثم فالاختلاف بين هذين النوعين من الأمهات هو — أساسا — اختلاف فى درجة ضبط النفس .

أذكر أننى منذ أعوام مضت ذهبت مع أسرة غير أسرتى فى رحلة استمرت طوال اليوم ، فكدت أفقد صوابى من جراء العويل المستمر الذى دأب عليه ابنهم البالغ من العمر خمس سنوات ، بل وزاد من توتر أعصابى تلك الطريقة الصابرة التى انتهجتها الأم فى السماح للطفل بالاستمرار فى هذا العويل ، مع أنها لم تكن بطبيعتها من الأشخاص الضعاف المتهاونين أو الذين يصبرون على الشقاء طويلا ، فى علاقاتها الأخرى مع الناس . بل إنها فى الواقع كانت تسيطر سيطرة كاملة على ابنها وابنتها الآخرين ، وتحملهما على إطاعة أوامرها بمنتهى الدقة ، وتحرص على ألا يسببا أى مضايقة للآخرين . كان من الجلى أن هناك خطأ ما فى العلاقة بينها وبين طفلها البكاء دون غيره من أطفالها ، مما كان يمنعها من إبداء أى شعور بالاستياء من سلوكه ، ويجعلها تثابر فى صبر عجيب على إجابة مطالبه التى تتسم بالأنانية ، والرد على شكاياته السخيفة التى لا معنى لها . وكان من السهل علينا أن نرى أن هذه المطالب لا تهمه كثيراً فى الواقع ، لكنه يختلقها اختلاقا لمضايقة أمه . كما كان من الجلى أيضاً أن علاقة العويل تربطه بأمه فقط دون غيرها ؛ إذ لم يظهر شيئا منه نحو أبيه أو أخته أو أخيه .

إن المعنى الضمنى الذى أشير إليه فى هذه الأمثلة ، هو أن أى أم يمكنها أن توقف الطفل عن العويل على جناح السرعة ، ما لم يشل قدرتها على العمل — أو يعم بصيرتها — نوع من الشعور بالذنب . قد أكون مبالغا فى هذا الرأى ومغاليا فى تبسيط المسألة بعض الشىء . بل إنى واثق من أنى أبالغ فى الواقع ، ومع ذلك فإنى بوجه عام أتمسك بهذا القول . فجميعنا نحن الآباء ندع طفلنا يعول شاكياً لنا ، أو بنا كفنا فى بعض الأحيان ، لأننا قد نرفض له مطلبا

بشأن رحلة ما ، أو متعة ما ، أو امتياز ما ، يرغب فيه ، ثم نبدأ بعد ذلك نسائل أنفسنا عما إذا كنا قد تسرعنا فى هذا الرفض ، فيحس الطفل على الفور أننا نشك فى سلامة تصرفنا ، ويشرع فى العمل على تحطيم مقاومتنا . أو أننا قد نتعنت فى معاملة الطفل دون وجه حق ، ربما بسبب ثورتنا على شخص آخر أو على أنفسنا ، ومن ثم نسمح له — دون أن نعى — بأن يبكى معولا برهة من الزمن ، أو أن يسلك سلوكا وقحا ، أو أن يعصى بعض الأوامر .

أما عند ما نكون متزنين وواثقين فى دخيلة نفوسنا بأننا نمنح أطفالنا كفايتهم من الحب ، وأننا نعاملهم معاملة عادلة ، فإننا فى هذه الحالة نسيطر عليهم دون كبير عناء ؛ إذ يكون أسلوبنا معهم وديا ولكنه حازم فى نفس الوقت ، وهذا الأسلوب يبعث فيهم شعوراً بالارتياح والرضا ، ويخلق عندهم الرغبة فى إرضائنا . ومن ثم فإننا حين نضطر لتنبيههم إلى ما ينبغى وما لا ينبغى عمله ، تبدو أوامرنا عادلة فى نظرهم ، لأن نبرات صوتنا لاتنم عن رغبة دفينة فى الإيذاء أو شعور كامن بالذنب ، كما أنهم حين يشرعون فى العويل على أمل أن نخضع لهم فى مطلب غير معقول ، ثم نقول لهم : « إننا لا نريد شيئا من هذا العويل » فإنهم يدركون من اللهجة الواثقة المطمئنة التى نعمد إليها فى كلامنا ، أن من الأفضل أن يوفروا على أنفسهم الجهد الذى يبذلونه فى العويل .

أما عند ما تتأصل نزعة العويل فى الطفل شهرا بعد شهر ، فإن الأم التى تبحث عن حل للمشكلة ينبغى أن تضع فى اعتبارها احتمال أن يكون إحساسها اللاشعورى بالذنب والغضب هو الذى يمنعها من السيطرة على الطفل بطريقة معقولة . وهو أمر يدعو إلى الأسف الشديد ؛ لأن هذه المشاعر تحرم الأم والطفل من الاستمتاع بالحب المتبادل بينهما الذى من حقهما أن يستمتعا به .

ويصعب كثيراً على الأم أن تكتشف أصل هذه المشاعر ، عند ما تكون

متأصلة فى نفس الطفل ، مما لو كانت مجرد مشاعر مؤقتة ليست لها صفة الدوام ، ذلك أن جذورها فى هـــذه الحالة قد ترجع إلى بعض المشكلات فى مرحلة الرضاعة ، كما رأينا فى حالة الطفل الصغير الذى أفسدته فرحة أمه بمولده إلى جانب نقص خبرتها فى تربية الأطفال . بل إن هذه الجذور قد تمتد إلى أبعد من ذلك ، إلى مرحلة الطفولة فى حياة الأم نفسها ، إلى شعور بالتوتر بينها وبين أمها أو أخيها أو أختها أثناء هذه المرحلة . وأنسب مكان يمكن أن تتجه إليه الأم فى طلب المساعدة على حل هذه المشكلة — شأن أى نوع آخر من مشكلات الأسرة التى يستعصى حلها — هو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة .

والآن دعونى أعد برهة إلى اعترافى بأنى قد غاليت فى تبسيط الموضوع . لقد كنت أشرح لـكم نمط السلوك الذى أعتقد أنه يسبب ظاهرة العويل فى غالبية الحالات . على أن هناك اضطرابات انفعالية أخرى يمكن أن تسبب هذه الظاهرة . كما أن لها أيضاً أسباباً جسمانية فى بعض الحالات ، إذ قد تنشأ مثلا عن مرض السيلياك celiac (يسمى أحياناً عسر الهضم للنشويات) ، وهو مرض مزمن يبدأ فى حوالى سن السنة من عمر الطفل ، يتميز بالبراز المائع كريه الرائحة ، وعادة ما يصحبه تهييج انفعالى .

لذا يستحسن أن أنهى حديثى حول هذا الموضوع ، بنصح الأمهات أنه إذا أصبح الطفل كثير العويل ، فإن عليهن بحث الحالة من الناحيتين الجسمانية والانفعالية على السواء .

الطفل ضعيف « الشهية »

« إن مشكلة التغذية لا تخضع للعقل والمنطق »

كتبت إلى إحدى الأمهات تقول : « إن مشكلتي متعلقة بمسألة تناول الطعام ؛ تلك المشكلة التي اكتشفت خلال واحد وعشرين شهرا قضيتها كأم، أنها تقلق بال طائفة كبيرة جدا من الأمهات ، على اعتبار أنها أسوأ مشكلة يطول مداها وتثير الغيظ ، من بين المشكلات العديدة المتصلة بتربية الطفل . لأن طفلي ما كاد يتجاوز سنته الأولى حتى تحول فجأة تحولا شاملا ، فبعد أن كان يتناول كل شيء وأي شيء يستوعبه فمه الصغير ، أصبح كل ما يتناوله من طعام في هذه الأيام لا يزيد إلا قليلا عن شيء من اللحم والفواكه والخبز. لقد سمعت أن بعض الأطفال الصغار يسيرون على خطة ثابتة لا تتغير ، فلا يأكلون سوى صنف معين من الطعام لمدة أيام بل أسابيع متصلة . ولكن طفلي قد سار على هذه السياسة ما يزيد عن ثمانية أشهر حتى الآن ، ورغم أنه يتناول نقط الفيتامينات يوميا ، فإني أسائل نفسي : إلى أي مدى سوف يمكنه أن يظل محتفظا بصحته وعافيته وهو لا يتناول سوى هذا الغذاء المحدود » .

« ما هو واجب الأم في هذه الحالة ؟ هل يجب عليها أن تحرص قبل كل شيء على أن تكون فترة الأكل فترة سعيدة بالنسبة للطفل الصغير ، فلا تقدم إليه سوى صنوف الطعام التي يستسيغها ؟ أو ينبغي لها أن تصر (عن طريق التوسل تارة وإبداء الغضب تارة أخرى) على أن يتذوق على الأقل صنفا جديدا بين الفينة والفينة ؟ » .

أظن أن هذه الأم صاحبة الخطاب إنما تقتبس مني بعض كلماتي — في شيء

من الغيظ والسخرية — حين تقول : « يجب على الأم أن تحرص قبل كل شيء على أن تكون فترة الأكل فترة سعيدة بالنسبة للطفل الصغير ، فلا تقدم إليه سوى صنوف الطعام التى يستسيغها » . وأنا أوافقها على أن الأم حين يضنيها القلق بشأن الغذاء الهزيل غير المتوازن الذى يتناوله طفلها ، فإنها لا تكون فى حالة مزاجية تؤهلها لخلق جو من السعادة فى أثناء فترة تناول الطعام ؛ إذ لا يقتصر الأمر على شعورها بالقلق واللهفة ، بل إنها أيضا لا تمالك نفسها من الغضب . فهى تشترى طعاما لذيذا شهيا وتطهوه وتقدمه للطفل ، ثم يأتى هذا « المفعوص » الصغير صلب الرأى فيشيح بوجهه عنه يوما بعد يوم . وهى تعلم أنه لا يعانى من حساسية بالنسبة لكل هذه الصنوف من الطعام ، ولا يحمل لها كراهية فطرية ، إذ كان يقبل على تناولها فى سعادة منذ شهور معدودات .

ومن الجائز أن شعورها بالقلق لا يقتصر على صحة الطفل وسلامته — وفيهما الكفاية من دواعى القلق — بل إنها تحس أيضاً بالقلق مما قد يقوله زوجها وأمها وطبيبها وجيرانها ، وما قد يظنونه بها ، حين يرون الطفل يزداد نحافة على مر الأيام . فهذا الطفل يمكنه أن يجعل منها موطناً للهزء والسخرية ، بمجرد أنه يشيح بوجهه عن الطعام فى هدوء تام قائلا : « لا » . وما من شىء فى الواقع يمكنها أن تفعله كى تحوله عن رأيه ، فرغم أنها قد تحس بالرغبة فى أن تنقض عليه ، وتهزه هزاً عنيفاً ، وتعطيه « علقة طيبة » على ردفيه ، أو على الأقل أن تصيح فى وجهه غاضبة ، إلا أنها تدرك من خلال تجربتها السابقة — أو من مجرد فكرة عندها — أن هذا الأسلوب لن يجدى معه نفعا على الإطلاق ، بل إنه سيزيده سوءا على سوء . لذا فإن كل ما تفعله الأم فى بداية الأمر ، هو أن تثابر على أداء واجبها ، كى تحمله على تناول الطعام . غير أن الموقف بينها وبين الطفل يتعقد بمرور الزمن من جراء الشعور بالذنب الذى يتولد عندها بسبب ثورتها عليه ثورة سافرة أو دفينة .

لطالما رددت مرارا وتكراراً أن الفترة ما بين سن السنة والسنتين ، هى أسوأ مرحلة من مراحل الطفولة ، يمكن أن تنشأ فيها مشكلات التغذية . وقد يرجع بعض السبب فى هـذه الظاهرة إلى أن الزيادة المطردة فى وزن الطفل تقل تدريجاً فى حوالى هذه الفترة من عمره . ذلك أن الطفل العادى يزيد وزنه نصف كيلو جرام أو أكثر شهرياً فى خلال الشهور الخمسة الأولى ، ويزيد حوالى نصف كيلوجرام شهرياً حتى يبلغ الشهر الثانى عشر ، ثم لا يزيد سوى ربع كيلوجرام فى الشهر أثناء السنة الثانية . وهكذا يمكنك أن تتبينى أن المهمة الأساسية للطفل الصغير فى أثناء سنته الأولى ، هى أن يزداد فى الحجم والقوة الجسمانية ، وذلك بفضل الزيادة المطردة فى وزنه ، وبفضل نومه لفترات طويلة المدى . على أن عملية النمو الجسمانى تقل أهميتها بعد أن يتجاوز الطفل سنته الأولى . فهناك الآن أشياء أخرى عديدة تفوقها أهمية إلى حد بعيد ، مثل الاستكشاف والتعلم وتأكيد الذات . كما أن شراهة الطفل لتناول الطعام فى سنته الأولى ، يجب أن تخف حدتها شيئا فشيئا ، وإلا تحول إلى وحش جبار كاسر .

من الجائز أيضا أن التسنين يلعب دورا فى مشكلة ضعف «الشهية» عند بعض الأطفال . فأنا أعتقد أن التسنين الذى يستمر خلال الأشهر القلائل الأولى من عامه الثانى ، ويؤدى إلى بروز أربع أضراس فى نفس الوقت تقريباً ، هو أقسى مراحل التسنين التى يعانى منها الطفل أشد العناء .

غير أن أهم العوامل فى هذه المشكلة ، هو الشعور بالذات الذى يهبط دفعة واحدة على غالبية الأطفال فى السنة الثانية من عمرهم . فهم يدركون فى هذه السن أن لهم رغبات خاصة يمكن الإعراب عنها ، وأن لهم كرامة يجب المحافظة عليها . وهم لا يؤكدون ذاتهم فى اختيار الأشياء التى تهمهم فحسب ، بل إنهم أيضاً يثيرون مشكلات حول أشيـــاء لا تساوى فى الواقع قلامة ظفر فى نظرهم .

إن تأكيد الطفل لذاته من أجل تأكيد ذاته ، يبدو للأب أو الأم كما لو كان مجرد انحراف أو شذوذ فى سلوكه ، مع أنك لو تريثت للتأمل فيه ، لوجدت أنه خطوة أساسية فى عملية نموه ، لأن الطفل الصغير لن يصبح قط شخصاً له شأنه فى الحياة ، ما لم يكن عنده هذا الدافع القهرى لإقناع أبويه وإقناع نفسه بأنه فرد له كيانه .

بيد أنى أشك أن حالة الطفل المبينة فى رسالة الأم ، تدل على مجرد ضعف «الشهية» وزيادة العناد الذى يظهر عادة فى الطفل ابن السنة . فمن الواضح أن هذا الطفل قد تولد فيه شعور حاد بالنفور من معظم أصناف الطعام . ومثل هذه المشكلة من مشكلات التغذية قد تنشأ من التأفف من تناول الطعام الذى يبديه الطفل ابن السنة فى العادة ، غير أن من الجائز أن هذا التأفف قد قوبل بشحنة من القلق والغيظ تفوق المعتاد من جانب الأم . وأحياناً يتضح أن الأم نفسها كانت مشكلة من مشكلات التغذية فى طفولتها ، وما زالت تذكر اشمئزازها من الطعام وغضب أمها عليها وقت تناول الوجبات ؛ ذلك أن الآباء والأمهات الذين كانت لهم مشكلات طويلة المدى فى طفولتهم — سواء أكانت المشكلة متاعب فى المدرسة ، أم تمرداً على التدريب على استعمال التواليت ، أم ميلا إلى النعومة والرخاوة ، أم صراعاً مع الأب . . هؤلاء الآباء والأمهات يجدون أحيانا أنهم مهما صمموا على معالجة هذه المشكلات بطريقة أكثر تعقلا مع أطفالهم فإنهم بدلا من ذلك سرعان ما يستولى عليهم التوتر والقلق والغضب والشعور بالذنب . وأنا لا أعنى مطلقاً أن هذا يحدث دائماً . غير أن حدوثه فى بعض الأحيان إنما يبين لنا مدى قوة المشاعر التى تتخلف فى نفوسنا من آثار الصراع الذى يحدث بيننا وبين الآخرين فى أيام طفولتنا . فما من شك أن هذه المشاعر من القوة بحيث تكتسح أمامها كل النوايا العاقلة . (رغم إدراكى أن هذا أسلوب خاطئ فى التربية ، فقد اعتدت أن أثور ثورة عارمة على ابنى ، حين كان يخيل

إليّ أنه طفل كثير البكاء فى سن الثالثة والرابعة من عمره ، حتى إنه ظل يذكر ثورتى عليه بعد انقضاء عشرين سنة) .

إن الطفل حين يبلغ السنة الأولى من عمره ، يكون فى سن تؤهله لأن يدرك مشاعر أمه عند ما ينتابها التوتر . وهذا الإدراك عند الطفل قد يجعل للطعام مذاق السم فى فمه ، فى حالة نشوب صراع بينه وبينها حول تناول الطعام . ولكى تدركى ما أعنيه ، فكرى فى شخص ما ، يبعث فى نفسك شعوراً بالضيق وعدم الارتياح من جراء توتره النفسى ، ثم ضخمى هذا الشخص إلى خمسة أضعاف حجمه الطبيعى ، وأجلسيه بجوارك (دون أن يكون معكما شخص ثالث تلجئين إليه فى طلب العون) ثم تخيلى أن هذا الشخص يحاول حملك على تناول أصناف من الطعام لا تروق لك ، وقد استولى عليه شعور بالغضب يزداد لحظة بعد أخرى ، بل ولن يغير من الوضع كثيراً أن هذا الشخص قد يحاول كبت شعوره بالغضب .

* * *

قد يساعد الأم على مواجهة المشكلة ، أن ننبهها مقدماً إلى أن « شهية » الطفل يحتمل أن تصبح متقلبة ، لاسيما بالنسبة للخضراوات والحبوب واللبن ، عند ما يناهز عمره السنة . أما الفواكه واللحوم ، فإنها تظل محبوبة فى العادة ، سوى أن اللحوم يجب أن تفرى فرياً دقيقاً ، خصوصاً للأطفال ضعاف «الشهية» ، لأن قطع اللحم الكبيرة تجعلهم يحسون بغصة فى حلوقهم . ومع ذلك فإن معرفة الأم مقدماً بأن من المحتمل أن تضعف «شهية» الطفل فى هذه السن ، لن تضمن لنا أن هذه الأم سيكون فى وسعها أن تتجاهل هذه المشكلة .

فما أيسر أن أقول للأم التى كتبت إلى بشأن هذه المشكلة : إن محاولة حمل الطفل المتأفف على تذوق صنوف من الطعام غير التى تروق له ، لن تجدى نفعاً على الإطلاق ، لكنها تعرف هذه الحقيقة بالفعل من خلال خبرتها السابقة مع

طفلها . أما السؤال الذى جاء فى سياق خطابها ، فلا يعدو أن يكون تعبيراً عن غيظها وغضبها من سلوك الطفل غير المعقول . وقد يسرى عن هذه الأم بعض الشىء أن تعرف أن غالبيتنا نحن الآباء طالما عانينا مثلها من الشعور بالغيظ والحنق من جراء تصرفات أطفالنا (الطفل الأول بالذات فى غالبية الأحيان) .

على أن خير وسيلة عاقلة لمعالجة المشكلة ، هى أن نطمئن هذه الأم إلى أن غذاء طفلها ، وإن كان شاذاً عن المألوف ، إلا أنه يشمل جميع العناصر الأساسية . فالفواكه والخبز المصنوع من القمح الخالص واللبن (هذه الأم لم تذكر اللبن ، ولكن من الجائز أنها لم تحص سوى الأطعمة الجافة فى خطابها) ، إلى جانب مركب من مختلف الفيتامينات ، يمكن أن تكون غذاء مناسباً تماماً للطفل ، إذا أعطيت له بكميات معقولة . حقاً إن هذا الغذاء لن يضمن حصول الجسم على ضعف الكمية المطلوبة من جميع المواد الضرورية — الذى يحصل عليه من غذاء أكثر تنوعاً — ومع ذلك فإنه أفضل كثيراً من الغذاء الذى يحصل عليه الأطفال فى مناطق عديدة من العالم . كما أن من واجب الطبيب أو إخصائى التغذية ، فى مثل هذه الحالة ، أن يستعرض غذاء الطفل ، ويقدر ما إذا كانت تنقصه بعض المواد الأساسية ، كى يقترح بديلا لها (مثل أقراص الكلسيوم حين يرفض الطفل تناول اللبن) .

وهذه الأم يمكنها أن تطمئن أيضاً إلى أن الأطفال الذين لا يتناولون سوى كميات صغيرة من المواد الأساسية ويزداد وزنهم زيادة بطيئة ، ليسوا أكثر عرضة من غيرهم لنزلات البرد وغيرها من أمراض الأطفال الشائعة . غير أن الصعوبة فى محاولة طمأنة الأم على أساس من العقل والمنطق ، هى أن مشكلات التغذية لا تخضع للعقل والمنطق . فالطفل ضعيف « الشهية » يثير قلق أمه ، حتى ولو كان يحصل على جميع المواد الأساسية .

هناك أيضا كلمة مقتضبة ينبغى ذكرها بشأن زيادة وزن الطفل فى المرحلة التى تسبق التحاقه بالمدرسة ، وفى السنين الأولى من حياته المدرسية . إن معدل زيادة الوزن فى هذه المرحلة يبلغ حوالى كيلو جرامين فى السنة . وهى نسبة ضئيلة موزعة على الاثنى عشر شهرا . كما أنها ، على ضآلتها ، تبدو أكثر ضآلة فى نظر الأم التى يستبد بها القلق على طفلها . فما من مرة أخبرت فيها إحدى الأمهات بالوزن الحالى لطفلها الذى لا تحس بالرضا عن غذائه ، إلا وصاحت فى قنوط : « عجبا ، إنه نفس وزنه منذ ستة أشهر مضت » . وفى غالبية الحالات يتضح من مقارنة الوزن الحالى بالوزن السابق ، أن الأم واهمة ، وأن الطفل قد زاد وزنه كيلو جرام أو كيلو جرام ونصف كيلو جرام . إن هذا التشاؤم جزء من الحالة الذهنية التى تتميز بها الأم حين يكون طفلها مقلا فى تناول الطعام .

والوسيلة الوحيدة لمعالجة مشكلات التغذية الخطيرة ، هى ألا نقدم للطفل — لمدة ثلاثة أشهر على الأقل — سوى أصناف الطعام الصحية المفيدة التى تروق له فى الحاضر . والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى أن نستعرض بالتفصيل قائمة بجميع أصناف الطعام المألوفة ، بحثا عن بضعة أصناف تروق له . فلو أنك اكتفيت بسؤال الأم : « هل يحب أى نوع من اللحوم ؟ » لأجابتك فى اشمئزاز : « كلا ! » لكنك إذا أحصيت جميع أنواع اللحوم فى قائمة واحدة ، فقد تجدين مثلا أنه يحب منها « السجق » أو لحم البقر المفرى . إن مثل هذه القائمة بصنوف الطعام التى يحبها ، حتى ولو كانت تحتوى على خمسة أنواع فقط ، يجب أن تكون هى غذاء الطفل (بالإضافة إلى الفيتامينات وغيرها من العناصر المعدنية الأساسية إذا أمكن) . والهدف من ذلك هو أن ندع الطفل يستمتع بوجباته فترة من الزمن قد تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر ، حتى تبدأ « شهيته » تتفتح للطعام . ولا أعنى بذلك أن على الأم أن تبدأ فى حثه على تناول أصناف أخرى من الطعام بعد

انقضاء ثلاثة أشهر ، بل أعنى أن معدة الطفل قد تبـدأ عندئذ فى طلب هذه الأصناف من تلقاء نفسها .

وإنى لواثق أن هذه الوسيلة سوف تحقق الهدف المنشود ، إذا استطاعت الأم أن تضبط نفسها وتتبع تعليمات الطبيب ، ولو أنها مهمة عسيرة عليها . إن أسوأ مشكلات التغذية التى سمعت بها فى حياتى ، كانت حالة طفلة فى الثانية والنصف من عمرها ، لم يكن بوسعها — وهى مستيقظة — أن تطيق منظر أو رائحة أى نوع من الطعام أو الشراب ، بل لقد كانت فى الواقع تعتريها حالة من الرعب حين يقترب موعد تناول الطعام . لـكنها لم تـكن تمانع فى شرب اللبن من البزازة أثناء نومها . ولـكى تسير أمها على قاعدة عدم إعطائها أى طعام لا يروق لها ، كان لزاما عليها أن تمتنع عن إعطائها أى نوع من الطعام فى أثناء النهار ، وتعطيها بزازتين من اللبن المقوى بالبيض والحبوب والقشدة والفيتامينات فى أثناء نومها . وفى خلال شهرين أصبحت الطفلة تتوسل إلى أمها فى طلب الطعام ، ثم فى خلال ثلاثة أشهر أصبحت تتناول الطعام على خير ما يرام .

التبول فى الفراش

« إن الظاهرة فى حد ذاتها أقل أهمية
من الاضطرابات التى تكمن وراءها »

أريد أن أتناول فى هذا الفصل المشكلة العسيرة المتعلقة بالتبول فى الفراش (يسمى المنن فى علم الطب) فأعالج بإيجاز أنواع الحالات الأكثر شيوعا ، والأسباب التى تؤدى إليها .

يكف غالبية الأطفال عن التبول فى الفراش بالليل ما بين سن الثانية والثالثة من عمرهم . غير أن طائفة قليلة منهم تظل تتبول فى الفراش على فترات متباعدة حتى سن الثالثة والنصف أو الرابعة . على حين أن فئة أخرى قليلة العدد تكف عن ذلك قبل سن الثانية . وفى بعض الحالات النادرة يكف الطفل الصغير — وهو فى العادة من البنات — عن التبول فى الفراش بالليل عند مايبلغ سنة واحدة من عمره ، أى قبل أن تبذل الأم أى جهد على الإطلاق فى تدريبه أثناء النهار . وهذا أبلغ دليل على أن عدم تبول الطفل فى الفراش بالليل ، إنما يحدث تلقائيا ، كجزء من عملية النمو ، لا نتيجة لجهود الأمهات أساسا .

هناك أسباب عديدة شتى ، تؤدى إلى تبول الطفل فى الفراش . فبعض الحالات تنشأ عن شذوذ جسمانى فى الطفل ، أو عن مرض من الأمراض . وفى مثل هذه الحالات عادة يجد الطفل صعوبة فى ضبط عملية تبوله أثناء النهار أيضا (على سبيل المثال ، قد تسيل منه كل بضع دقائق قطرات من البول لا يمكنه السيطرة عليها ، أو قد يجد صعوبة فى بدء عملية التبول ، أو قد لا يتمكن من تفريغ مثانته تماما) أو يحس بحرقة أثناء التبول ، أو يتبول مرات عديدة ، أو يوجد صديد فى البول . ومن البديهى أن الطفل الذى تظهر عليه أعراض

مرضية فى عملية التبول أثناء النهار ، أو لا يكف بعد بلوغه السنة الثالثة عن التبول على نفسه أثناء الليل ، يجب عرضه على الطبيب .

على أنه فى غالبية حالات التبول فى الفراش ، لا توجد بالطفل أية متاعب جسمانية ، وتكون عنده القدرة الطبيعية على ضبط نفسه فى أثناء النهار (ولو أنه قد يبلل سراويله بعض الشيء ، لأنه يؤجل الذهاب إلى المرحاض « التواليت » أكثر من اللازم) .

أما حالات التبول فى الفراش التى تنشأ عن بعض الظروف النفسية ، فإن لها أسباباً شتى ، فمن الحالات الشائعة — وإن لم تكن أكثرها شيوعا — حالة الطفل ابن السنتين أو السنين الثلاث الذى يكف عن التبول فى الفراش عددا من الشهور ، ثم يعود إلى التبول على نفسه عند مقدم الوليد الجديد ؛ إذ يحس عندئذ بعدم الأمن والطمأنينة فترة من الزمن ، فيتراجع القهقرى إلى مرحلة أكثر طفولية فى التفكير والسلوك ، شأننا جميعا حين تنتابنا هذه الحالة المزاجية . وهذا الطفل قد لا يبلل فراشه فحسب ، بل إنه قد يتمادى فى مص إبهامه ، أو يلازم أمه كظلها . كما أنه قد يتوق ، لاشعوريا ، لأن تغير له أمه ثياب النوم المبللة مثلما تغير كوافيل المولود الجديد . ومن المحتمل أنه يتبول على نفسه — لا شعوريا فى أثناء النوم — بسبب ثورته على أمه ، لأنها جاءت بهذا المولود إلى الفردوس الخاص به وحده . وقد حدث فى بداية الحرب العالمية الثانية ، عندما رحلت جموع غفيرة من أطفال مدينة لندن إلى الريف ، بعيدا عن الأسرة والأصدقاء والمحيط الذى تعودوه ، أن ارتد كثير منهم — حتى المراهقون — إلى التبول فى الفراش . وقد يكون السبب الرئيسى فى ذلك ، هو ارتدادهم إلى مرحلة الطفولة فى أثناء النوم بسبب عدم الشعور بالأمان والطمأنينة .

وعلاج مثل هذه الحالات هو أن نحاول أن نعيد إلى الطفل الشعور

بالاطمئنان إلى مركزه بين أفراد الأسرة ومكانته فى قلب والديه . وما دام من المؤكد أنه سيحس بالخجل من فراشه المبلل — حتى ولو لم يكشف عن هذا الشعور فى الظاهر — فإن من الحكمة أن تؤكد له فى عطف أنه لن يلبث أن يتمكن ثانية من ضبط نفسه بالليل .

* * *

على أن أكثر حالات التبول شيوعا ، تختلف عن الحالة السابقة . وهى تحدث عند الأولاد فى الغالب ، لذا فإن مشكلة الأولاد هى التى سأناقشها أولا :

إن غالبية هؤلاء الأولاد لا يكفون كلية عن التبول فى الفراش بالليل ، بل يدأبون على ذلك فى معظم الليالى ، حتى يبلغوا السنة السادسة أو الثامنة أو العاشرة أو الاثنتى عشرة من عمرهم . وفى مثل هذه الحالات ، غالبا ما تكون الأم قد واجهت صعوبة تفوق المعتاد فى تدريب الولد على استعمال المرحاض « التواليت » أثناء النهار عندما كان ابن سنة أوسنتين ، لأنه كان يقاوم جهودها فى تدريبه ، فتثور عليه فى بعض الأحيان .

ويعتقد أطباء الأطفال النفسانيون الذين درسوا هذه الحالات (وقد قامت المرحومة الدكتورة مرجريت چيرارد بعمل طليعى فى دراسة هذه المشكلة) أن فى معظمها ـ لا كلها ـ يوجد شعور بالتوتر بين الأم والابن . وفى معظم الحالات أيضا ، تكون الأم قوية الشخصية ميالة إلى النقد واللوم بطبعها ، كما أنها تكون وثيقة الصلة بابنها ، تكرس نفسها لإسعاده ، لكنها فى نفس الوقت تبدى شيئا من الضجر بالخشونة والجلبة والفوضى وسلاطة اللسان التى تتمثل فى سلوك ابنها ، وهى من مظاهر الصبا التى تستطيع غيرها من الأمهات أن ينظرن إليها نظرة فلسفية . أما الغلام فإنه يكون فى العادة حساسا بطبيعة تكوينه ؛

من النوع المتهيب الذى تسهل إثارة الرعب فى قلبه . ومن المحتمل أنه كان يعتمد تماماً على أمه فى مرحلة الطفولة المبكرة ، تيتملكه الهيبة فى كثير من المواقف ، ويرى كثيراً من الأحلام المزعجة فى أثناء نومه . كما أن هذا الغلام لا يمكنه أن يتجاهل استنكار أمه لتصرفاته ، مثلما يفعل كثيرون غيره من الأبناء ، بل إنه يبدى استعداداً شديداً للاقتناع بأنه قاصر يعوزه النضج . وتبدو أمه فى نظره على أنها شخصية طاغية تميل إلى الغضب والسيطرة .

ومع ذلك فإن هذا الغلام لا يلجأ إلى الخضوع والاستسلام ، كى يتحاشى مزيداً من المتاعب مع أمه : بل إنه يعتاد الحصول على لذة شاذة خفية من غضب أمه حين تتكدر من تصرفاته ، فيعمل لاشعورياً على استفزازها بحيل صغيرة تبعث على الغيظ . ورغم أنه يجد لذة فى الخضوع والاستسلام أحياناً ، فإنه أيضاً يخشى هذا الخضوع ويكافح للتغلب عليه . فمشكلته الأساسية يحددها الطبيب النفسانى على أنها صراع عميق بين الرغبة المريضة فى الخضوع السلبى ، وبين الرغبة السوية فى أن يكون إيجابياً وفعالا .

والواقع أن مثل هذا النوع من الأولاد الذين يتبولون على أنفسهم ، لا يبلل فراشه بسبب عدم تدريبه على ضبط نفسه ، أو بسبب امتلاء مثانته أكثر من اللازم ، أو بسبب استغراقه العميق فى النوم ، بل إن تبوله فى الفراش يحدث كل ليلة أثناء حلم يرى فيه أنه تحت سلطة ، أو تحت رحمة شخص ما ، أو حيوان ما ، أو قوة من قوى الطبيعة . وعادة ما يكون شعوره فى أثناء الحلم مزيجاً من القلق واللذة . ومن ثم يمكن القول بأن التبول فى الفراش فى هـذه الحالة ، ما هو إلا رد فعل لنوع خاص من الانفعال المثير . (كانت عندنا فى وقت من الأوقات كلبة صغيرة ، يستبد بها الانفعال عند عودتنا إلى البيت ، فتتمرغ على ظهرها فى وضع يدل على الخضوع ، ثم يفيض بولها على أرضية

الحجرة) . وبصورة أعم من ذلك ، يمكن القول بأن التبول فى الفراش إنما يدل على اتجاهين آخرين فى لاشعور الطفل ؛ فهو يدل على إحساسه بأنه ما زال طفلا صغيراً ، ويدل فى نفس الوقت على تحديه الطفلى لأمه التى يحس أنها تسيطر عليه وتستنكر تصرفاته أكثر من اللازم .

وأريد هنا أن أوضح تماماً أن الغلام لا يعى هذه المشاعر المضطربة الدفينة فى عقله الباطن ، ولا يدرك العلاقة بينها وبين تبوله على نفسه ، بل إنه من الناحية الشعورية يحس بخجل شديد من التبول فى فراشه ، وهو عادة يبذل جهوداً شاقة لضبط نفسه . لذا فإن من الخطأ الذى يؤدى إلى عكس الهدف المنشود ، أن تتصرف الأم مع الغلام كما لو كان قادراً على الكف عن التبول على نفسه ، إن هو رغب فى ذلك . فهو لا يستطيع تغيير أحلامه ، أكثر مما تستطيع أنت أو أنا أن نغير أحلامنا .

وما دامت المشكلة الأساسية لهذا النوع من الأولاد الذين يتبولون فى الفراش ، هى أنهم يشعرون بالعجز ويحاولون لاشعورياً استفزاز أمهاتهم كى يفرضن سيطرتهن عليهم ، فإنك تستطيعين أن تتبينى السبب فى أن بعض أساليب السيطرة التى تنتهجها الأمهات ذوات الضمائر الحية ، لا تجدى نفعاً فى علاج المشكلة .

هل نوقظه فى أثناء الليل ونقوده إلى المرحاض متعثراً فى خطاه ؟ هذا لا يعدو أن يكون دليلا آخر على أنه لا يستطيع أن يعنى بأمر نفسه ، وأن والديه لا يثقان بقدرته من هذه الناحية . هل نحمله على غسل ملاءات سريره ونشرها خارج البيت أمام الناس ؟ تصرف مهين فيه إهدار لكرامة الطفل أكثر من سابقه ، إذ يتماسكه فى هذه الحالة شعور بالرعب فى أن يكتشف الأغراب عاره ، لا سيما

الأولاد الآخرون . هل نحدد كمية السوائل التى يشربها فى المساء ؟ هذه الفكرة قد تبدو منطقية إلى حد بعيد . بيد أن هـذا التحذير فى تناول السوائل قبل النوم ، لن يؤدى فى الواقع إلا إلى شعوره بالظمأ على الفور ، كما يمكن أن يؤدى معك أو معى ، فيظل يتوسل إلى أمه فى طلب شىء يشربه ، وتضطر هى إلى المثابرة على رفض طلبه فى ضجر ، وهذا ضار به وبها . هل نبعث به إلى أحد المعسكرات ؟ لا نفعل ذلك إلا إذا وجد الغلام أن فى وسعه الامتناع عن التبول فى الفراش وهو بعيد عن البيت ، ورغب فى التجربة من تلقاء نفسه . بل إننا فى هـذه الحالة لا نبعث به إلى المعسكر إلا إذا كان المشرفون عليه من النضج والخبرة بحيث يمكنهم أن يتفهموا مشكلة الغلام ، ويبدوا استعداداً لحمايته من الغلمان الآخرين ، ذلك لأن المعسكر العادى يمكن أن يكون عذاباً أليماً للغلام الذى يتبول على نفسه .

* * *

ما هو إذن التصرف البناء الذى يمكن اتخاذه فى سبيل حل المشكلة ؟ رغم أن التبول فى الفراش يبدو كما لو كان هو المشكلة الحقيقية — فى نظر الطفل والوالدين — فإنه ليس أهم المشكلات على المدى البعيد . ففى الغالبية العظمى من الحالات ، يكف الغلام عن التبول فى الفراش ،قبل أن يبلغ مرحلة المراهقة، أو عندما يبلغها ، لكن الاضطرابات الكامنة وراء هذه الظاهرة — الشعور بالعجز ، الصراع الدائب للتغلب على السلبية ، الرغبة الملحة فى الاستفزاز — لا يمكن التغلب عليها بهذه السهولة . على أن الوسيلة المثلى للوصول إلى جذور هذه الاضطرابات ، هى التحليل النفسى الدقيق للطفل عدة مرات فى الأسبوع ؛ أما الوسيلة التى تليها فى الفائدة ، فهى علاج الطفل مرة فى الأسبوع بإحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية . ويتطلب الأمر هذه الأنواع من العلاج النفسى

بصفة خاصة عند ما يكون الاختلال فى شخصية الطفل من الخطورة بحيث يؤدى إلى توتر مستمر بينه وبين أفراد الأسرة ، ويسبب له كابوساً بالليل ومخاوف بالنهار ، ويبعث فى قلبـه الوجل من الأولاد الآخرين ، أو الرغبة فى استفزازهم .

وتسأل بعض الأمهات عن الجهاز الـكهربى الذى يمكن شراؤه أو تأجيره ، والذى يحدث رنيناً ويلقى ضوءاً كاشفاً فى اللحظة التى يبتل فيها الفراش . إن هذا الجهاز يعلم الطفل بالتدريج — فى نسبة معينة من الحالات — أن يمنع نفسه من التبول فى الفراش ، على الأقل بصفة مؤقتة . وكما يمكن أن تتخيلان ، فإن غالبية الأطباء النفسانيين لن يرضوا عن هذه الوسيلة التى تقضى على أعراض المرض دون أن تصل إلى أسبابه الـكامنة على الإطلاق . هل يسبب هذا الجهاز أى ضرر للطفل ؟ أظن أنه لن يسبب ضرراً ، بل إنه قد يحقق بعض الفائدة ، إذا استخدم مع غلام تكيف تكيفاً سليما مع البيئة ، يكون قد بلغ الثامنة من عمره أو تجاوزها ، واشترك مع والديه فى اتخاذ القرار الخاص بتجربة الجهاز . فمثل هذا الغلام يمكنه أن يدرك طبيعة الموقف إدراكا كاملا ، وإذا نجح الجهاز فى القضاء على ظاهرة التبول عنده ، فإن هذه الخطوة فى حد ذاتها سوف تنمى ثقته بنفسه . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة لن تحل المشكلة الأساسية فى شخصية الغلام . كما أنى أعتقد أن هـذا الجهاز الـكهربى قد يسبب ضرراً ، إذا استعمل لطفل صغير يتملـكه الخوف ويفتقر إلى النضج . فحتى لو بث الجهاز الرعب فى قلبه فامتنع عن التبول على نفسه ، فإنه قد يغرس فى عقله أفـكاراً مريضة أخرى .

وسواء استطاعت الأمهات أن يحصان لأطفالهن على علاج نفسى أم لا ، فإن هناك إرشادات معينة قد تنير أمامهن السبيل . تستطيع الأم أن تتحـاشى التحقير من شأن الغلام ، وأن تعبر له عن ثقتها بأنه سيتمكن من ضبط نفسه

إن آجلا أو عاجلا ، وأن تتحين الفرص كى تنمى ثقته بنفسه . وإذا كانت الأم قد ظلت تطارده طويلا بشأن تبوله على نفسه ، فإن فى استطاعتها أن تعبر له فى حديث ودى معه عن عزمها على أن يفتحا صفحة جديدة فى هـذه المسألة ، فتقول له : « أعتقد أننى كنت مخطئة فى مطاردتى لك بشأن تبولك على نفسك فى الفراش . ولابد أن أسلوبى هذا قد أثار غيظك كثيراً . لـكننى أدركت الآن أن عدداً كبير من الأولاد يعانى من نفس المشـكلة ، غير أن جميعهم تقريباً ينجحون فى ضبط أنفسهم آجلا أو عاجلا . وأظن أنك أنت أيضاً لن تلبث أن تصل إلى نفس النتيجة سريعاً ، إذا عملت على معالجة المشكلة بنفسك . أتمنى لك حظاً سعيداً » . كما أن من واجب الوالدين أن يحاولا قدر جهدهما ألا يناكفا الغلام بشأن عشرات المشكلات التافهة التى تنشأ فى البيت يومياً ، ولو أن هذا سيكون عسيراً عليهما فى بادىء الأمر ، بسبب تصرفاته التى تبعث على الغيظ ، لـكنهما رغم ذلك يجب أن يمسكا بزمامه فى المسائل الهـامة . كما أن عليهما أن يتحينا الفرص لتدعيم شخصيته فى المدرسة وفى الحى ، وأن يحرصا على أن تكون عنده دراجة أو كرة قدم ، إذا كان الأولاد الآخرون عنـدهم نفس الأشياء (ذلك أفضل من منعها عنـه كى تكون حافزاً له على الـكف عن التبول فى الفراش) . كما ينبغى أن يرحبا بأصدقائه فى البيت ، وينظما لهم رحلات ومتعاً خاصة بين الفينة والفينة .

وقد أدركنا من خـلال العلاج النفسى للأطفال أنهم حين ينامون مع والديهم فى نفس الحجرة ، أو يفصلهم عنهما مجرد جدار رقيق ، فإن أى صوت يصدر عن الوالدين فى نومهما أو فى حديثهما قد يوقظ هؤلاء الأطفال فى كثير من الأحيان ، ويسبب لهم اضطراباً نفسياً أكثر مما يقـدر الوالدان . على حين أن تـكوين شخصية الطفل الذى يتبول فى فراشه يجعله عرضة بصفة خاصة لأن

يستخلص نتائج تثير انزعاجه من أى صوت يترامى إلى سمعه من مكان نوم والديه ؛ ولذا فإن من الحكمة أن يوضع فراشه بعيداً بحيث لا يصل إليه أى صوت ، إذا أمكن ترتيب هذا الوضع فى البيت .

وفى أسرة الطفل الذى يتبول على نفسه ، غالباً ما يكون الأب من النوع الهادىء ، فهو من ناحية يفضل ألا يلعب دوراً كبيراً فى تهذيب الأطفال، لكنه من ناحية أخرى يحس بالغيظ من عدم نضج إبنه ونقص رجولته . وكلا الاتجاهين يجعلان من العسير على الغلام أن يكتسب ثقة بنفسه ؛ ذلك أنه مما يساعد أى غلام على اكتساب صفات الرجال أن يصوغ نفسه على نمط أب يصاحبه ويلاعبه فى بعض الأحيان ، وهو فى نفس الوقت لا يتردد فى تأكيد سلطته فى شئون الأسرة إلى درجة معقولة ، لا سيما فى المسائل المتعلقة بتأديب الأطفال وتهذيبهم . (انظرى الفصل الخاص بدور الأب فى تأديب الأطفال) .

* * *

ما هو الوضع بالنسبة للبنت التى تتبول على نفسها من أثر بعض الظروف النفسية ؟ فى الحالة السائدة بين البنات (هناك بالطبع حالات أخرى) لا تكون البنت متهيبة أو تعوزها الثقة بالنفس . بل إنها على العكس من ذلك ، قد تكون جريئة فى مسلكها ، ميالة إلى تأكيد ذاتها ، وربما يكون فيها شىء من القحة . كما أن هذه البنت قد تميل إلى التنافس الشديد مع إخوتها إن كان لها إخوة ، ومع الغلمان الآخرين . وهى لا تتباعد قط عن أبيها ، بل إنها قد تلتصق به أكثر من المعتاد ، وترغب فى أن تشاركه فى جميع اهتماماته ، وتحلم بأن تؤدى نفس عمله عند ما تبلغ مبلغ الكبار .

فإذا أمكننا أن نقول بأن مشكلة الغلام الذى يتبول على نفسه ، تنشأ فى غالبية الحالات من شعوره بأنه لا يزال طفلا رضيعاً ، فإن مشكلة البنت التى

تتبول على نفسها هى أنها فى غالبية الحالات تحاول — لا شعورياً — بكل قواها أن تكون كالولد . فإذا كانت هذه هى مشكلتها بالفعل ، فان أكثر مايساعدها فى التغلب عليها ، هو أن يبين لها والداها أنهما يحبانها ويستمتعان بها لمجرد أنها بنت . ومع أن مثل هذه البنت تحتاج دائما إلى ود أبيها وصداقته ، فإن مما يساعدها فعلا على الشعور بالسعادة كإبنة له ، أن يتبين لها من مسلكه أنه يمنح محبته وحنانه لزوجته أولا . أما دور زوجته فى هذه الناحية ، فهو أن تستجيب لحبه وحنانه .

مشكلات وقت النوم حول سن الثانية

« إنها تكاد تنشأ دائماً من شعور الطفل
بالقلق بسبب انفصاله عن أمه » .

إن مشكلات وقت النوم عند الأطفال حول سن الثانية ، التي أريد مناقشتها في هذا الفصل ، تختلف كل الاختلاف عن مشكلات الأطفال الصغار دون سن العام . فمشكلات السنة الأولى من عمر الطفل تندرج غالباً في باب التدليل ، ويمكن عادة علاجها علاجاً سريعاً عن طريق الحزم من جانب الوالدين . أما مشكلات وقت النوم في سن السنة والنصف ، والسنتين ، فإنها تكاد تنشأ دائماً عن شعور بالقلق في نفس الطفل ، وهذا الشعور يمكن أن يتراوح بين الضعف والشدة .

والقصة المميزة التي تمثل حالة الطفل الذي يستبد به القلق ، يمكن أن تكون على الوجه التالي : أم لها طفل وحيد في الثانية من عمره ، اضطرت فجأة أن تغادر البيت لمدة أسبوعين ، وتركت الطفل بالبيت في رعاية سيدة غريبة عنه . وعندما اتصلت الأم تليفونياً من مكانها البعيد ، لتسأل كيف تسير الأمور في البيت ، أبلغتها السيدة أن الطفل يسلك سلوكا حسناً ، ولا يبدو عليه أنه يفتقد أمه ، والواقع أنه قد تبين من المقارنة الدقيقة بين سلوكه في هذه الفترة وسلوكه المألوف ، أنه قد سلك في هذه الآونة سلوكا حسناً أكثر من المعتاد ؛ إذ كان يسمح للسيدة الغريبة بأن تطعمه وتلبسه ثيابه أو تخلعها عنه ، وأن تهندمه ، وتصحبه خارج البيت أو تعود به إلى البيت ، وتضعه في فراشه ، دون أن يبدى لها شيئاً من العناد والجلبة التي اعتاد أن يعمد إليها مع أمه في معظم الأحيان .

ولكن ما إن عادت أمه إلى البيت آخر الأمر ، حتى انفجر شعوره بالخوف وطفا على السطح كالبركان ، فدأب على مراقبتها والالتصاق بها أينما ولت وجهها . ولئن خرجت من الحجرة ، فإنه كان يجهش بالبكاء ويجرى وراءها ، بل إنه أبى أن يسمح للسيدة التى كانت تعنى بأمره أن تقترب منه بأى حال من الأحوال . وفى موعد النوم ، كان يتعلق بأمه تعلقاً شديداً ، لدرجة أنه كاد يصبح من المحال عليها أن تحمله على النوم فى فراشه . وعندما كانت تتجه نحو الباب لمغادرة الحجرة ، إذا بهذا الطفل الذى لم يسبق له قط أن حاول مجرد التسلق « الشعبطة » للخروج من مهده ، يقفز من على جانب المهد ، وينهض من فوق أرضية الحجرة ثم يندفع راكضاً وراءها . كان الذعر الذى استبد به يقطع نياط القلوب ، حتى إن أمه لم تحاول ثانية أن تغادر الحجرة ، بل ظلت تجلس إلى جوار مهده فى انتظار أن يستولى عليه النوم . لكنه دأب على البقاء مستيقظاً زهاء ساعتين كل ليلة . ولئن حاولت أمه أن تتسلل خارجة من الحجرة قبل أن يستغرق فى النوم ، فإنه كان فى هذه الحالة يبقى ساهراً فترة أطول من المعتاد ، يرقبها بعين يقظة لا تغفل عنها .

من الواضح أن هذا السلوك عند ما يستمر أياماً عديدة ، إنما يدل على أن مزاج الطفل قد انحرف انحرافاً عنيفاً ، فتحس الأم بالشقاء من أجله ، لكنها فى نفس الوقت لا تتمالك أن تشعر بالخيبة والإحباط ، لأن لها طفلا يتعلق بها كظلها طوال النهار ، ويسجنها فى حجرته كل مساء . هذه صورة لما يسمى « قلق الفراق » فى أعنف مظاهره ، وهى تبين لنا السبب فى بعض مشكلات النوم العويصة التى تنشأ فى الفترة بين سن السنة والثلاث السنين. على أن المشكلة قلما تكون بهذه الصورة العنيفة . فقلق الفراق الذى يبلغ هذه الدرجة العنيفة ، لا نلمسه عادة إلا فى طفل وحيد أبويه ، تكون له أم تتفانى فيه أكثر من المعتاد ، وتميل إلى فرض حمايتها عليه أكثر من اللازم . فيظل الطفل والأم ملتصقين أحدهما

بالآخر ، معتمدين أحدهما على الآخر دائماً . كما أن الطفل فى هذه الحالة تسرى إليه بعض الهواجس التى تنتاب الأم بشأن الحوادث والأخطار التى قد تلحق به .

وعندما أسائل نفسى عن السبب فى أن الأطفال حول سن الثانية هم الذين يتعرضون أكثر من غيرهم للشعور بقلق الفراق ، يغلب على ظنى أن السبب فى ذلك هو أن الأطفال فى هذه السن يكونون قد بلغوا من السن ما يؤهلهم لأن يدركوا مدى قيمة أمهاتهم بالنسبة إليهم ، لكنهم فى نفس الوقت لم يبلغوا من السن ما يتيح للأمهات أن يبعثن الطمأنينة فى قلوبهم عن طريق شرح الأمور لهم . فالأم تقول للطفل إنها سوف تعود للبيت فى خلال أيام قلائل . ولكن ماذا يمكن أن تعنى هذه الكلمات بالنسبة لطفل لم تسبق له تجربة الفراق عن أمه ؟ إن غيابها عنه يوماً واحداً قد يبدو فى نظره كما لو كان غياباً أبد الدهر ، لأن الطفل لا يحس بالزمن إلا إحساساً ضئيلا للغاية فى هذه السن ، حتى إنه لا يدرى الوقت صباحاً كان أو مساء ، إلا بعد أن يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره .

ولننتقل الآن إلى نوع شائع من المشكلات الهينة التى تنشأ فى وقت النوم . وهو أن كثيراً من الأطفال الذين اعتادوا أن يذهبوا إلى الفراش كالحملان الوديعة ويستغرقوا فى النوم بمجرد إطفاء الأنوار ، يبدأون فى حوالى سن ١ ¾ و ٢ و ½ ٢ ، يحاولون استبقاء الأم معهم فى حجرة النوم متذرعين ببعض الحجج الزائفة «عايز أعمل پى پى» (التبول) ، ثم «عايز أشرب ميه» ، ثم الـ «پى پى» وشرب الماء مرة أخرى . فتجد الأم نفسها فى مأزق حين يأتى ذكر الـ « پى پى » ، لأنها قد ظلت طويلا تشجع الطفل على أن يتصرف كإنسان مسئول عن نفسه ، ولا تريد أن تبدو كما لو كانت غير متعاونة معه فى مسألة الذهاب إلى المرحاض ، مهما تكن واثقة بأنها مجرد حجة زائفة لاستبقائها معه .

هناك مظهر آخر يدل على نفور الطفل ابن السنتين من البقاء وحيداً فى

فراشه ، ذلك أنه يتعلم أن يحبو خارجاً من مهده ، ثم يظهر بكل هدوء إلى جوار أمه فى المطبخ أو فى حجرة الطعام أو حجرة الجلوس . ومع أن الطفل فى هذه السن قد يكون ساذجاً فى غالبية نواحى الحياة ، إلا أنه يستطيع بلا ريب أن يستخدم سحره بمهارة فائقة ، فى تلك اللحظات التى يدرك فيها أنه يقترف عملا محظوراً . فهو يحاول عندئذ أن يتحبب إلى أمه بابتساماته ، ويسألها أسئلة ودية ، ويبدى رغبة فى البقاء بين أحضانها فترة طويلة ، قد تبلغ أضعاف الفترة التى يبدى فيها هذه الرغبة أثناء النهار . إن سحره لايقاوم فى هذه اللحظات .

وفى اعتقادى أن الأعذار التى يتذرع بها الطفل لاستبقاء أمه فى حجرته ، أو للتسلل من فراشه كى يمكث مع والديه ، إنما تدل على شعور طفيف جداً بقلق الفراق ، لا لأن الأم قد اختفت اختفاء مفاجئاً يثير القلق ، ولكن على الأرجح لأن الطفل فى هذه السن يجتاز مرحلة من مراحل النمو من السهل فيها أن يحس بالوحدة والوحشة حين يفترق عن أمه .

كما أن الفراق قد يحدث رد فعل بسيط عند الطفل فى هذه السن ، عندما يرحل قريب له كان يعيش معهم فى نفس المنزل ، أو حتى عند ما تنتقل الأسرة من منزل إلى آخر .

* * *

ما الذى ينبغى عمله فى هذه الحالة ؟ ليس عندى أدنى شك فى أن الأم ينبغى أن تثابر عدة أسابيع على بث الطمأنينة الكاملة فى قلب الطفل ، إذا انتابه قلق حاد فى وقت النوم ، لا سيما إذا كان هذا القلق راجعاً إلى غيابها عن البيت فترة من الزمن . ومن المهم فى هذه الحالة ألا تتغيب الأم عن البيت مرة أخرى ، حتى يتبين لها من سلوك الطفل أنه يستطيع تقبل غيابها بالرضا . وأعتقد أن خير

ما تفعله الأم فى وقت النوم هو أن تجلس إلى جوار مهده ، وأن تحتضن يده فى يدها إن هو رغب فى ذلك . ولـكن ليس من الوسائل الناجعة أن تحمله فى حجرها ، إذ يكاد يكون من المؤكد أنه سوف يستيقظ من نومه ، عندما تحاول بعدئذ أن تضعه فى مهده . كما أن من الضرورى أن تظل جالسة إلى جواره حتى يستغرق تماماً فى النوم ، لأنها إذا حاولت أن تتسلل من الحجرة وهو بعد بين النوم واليقظة ، فإن أقل صرير يصدر عن ألواح الأرضية الخشبية سوف يوقظه من نومه ، وفى هذه الحالة سوف يكافح جاهداً — حتى أكثر من ذى قبل — لصد النوم عن جفنيه ، بدافع الخوف من مغادرتها الحجرة . قد تستغرق هذه العملية زهاء ساعتين فى الليالى القليلة الأولى ، وهى مهمة ثقيلة على قلب الأم . لذا ينبغى أن تستريح فى جلستها بقدر الإمكان ، وتقضى الوقت فى القراءة أو التطريز على ضوء المصباح المظلل «الأباچورة» ، إن رغبت فى ذلك . وإذا سارت الأمور على مايرام ، فإن فترة يقظةالطفل لن تلبث أن تنخفض إلى نصف ساعة ، ولو أن الأمر قد يتطلب أن تثابر الأم طوال شهرين على الجلوس إلى جواره هذا النصف ساعة كل ليلة .

وغنىّ عن البيان أننا يجب أن نطلب المساعدة من أحد أطباء الأطفال النفسانيين أو من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية — إن كان ذلك فى حيز الإمكان — لعلاج الطفل الذى يستبد به القلق إلى هذا الحد .

إن الوقاية أسهل من العلاج . فإذا أمكن أن يؤجل الوالدان بضعة أشهر قيامهمابرحلة طويلة المدى خارج المدينة (فى حالة قيامهما برحلة أثناء الإجازة مثلا) ، ريثما يتجاوز طفلهما الوحيد العامين ونصف العام من عمره ، فإن هذا سوف يقلل من احتمال إصابته بقلق حاد عند رحيلهما ، لأن شرح الأمر له فى هذه السن سيكون له معنى فى ذهنه أكثر من ذى قبل . أما إذا تعذر تأجيل رحلة الأم

أو نزولها بالمستشفى ، فإن مما يستأهل الجهد فى هذه الحالة أن نجعل الطفل يألف السيدة التى ستعنى بأمره فى أثناء غيابها ، على أن يكون ذلك بالتدريج ، على مدى أسبوعين ، إن أمكن ذلك . وينبغى أن يقتصر عمل هذه السيدة فى بادىء الأمر على قضاء بعض الوقت فى أنحاء البيت ، فلا تشترك فى العناية بالطفل ، إلا بعد أن يبدى نحوها شعوراً بالود والثقة . وبعدئذ تستطيع الأم أن تغادر البيت لبضع ساعات متواصلة ، كى يدرك الطفل أن اختفاءها من البيت يعقبه ظهورها مرة أخرى . كما أن هذا الأسلوب التدريجى يتيح أيضاً للسيدة أن تتبين أسلوب الأم فى معاملة الطفل .

على أن مثل هذه الاحتياطات الشديدة قد لا تكون جوهرية فى حالة الأطفال التالين بين أفراد الأسرة ، أو حتى فى حالة الطفل الأول الذى يبدى نزعة تفوق المعتاد نحو الاستقلال عن أمه . كما أنه عندما يوجد أطفال عديدون فى الأسرة ، فإنهم يستمدون شعورهم بالأمان والطمأنينة من أنفسهم فيما بينهم . وفضلا عن ذلك ، فإن من المحتمل فى حالة تعدد الأطفال أن تكون الأم قد تغلبت على رغبتها الجارفة فى فرض حمايتها عليهم أكثر من اللازم ، تلك الرغبة التى كانت تحسها نحو طفلها الأكبر ، لذا فإنها قد تعامل الآخرين بطريقة عرضية فيها شىء من البساطة وعدم الاكتراث .

ومن المفيد لجميع الأطفال ، بوجه عام ، أن يألفوا الغرباء منذ أن يتعلموا المشى ، وأن يمروا بين الفينة والفينة بتجربة تركهم فى البيت لبضع ساعات ، فى صحبة إحدى القريبات أو إحدى مرافقات الأطفال الموثوق بهن ، إن كان ذلك فى الإمكان . فهذا الأسلوب يساعد الطفل على أن يكتسب عادة الاستقلال الذاتى ، كما أن من المفيد للآباء والأمهات بلا ريب ، أن يبتعدوا كلية عن مشكلات الأطفال من آن لآن . بيد أن من الواجب عليهم بطبيعة الحال أن يتأكدوا من أن مرافقة الأطفال جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها . بل إن الأهم من

ذلك في حالة الطفل الصغير جداً ، هو أن تتأكد الأم من أن الحاضنة تجمع بين الرقة واللطف والإدراك السليم . كما ينبغى أيضاً أن يعرف الطفل مرافقته أو مرافقاته معرفة وثيقة . وعند ما يزمع الوالدان قضاء سهرة خارج البيت ، ينبغى أن تأتى الحاضنة قبل أن يوضع الطفل فى فراشه ، كى يدرك طبيعة الموقف مقدماً ، لأنه مما يثير انزعاج الطفل الصغير أن يستيقظ فى أثناء الليل ، فيجد إلى جواره سيدة غريبة عنه أو حتى حاضنة مألوفة له ، فى حين أنه يتوقع وجود أمه بجانبه . وبطبيعة الحال ، فإن تعويد الطفل على معاشرة مجموعة منتقاة من الناس خارج نطاق الأسرة ، له قيمة خاصة إذا كان هذا الطفل هو الأكبر أو الأوحد فى الأسرة ، أو إذا أحست الأم أن عندها نزعة إلى المغالاة فى فرض حمايتها عليه .

* * *

غير أننا لم نناقش بعد الوسائل العملية لمعالجة الشعور الطفيف بالقلق السائد بين الأطفال ، الذى يدفع ابن الثانية إلى محاولة استبقاء أمه معه فى حجرة نومه ، أو يدفعه الى التسلق خارجاً من مهده بمجرد إغلاق الباب عليه . فى هذه الحالة لا أظن أنه ينبغى للأم أن تجلس مع الطفل فى حجرته أو ترقد على سرير كبير إلى جوار مهده . بل إن التردد من جانب الأم فى تحية الطفل تحية المساء قبل نومه ، قد يؤدى إلى عكس الهدف المنشود ، لأن قلق الأم أو مغالاتها فى القلق على الطفل ، أحيانا ما تجسم الشعور الطفيف بالقلق فى نفسه ؛ ذلك أن الطفل يبدو من ناحية معينة ، كما لو كان يقول لأمه : « لقد بدأت أعتقد أنه قد يكون من الخطر على أن تتركينى وحيداً هنا . فما رأيك ؟ » على حين أن الأم ، بظهورها بمظهر التردد ، وإبدائها شيئاً من القلق ، وقبولها لتصرفات الطفل التى تهدف إلى المماطلة ، وسماحها له بالمجىء إلى غرفة الجلوس والمكث برهة هناك ، إنما ترد فى الواقع على سؤاله ، كما لو كانت تقول له : « وأنا كذلك

لست مطمئنة تماماً لتركك وحيداً بمفردك . من الجائز أن هناك فعلا ما يدعو إلى الخوف ». إن هذا الشعور الطفيف بالقلق الذى يلوح على الأم إنما هو انعكاس لشعور الطفل بالقلق ، كما أنه فى نفس الوقت يزيد من قلقه بعض الشىء . وهذا الشعور عند الطفل إلى جانب نجاحه فى الضغط على أمه يحفزانه إلى بذل مزيد من الجهد فى محاولة المماطلة . وكلما ازداد إلحاحاً ، ازدادت الأم تردداً .

يحدث أحياناً أن أما من النوع المسيطر المليء بالحيوية ، تقول للطبيب فى أثناء زيارتها الدورية لفحص طفلها ابن الثانية ، كما لو كانت تعبر عن فكرة طارئة خطرت لها : « على فكرة ، لقد بدأ منذ شهر مضى يحاول مماطلتى فى الذهاب للنوم فى موعده ، بحجة شرب الماء والذهاب إلى المرحاض ، لكنى قلت له إنه قد حصل على كليهما منذ لحظة ، وأفهمته أنى لا أرغب فى شىء من هذا الكلام الفارغ . فانتهى الأمر عند هذا الحد » . وهذا لا يعنى بالضرورة أنى أوصيكن باستخدام كلمات هذه الأم بحذافيرها ، لكنى أعتقد أنكن تلمسن أنها بأسلوبها هذا إنما تقول للطفل : « أعصابى ليست متوترة على الإطلاق ، ولا ينبغى أن تتوتر أعصابك أنت كذلك » .

ونفس هذا الأسلوب الحازم المطمئن يمكن اتباعه مع الطفل الذى يتسلق خارجاً من مهده كى يلحق بوالديه فى حجرة الطعام ؛ ذلك بأن تدفعه أمه أمامها على الفور ، عائدة به إلى فراشه كلما أتى اليها ، دون أن تستسلم لحظة واحدة لحيله الماكرة .

على أن بعض الأمهات حين يستمعن إلى هذه الفكرة يقلن : « هذا النوع من الحزم كان من الممكن أن يجدى نفعاً لو أنى فكرت فيه منذ شهور مضت ، أما الآن فقد فات الأوان . لقد أصبح طفلى يتسلق خارجاً من مهده ويغادر

حجرته خمساً وعشرين مرة فى خلال فترة لا تزيد على ساعتين ، وهو يفعل ذلك كل ليلة بلا استثناء » .

وإنى أوافقهن على أنه من العسير أن تتغلب الأم على هذا النمط فى السلوك بعد أن يصبح راسخاً فى نفس الطفل . لكننا قد نهتدى إلى وسيلة مجدية لمعالجة هذه الحالة ، لو أننا سألنا مثل هذه الأم : « كيف تحملينه على البقاء فى الفراش بعد المرة الخامسة والعشرين ؟ » والإجابة المألوفة عن هذا السؤال هى . «تثور ثائرتى آخر الأمر ، فأصيح فى وجهه أو أصفعه . ثم يبكى لحظة ، لا يلبث أن يستغرق بعدها فى النوم » . وهذا لايعنى أن الصياح أو الصفع هو فى رأيى خير وسيلة نحمل بها الطفل الصغير على النوم ، ومع ذلك فإن الخمس والعشرين الزيارة التى يقوم بها الطفل لأم يتزايد غضبها لحظة بعد أخرى ، تضره مثلما يضر الضرب أو الصياح . فبيت القصيد هو أن تحاول الأم أن تنتهج فى المرة الأولى نفس الأسلوب الحازم القاطع الذى تنتهجه مع الطفل فى المرة الخامسة والعشرين. فاذا استطاعت الأم أن تتبع هـذا الأسلوب الحاسم منذ البداية — وتقنع الطفل بأنها جادة فعلا فيما تقول — فإنها لن تضطر إلى كل هذه الثورة عليه آخر الأمر .

وهذه المشكلة — ما إذا كانت الأم جادة بالفعل وتظهر للطفل أنها تعنى ما تقول — من أكثر النواحى تضليلا للأمهات فى تربية الطفل ، ذلك أن جميع الأمهـات يخيل إليهن أنهن يعنين ما يقلن للطفل حين يطلبن إليـه أن يسلك سلوكا حسنا . غير أن المتفرج الخارجى يستطيع أن يلمس أحيانا أن الأم لا تبذل سوى نصف محاولة فى هذا السبيل ، فهى قد تبدو فى غاية الحزم والجدية ، لكنها فى اللحظة الحاسمة تضعف أمام الطفل ، أو تفقد اهتمامها ، أو تعجز عن متابعة تنفيذ أوامرها . إننا جميعاً تصادفنا لحظات نسمح فيها للطفل بأن يقترف عملا غير

مسموح به فى البيت ، دون أن نعاقبه عليه . على أن هذا التناقض فى معاملة الطفل ، يبلغ مداه عند طائفة قليلة من الأمهات . فأنت ترينهن يصحن فى أطفالهن طوال النهار ، فى لهجة مليئة بالتهديد والتهويش دون أن يبذلن قط أدنى جهد حقيقى كى يحقق هذا التهديد الهدف المنشود منه .

ولكى أحاول توضيح هذه الناحية للأم التى تقول إنها حاولت أن تحمل طفلها على البقاء فى الفراش لكنها أخفقت فى ذلك ، فإنى أسألها سؤالا افتراضيا فيه شىء من المبالغة : «لنفرض أن الطفل أصيب بمرض حاد فى القلب أو بارتجاج فى المخ أو بكسر فى ساقه ، وقال لك الطبيب إن من المهم جداً أن تمنعيه من مغادرة الفراش . هل تستطيعين فى هذه الحالة أن تحمليه على البقاء فى الفراش أم لا ؟ » إنها تستطيع ذلك بلا شك .

وعلى حين أننى أؤكد أهمية الحزم فى هذه الحالة ، فإنه ينبغى أن أذكركن مرة أخرى بأننا نناقش الآن حالة الطفل الذى لا ينتابه سوى أخف أنواع القلق الذى يتمثل فى الحيل التى يلجأ إليها للمماطلة فى موعد النوم ، أو فى الزيارات التى يقوم بها لوالديه ، لا حالة الطفل الذى يبدو عليه الفزع بصورة جلية .

وتسألنى بعض الأمهات اللائى يستولى عليهن اليأس من إصلاح حالة الطفل ما إذا كان من السليم إغلاق باب الحجرة عليه . يبدو لى أنه ليس من الصواب أن نخلق فى الطفل شعورا بأن هناك مثل هذا الحاجز بينه وبين والديه ، ونخاطر بأن نولد عنده شعورا بالخوف من الأبواب المغلقة ، غير أنى اقترحت على بضع أمهات — مع كثير من الخوف والتوجس — أن يستخدمن شبكة تغطى أعلى المهد كحل وسط يلجأن إليه بعد أن تفشل كل الوسائل الأخرى . وشبكة كرة الريش « البادمنتون » هى النوع الوحيد من الشباك الذى يمكن الحصول عليه

فى معظم المدن (من محلات أدوات الرياضة) . فهذه الشبكة ولو أنها طويلة وضيقة بحيث لا تلائم المهد فإن من الممكن قصها إلى قطعتين تخاطان جنبا إلى جنب . ويجب أن تربط بمنتهى الإحكام فى السياج الخلفى للمهد ، وفى أجزاء من مقدمته ومؤخرته . على أن النصف الأمامى من الشبكة يجب أن يترك مفكوكا كى يمكن وضع الطفل فى المهد . وبعد وضعه فيه ، تربط أطراف النصف الأمامى فى زنبركات « يايات الملة » تحت منتصف «المرتبة » ، وتشد إلى المقدمة والمؤخرة ، بحيث يتعذر على الطفل أن يفتح ثغرة فى الشبكة يتسلق منها خارج المهد . لكن لا ينبغى أن نهدد الطفل باستخدام مثل هذه الشبكة كما لو كانت نوعا من العقاب ، بل ينبغى أن نشرح له أنها تقيم له بيتا مريحا ينام فيه ، وندعه يتظاهر بمساعدتنا على ربطها فوق المهد فى بادىء الأمر . وفى غالبية الحالات يتقبل ابن الثانية هذه الشبكة قبولا حسنا ، ويستقر للنوم داخلها بعد أن يجرى عليها بعض التجارب فى هدوء . أما إذا تظاهر بالفزع منها ، فإنى أحجم عن استخدامها ، ولو حتى لدقائق معدودات . بل إنى أحجم عن تجربتها مع طفل تجاوز الثانية والنصف من عمره ؛ لأن هناك احتمالا كبيراً فى هذه الحالة أن تولد عنده شعوراً بالخوف من الأبواب المغلقة .

وعند ما تسألنى بعض الأمهات بشأن الانتقال بالطفل ابن الثانية من مرحلة النوم فى المهد — غالباً لأن هناك مولوداً فى الطريق — فإنى أوصى دائماً باستبقاء الطفل فيه عاماً آخر إن كان المهد يلائمه ، وأوصى بشراء مهد آخر للمولود الجديد ، فقد سمعت قصصاً عديدة عن أطفال فى سن الثانية يعتادون الخروج من حجراتهم والتجوال فى أرجاء البيت بمجرد أن يسمح لهم بالنوم فى أسرة لا جوانب لها .

هناك سؤال آخر له أهميته . هل تدعين الطفل الصغير ينام معك فى سريرك

إذا أتى إلى حجرة نومك فى منتصف الليل ؟ قد يبدو لك بطبيعة الحال أن هذا هو أسهل ما يمكن أن تفعليه فى هذه الحالة . لكنى أعتقد أنه غالباً ما يتضح خطأ هذا التصرف على المدى البعيد .

ففى الغالبية العظمى من الحالات ، يكثر الطفل من التردد بانتظام على حجرة والديه ، لفترة يطول مداها ليلة بعد ليلة . وكلما دأب الطفل على هذا السلوك فترة أطول ، ازداد اعتماده عليه ، حتى يصبح مصدر ضيق للوالدين . ويعتقد غالبية المتخصصين أن مثل هذا السلوك ضار بالطفل ، حتى فى الحالات التى لا يكترث فيها الوالدان . ومن أجل ذلك يجب علينا دائماً أن نحمل مثل هذا الطفل فى حزم على أن يعود إلى فراشه فى التو ، كما يجب علينا أيضاً أن نتجنب البقاء معه فى حجرته الخاصة . ولكن إذا كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لحمله على البقاء فى الفراش ، فليس هناك ما يمنع من المكوث معه بضع دقائق . لكننا يجب أن نحجم عن النوم معه فى سريره ، حتى ولو كان سريراً كبيراً .

٥

الارتباطات ومظاهر القلق في الفترة
ما بين سن الثالثة والسادسة

معنى المخاوف

« إن التطورات الانفعالية الهامة تحدث فى الباطن ،
على المستوى اللاشعورى من عقل الطفل » .

إليكم بعض مقتطفات مقتضبة من ثمانية خطابات مختلفة تلقيتها بشأن أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والسادسة :

١ — « هذه الطفلة تفزع من الكلاب فزعاً بالغاً ، حتى إننى لا أستطيع أن أحملها على اللعب خارج البيت . وحين يقترب منها كلب ، فإنها تصرخ فى رعب ، ويتصلب جسمها ، ويدق قلبها دقاً عنيفاً يمكنك أن تحس به عند ما تضمها إلى صدرك . مع أنه لم يحدث قط أن أصابها كلب بأذى ، على مدى علمنا » .

٢ — « ألا تفكر فى الكتابة عن حالات الكابوس التى تنتاب الأطفال فى المرحلة التى تسبق دخول المدرسة ؟ إن ابنى الذى يبلغ من العمر ثلاث سنوات وتسعة أشهر ، كثيراً ما ينتابه الكابوس » .

٣ — إن طفلتى غالباً ما تظل مستيقظة زهاء ساعتين بعد ذهابها إلى الفراش ، وتظل تنادى بأنها لا تستطيع النوم ، طالبة منى أو من أبيهــا أن نرقد إلى جوارها ... الخ . وعند ما نصعد إلى حجرتنا للنوم ، فإنها تستيقظ على الفور ، مهما نكن حريصين على إغلاق باب حجرة النوم ، ثم تنادى علينا طالبة أن نترك باب الحجرة مفتوحاً » .

٤ — « إن طفلى لا يكف عن التفكير فى الأشياء المكسورة . ولم أكن أعرف كم من أشياء مكسورة بالبيت حتى دلنى هو عليها . ورغم أنى أشرح له دائماً كيف انكسرت هذه الأشياء ، وأبين له أن الأمر لا يستدعى الاهتمام ، إلا أنه يظل نهباً للقلق كعهده دائماً » .

٥ — « يبدو أن مصدر قلقه الوحيد يتمثل فى الخوف من الظلام والفزع من الدب سموكى الذى يكافح الحرائق[1] . وقد يصل به هذا الفزع إلى حد أنه يندفع خارجاً من حجرة الجلوس فى أثنـاء فترات الاستراحة بين برامج التليفزيون ، لمجرد وجود احتمال أن يظهر هذا الدب على الشاشة ... كما أنه دأب على الاستمناء كثيراً فى العام الماضى » .

٦ — « ما هى الوسيلة لمنع اللعب الجنسى عند الأطفال ؟ كيف يمكن أن نجعلهم يدركون أن المسائل الجنسية مقصورة على البالغين وحدهم ، وليست من شئون الأطفال ؟ » .

٧ — « لن أنسى قط يوم أن كانت طفلتى — فى حوالى الثالثة والنصف من عمرها — تجلس على حجر صديق لنا يدعى « أرنولد » فإذا بها تقول متحدثة إلى جميع الجالسين فى الحجرة « أرنولد له قضيب » . وحيث إن هناك تشابهاً فى النطق بين كلمة « قضيب Penis » وكلمة « فول سودانى Peanuts » ، فقد طلب إليها الحاضرون أن تعيد ما قالته ! والحمد لله أن هؤلاء الأصدقاء أدركوا الأمر إدراكا سليما » .

٨ — « لقد أصبحت طفلتى تتحدانى وتعاندنى بصورة متزايدة فى الفترة الأخيرة ، فهى تقف أمامى وعيناها يتطاير منهما الشرر قائلة لى إنها ليست ملزمة بتنفيذ أوامرى . لقد حدث لها شىء لا أدرك كنهه . لذا يراودنى شعور بأنى قد أخفقت قطعاً فى معالجتها... أما أبوها فهو معصوم من الخطأ فى نظرها .

---

(١) الدب سموكى شخصية كاريكاتيرية تظهر فى بعض إعلانات التليفزيون الأمريكى التى تدعو إلى مكافحة الحرائق. وهذا الدب يتسم بالحذر وحب الخير ؛ إذ يحث الناس على عدم إلقاء أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المشتعلة التى تؤدى أحياناً إلى اندلاع النار فى الغابات .

المترجم

فهى لاتتعاون معه بصورة رائعة فحسب ، بل إنها دأبت على معاملته كأم له ، مما يبعث فى نفسه متعة غامرة . »

إنى لا أعرف بالطبع كل تفصيلات الموقف فى كل حالة من هذه الحالات ، لأن معلوماتى عنها مستمدة من الخطابات فحسب . غير أنها تذكرنى بمشكلات مشابهة فى حالات أخرى درست دراسة دقيقة فى عيادات الأطباء أو فى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، فظهر أنها مرتبطة بالتطور الانفعالى المعقد الذى لابد وأن يمر به الأطفال فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . إن معظم الأطفال يمكنهم أن يحتفظوا بتوازنهم نوعاً ما أثناء اجتيازهم لهذه المرحلة ، على حين أن غيرهم يتعثر فى «مطبات» مختلفة على طول الطريق ، أو على الأقل يهتز كيانهم من أثر التيارات العنيفة التى تعتمل فى نفوسهم ، كما يتضح لنا من الأمثلة المذكورة فى الخطابات .

وليس من السهل علينا أن نشرح هذه المرحلة من مراحل التطور الانفعالى . من أسباب ذلك أنها مرحلة معقدة . غير أن السبب الأهم من ذلك — بكثير — هو أن التحليل الشامل لهذه المرحلة يبدو شاذاً ، بعيد الاحتمال ، وغير صحى ، فى نظر معظم الكبار الذين لم يتخصصوا فى دراسة الأطفال ؛ ذلك لأن التطورات الانفعالية الهامة تحدث فى الباطن ، على المستوى اللاشعورى من عقل الطفل . وهذا هو أحد الأسباب فى أننا — نحن الكبار — لا نتذكر مثل هذه المشاعر والأحداث التى وقعت فى ماضينا ؛ إذ أنها كبتت فى عقولنا الباطنة — تماماً كما تكبت فى عقول أطفالنا — لأنها كانت تثير لنا قلقاً شديداً فى أيام طفولتنا .

* * *

فى حوالى سن الثالثة ، قد يبدأ الطفل فى إظهار مزيد من الحب الشديد نحو أبيه وأمه. فبرغم أنه كان يحبهما حباً جماً عندما كان أصغر سناً ، إلا أن ذلك

الحب كان ينبع أساساً من اعتماده عليهما ، حتى إنه يمكن القول بأن الطفل كان عندئذ « مضطراً » لأن يحبهما ، لإحساسه بحاجته الماسة إليهما ، كى يضمن لنفسه الشعور بالأمان والطمأنينة الذى لا يمكن أن يمنحه إياه سواهما .

أما الآن فقد أصبح فرداً له كيانه الخاص ، يمكنه أن يلمس الصفات المحببة فى الآخرين ، وأن يتجاوب مع هذه الصفات فى بهجة وتفان . لذا فإنه يرغب من تلقاء نفسه فى أن يؤدى بعض الخدمات لأمه وأن يقتدى بها فى سلوكه .

ثمة مظهر آخر من مظاهر الحب عند طفل الثالثة ؛ ذلك أنه فى حبه يبدأ فى التمييز تمييزاً قاطعاً بين الرجل والمرأة . فالغلام يدرك أنه ذكر ، وأنه سيشب ليكون رجلا مثل أبيه ، ومن ثم فإن حبه لأبيه يتخذ شيئاً فشيئاً مظهر الإعجاب به ، فهو يلاحظه ملاحظة دقيقة ، ويبذل قصارى جهده كى يصوغ نفسه على نمطه ، فى تصرفاته وأسلوبه العام .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن حبه لأمه يتخذ بصورة متزايدة مظهراً عاطفياً ، بسبب تكوينه الجنسى من ناحية ، وبسبب تقمصه لشخصية أبيه من ناحية أخرى . فهو يرغب فى أن يهتم بأمه ويعاملها بطريقة أبيه .

كذلك البنت الصغيرة تدرك فى هذه السن أنها فى طريقها لأن تصبح امرأة ناضجة . لذا فإنها شيئا فشيئا تقلد اهتمامات أمها ، فى العناية بالأطفال أو العرائس ، أو أداء بعض الأعمال المنزلية ، أو الزينة النسائية . كما أنها تبدى نحو أبيها شعوراً خاصاً ينم عن السرور والمتعة ، لا لشىء سوى أنه رجل . وقد تتودد إليه فى استحياء ، لا يستطيع أن يقاوم سحره .

وما بين سن الثالثة والرابعة ، يدرك معظم الأطفال أن الزواج هو أهم العلاقات بين الرجل والمرأة . لذا فإنهم بدافع من رغبتهم الشديدة فى تقمص

شخصية والديهم ، يبدأون فى التفكير فى الزواج والتحدث عنه وتمثيله فى لعبهم .
والشيء الذى لا يبدو معقولا فى نظر الكبار لكنه يبدو معقولا جداً فى نظر الأطفال ، هو أن الطفل غالباً ما يتخيل نفسه متزوجاً من ذلك الفرد من الجنس الآخر الذى تكون له أهمية قصوى بالنسبة إليه ، وهذا الفرد هو أمه إذا كان غلاماً ، أو أبوها إذا كانت فتاة . فالطفل فى هذه السن الغضة يجهل حقائق كثيرة عن الزواج ، منها أن الاقتران بأحد الوالدين ضرب من المحال . غير أن الأم العاقلة لا تخجل طفلها إذا حدثها يوماً ما عن رغبته فى الزواج منها ، لإدراكها أن تفانيه فى حبها وطبيعته البريئة هما اللذان دفعاه إلى إبداء هذه الملاحظة . وقد أخبرتنى عشرات الأمهات أنهن حاولن فى صبر وأناة أن يشرحن لأبنائهن كيف أنهم سيكبرون ويتزوجون من فتيات لطيفات فى مثل سنهم ، غير أن الطفل يصر إصراراً قاطعاً فى نهاية الحديث على أنه « سوف يتزوج ماما ؟ » ، فنحن حين نتحدث إلى طفل صغير عن الزواج بفتاة أخرى فى المستقبل فما من شك أن هذا يبدو فى نظره عملا سخيفاً يجافى العقل وينطوى على الغدر بأمه ، مثلما يبدو فى نظر شاب وفتاة عقدت خطبتهما حديثاً ، لو أننا حاولنا أن نطرق معهما نفس الموضوع .

على أن اهتمامات الأطفال الجنسية والعاطفية لا تتجه إلى الوالدين فحسب ، بل إن مشاعرهم الجنسية بصفة خاصة قد تظهر بشكل أوضح فى علاقتهم بغيرهم من الأطفال ، فهم يميلون فى بعض الأحيان ، عندما يكونون بعيدين عن عيون الكبار ، إلى الاشتراك معاً فى لعب جنسى طفلى ، كأن ينزلوا سراويلهم « ألبستهم » كى يرى بعضهم بعضا أعضاءهم التناسلية ويقارنوا بينها ويلمسوها بأيديهم ، أو أن يلعبوا معاً « لعبة الدكتور » فيفحص أحدهم الآخر . كما أن معظم الأطفال — على الأقل — يميلون إلى شيء من العبث بأعضائهم التناسلية .

وقد يتكىء أحد الأولاد على فخذ إحدى الزائرات أثناء حديثه إليها ، أو يطلب إلى أمه أن تلمس له عضوه فى أثناء الاستحمام . غير أن هذه التعبيرات الجنسية لا تتخذ عند الأطفال الذين تكيفوا تكيفاً سليماً نفس المظهر الحاد الذى تتخذه عند المراهقين والبالغين ، لذا فإن من السهل نسبياً على الوالدين أن يردعوهم عنها بصفة مؤقتة على الأقل . أما عند ما يثابر الطفل مثابرة شديدة على ممارسة العادة السرية أو اللعب الجنسى ، رغم استنكار الوالدين لسلوكه ، فإن هذه الظاهرة تدل فى العادة على أنه يعانى من القلق والاضطراب .

ثمة تطور آخر يحدث فى هذه السن ، ألا وهو الاهتمام الكبير الذى يبديه الأطفال بمعرفة من أين يأتى الطفل ، فضلا عن رغبتهم فى إنجاب أطفال من صلبهم . وربما كانت هناك عوامل عديدة تؤدى إلى هذا الاهتمام الذى يشغل بال الأطفال ، منها الفضول العقلى الشديد الذى يدفع الطفل فى هذه السن إلى السؤال عن معنى كل شىء يصادفه ، ابتداء من السؤال عن مصدر المطر ، حتى السؤال عن السبب فى أن الطيور تأكل الديدان . والعامل الأهم من ذلك ، هو أن تقمص الطفل لشخصية والديه يجعله يرغب فى أن يكون له طفل خاص به ، لمجرد أن يكون مثلهما . كما أنه يتوق فى هذه السن ، سن الحب والتعلق ، لأن يكون له طفل يحيطه بالحب والرعاية ، لشعوره بأن حب والديه له قيمة كبرى بالنسبة إليه .

* * *

ينبغى أن نتناول الآن مظهراً آخر مختلفاً تمام الاختلاف ، من مظاهر النمو الجنسى عند الأطفال فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة : ألا وهو الخطأ الشائع بين الأطفال فى إدراك الاختلاف الجسمانى بين البنين والبنات . وهذه مشكلة يصعب علينا نحن الكبار أن نفهمها على وضعها الصحيح ، لأننا نفترض

— بمنطق الكبار — أن الطفل حين يرى لأول مرة بنتاً مجردة من ثيابها ويدرك أنها مختلفة عنه فى تكوينها الجسمانى ، فإنه يستنتج بكل بساطة أن هذا الاختلاف لابد أنه وليد الطبيعة ، وأن الطبيعة قد قصدت أن يكون تكوين الأولاد مختلفاً عن تكوين البنات . غير أن البحوث التى قام بها علماء النفس ابتداء من فرويد حتى الآن ، فضلا عن ملاحظات الآباء والأمهات أنفسهم تبين أن الأطفال لا يدركون هذه الحقيقة من حقائق الحياة بهذه البساطة . بل إن الطفل الصغير يفترض بدلا من ذلك أن جميع المخلوقات البشرية قد خلقت أصلا فى مثل تكوينه . وبناء على ذلك يهديه عقله إلى أن إصابة ما لا بد قد حدثت للبنت . ثم ينتهى إلى افتراض أبعد من ذلك ، وهو أنه ما دام من الممكن أن يحدث حادث فظيع يودى بقضيب البنت ، فإن نفس الشىء قد يحدث لقضيبه هو أيضاً .

كذلك تقع البنات فى نفس الخطأ . غير أن الاختلاف الرئيسى بين الأولاد والبنات من هذه الناحية ، هو أن الشعور الذى يتخلف فى نفس الولد يكون أساساً شعوراً بالقلق ينجم عن خوفه من الضرر الذى قد يحيق بقضيبه فى المستقبل ، فى حين أن قلق البنت بشأن عدم تكامل أعضائها يمتزج بخيبة أملها فى أمها لأنها ولدتها ناقصة الأعضاء ، ويخلف عندها شعوراً بالتنافس مع الأولاد لأنهم يتمتعون بهذه الميزة المزعومة . (على أية حال ، توجد طائفة قليلة من الأولاد يطغى عليهم الشعور بالقلق لدرجة أنهم يحسدون البنات لأنهن لا يملكن شيئاً يخشين ضياعه) .

لماذا توجد هذه النزعة عند الأولاد والبنات على السواء للوصول إلى نتائج خاطئة تهدد بالخطر ، بدلا من الوصول إلى نتائج معقولة تبعث على الطمأنينة ؟ إننا نعرف إجابات عديدة جزئية لهذا السؤال ، منها أن الطفل الصغير يحب التملك بطريقة فى غاية السذاجة والبساطة ، فهو يبدى رغبة فى امتلاك أى شىء يقع عليه بصره ، ولذلك فإن البنت الصغيرة حين ترى قضيب الولد ، يخيل إليها أن

من المستحسن أن يكون لها قضيب مثله ، دون ما سبب معقول سوى ذلك .
(وبنفس الطريقة نجد أن الولد الصغير الذى عرف لتوه أن البنات فقط هن اللائى يستطعن حمل الأطفال فى بطونهن ، قد يصر إصراراً شديداً على أنه هو أيضاً سوف يحمل طفلا فى بطنه ، بغض النظر عما يقوله الناس فى هذا الشأن) .

إن فترة الطفولة المبكرة هى المرحلة التى يسهل فيها على الطفل تكوين المخاوف . وربما تكون الطبيعة قد تعمدت ذلك استناداً إلى مبدأ عام : هو أنه ما دامت هناك أخطار حقيقية تحيط بالإنسان فى الحياة ، فقد يكون من الأسلم على المدى البعيد ، لو أن الطفل الذى يسير على هدى تجارب محدودة فى حياته ، قد تولدت عنده مخاوف أكثر من اللازم ، بدلا من أن تكون هذه المخاوف أقل من اللازم ، كما أن استعداد طفل الثالثة والرابعة والخامسة لأن يتقمص شخصيات الآخرين — فيحس كما يتوهم أنهم يحسون — هذا الاستعداد الذى يرسخ فى أعماقه كى يدفع عملية تعلمه ونضجه ، يجعله شديد الحساسية فى كثير من المواقف التى تعوزه فيها معلومات أساسية يمكنه أن يستفيد بها فى فهم حقيقة هذه المواقف . ولعلك قد لاحظت أنت بنفسك كيف ينحرف مزاج طفل الثالثة ويكتئب من منظر الموتى أو المقابر أو الكسيحين . وإنى لأذكر قصة طفل فى الرابعة كان يتطلع إلى صورة رجل فى رئة من الحديد ، فإذا به يصيح فجأة فى ألم فادح : «إنى لا أستطيع التنفس» ؛ ذلك أن مجرد التطلع لبضع ثوان إلى صورة هذا الرجل ، جعله يتمثل الأثر الكامل الذى يحدثه الشلل على عضلات الجهاز التنفسى.

هناك عامل آخر قد يؤدى بصفة خاصة إلى قلق الطفل على أعضائه التناسلية وهو التحذيرات التى يلجأ إليها بعض الآباء لمقاومة العادة السرية عند أطفالهم . حقيقة أنه فى هذه الأيام ، يتجنب الآباء والأمهات الحساسون عادة تهديد أطفالهم بالعقاب على ممارسة العادة السرية . غير أن البعض منهم ، لعجزهم عن

التخلص من تعاليم طفولتهم ، ما زالوا يتحدثون إلى أطفالهم — ولو فى لهجة رقيقة لاتحمل طابع الاتهام — عن احتمال حدوث إصابات أو التهابات بالأعضاء التناسلية من جراء لمسها بالأيدى . ورغم أن مثل هـذه التحذيرات لا تكون عنيفة فى حد ذاتها ، فإنها لا نلبث أن تتوافق وتلتقى مع أفكار أخرى مفزعة ، يكون الطفل قد التقطها من غيره أو توهمها فى مخيلته . وفضلا عن ذلك ، قد تأخذك الدهشة لعدد الآباء الذين لا يقدرون اليوم قيمة نظريات التربية الحديثة، فيدأبون على تهديد أطفالهم فى لهجة غاضبة ، بأن « قضبانهم » سوف تذيل تماماً أو أنهم سوف يبادرون ببترها لهم ، إذا لم يكفوا عن مزاولة العادة السرية .

هناك عامل آخر هام يساعد على الشعور بالقلق على الأعضـاء التناسلية ، لـكننى سأرجىء الحديث عنه برهة ، ريثما أتتبع التطورات التى تحدث فى شعور الطفل بالحب نحو والديه . إن عاطفة الحب المتبادلة بين الجنسين من بنى البشر ، تتسم دائماً بالرغبة فى التملك . فالرجل الطيب الذى يحب زوجته يريد منها ألا تحب سواه من النـاحية الجنسية ، وتتملـكه الغيرة إذا هدد رجل آخر العلاقة بينهما . لذا فإن الطفل الصغير كلما ازداد شعوره الخاص بالحب نحو أمه ، ازداد أيضاً شعوره بأنها تنتمى لأبيه من قبله . فهما يخرجان معاً ، ويشتركان فى اهتمامات تستعصى على فهمه ، وينامان معاً فى نفس الحجرة . ثم بالتدريج يواجه الطفل الحقيقة ، وهى أنه يأتى فى المرتبة الثانية ما فى ذلك من شك . ومن البديهى أن إدراك هذه الحقيقة يثير مرارة فى نفس المرء أياً كانت سنه . لـكنه بلاريب أشد وطأة على نفس الطفل الصغير ، لشعوره بأن أباه متفوق عليه فى كثير من النواحى ؛ متفوق عليه فى الحجم والقوة والوسامة والأقدمية . كما أن استياء الطفل من أبيه يمتد إلى أعضائه التناسلية أيضاً . فقد سمعت من بعض الآباء أنهم فى بعض الأحيان عند ما يكونون مجردين من الثياب ، فإن أولادهم البالغين من

العمر الرابعة أو الخامسة يتظاهرون بالانقضاض على أعضائهم ، فى حركات تجمع بين المزاح والعنف .

ولعل السبب فى أن الطفل يبدى استياءً خاصاً نحو عضو أبيه ، هو أن هذا العضو رمز مناسب يدل على عدم تكافؤ المنافسة بينهما . لذا تراود الطفل رغبة فى إلحاق الأذى به ، ثم يتوهم أن أباه قد تراوده رغبة مماثلة فى الانتقام منه . وهذا الأسلوب فى التفكير وليد معتقدات عديدة يؤمن بها الأطفال ، فالطفل يعتقد أن الرغبة الشريرة تكاد تحدث نفس الضرر الذى يحدثه العمل الشرير ويعتقد أيضاً أن والديه يعرفان كل ما يدور بخلده ، وأنه حين يكن شعوراً بالسخط والغضب نحو إنسان ما ، فإن هذا الإنسان لا بد وأن يكن له نفس الشعور تلقائياً . وعلى هذا الأساس ، يفترض الطفل أنه ما دام يرغب أحياناً فى إقصاء غريمه ، فمن البديهى أن هذا الغريم — أباه — يرغب أيضاً فى إقصائه .

من هنا يمكنك أن تتبينى كيف أن خوف الطفل من انتقام أبيه يضيف سبباً آخر إلى أسباب القلق على سلامة أعضائه التناسلية .

ومن المتناقضات المؤسفة أن أحد الأعراض التى تظهر على الغلام عند ما يستبد به القلق على قضيبه ، أنه يشغل نفسه كثيراً بالعبث به ، دون أن يبدو عليه أنه يعى مايفعله ، كما لو كان يطمئن نفسه لا شعورياً إلى أن قضيبه ما زال فى مكانه ، وكما لو كان يحميه من الأذى . على أن هذا السلوك من الطفل يدفع الوالدين — من أثر قلقهما على خلقه وسمعته — إلى تحذيره فى لهجة رقيقة أو عنيفة من العواقب التى قد تنجم عن ذلك ، الأمر الذى يعقد المشكلة ويزيد من حدتها . كما أن البنت التى يستبد بها القلق ، قد تعبر عن هـذا القلق بالعبث المستمر فى أعضائها التناسلية .

فالبنت يراودها أيضاً شعور بالتنافس مع أمها ، لأنها تدرك أن أمها قد

امتلكت أباها من قبلها ، بل إنها قد أنجبت منه أطفالا . وهى تود لو أنها حلت محل أمها فى كلتا هاتين الناحيتين . (أحياناً ما تبرز هذه الظاهرة فى أسرة سعيدة عندما تحث البنت الصغيرة أمها على القيام برحلة طويلة وتتعهد برعاية شئون أبيها فى أثناء غيابها) . غير أنها تتوهم أن أمها تدرك نواياها الخبيثة وتبادلها نفس هذا الشعور بالتنافس . لذلك ، فبالإضافة إلى خيبة أملها السابقة لأن أمها — فيما يبدو لها — قد ولدتها ناقصة الأعضاء ، فهى قد تتوهم أيضاً أن أمها قد سلبتها قضيبها عقاباً على منافستها لها .

* * *

قد يراودك الشك فى أن هذه الأحاسيس المريضة يمكن أن تنشأ عند الأطفال . فهى فى الغالب لا تطفو على السطح ، لا سيا فى الأسر السعيدة . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن السبب فى ذلك هو أن الطفل فى الوقت الذى يتربى لديه هذا الشعور بالتنافس ، يتولد عنده أيضاً شعور عميق بالإعجاب بأبيه — أو أمه — الذى هو من نفس جنسه على اعتبار أنه مثله الأعلى ، إلى جانب شعوره بالحب نحو هذا الأب — أو الأم — على اعتبار أنه رفيق لطيف يبعث فى نفسه السرور والبهجة . وهذا التضارب فى مشاعر الطفل هو الذى قد يخفى شعوره بالعداء فى معظم الأحيان .

لذلك فإن الطبيب النفسانى الذى يحاول أن يكتشف مصدر الاضطراب عند أحد الأطفال قصد تقويم شخصيته ، هو الذى تتاح له أحسن الفرص لأن يتبين المشاعر السلبية المكبوتة فى نفس الطفل ، لأن الطبيب النفسى يحجم عن نقد أفكار الطفل مهما تكن هذه الأفكار ، وبذلك يمكنه فى خلال فترة من الزمن أن يخلق له جواً مناسباً للتعبير عن نفسه ، فتبدأ دوافعه المكبوتة تطفو

إلى السطح . وفى هذه الحالة يعبر الطفل — أو الطفلة — عن مشاعره برسم بعض القصص المصورة ، أو بإخراج تمثيليات من بنات أفكاره مستعيناً بالتماثيل الصغيرة والعرائس .

وفى بعض هـذه المواقف الوهمية ، يتخيل الأطفال أن هناك أولاداً يقتلون آباءهم ، ثم يعود الآباء إلى الحياة ، فيقتلون أبناءهم أو يلقون بهم فى السجن أو يتخيلون أن أعضاءهم التناسلية قد بترت بالسيوف . أو تتخيل البنات أن هناك أمهات يقمن برحلات طويلة يلقين فيها حتفهن ، فتضطلع بناتهن بمهمة إدارة البيت وإنجاب الأطفال ، ثم تعود الأمهات إلى الحياة لينزلن ببناتهن العقاب .

ورغم أن أحاسيس الطفل بالمنافسة والعداء والخوف تكبت فى عقله الباطن فإنها تعود إلى الظهور فى صورة مقنعة أثناء الأحلام بالليل ، بل وفى أثناء النهار أيضاً ، حتى ولو لم يكن الطفل فى عيادة الطبيب النفسانى . وهـذا فى رأيى هو السبب فى أن كثيراً من الأطفال يعانون من الكابوس فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة .وهو أيضاً السبب فى وجود كثير من المخاوف الوهمية — الحادة أو الهينة — عند الأطفال فى هذه المرحلة ، دون أن يكون لهذه المخاوف تفسير منطقى معقول . فخوف الطفل من أن تلحق إصابة ما بعضوه التناسلى ، يكون بالغ الحدة فى هذه السن ، بحيث لا يستطيع أن يتحمله فى عقله الواعى . غير أنه يستطيع أن يعبر عن هـذا الخوف بطريقة غير مباشرة ، فيبدى انشغالاً شـديداً بالأشياء المكسورة ، أو يبدى فضولا متطرفاً يكتنفه القلق نحو أعضاء تناسل الأطفال الآخرين، أو يداوم —وهو شارد الذهن— على مسك قضيبه ، أو ينتابه خوف وهمى من الكسيحين أو ذوى العاهات .

كما أن شعور البنت بالعداء نحو أمها وشعورها بالخوف من عقابها لها ، قد

ترمز إليه أحلام مزعجة متكررة تدور حول نساء يمارسن السحر ، أو قد يتخذ مظهر الخوف من الكلاب دون ما سبب معقول . وقد يكون خوف غلام خوفا وهمياً من أحد الحيوانات المفترسة ، وليد شعوره بالقلق من المنافسة بينه وبين أبيه . فمثل هذا الحيوان تتوافر فيه صفات الضخامة والقوة والخشونة التي يحس الولد الصغير أنها تهدده في شخص أبيه . كما أن « الدب سموكى » الذى يكافح الحرائق ، قد يكون رمزاً مناسباً لأب عادل في نظر الطفل ، لأن هذا الدب يبدى استنكاراً شديداً لتصرفات المخربين الأشرار . بل إن الفكرة المفزعة عن اندلاع النار فى إحدى الغابات ، قد تذكر الطفل بمشاعر الغضب التى تعتمل فى نفسه فتثير فيه شعوراً حاداً بالذنب ، كما تذكره أيضاً بالخطر الذى قد ينجم عن العداء الذى يتوهم أن الآخرين يكنونه له .

وليس من الضرورى أن تتخذ المخاوف الوهمية عند الأطفال ، مظهراً ثابتاً أو طابعاً منطقياً ، ما دامت تتوافر فى هذه المخاوف العناصر المختلفة التى تمثل المشاعر والانفعالات المكبوتة فى نفس الطفل . لذلك نجد أن شخصية الدب سموكى ، التى لا يقصد منها سوى أن تمثل الحذر وحب الخير ، تفقد طابعها تماماً وسط الخليط المهوش من الأحاسيس المضطربة التى تعتمل فى نفس الطفل . وما زلت أذكر حتى الآن ذلك الخوف الوهمى من سيارات المطافىء الذى كان يتملكنى فى فجر طفولتى . فرغم إدراكى أن مهمتها الرسمية هى مساعدة الناس على إطفاء الحرائق ، فإنى كنت أحس فعلا أنها شىء فظيع متوحش ينشر الحرائق المدمرة فى كل مكان ، عندما كنت أسمع صوت أجراسها يشق سكون الليل .

* * *

لقد اكتشف فرويد أثناء علاجه لبعض المصابين بالمخاوف الوهمية أو غيرها من الاضطرابات العصبية ، أن من الممكن عن طريق التحليل النفسى تتبع بعض

أسباب هذه الاضطرابات ، بالرجوع إلى هذه المرحلة من مراحل الطفولة ، التى تختلط فيها مشاعر الحب ، والعداء ، والمنافسة ، والإحساس بالذنب ، والخوف من إصابة الأعضاء التناسلية (عقدة الإخصاء) . وقد أطلق فرويد على هـذه المشاعر المركبة اسم « عقدة أوديب » نسبة إلى الأسطورة الإغريقية عن أوديب الملك الذى توالت عليه النكبات ؛ إذ نشأ يجهل من هما أبواه الحقيقيان ، مما أدى به إلى أن يقتل أباه فى عراك بينهما ثم يتزوج من أمه ، فلما اتضحت له الحقيقة فقأ عينيه .

ويعتقد بعض الناس الذين سمعوا عن « عقدة أوديب » أنها لا تنطبق إلا على المصابين بالاضطرابات العصبية . على حين أن البعض الآخر يدرك أن هذه العقدة تلعب — فى رأى فرويد — دوراً فى عملية النمو عند جميع بنى البشر ، غير أنهم يعتقدون أن لها دائماً أثراً ضاراً على شخصية الفرد بدرجة أو أخرى. لـكننى أعتقد أنه من الأصوب أن ننظر إلى هذه المرحلة على أنها خطوة أساسية بناءة فى عملية نمو جميع المخلوقات البشرية السوية . أما الظواهر الأليمة التى تلازم هذه المرحلة فهى لا تختلف عن غيرها من الشـدائد العادية التى نواجهها فى الحياة ، كالإصابة فى بعض الحوادث التى تعلمنا الحذر ، أو الشعور بالغيرة من الإخوة والأخوات الذى يتحول إلى حب للغير ورغبة فى العمل من أجلهم ، أو العراك بين الأصـدقاء فى أيام طفولتهم الذى يربى فيهم روح التسامح والتعاون ، أو التجارب الأولى فى العلاقات بين الأزواج وزوجاتهم التى تدعم حياتهم الزوجية فى نهاية الأمر .

وقد تبين لنا أن تجربة حب أحد الوالدين ، التى يمر بها الطفل فى هذه السن المبكرة حينما يكون سريع التأثر ، لهـا أعمق الأثر فى تكوين مثله العاطفية ، وفى إعداده لأن يقيم حياة زوجية موفقة ، ويصبح أباً صالحاً — أو أمـاً صالحة —

عندما يحين الوقت المناسب . بل إن الشعور الأليم بالتنافس مع أحد الوالدين الذى من نفس الجنس ، يتيح للطفل فى نهاية الأمر أن يستفيد من علاقته بذلك الوالد فى بقية مراحل الطفولة ، كما أنه يدربه على ألا يشعر بالخوف من المنافسات اليومية بينه وبين غيره من بنى جنسه فى مجال العمل ، وإنما يعالج هذه المنافسات بطريقة بناءة طوال حياته .

معالجة حالات القلق والاهتمامات الجنسية

« من الحكمة أن نعمل على ألا يتجاوز
قلق الطفل الحدود المعقولة » .

شرحت فيما سبق بعض حالات التوتر التي تتولد — في أعماق النفس — عند الأطفال في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . وأود الآن أن أناقش بعض النواحي العملية في هذه المرحلة من مراحل النمو .

يواجهنا أولا السؤال عما ينبغي عمله لمساعدة الأطفال الذين ينتابهم « الكابوس » ، أو الخوف من الظلام ، أو الخوف الوهمي من بعض الحيوانات أو الكسحاء ، أو غير ذلك من الأعراض التي تظهر في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . هل يحتاج هؤلاء الأطفال إلى مساعدة الإخصائيين ؟ من المحال أن نجيب عن هذا السؤال إجابة قاطعة مانعة . فالأمر يتوقف على ثلاثة أسئلة أخرى على الأقل : ما مدى حدة الأعراض عند الطفل ؟ ما مدى الفترة التي استمرت فيها هذه الأعراض ؟ كيف تسير أمور الطفل في نواحي الحياة الأخرى ؟

إذ أن نسبة لا يستهان بها من الأطفال ، تنتابهم في هذه السن حالات الكابوس من وقت لآخر ، أو حالات بسيطة من الخوف الوهمي ، تستمر لبضعة أسابيع أو أشهر ، ثم تتلاشى تدريجاً . فإذا كان الطفل الذي تنتابه هذه الأعراض البسيطة المؤقتة ، على علاقة طيبة مع كلا والديه ، ولا يتعلق بهما تعلقاً شديداً ، أو يصعب عليهما قياده ، وإذا كان يسعى إلى مصاحبة غيره من الأطفال ويمكنه المحافظة على مركزه بينهم ، فإني في هذه الحالة أعتقد أنه ما من

سبب يدعو الآباء إلى القلق أو يدعوهم إلى محاولة الحصول على المساعدة من الإخصائيين .

أما إذا تكررت حالات الكابوس بانتظام طوال شهور عديدة ، أو ظل الطفل يعانى قلقاً شديداً بشأن الأمراض أو الإصابات أو الحيوانات أو «البعبع» ، كذلك إذا كان يغالى فى اعتماده على أحد الوالدين ، أو يغالى فى خوفه من الآخر ، أو يعامله فى أسلوب ملىء بالتحدى ، أو إذا دأب على العبث بأعضائه التناسلية (فى غير الأوقات التى تلح عليه الرغبة فى التبول) ، أو إذا سيطرت عليه فكرة تعرية الأطفال الآخرين من ثيابهم ، أو إذا كان ولداً يستبد به الخوف من كونه ولداً حتى إنه يتظاهر دائماً بأنه بنت ، أو إذا كانت بنتاً يطغى عليها الشعور بالاستياء من جنسها حتى إنها تصر دائماً على أن تسلك سلوك الأولاد ، فإنه فى كل هذه الحالات يتوافر دليل قوى على أن الطفل قد أخفق فى معالجة التوترات التى تصحب هذه المرحلة « الأوديبية » ، وأنه فى حاجة إلى بعض المساعدة من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو من أحد الأطباء النفسانيين . أما فى المناطق التى لا تتوافر فيها عيادات توجيه الأطفال ، فإنه قد توجد إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، كى تساعد الأم على معالجة مشكلة الطفل .

غير أن الأهم من ذلك بالنسبة لمعظم الآباء والأمهات ، هو أن يعرفوا كيف يوجهون الطفل فى أثناء هذه المرحلة من مراحل النمو ، حتى لا تضطرب أموره أكثر من اللازم .

* * *

ما الأسلوب الذى ينبغى أن ينتهجه الآباء فيما يختص بالعبث بالأعضاء التناسلية ، الذى يحدث « أحياناً » عند معظم الأطفال الطبيعيين الأصحاء ، فى

حوالى سن الثالثة أو الرابعة (وهو مختلف تمام الاختلاف عن عمليــة العبث « المستمرة » التى يمارسها الطفل القلق) ؟ فى بادئ الأمر قد لا يدرك الطفل مطلقاً أنه من الممكن حدوث أى اعتراض على هذا العبث بالأعضاء التناسليــة ، حتى إنه لا يبذل أى جهد لإخفائه عن العيون ، بل قد يخبر والديه بأنه يمارسه لأنه يبعث فيه شعوراً ساراً . لذا أعتقد أن الإجابة عن السؤال السابق تختلف بعض الشىء باختلاف المعتقدات التى يؤمن بها الآباء . فهناك آباء يدركون تماماً وجهة النظر الطبية فى هذا الشأن ، وهى أنه لا توجد أية نتائج ضارة من الناحية الجسمية أو الانفعالية ، يمكن أن تلحق بالطفل المتوافق مع البيئة ، من جراء العبث بالأعضاء التناسلية فى حد ذاته . كما أنهم لا يعترضون اعتراضاً قوياً على هذه العملية من الناحية الدينية أو الأخلاقية ، بل إنهــا لا تثير انزعاجهم بصفة خاصة . مثل هؤلاء الآباء يمكنهم أن يذكروا أمام أطفالهم — فى لهجة طبيعية — ما يفيد أن العبث بالأعضاء التناسلية ، شأنه شأن التبول تماماً ، لا يعتبر سلوكا مهذباً أمام الناس . غير أن طائفة قليلة من الآباء قد تتســاءل ما إذا كان من الضرورى أن نوجه الأطفال فى هذه الناحية ، حتى هــذا التوجيه البسيط . من الجائز ألا يكون هذا التوجيه ضرورياً فى بعض البلاد الأخرى التى لا يستهجن فيها الناس ممارسة الأطفال للعادة السرية . أما فى بلادنا فإن عدداً كبيراً من الناس يستهجن عبث الأطفال بأعضائهم التناسلية بوجه عام ، بل يكاد يجمع الناس على استهجانه ، إذا رأوا الأطفال يمارسونه علناً . وأعتقد أن هذا هو السبب فى أن غالبية الأطباء النفسانيين ينصحون الآباء والأمهات بردع الأطفال عنه ؛ إذ ليس من مصلحة الطفل أن يشب على اعتقاد أن الإساءة إلى مشاعر الجماعة التى يعيش بينها ، تصرف سليم لا غبار عليه .

كما أن نفس النصيحة تنطبق على اللعب الجنسى الذى يمارسه الأطفال

فيما بينهم ؛ إذ يحتمل أن تستنكره الغالبية العظمى من الآباء في شتى الأنحاء ، ويسيء إلى سمعة الطفل الذي يدأب على ممارسته .

والكثيرون من الآباء الذين بحكم عقيدتهم الدينية يستنكرون العبث بالأعضاء التناسلية استنكاراً قاطعاً ، أو الذين بحكم نشأتهم يحسون بالضيق حين يلمسون هذه الظاهرة في أطفالهم ، هؤلاء الآباء يرغبون بطبيعة الحال في منع أطفالهم من العبث بأعضائهم التناسلية ، لا أمام الناس فحسب ، بل في الخفاء أيضاً ، رغم ما يسمعونه عن رأي الأطباء في هذا الشأن . (إن كثيراً من الآباء الذين يعتقدون أنهم قد تغلبوا تماما على الشعور بالاستنكار لهذه الظاهرة ، تستبد بهم الدهشة حين يلمسون مدى القلق الذي يطغى عليهم عندما يكتشفون فجأة أن أطفالهم منغمسون فيها) . وفي اعتقادي أن الآباء الذين يستهجنون العبث بالأعضاء التناسلية أو ينزعجون منه ، ينبغي أن يردعوا أطفالهم عنه ، في أسلوب يتسم بالفهم وحسن الإدراك . لأنهم إذا شعروا بالضيق نحو أطفالهم في إحدى النواحي ، يتعذر عليهم أن يحسنوا تربيتهم في النواحي الأخرى . فالأطفال يلمسون دائماً الأحاسيس التي تختلج في نفوس آبائهم ، ويفضلون — في غالبية الأحيان — أن يساعدهم الآباء على التوافق معهم . لذا فإنهم لا يرتاحون إلى الآباء الذين يستنكرون العبث بالأعضاء ، لكنهم يحاولون كبت شعورهم بالاستنكار في أعماق نفوسهم . على أن أهم شيء ينبغي أن يتجنبه الوالدان هو أن يبثا في الطفل شعورا بأنه سيؤذي نفسه من جراء عبثه بأعضائه التناسلية ، أو أن يخلقا عنده شعوراً بأن هذا النوع من السلوك أسوأ كثيراً من مظاهر سوء السلوك الأخرى ، حتى إنه قد يؤدي لأن ينبذاه تماماً .

إن من الممكن في العادة أن يقاوم الوالدان عبث الطفل بأعضائه التناسلية بنفس الوسيلة التي يقاومان بها الأنواع الأخرى من السلوك المستهجن ، ذلك بأن

تقول الأم لطفلها فى بساطة : «ماما لا تحب منك أن تفعل هذا» أو : « إن هذا سلوك غير مهذب» . على أن توجه إليه هذا الكلام فى لهجة تتسم بالحزم لكنها توحى بالثقة به ، كما لو كانت تقول له . « إنى أعلم أنك ستبذل قصارى جهدك » . غير أن الوالدين عند ما ينهيان طفلهما عن الجرى إلى الشارع مثلا ، فإنهما يفعلان ذلك فى العادة بطريقة تبين للطفل فى جلاء أن اعتراضهما ينصبُّ على عملية الجرى فى حد ذاتها . لكنهما فى بعض الأحيان عندما ينزعجان من فعل معين له مدلول أخلاقى كالعبث بالأعضاء التناسلية (أو السرقة مثلا) فإن شعورهما بالقلق على أخلاق الطفل قد يدفعهما إلى الهجوم عليه فى استنكار عنيف موجه إلى « شخصه » ، مما يجعله يشك فى طيب عنصره ويخشى أن يكف والداه عن حبه كلية .

ثمة سبب آخر يدعو الوالدين إلى عدم تحذير الطفل من الإصابات أو تهديده بالحرمان من حبهما كوسيلة لمنعه من العبث بأعضائه التناسلية ، وهو أن الأطفال الصغار — حتى أشدهم طاعة لوالديهم — سيعودون فيستسلمون لإغراء العبث بأعضائهم على فترات متباعدة (شأنهم فى ذلك شأن غالبية المراهقين) ، مما قد ينجم عنه ازدياد شعورهم بالجزع أو الحقارة .

وكما يمكن أن تتخيلوا فإنه ليس من الحكمة إجراء عملية الختان للطفل فى هذه السن ، لأن هناك احتمالا أن يسىء تأويلها .

* * *

يمكننا أيضاً أن نطبق معلوماتنا عن هذه المرحلة « الأوديبية » من مراحل النمو تطبيقاً عملياً ، فى مجال الإجابة عن أسئلة الأطفال الصغار بشأن الفروق الجسمانية بين الأولاد والبنات . ولكى نكون واقعيين فى هذا المجال منذ البداية ، علينا أن نذكر أنه قد ثبت لنا بالدليل استحالة شرح حقائق الحياة لطفل فى الثالثة

بطريقة تقضى تماماً على كل مخاوفه بشأن إصابة أعضائه التناسلية . ومع ذلك فإن ما نرغب فيه هو ألا تتجاوز هذه المخاوف الحدود المعقولة .

فلو أن الآباء والأمهات أدركوا أنه من المحتمل جداً بالنسبة للأطفال الصغار أن يستنتجوا أن البنت كان المفروض أن يكون لها قضيب ، وأنه من السهل أن يفقد الولد قضيبه ، فإنهم فى هذه الحالة قد يكون لديهم شىء من الاستعداد لفهم المعانى الكامنة وراء بعض أسئلة أطفالهم وإجابتهم عليها بطريقة تبعث فى نفوسهم الطمأنينة بقدر الإمكان .

ومن بين المتاعب التى تواجهها الأمهات فى هذه الناحية ، أن الأسئلة غالباً ما تنطلق من الأطفال الصغار على حين فجأة ، لا فى خلوة البيت فحسب ، بل علناً أمام الناس . وقد سمعت قصصاً عديدة عن اكتشاف بعض الأطفال للفروق بين الجنسين أثناء وجودهم على شاطىء البحر « البلاج » . فالطفلة ابنة الثالثة قد تشير بإصبعها فى ذهول إلى عضو أول غلام تراه مجرداً من ثيابه ، قائلة لأمها : « ما هذا ؟ » أو قد يقول أحد الأولاد لأمه بصوت عال : « أين قضيبها ؟ » عندئذ تحس الأم المهذبة بحافز غريزى يدفعها لأن تقول للطفل . « هس ! » أو تقول له « لا تشر هكذا بإصبعك . » أو تسارع إلى تغيير موضوع الحديث . على أن هذه الإجابات لا تبعث الطمأنينة فى نفس الطفل الذى قد بدأ يحس بالقلق ، لشعوره بأن أمه تخفى عنه أموراً تجرى فى الخفاء .

غير أن هذه الأسئلة تكون أقل إحراجاً للأمهات عندما يوجهها إليهن الأطفال فى البيت ، ومع ذلك فإن معظمهن يحسن بالدهشة حين يلمسن كيف يعتريهن شعور بالتوتر عندما يوجه الطفل أول سؤال له فى هذا الشأن ، فيجبن عنه فى لهجة تختلف عن لهجتهن المألوفة ، ويحاولن اللف والدوران للتملص من الإجابة ، أو يتظاهرن بأنهن لم يسمعن السؤال .

وعندما تعود الأم إلى البيت من المستشفى حاملة مولوداً جديداً من الجنس الآخر ، فإن الطفل ما بين سن الثانية والسادسة ، الذى لم يسبق له أن رأى جسما عارياً لطفل من هذا الجنس ، قد يوجه بعض الأسئلة إلى أمه ، عندما يرى أعضاء الرضيع لأول مرة ، أثناء تغيير « الكافولة » أو الاستحمام ، ولئن استبد به الذهول لدرجة يعجز معها عن توجيه الأسئلة ، فإن الأم يمكنها فى العادة أن ترى علائم القلق وقد ارتسمت على وجهه .

يحدث أحياناً أن طفلا وحيد أبويه يناهز الخامسة أو السادسة من عمره ، دون أن يرى أطفالا آخرين أو يرى والديه عاريين من ثيابهما . لكنى أعتقد أن هذا القدر من السذاجة والبراءة قلما يوجد بين الأطفال ، بل إنه فى الواقع أندر كثيراً مما يتوهم الناس فى العادة . لا سيما وأنه فى هذه الأيام التى تتميز بالبيوت الصغيرة المتواضعة ، لا توجد سوى طائفة قليلة جداً من الأسر هى التى تعيش فى بيوت رحبة تتوافر فيها حجرات خاصة للجميع ، بحيث لا يخطىء الأطفال أحياناً فيدخلون إحدى حجرات الاستحمام أو حجرات النوم عند ما يكون أحد الوالدين ، أو أى فرد آخر من أفراد الأسرة ، مجرداً من ثيابه . أما خارج البيوت فإن عيون الأطفال قد تلمح فجأة جسما عارياً فى حمام الجيران ، أو على شاطىء البحر ، أو خلف الأشجار فى الحدائق ، أو فى المراحيض العامة . كما أن بعض الأطفال بدافع من الفضول المتبادل بينهم يعمدون فى بعض الأحيان إلى خلع ثيابهم كى يرى بعضهم بعضا ، ما لم ترقبهم عيون الكبار طوال الوقت . فضلا عن أن هناك تماثيل لأجسام عارية فى المتاحف ، وصوراً لهذه التماثيل فى الكتب . وهناك أيضاً الحيوانات فى المزارع وحدائق الحيوان ، والكلاب فى كل مكان ، تبدو أعضاؤها التناسلية عارية أمام عيون الأطفال .

ولكن سواء أكان الطفل قد رأى كثيراً أم قليلا من أعضاء التناسل ، فإننا

يجب أن نفترض أنه بحكم طبيعته فضولى وحساس من هـذه الناحية . لذا ينبغى أن نتوقع منه الأسئلة المباشرة ، والأسئلة المقنعة ، والأسئلة الصامتة التى لا يفصح عنها .

وعندما يوجه إلينا السؤال ، يجب أن نشرح له بالطبع أن تكوين الأولاد يختلف عن تكوين البنات ، ونضرب له أمثلة توضح هذا الاختلاف ، نستمدها من بين أصدقائه وصديقاته ، وأقربائه وقريباته . غير أن الأطباء النفسانيين قد تبينوا من خلال تجاربهم أن الطفل عندما ينزعج من سؤال يصعب عليه مواجهته ، فإن مسارعتنا إلى بث الطمأنينة فى نفسه ، لن يكون لها نفس الأثر فى إزالة عوامل القلق عنده ، مثلما نتيح له فسحة من الوقت ينفس فيها عن قلقه أولا ، حتى تحقق عملية الطمأنة الهدف المنشود منها . فعندما تحس الأم أن أسئلة ابنتها تنم عن الشعور بالقلق ، فإن بوسعها فى هذه الحالة أن تقضى بعض الوقت فى شرح الأمور لها قائلة : « هذا هو العضو الذى يتبول منه الولد . وهو يسمى القضيب . وفى بعض الأحيان عندما ترى البنت أن الولد له قضيب ، فإنها تسائل نفسها عن السبب فى أنها لا تمتلك قضيباً مثله ، وتعتقد أنه كان المفروض أن يكون لها قضيب هى الأخرى . وربما ظنت أنها قد خلقت ناقصة الأعضاء ، أو أنه كان عندها قضيب يوماً ما ، ثم حدثت له إصابة قضت عليه . ولـكن هذا غير صحيح ؛ إذ ليس المفروض أن يكون للبنت قضيب . بل إن البنات والنساء خلقن فى تـكوين مختلف عن تـكوين الأولاد والرجال » . وهلم جرا .

ولـكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن مثل هذه المعلومات المذهلة لا يمكن أن يستوعبها الطفل فى جلسة واحدة ، أو أن تظل طويلا ، واضحة فى ذهنه ، فى هذه المرحلة من النمو النفسى السريع . فإذا كان قد استوعب شيئاً من هذه المعلومات وأحس أن أمه مستعدة لأن تشرح له الأمور ، فإنه يجتر الموضوع فى

ذهنه ثم يعود إلى السؤال عنه بعد يوم أو شهر أو سنة . وعنـد ما يعود الطفل إلى فتح الموضوع ، فإن من المهم أكثر من ذى قبل ، أن تصغى الأم بانتباه إلى أسئلته الجديدة ، كى تتبين أى النواحى قد اتضحت فى ذهنه ، وأيها ما زال يختلط عليه .

على أن الأم التى تذهل لأول سؤال يوجهه إليها الطفل بشـأن الأمور الجنسية ، بحيث يتعذر عليها أن تجيبـه إجابة مقنعة ، لا ينبغى أن تحس بالقلق لأن فرصة تفسير الأمور له قد ضاعت منها إلى الأبد . فإذا لم يعـد الطفل إلى سؤالها فى اليوم أو اليومين التاليين ، يمكنها أن تفاتحه فى الموضوع مرة أخرى فى الوقت المناسب ، بقولها : « لقد كنت أفـكر فى ذلك السؤال الذى سألته لى فى ذلك اليوم » .

ما الرأى فى الطفل الذى لا يوجه أى أسئلة عن الأعضاء التناسلية، حتى بعد أن يبلغ الثالثة أو الرابعة أو الخامسة من عمره ؟ إننا نعتقد ، على ضوء خبراتنا المهنية فى ربع القرن الماضى ، أن الطفل لا يمكن أن ينعدم عنـده الوعى أو الفضول بشأن هذا الموضوع . وفى رأيى أن الطفل الذى لا يوجه أى أسئلة عن الأعضاء التناسلية ، إما أنه قد استبد به القلق من هـذه الناحية بحيث أصبح عاجزاً عن توجيه الأسئلة ، وإما أنه قد لمس — من أسلوب أمه فى الرد عليه عند ما حاول السؤال من قبل — أن هذا السؤال موضوع شائك يثير شيئـاً من الحرج . وفى هذه الحالة يجب على الأم أن تكون أكثر انتباهاً لأسئلة الطفل التى يوجهها بطريقة غير مباشرة كأن يسأل مثلا : « هل البقرة زى بابا أو زى ماما ؟ » أو « كيف تعمل العروسة بى بى ؟ » . وخير مثال أسوقه فى هذا المجال ، هو تلك الطفلة الصغيرة التى راحت تحملق فى صحفة طعامها وقد استغرقها التفـكير ، ثم تساءلت : هل « السجق ولد أم بنت ؟ » كما أن هناك الـكثير من الأفعال

التى يأتيها الأطفال فتكون أبلغ من الكلمات . فقد نجد طفلة تحاول التبول وهى واقفة كما يفعل الولد . أو نجد أن غالبية الأولاد والبنات الصغار عندما يمسكون بإحدى العرائس أو الحيوانات اللعب ، فإنهم يقلبونها بطريقة غريزية كى يلقوا نظرة خاطفة على مكان الأعضاء التناسلية . ومثل هذه التصرفات التى تبدر من الأطفال، تتيح للأم الفرصة لأن تعلق عليها بقولها للطفل : «أظنك كنت تسائل نفسك فى الفترة الأخيرة عن السبب فى أن تكوين الأولاد مختلف عن تكوين البنات » .

هناك مسألة أخرى تتفرع من هـذه المناقشة : وهى مسألة تحشم الآباء والأمهات أو تجردهم من الثياب أمام الأطفال . فقد حدث فى هذا القرن رد فعل عنيف ضد النزعة إلى المغالاة فى التحشم وتـكلف الحياء التى كانت سائدة فى العصر الفيـكتورى . لذا فإن عدداً كبيراً من الآباء والأمهات فى هذه الأيام يتصرفون ببساطة من ناحية السماح لأطفالهم بالدخول إلى الحجرة أثناء خلعهم لثيابهم أو أثناء استحمامهم . لـكن أطباء الأطفال النفسانيين قد أثاروا بعض الشـكوك فيما إذا كان هذا السلوك يحدث أثراً صحياً فى الأطفال ؛ فقد ثبت لهم بالدليل ، فى بعض الحالات على الأقل ، أن تجرد الأم من ثيابها قد يثير مشاعر ابنها الصغير إثارة بالغة ، كما أن تجرد الأب من ثيابه قد يكون مثيراً للغاية بالنسبة لابنته الصغيرة . فهو يؤكد رغبة الطفل فى امتلاك أحد الوالدين . ويزيد من شعوره بالمنافسة مع الآخر . وفضلا عن ذلك ، فإن منظر الأب وهو عار من الثياب ، يمكن فى حالة الولد أن يزيد فى شعوره بالحسد والعداء نحوه .

ومن السهل علينا أن نرى أن علاقة الطفل الصغير بوالديه ، التى هى أعمق كثيراً من علاقته بأى إنسان آخر ، تجعل من عريهما أمامه موقفاً له دلالته الخاصة فى نظره .

لـكنى لا أعتقد أنه قد تـكونت لدينا اليوم المعلومات الـكافية عن هذا الموضوع بحيث يمـكننا أن نقطع بما إذا كان من غير المستحسن فى جميع الأسر أن يتعرى الآباء والأمهات أمام الأطفال . فالأدلة التى يسوقها الأطباء النفسانيون فى هذا الشأن ، مستمدة من دراسة حالات الأطفال الذين يعانون من مشكلات نفسية . وغنى عن البيان أن عدداً كبيراً من الأطفال قد نشأوا نشأة سوية دون أية مشكلات على الإطلاق — فيما يبدو عليهم — رغم أن آباءهم وأمهاتهم كانوا يتجردون أمامهم من الثياب بدرجات متفاوتة فى أرجاء البيت . بيد أن هذا لا يدل على أن تعرى الوالدين لم يسبب لهؤلاء الأطفال أية توترات نفسية على الإطلاق . لذا أعتقد أن من الحـكمة أن ننصح الآباء والأمهات بأن يميلوا إلى الاحتشام فى الحدود المعقولة ، ريثما يتوافر لنا مزيد من المعلومات فى هذا الموضوع .

ما الدور الذى ينبغى أن يلعبه الوالدان ؟

« فى وسع الآباء والأمهات أن يعالجوا أمور أطفالهم بطريقة أفضل ، لو أنهم أدركوا التوترات النفسية التى تنشأ عن المنافسة اللاشعورية » .

يتساءل الآباء والأمهات عما إذا كان من واجبهم أن يراعوا أطفالهم مراعاة خاصة فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة ، مادام الأطفال يتعرضون لتوترات نفسية معينة فى هذه المرحلة . وأظن أن الإجابة عن هذا التساؤل إنما تتوقف على المعنى الذى يقصدونه من « المراعاة الخاصة » . لـكنى أعتقد أن الآباء والأمهات يمكنهم أن يفهموا سلوك أطفالهم ويعالجوا هذا السلوك بطريقة أفضل ، لو أنهم عرفوا شيئاً عن التوترات النفسية التى قد يمر بها الأطفال فى هذه السن، علما بأنه ما من وسيلة يمكن بها أن نتفادى هذه التوترات كلية ، بل إن محاولة تفاديها تماماً قد تخلق مشكلات جديدة فى حياة الأطفال .

فى حوالى سن الثالثة والرابعة ، نجد أن تعلق الولد بأمه تعلقاً عاطفياً متزايداً ورغبته المتزايدة فى الاستئثار بها ، يجعلانه يدرك شيئاً فشيئاً أنها تنتمى إلى أبيه من قبله ، مما يثير فيه شعوراً بالغيرة والعداء . غير أنه بعقليته الطفلية يتوهم أن أباه يعرف كل شىء عن شعوره بالمنافسة معه ، ويبادله نفس الشعور . فيثير هذا الوهم الفزع فى نفسه ، لأنه يدرك أن أباه يفوقه بمراحل من ناحية الحجم ، ولأنه أيضاً يكن لأبيه إعجاباً شديداً ، ويعتمد على حبه له . (لـكى تتخيلى هذا المأزق بعقلية الـكبار ، تصورى أن رجلا وقع فى غرام يائس مع زوجة أعز أصدقائه الذى هو فى نفس الوقت رئيسه فى العمل ، وهو يعتقد أن هذا الرئيس يتمتع بقوة خارقة تفوق قوة البشر ، وأنه يغار على زوجته غيرة شديدة ، وأنه قادر

على قراءة الأفكار التى تجول فى أذهان الناس . رغم ذلك كله فإن الرجل تحتم عليه الظروف أن يعيش مع هذا الرئيس فى بيته) .

كما أن البنت الصغيرة ، بسبب تعلقها بأبيها تعلقاً عاطفياً متزايداً ، تجد نفسها فى موقف مشابه لموقف الولد ، من حيث شعورها غير المريح بالمنافسة مع أمها ، التى تكن لها الإعجاب فى نفس الوقت .

وفى بعض الأحيان يقرر أحد الآباء من ذوى الضمائر الحية أن يلبى جميع رغبات ابنه ، ويصبح مجرد رفيق لطيف يشاركه فى اللعب ، متجنباً القيام بدوره فى تأديبه وتهذيبه ، ذلك لأنه قد سمع أن الغلام الصغير عرضة لأن يتخيل أباه على أنه شخصية صارمة تميل إلى الانتقام . والأب الذى يتذكر أن علاقته بأبيه كان يشوبها التوتر هو الذى يحتمل بصفة خاصة أن يتخذ هذا الموقف المتساهل من ابنه ، لأنه يرغب فى أن يحبه ابنه ويستمتع بصحبته ، أكثر مما كان يفعل هو بالنسبة لأبيه . كما أن الأم ، أثناء تربيتها لابنتها ، قد تراودها نفس الرغبة فى كسب حبها ورضاها .

ومع أن هذا الهدف قد يبدو منطقياً لأول وهلة ، فقد ثبت من خبراتنا فى ميدان توجيه الأطفال أنه لا يؤتى الأثر المنشود فى العادة . وقد يرجع ذلك إلى أن الولد يحس بالسليقة أن أباه ينبغى أن يؤدى دوره كأب أولا وقبل كل شىء ، أما دوره كرفيق يشاركه فى اللعب فإنه يأتى فى المرتبة التالية . فجميع خبرات الولد تدله على أن أباه يفوقه فى الحجم والقوة والحكمة ، لذلك يحس أنه مضطر للاعتماد على أبيه ، كى يشمله بحمايته ويهديه سواء السبيل . كما يدرك أيضاً أن أباه يهتم اهتماماً كبيراً بسلوكه ، وأنه يسر منه عندما يسلك سلوكاً يدل على التعاون أو المهارة أو الشجاعة . كذلك يشعر أن أباه يصاب بخيبة أمل فيه عندما يبدو عليه الوجل أو الارتباك ، وأنه يحس بالغيظ منه عندما يجنح إلى الوقاحة

أو العصيان أو التخريب ، مهما يحاول الأب جاهداً أن يخفى هـذه الاتجاهات السلبية . بل إن إحساس الولد بالذنب عندما يسلك سلوكاً سيئاً يجعله يشعر إلى حد ما بأنه فى حاجة إلى نوع من التأديب من جانب أبيه . أما بالنسبة لشعوره بالمنافسة معه ، فلا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن شعور الولد بالعداء نحو أبيه هو العـامل الرئيسى الذى يجعله يتوهم أن أباه يكن له نفس الشعور بالعداء ، مهما يحمل الأب له من مشاعر طيبة فى الواقع .

قصارى القول أن الغلام بطبيعة تـكوينه يحس إحساساً قاطعاً بأن أباه شخصية تنذر بالعقاب وتبعث على الخوف والهيبة .

ما الذى يحدث إذن عندما يحاول الأب جاهداً أن يكون مجرد صديق لابنه ؟ عندما تتـكشف بالتدريج اتجاهات الغلام اللاشعورية أثناء علاجه نفسياً لشهور عديدة فى عيادة توجيه الأطفال ، يتبين لنا أن مثل هذا الأب غالباً ما يبدو فى نظر الغلام على أنه شخصية متوعدة تبعث على الخوف أكثر من المعتاد . فلماذا يبدو الأب على هذه الصورة ؟

عندما يتردد الأب فى التعبير لابنه عن نوع السلوك الذى يتطلبه منه ، ويحاول دائماً أن يكبت شعوره بالغيظ ، فإن هذا الأسلوب يخلف عند الغلام شعوراً بالشك فى سلامة سلوكه ، وإحساساً بالخوف والتوجس من غضب أبيه إذا حدث أن انفجر فى يوم من الأيام . (فمعظمنا يجسم الخطر المجهول ، سواء أكان ذلك الخطر يتمثل فى أول زيارة نقوم بها لطبيب الأسنان ، أم فى عملية الولادة ، أم فى معركة من المعارك ، أم امتحان من الامتحانات) ويمكن القول بعبارة أخرى : إنه ما دام الغلام يحس أن أباه يكبح جماح غضبه فى بعض الأحيان خشية أن ينفجر منه هـذا الغضب ، فإنه يؤمن بناء على ذلك بأن أباه ينظر إلى الشعور بالغضب الكامن فى نفسه على أنه شيء فظيع فى غاية الخطورة .

(ربما كنت أنت نفسك يوماً ما تحت إمرة معلم فى المدرسة أو رئيس فى العمل اعتاد أن يكبت شعوره بالغضب نحوك ، ويمكنك أن تذكرى كم كان هذا السلوك منه يبعث فى نفسك شعوراً بالقلق والاضطراب) .

أما إذا كان الأب من النوع الواثق بنفسه الذى لا تساوره الشكوك فى حب ابنه له ولا يتردد فى القيام بدوره فى التوجيه — أو التأديب عندما تقتضى الظروف — فإن الغلام فى هذه الحالة يدرك موقفه إدراكاً واضحاً ويرتاح إليه . كما أنه يمر أحياناً ببعض الخبرات التى يواجه فيها حزم أبيه واستنكاره لتصرفاته ، فيجد أنه يخرج من هذه الأزمات سليماً معافى ، ويكتسب منها شيئاً من الحكمة ، مما يبعث فيه شعوراً بالاطمئنان ، مثل شعوره بالاطمئنان عندما يجد أنه قادر على ركوب الدراجة أو السباحة ، أو عندما يجد أن بوسعه المحافظة على مكانته بين الأولاد الآخرين ، ذلك أن عدم خوف الأب من التعبير عن مشاعره الخاصة ، يعلم الغلام ألا يخاف هو أيضاً من هذه المشاعر ، فضلا عن أن صفاء الجو بينه وبين أبيه بعد لحظات الحزم أو اللوم أو الغضب ، يبعث فى نفسه إحساساً بالارتياح .

* * *

هناك ناحية أخرى فى هذه المرحلة « الأوديبية » ينبغى أن نتأملها برهة . تلك أن الأب الذى سمع عن المنافسة التى يحتمل أن يشعر بها ابنه نحوه ، قد يعتقد أن من اللياقة والإنصاف أن يحجم عن ملاطفة زوجته بطريقة سافرة أمام الغلام ، وقد يتحاشى المغالاة فى إظهار حبه نحوها ، أو قد يقطع حديثه معها عند ما يرغب الغلام فى التحدث إليها ، أو يبدى تردداً فى التدخل عندما يجدها

معاً . كما أنه قد يتجنب الخروج معها بمفردها إلا بعد أن يأوى الطفل إلى فراشه ويستغرق فى النوم .

لقد أثبتت التجربة أن هذا القدر من المراعاة لشعور الطفل ، قد يؤدى إلى عكس الهدف المنشود ؛ ذلك لأن الطفل إذا أحس أنه صاحب الحق الأول فى أمه ، فإن هـذا الإحساس لن يؤدى إلا إلى خلق مزيد من الرغبة فى تملكها ، ومزيد من الشعور بالغيرة إزاء اهتمام أبيه بها ورعايته لها . غير أن الطفل فى نفس الوقت سوف يتوجس خيفة من الشعور بالحنق والاستياء الذى يتوهم أن أباه يكنه له قطعاً ، مما يخلق له فى نهاية الأمر مزيداً من الصعوبات فى حياته ، عندما يكبر قليلا فى السن ويتحتم عليه أن يواجه الحقائق .

فالغلام يكتسب على المدى البعيد شعوراً بالثقة فى نفسه بوصفه ذكراً ، وينمو عنده شعور بالمتعة فى صحبة غيره من الذكور ، بدلا من شعوره بالخوف من المنافسة معهم . كما أنه يكتسب جرأة معقولة فى معاملة الجنس الآخر ، لا فى مجال التغلب على أبيه بهدف الاستئثار بحب أمه واهتمامها ، بل فى اتخاذه من أبيه نمطاً يقتديه فى السلوك ، وفى شعوره بأنه ابن أبيه ، وأنه فرع من الأصل . ومن ثم فإن « الأصل » يجب أن يكون شخصية فعالة قوية الأثر ، لذا فإن من الضرورى أن يظهر الأب — فى داخل البيت أكثر من خارجه — بمظهر الذكر الواثق بنفسه ، وأن يبدى سيطرة معقولة فى مجال حماية أسرته وتزويدها بمطالبها ، وأن يكون مرتاحاً للقيام بدوره فى تأديب أطفاله ، وأن يكون ناجحاً مع زوجته من الناحية العاطفية (غنى عن البيان أنه لا ينبغى للوالدين أن يثيرا غيظ الطفل بأن يتعمدا إظهار حبهما المتبادل أمامه) .

* * *

من كل ما ذكرت عن العلاقة بين الأب وابنه الصغير ، يمكنكم أن تخمنوا ما سوف أقوله عن علاقة الأم بالبنت . فالبنت الصغيرة أيضاً تشعر فى عقلها الباطن بأنها فى منافسة غير متكافئة مع أمها . ولـكن هذا لا يترتب عليه أن من واجب الأم العاقلة أن تظهر لابنتها مراعاة زائدة تفوق المعتاد ، بمعنى أن تـكون صبوراً وطويلة البال بصورة غير طبيعية فى معاملتها اليومية لها ، أو أن تقلل من مظاهر حبها نحو زوجها .

ولقد سبق أن اقتبست مقتطفات من الخطاب الذى تعبر فيه إحدى الأمهات الرقيقات عن دهشتها للتحدى الذى يبرق فى عينى طفلتها ابنة الرابعة ، وتضيف إلى ذلك قولها بأن ابنتها على النقيض من ذلك دائماً ما تـكون « سمن على عسل » مع أبيها ، وتقوم باستعراض رائع فى مجال رعايته والعناية به ؛ ذلك أن الطفلة عندما ينشأ عندها شعور بأنها تلقى معاملة فيها شىء من الظلم ، ثم تجد أن أمهـا مستعدة لأن تتحمل وقاحتها وعصيانها ، فإن هذا يؤكد شكوك الطفلة بأن أمها مذنبة فى حقها ، ويدفعها إلى التمادى فى المشاكسة « الرذالة » معها . والأم ذات الضمير الحى صاحبة الخطاب ، تتوهم أنها قد خذلت ابنتها بطريقة ما لا تدرك كنهها . ولـكنها باستعدادها هذا لأن تلقى على نفسها اللوم وتتقبل سلوك ابنتها المـكدر ، إنما تدفعها إلى المغالاة فيه أكثر فأكثر . (لو أنى كنت مكانها لأعطيت ابنتى درساً فى الأدب والطاعة ، وأفهمتها مَن صاحبة الأمر فى البيت ، ثم أوقفتها عند حدها فى حزم كلما نسيت هذا الدرس) . والشىء الذى يحد من منافسة البنت الصغيرة اللاشعورية لأمها ، هو أن تجد أمها واثقة بنفسها ، لا تحس بالذنب ، وتتسم بالحزم ، لـكنها فى نفس الوقت تعاملها فى ود .

فالأم لا تسدى لابنتها صنيعاً إذا أوحت إليها بأنها قد تحتل مكانها فى البيت . (فأنت ترين فى بعض الأحيان أن بنتاً فى أوج المراهقة ، تجد متعة بالغة

فى إظهار حبها لأبيها وتفاهمها معه ، عند ما تتوتر العلاقات بينه وبين أمها ، بسبب انقطاع الطمث فى سن اليأس ، أو بسبب بعض الاضطرابات الأخرى) . إن مثل هـذه الوسيلة السريعة للنجاح فى كسب حب أبيها ، قد تخلق منها شخصية كريهة نوعاً ما ، تتسم بشىء من القلق والشعور بالذنب ، وقد تجد صعوبة فى الانفصال عن أبيها فيما بعد . فالبنت على المدى البعيد تـكتسب مزيداً من الثقة بنفسها كفتاة جذابة ، وتهيىء نفسها لأن تحب فى النهاية رجلا مناسباً فى مثل سنها ، بأن تتطلع إلى أمها على أنها مثال رائع للنجاح العاطفى ، وتحاول أن تتقمص شخصيتها فى سلوكها العام .

* * *

ولـكى تـكتمل المناقشة حول هـذا الموضوع ، سأضيف بضع نقاط بشأن العلاقة بين الأب وابنته ، وبين الأم وابنها .

فالابنة تحتاج إلى الشعور بقبول أبيها وتقديره لها ، لا كطفلة صغيرة فحسب، بل كفتاة ناضجة بصفة خاصة . فقد يحدث أحياناً أن يصبو أحد الآباء إلى إنجاب ابن له ، لـكنه لا يحصل عليه قط ، فيعمد بدلا من ذلك إلى معاملة ابنته كما لو كانت ولداً ، ولا يظهر استمتاعه بها إلا عندما تسلك سلوك الأولاد . لذلك يصعب جداً على مثل هذه البنت عندما تشب عن الطوق ، أن تحس بالرضا عن معظم المهام التى تقوم بها النساء (بما فى ذلك مهمة الزوجة) . ولـكن من ناحية أخرى ، لا يساعد البنت الصغيرة على النمو أن يدعها أبوها تحيطه باهتمامها العاطفى كما يروق لها ، أو أن يستجيب لهذا الاهتمام فى تحمس عاطفى متطرف من جانبه : فرغم أنه من المستحسن أن يتخذ اتجاهه نحوها طابع الرقة والحنان ، إلا أنه قد ثبت من بحوث عيادات توجيه الأطفال النفسية أن الأب إذا سمح

لابنته بأن تلتصق به التصاقاً عاطفياً وتشغله بمداعباتها وتتسلل إلى فراشه ، فإن هـذا الأسلوب خليق بأن يثير مشاعرها ويبعث فى نفسها الاضطراب والقلق . كما أنه إذا أظهر لها أنه يستمتع بقضاء الوقت معها أكثر من استمتاعه بقضائه مع زوجته ، فهو بهذا السلوك إنما يحرفها عن اتجاهها الطبيعى .

ونفس هذه النقط يمـكن أن تنطبق على العلاقة بين الأم وابنها الصغير . فالأم العاقلة تتيح لابنها فرصة المبادرة بإظهار تعلقه بها فى أسلوب الرجال ، عن طريق أدائه لبعض الأعمال التى يبدى فيها شهامة ومعاونة لها ، وتستجيب لمشاعره نحوها فى تقدير لطيف . وهى تبدى له استمتاعها بعبارات المديح والإعجاب التى يوجهها إليها ، وتظهر إعجابها بأعماله الباهرة التى يحدثها عنها . أما إذا تجاوز تعبيره الحسى عن مشاعره الحارة حد احتضانه لها ، فإنها تصرف انتباهه عن ذلك فى أسلوب لبق . كما أنها تتحاشى الظهور أمامه عارية أو فى ملابسها الداخلية حتى لا تثير مشاعره . وهى لا تسمح له بالنوم فى فراش أبيه أثناء غيابه عن البيت فى رحلة ما ، لأنها تدرك أن هذا سوف يحرك فى عقله الباطن آمالا ، لن ينال منها سوى الشعور بالخيبة ، عندما يعود أبوه إلى البيت.

* * *

لعلـكم الآن قد ضقتم بى ذرعاً ، لأنى أسهبت كل هذا الإسهاب فى توصية الآباء باتباع هذه المجموعة من الاتجاهات والإجراءات ، التى لا تعدو أن تكون نفس الاتجاهات والإجراءات التى يتبعها دائماً الآباء العقلاء بالفطرة . فالواقع أن بلايين من الآباء منذ العصور الأولى للجنس البشرى ، قد نشأوا أطفالهم تنشئة سوية ، دون أن يعرفوا شيئاً عن « عقدة أوديب » . لـكننا من ناحية أخرى نجد أن نسبة معينة من الأطفال فى كل جيل ينحرفون عن الطريق السوى أثناء

اجتيازهم لهذه المرحلة ، كما يتضح لنا مما قرأناه فى كتب التاريخ والروايات ، ومما نعرفه عن أصدقائنا أنفسهم . فإذا حصل الناس جميعاً على قدر من المعلومات الحديثة التى توصلنا إليها بشأن أسباب الاضطرابات العصبية عند الأطفال ، فإن ذلك خليق فى اعتقادى بأن يوضح لهم أيضاً العوامل التى تؤدى إلى تكوين الشخصية الناجحة .

أو لعلكم قد ضقتم أيضاً بالطبيعة ذرعاً ، لأنها تتبع هذا النظام المعقد فى النمو العاطفى . فلماذا يتحتم على الأطفال الصغار أن يتعلقوا بآبائهم وأمهاتهم فى بادىء الأمر تعلقاً عاطفياً شديداً ، لن يجديهم نفعاً سوى أنهم يصابون بالقلق والخيبة عندما تصدمهم الحقائق ، لدرجة أنهم يحاولون الإقلاع عن هذا التعلق تماماً فى سن السادسة أو السابعة ؟ كل ما توصلنا إليه من دراسة بعض النماذج المختلفة من الأشخاص الذين نجحوا أو فشلوا فى اجتياز هذه المرحلة من مراحل النمو ، هو أن الحنين العاطفى إلى أحد الوالدين — ثم عملية الإقلاع التى تعقبه — يلعب دوراً حيوياً فى خلق بعض السمات الرائعة التى تتميز بها الطبيعة البشرية : مثل الطابع الروحى للحب ، والزواج عند الكبار ، والمثالية الإنسانية بوجه عام ، والعقيدة الدينية ، وملكة الإبداع الفنى ، والفضول العلمى ، بل واستقرار المجتمع الإنسانى . وهذه قائمة طويلة تحتاج إلى شىء من الشرح والتوضيح .

٦

التحول إلى العالم الخارجي بعد سن السادسة

التباعد عن الوالدين

« إن أنبل الأشياء التى فكر فيها الإنسان وصنعها ، هى إلى حد ما وليدة شوقه وتعلقه بأحد الوالدين ، ثم إقلاعه عن هذا التعلق بالوالد المحبوب » .

بعد سن السادسة أو السابعة ، تتغير اهتمامات الطفل وحوافزه تغيراً يبعث على الدهشة . فقد كان من قبل يقضى معظم ساعات صحوه فى تقليد مجالات نشاط الكبار تقليداً مباشراً . فكان الغلام يدفع سيارته « اللعبة » على الأرض هنا وهناك ، أو يركب دراجته متظاهراً بأنه أحد رجال المطافىء ، أو يتظاهر بأن عربة قطاره اللعبة إنما هى عربة حقيقية لنقل البضائع ، أو يبنى ناطحات السحاب ويشيد الجسور « الكبارى » بالمكعبات والصناديق . وعندما يشترك مع غيره من الأطفال فى تمثيل الأسرة ، فإنه يرغب فى القيام بدور الأب ، ويقلد سلوك أبيه تقليداً دقيقاً إلى حد بعيد . كذلك البنت كانت تقضى جانباً كبيراً من وقتها فى تقليد مجالات نشاط أمها إلى حد تقليد نبرات صوتها وتقليد حركة ثنى إصبعها الصغرى وهى تتناول قدح الشاى .

أما بعد سن السادسة ، فإن الطفل بطبيعة الحال يقضى معظم ساعات نهاره فى المدرسة . ألم تسائلى نفسك يوماً عن السبب فى اختيار هذه السن لدخول المدرسة ، فى معظم بلاد العالم التى توجد بها مدارس ؟ ليس السبب فى ذلك هو أن الأطفال يتعذر تعليمهم الكثير من الأشياء قبل سن السادسة . وإنما الاختلاف الهام هو أنهم فى هذه السن يتوافر لديهم الاستعداد لفهم رموز معنوية غير شخصية ، لا سيما الأرقام والحروف . وهذا يتطلب مستوى معيناً من الذكاء . كما يتطلب فضلا عن ذلك اهتماماً إيجابياً بمثل هذه الأشياء غير الشخصية .

حقيقة أن الطفل دون سن السادسة يبدى اهتماماً بعدد جواربه ، وبتعرف الحروف التى يتكون منها اسمه ، غير أن هذه مسائل محسوسة تماماً ولها مدلول شخصى بالنسبة إليه . أما فى سنوات المدرسة فإن الأرقام والحروف والخرائط والرسوم البيانية تصبح مفهومة للأطفال ، بل إنها تستهويهم —فى حد ذاتها— لمجرد أنها رموز معنوية مجردة .

وهناك مسائل أخرى عديدة غير معنوية لكنها فى نفس الوقت غير شخصية ، تستغرق اهتمام الأطفال فى سنى المدرسة الأولى ؛ مثل : كيف تعمل الآلة ، وكيف ينمو النبات ، وكيف خلقت الأرض ؟

من هو النموذج الذى يحاول الطفل أن يشكل نفسه على نمطه فى سنى المدرسة ؟ على قدر ما يبدو فى الظاهر ، فإن الطفل يفقد الكثير من اهتمامه بتقليد أبيه . وهو بدلا من ذلك يحاول جاهداً أن يقلد غيره من أولاد الحى . وما زلت أذكر حتى الآن أنى عندما بلغت السابعة من عمرى ، لم أعد أرغب فى قص شعرى بالطريقة التى كان أبى يأمر الحلاق أن يقصها لى . بل كنت أرغب فى قصه حسب « الموضة » التى كانت سائدة بين الفتية المتأنقين فى عام ١٩١٠ ، بأن يقص الشعر تماماً من الجوانب وتترك خصلة غزيرة أعلى الرأس ، كنا جميعاً نحاول أن نحتفظ بها مصففة فى شكل جميل ، فنرتدى ساعة النوم غطاء الرأس نصنعه من جوارب أمهاتنا القطنية السوداء .

عندماتشترى إحدى الأمهات « بدلة » جديدة لابنها وهو فى الرابعة من عمره، تستبد به اللهفة لأن يقيسها عليه . وعندما يتهلل وجه الأم لأن الغلام يبدو رائعاً فيها ، يتهلل وجهه هو الآخر ، لأنه يسلم بأن ذوق أمه — فى البدل والأولاد على السواء — لا يُعلى عليه . أما إذا أحضرت الأم « بدلة » جديدة لطفلها البالغ من العمر ثمانى سنوات ، فإنه قد يتجهم فى ريبة ، حتى قبل أن يراها .

فهو يعتقد عن يقين أن ذوق الأولاد مختلف تمام الاختلاف عن ذوق الكبار ، لدرجة أنه قد يتوهم أن « البدلة » التي اشترتها له أمه ستجعله يبدو كالقرد بين أصحابه .

لذلك فهو يفضل ارتداء ملابسه القديمة (لأنه جربها واطمأن إليها) ويفضل أيضاً أن يرتديها مهوشة في غير نظام . كذلك يحرن الطفل في هذه السن ويعترض على غسل يديه أو تمشيط شعره أو الاستحمام ، كما لو كانت هذه الأفعال مؤلمة أو شائنة له .

كما أن الأطفال في الأعوام التي تسبق دخول المدرسة ، يحاولون في لهفة تقليد آداب المائدة التي يتبعها آباؤهم . أما بعد سن السادسة أو السابعة ، فإنهم يبدون كما لو كانوا يحاولون أن يتبينوا إلى أي مدى يمكنهم أن يسلكوا سلوكاً همجياً بدائياً دون أن يلحق بهم العقاب ، فهم يتمددون على سطح المائدة ويكرعون الحساء في شراهة ، ويرفسون أرجل الكراسي بأقدامهم .

والأطفال الصغار يحاولون قدر جهدهم أن يقلدوا كلمات آبائهم وعباراتهم . فهم يشعرون بالفخر عندما يستعيرون كلمات الكبار الضخمة التي لم يفهموا معناها بعد . لأن هذا يعني في نظرهم أنهم قد أصبحوا كباراً مثلهم. أما في سني المدرسة فإنهم لا يستعملون كلمات الكبار بأي حال من الأحوال ، وإنما يصبح هدفهم في هذه السن أن يلتقطوا الكلمات التي يستخدمها أبناء جيلهم ويستهجنها آباؤهم ، سواء فهموا معنى هذه الكلمات بالضبط أو لم يفهموه . وهم يجدون متعة كبرى في استعمال الألفاظ البذيئة . أما إذا لم توات الطفل الجرأة على استعمال هذه الألفاظ في البيت — ولو على سبيل التجربة — فإنه في تباه وتحد يستخدم أسلوب العوام في الحديث ، كما لو كان يقول لوالديه : « إنكما لن تستطيعا أن تحيطاني بجو من البراءة بعد الآن . فقد اكتشفت أخيراً كيف يتكلم الناس في العالم الكبير الخشن » .

وفى هذه السن ، يفقد اللعب شيئاً فشيئاً طابع تمثيل الأشخاص ، فيكف الأطفال عن لعبة تمثيل الأسرة — أو تمثيل بابا وماما . ولا يتبقى فى ألعابهم من الأشخاص سوى فرق العساكر واللصوص ، أو رعاة البقر والهنود . فالذى يهمهم الآن ليس تمثيل الأشخاص ، بل الألعاب التى تعتمد على المهارة وتخضع لقواعد ثابتة ، مثل نط الحبل والحجلة وتصويب الكرات إلى الشواخص الخشبية ، وهى جميعاً ألعاب غير شخصية على الإطلاق .

وقد تتربى عند الأطفال فى هذه السن عادات كثيرة تبعث على الغيظ ، وهى تختلف باختلاف الأطفال وباختلاف فصول السنة ؛ مثل ترك الأبواب مفتوحة والمفروض أن تغلق ، أو صفق الأبواب التى ينبغى أن تقفل برفق ، أو الدق على المائدة كالطبلة ، أو إلقاء المعطف دائماً على أرض حجرة الجلوس ، أو حك الرأس ، أو العبث فى الأنف بالأصابع ، أو التجشؤ بصوت عال دون أن يكون هناك أى دليل آخر على سوء الهضم فى الغالب . كل هذه العادات السيئة تجعل الآباء يفقدون صوابهم . لكنهم مهما حاولوا مراراً وتكراراً أن يقوموا سلوك الطفل فى لهجة حازمة ، فإنه دائماً يتظاهر بالدهشة ، أو يتظاهر بأن والديه يسيئان معاملته ، وكأنه يحس أنه لم يرتكب ذنباً على الإطلاق . حقيقة أنه لم يرتكب ذنباً فى حدود نواياه الشعورية ، لكنى رغم ذلك أشك فى أن هذه التصرفات التى تبعث على الغيظ يمكن أن تحدث بمحض المصادفة .

وعندما يحس الطفل فى سنى المدرسة برغبة فى الاعتراض على آراء والديه ، فإنه يحاول أن يستغل كلمات الكبار من ذوى السلطة خارج محيط أسرته ، كالمدرسات مثلا . فيقول : « مس هلكى تقول إنه لا داعى لأن نرتدى « بنطلونات » الثلوج إلى ما بعد عيد الميلاد » أو يقول : « مس هلكى تقول إن السماء ليست فى الحقيقة زرقاء ، بل إنها سوداء » . وقد يسأل أحد الأولاد

أباه الطبيب : « أيهما أكبر ، كرات الدم الحمراء أو كرات الدم البيضاء ؟! فيتوهم الأب أن ابنه يسأله بحثاً عن المعرفة ، ويسر لذلك ، ثم يجيبه قائلا: « كرات الدم البيضاء هى الأكبر » . فإذا بالطفل يرد عليه بلهجة لا يحاول فيها أن يخفى رغبته فى العراك والجدل وراء قناع من الأدب : « أوه ! كلا ، هذا ليس صحيحاً فكرات الدم الحمراء هى الأكبر . مدرس العلوم يقول هذا » .

فى بعض الأحيان يكون هدف الطفل من استخدام هذه العبارات التى يقتبسها من ذوى السلطة عليه خارج نطاق الأسرة ، هو الحصول على بعض الميزات من والديه أو تجنب إجباره على ارتداء ثياب تختلف عن ثياب غيره من الأطفال . غير أن الموضوعات التى يطرقها الطفل ولجته فى الجدل ، غالباً ما تدلان على أن هدفه الحقيقى هو أن يثبت أن والديه لا يعرفان الإجابة عن جميع الأسئلة . ولست أعتقد أن الطفل يهتم بأن يدرك والداه حدودهما فى المعرفة حرصاً على مصلحتهما ، بقدر ما يهتم بأن يقنع نفسه أنهما ليسا المرجع الأخير فى كل الأمور . فهو يحس أنه إذا كان له أن يستمر فى عملية النمو ويصبح مواطناً يعتمد على نفسه ويتعاون مع الآخرين ، فلا بد من أن يتعلم كيف يزن بعقله آراء الناس خارج محيط أسرته . ولكى ينطلق عقله فى هذا السبيل ، فإن عليه أولا أن يتغلب على الفكرة التى كونها فى طفولته المبكرة ، بأن والديه هما أعقل الناس فى الوجود ، وأنهما الشخصان الوحيدان اللذان يجب أن توضع معلوماتهما موضع الاعتبار من دون الناس جميعاً .

* * *

ماذا يحدث للتعلق العاطفى بالوالدين ؟ يمكنك أن تلمس أن غالبية الأولاد يتباعدون عن أمهاتهم بعد سن السادسة ، فيصبحون أقل استعداداً لتلقى القبلات

من أمهاتهم ، ثم يحرنون عنها تماماً فى النهاية ، على الأقل أمام الناس . كما أن فكرة ارتباط الأم بأية علاقة عاطفية تصبح فكرة منفرة عند الأطفال فى هذه السن . ولقد حدثنى أحد الآباء عن مناقشة دارت بين أفراد أسرته حول الاسم الذى سيطلقونه على قارب كانوا بسبيل شرائه . فاقترح الأب فى نهاية المناقشة أن يطلقوا عليه اسم التدليل الذى ينادى به زوجته ، وإذا بابنه البالغ العاشرة من عمره يتجشأ على الفور بصوت مرتفع وكأنه على وشك التقيؤ .

وفى سن السادسة والسابعة ، قد يستمر بعض الأولاد فى التحدث عن صديقاتهم من البنات اللائى فى مثل سنهم . أما فى سن التاسعة أو العاشرة فإن الغالبية العظمى من الأولاد يجاهرون بنفورهم من جنس النساء قاطبة ، ويصفون البنات بأنهن مخلوقات غبية تبعث على الازدراء ، « ويزومون » حينما يشهدون مشهداً غرامياً ، فى أحد الأفلام السينمائية . إنهم بطبيعة الحال يغالون فى إظهار ازدرائهم ومعارضتهم لجنس البنات . غيرأن وراء هذا الازدراء لا يزال يوجد اهتمام إيجابى واضح بالجنس الآخر ، لكنه مكبوت كبتا شديداً .

كيف تتوافق كل هذه النواحى بعضها مع بعض عند الطفل ما بين سن السادسة والثانية عشرة من عمره ؟ لقد توصل فرويد إلى تفسير لهذه الظاهرة أثناء عمله طوال حياته فى ميدان التحليل النفسى للمرضى ، كما أكد هذا التفسير غيره من علماء النفس ، ذلك أن تعلق الولد بأمه تعلقاً شديداً فى سن الثالثة والرابعة والخامسة تكتنفه المصاعب ، لأنه يخلق عنده شعوراً بالمنافسة مع أبيه المحبوب ، فيتوهم أن أباه يبادله نفس الشعور ، مما يثير فيه إحساساً بالفزع . كما أنه فى نفس هذه السن يخطىء فهم معنى الاختلاف الجسمانى بين الأولاد والبنات ، ويخشى أن يفقد عضوه ، ربما كعقاب له على اللعب الجنسى ، أو على رغبته فى إقصاء أبيه كى

يحل محله . ورغم أنه يكبت كل هذه المخاوف فى عقله الباطن ، فإنها فى النهاية تقلقه وتزعجه إزعاجاً شديداً ، حتى إن أحاسيسه العاطفية نحو أمه تفقد ناحيتها الإيجابية السارة ، وتصبح مبعثا للقلق وعدم الارتياح ، لذا فهو يريد أن يتجنب هذه الأحاسيس وينساها تماماً .

إن هذا التحول من الشعور الإيجـابى إلى الشعور السلبى بسبب بعض الارتباطات المؤلمة ، يحدث أيضاً فى مواقف ومراحل أخرى من عمر الإنسان . وقد يمكنك أن تتذكرى صنفاً معيناً من الطعام كنت تحبينه فى الماضى ، ثم أصبحت تتقززين منه لأنك أصبت بالمرض ذات مرة بعد تناوله مباشرة .

وبطبيعة الحال ، يستمر الولد فى حب أمه حباً عميقاً بوصفها الشخص الذى يريحه ويحميه ويرشده سواء السبيل ، لـكنه يحس بأنه مضطر لأن يتخلى عن شعوره الخاص بالحنين إليها ، لأن هذا الشعور ينطوى على منافسة مع أبيه .

وقد أطلق فرويد على هذا الإقلاع عن التعلق بالأم (الذى يحدث فى حوالى سن السادسة) اسم « حل عقدة أوديب » . كما أسمى المرحلة ما بين هـذه السن وبداية سن المراهقة « فترة السكون » ، بمعنى أن الحوافز العاطفية والجنسية التى كانت تلعب دوراً حيوياً فى النمو الانفعالى للطفل بين سن الثالثة والسادسة ، تكبت كبتاً شديداً فى هذه المرحلة .

* * *

بيد أن بطء نمو الطفل فى إحدى النواحى هو فى حد ذاته الوسيلة إلى دفع عملية نموه فى النواحى الأخرى . فهناك أدلة عديدة على أن إقلاع الطفل عن تعلقه بأمه تعلقا شخصيا عميقا ، يحرر عقله ويهيئه للدراسة الأكاديمية ، فيقبل على دراسة المواد المدرسية ، لمجرد أنها أشياء عامة غير شخصية .

لكن هذا الاستعداد للدراسة الأكاديمية ليس إلا جانباً واحداً من القصة ، لأن تحول اهتمامات الطفل — فى فترة الكمون وما بعدها — ليس تحولا أساسياً أو شاملا كما يبدو فى الظاهر . فالمحلل النفسانى حينما يدرس أحلام أحد المرضى وتداعى أفكاره ، فإنه غالباً ما يجد ارتباطاً فى العقل الباطن بين الرغبة فى استطلاع أسرار العلم مثلا والرغبة فى استطلاع أسرار الجنس والتناسل . كذلك قد يجد المحلل النفسانى أن الحافز الذى يدفع الإنسان إلى ابتكار المخترعات الجديدة وإنتاج الأعمال الفنية والأدبية ، قد يكون — إلى حد ما — وليد حنينه إلى إنجاب الأطفال . والواقع أن الناس دائماً ما يقولون إن الإنسان الذى يملك موهبة الخلق والابتكار ، «يتمخض» عقله « فيلد » فكرة أو مشروعاً . وعلى ذلك يمكن القول بأن أنبل الأشياء التى فكر فيها الإنسان وصنعها ، هى إلى حد ما وليدة شوقه وتعلقه بأحد الوالدين ، ثم إقلاعه عن هذا التعلق بالوالد المحبوب .

ونفس هذا الكلام ينطبق على النواحى الروحية والمثالية والبطولية فى الحب الإنسانى . فلو لم توجد فى حياة الإنسان « مرحلة أوديبية » يعقبها كبت فى فترة الكمون ، لكان الحب بمعناه الجنسى عبارة عن عمليات استهواء جسدى قصيرة المدى ، كالتى تحدث بين كثير من الحيوانات ، دون أن تنطوى على الحنان أو التفانى أو الرغبة فى بناء الأسرة . فكون الحب الأول العميق عند الولد يتجه نحو أمه التى تعتبر ذات أهمية قصوى بالنسبة إليه من نواح عديدة ، وكون هذا الحب ينشأ فى محيط الأسرة التى يظللها الاستقرار والتفانى ، وكون هذا الحب تقليداً لحب أبيه لأمه — كل هذه الظروف التى تحيط بالحب الأول تدفع الولد عندما يكبر لأن يصوغ حبه للجنس الآخر على نفس النمط . أما إذا ظل الولد طوال حياته يكن لأمه نفس الحب الذى كان يكنه لها فى سن الثالثة والرابعة ، فإنه لن يتمكن قط من أن يأخذ أية فتاة أخرى مأخذاً جدياً . (إننا نرى أحياناً

فى واقع الحياة رجلا لا يستطيع مطلقاً أن يحب أية امرأة أخرى غير أمه . كذلك نرى أحياناً فتاة لا تعجب قط بأى رجل إعجابها بأبيها) . وبناء على ذلك فإنه إذا كان للطفل أن ينشأ متكامل الشخصية ، فلا بد أن يكون فى حياته أولا حب عاطفى لأحد الوالدين ، يعقبه كبت لهذا الحب .

لقد اقتصر معظم حديثى على دراسة التغيرات التى تحدث فى علاقة الولد بأمه . غير أن حل عقدة أوديب يحدث أيضاً تحولا فى علاقة الولد بأبيه . فلقد كانت أحاسيس الولد نحو أبيه فى المرحلة السابقة ، مزيجاً من الإعجاب الذليل به والخوف منه خوفاً شديداً لا شعورياً . أما فى هذه السن فإنه يبدو فى الظاهر وكأنه يتباعد عن أبيه ، بمثلما يتباعد عن أمه ، متخليا عن فكرة اتخاذه نموذجا يقتديه فى السلوك ، أو إثارة الجدل معه .

ولكننا عندما نتعمق فى دراسة أحاسيس الولد ، نجد أنه قد نجح إلى حد بعيد فى تقمص شخصية أبيه ، حتى إنه يحس الآن أنه قد أصبح رجلا كبيراً مجربا له كيانه الخاص . فهو لم يعد يحس بحاجة ماسة لأن يتطلع باستمرار إلى أبيه كى يرشده إلى السبيل السليم .

إن هذا التحول فى شعور الولد نحو أبيه ، يذكرنا بالمثل القديم القائل : « إذا لم تستطع أن تتغلب على عدوك ، فحاول أن تنضم إليه » فهو من الآن فصاعداً سيكون فى وضع يؤهله للاستمرار فى عملية التعلم من أبيه ، ولكن بطريقة أكثر تمييزاً على أساس الند للند . كما أنه فى نفس الوقت يزداد دراية بالعالم الخارجى ، كى يصبح صورة طبق الأصل من أبيه .

كذلك تتوصل البنت إلى حل عقدة أوديب عندها ، فتكبت رغبتها فى امتلاك أبيها ، كى تقلل بذلك من شعورها غير المريح بالمنافسة مع أمها . كما يزداد

فى هذه السن تقمصها لشخصية أمها ، وتتجه اهتماماتها إلى المسائل العامة فى العالم الخارجى . غير أن هذا التحول فى حالة البنت يكون بوجه عام أقل عنفا وأقل شمولا منه فى حالة الولد ، فهى لا تضطر فى العادة إلى انتهاج سبيل العناد والفوضى كأخيها . كما أن دراسة الرياضيات والميكانيكا والعلوم قد لا تستهويها مثلما تستهويه . وبعبارة أخرى ، فإن البنت لاتحس مثل الولد أنها مضطرة إلى كبت مشاعرها الشخصية كبتاً عنيفاً ، وهذا يبدو واضحاً تماماً فى قدرتها على الاستمرار فى التعبير عن حبها نحو أبيها ، وتقبل حبه نحوها .

تكوين الضمير الحي عند الطفل

« يمكنك أن تلمس دلائل خفية فى الأعماق ، توحى
بأنه قد اكتسب نوعاً جديداً من تهذيب النفس » .

إن بعض الآباء الذين تنقصهم الخبرة ، قد يخيل إليهم أحياناً أن طفلهم الأول فى طريقه إلى الانحلال والضياع ، أثناء اجتيازه المرحلة ما بين سن السادسة والثانية عشرة . فهو يبدو لهم كما لو كان قد تخلى عن معظم آداب المائدة التى تعودها . ويحرن عن تمشيط شعره وغسل يديه والاستحمام . وغالباً ما يترك حجرته وممتلكاته فى حالة فوضى شنيعة . وقد يستخدم ألفاظاً خشنة فى حديثه . ويميل فى أغلب الأحيان إلى الجدل ، ويتمادى فى الوقاحة أحياناً . وقد تتكون عنده عادات تبعث على الغيظ إلى حد يثير أعصاب والديه ، فيرجوانه أو يأمرانه بالكف عن هذه العادات السيئة ، لكنه ينسى دائماً .

هذه هى الصورة كما تبدو فى الظاهر . لكنك لو تجملت بشىء من الصبر كى تتأمل ما يجرى فى أعماق الطفل ، فقد يمكنك أن تلمس فيه دلائل خفية توحى بأنه قد اكتسب نوعاً جديداً من تهذيب النفس . ولقد راقب علماء النفس عن كثب بعض الأحاديث التى تدور بين الأطفال فى سن السابعة أثناء فترة الفسحة مثلا ، فوجدوا أنهم يقضون فترة مذهلة من الوقت فى مناقشة معايير السلوك السليم — من وجهة نظرهم الخاصة ، لا من وجهة نظر الكبار بطبيعة الحال — وأنهم ينتقدون زملاءهم الذين يشذون — فى رأيهم — عن السلوك السوى بأية صورة من الصور .

وفى اعتقادى أن هذا الاهتمام بالسلوك إنما هو أحد الأسباب التى تدفع الأطفال

إلى تكوين جمعيات سرية فى هذه السن . فالكثير من الأولاد الذين يلعبون معاً لأنهم يشتركون فى الآراء والاتجاهات ، يقررون على حين فجأة أن يُضفوا على هذا التضامن بينهم طابعاً رسمياً ، بأن يتخذوا لأنفسهم جميع المظاهر التى تحيط بأندية الرجال المحترمين ، بما فى ذلك الاسم واللوائح والشارات ومجلس الإدارة . فارتباط الطفل أمام الناس بجماعة تتوسم فى نفسها التفكير السليم ، يساعده على الشعور بالثقة بقدرته كفرد على التفكير الصائب . وقد يقنع أفراد هذه الجماعة أنفسهم بأنهم يتبعون المعايير السليمة فى السلوك ، وذلك بأن يستبعدوا من بينهم فى تباه ، أولئك الأولاد الذين يسلكون سلوكا مختلفاً عنهم .

كما أن فكرة النادى تساعدهم بطريقة أخرى ؛ فالسرية التى تحيط به إنما هى عذر مشروع لإبعاد الآباء والمدرسين عن مجال نشاطهم . إذ كيف يمكنك أن تحس بأنك تضع لنفسك قواعد للسلوك ، إذا ظل الكبار يوالونك بالتوجيهات ، كما لو كنت أصغر من أن تدرك المعايير السليمة ؟

إن الألعاب التى تستهوى الأولاد بصورة متزايدة فى هذه السن ، مثل لعبة الحجلة ولعبة تصويب الكرات إلى الشواخص الخشبية ، تبين لنا مدى قوة الحافز الذى يدفعهم إلى تهذيب أنفسهم . كما أن عملية تنمية المهارة فى هذه الألعاب تستهويهم كهدف فى حد ذاته . فلو أنك لم تر الأطفال بعينيك وهم يمارسون هذه الألعاب ، وإنما سمعت فقط أحد الأشخاص يصف لك مدى الجهد الشاق الذى يبذلونه فى ممارستها ، ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، فقد يخيل إليك أنهم لا يمارسونها بحافز من أنفسهم ، وإنما يفعلون ذلك تحت ضغط شديد من الكبار . على حين أن الآباء يضطرون فى الواقع إلى انتزاع أطفالهم بالقوة من هذه الألعاب كى يتناولوا وجباتهم ، كما يضطر المدرسون إلى مراقبتهم مراقبة

دقيقة كي يمنعوهم من إقامة مباريات تصويب الكرات في دهاليز المدرسة .

وفي الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة يميل الأطفال — حتى أشدهم فوضى — إلى الترتيب والنظام في بعض اللحظات ؛ فالطفل يحس على حين فجأة بحافز يدفعه إلى تنسيق كتبه الفكاهية ، فيجمعها من أركان الحجرة وقد علاها التراب ، ثم يجلس وسطها سعيداً لساعات طوال ، وهو يكدسها أمامه حسب عناوينها وتواريخها . أو قد يقرر أن ينظم كل محتويات أدراج مكتبه . وهنا نجد أن التقارب النفسي بين الفوضى والنظام يبدو واضحاً في السرور الذي يغمر الطفل عندما يبدأ أولا في تفريغ محتويات كل « الأدراج » ويضعها في كومة هائلة على الأرض في وسط الحجرة . لكنه أحياناً يظل يكدس تلالا من ممتلكاته، حتى إن حماسته تتبدد قبل أن يقطع شوطاً كبيراً في تنسيقها ، فتضطر أمه إلى إنجاز هذه المهمة بنفسها في يأس وقنوط .

وفي هذه السن أيضاً تزدهر الرغبة في تكوين المجموعات عند الطفل : مثل مجموعات الطوابع أو الأحجار أو الصور ، فتصبح متعته الرئيسية هي أن يحاول تكملة المجموعة وترتيبها حسب نظام معين. كما أن البنات اللائي يستمر اهتمامهن بالعرائس إلى ما بعد سن السابعة أو الثامنة ، قد يجدن متعة أقل من ذي قبل في تمثيل دور الأمهات مع العرائس ، أو في جعل العرائس يمثلن أفراد الأسرة . وبدلاً من ذلك ، تصبح العرائس وثيابهن أشبه بالمجموعات عند البنات في هذه المرحلة .

* * *

إن الطريقة التي يلاحظ بها الطفل إشارات حدود السرعة وعداد السرعة في السيارة ، من بين المظاهر التي تدل على نمو وازع الضمير عنده ، والتي قد تثير غيظ

أبيه أثناء قيادته للسيارة . فالطفل لا يتردد فى أن يقول لأبيه : « إنك تقود السيارة بسرعة ثمانية وثلاثين ميلا فى الساعة مع أن حد السرعة هو خمسة وثلاثون ميلا » . على حين يحس الأب أنه ما دام هو الذى علم الطفل الفرق بين الصواب والخطأ ، فإن من واجب الطفل أن يسلم بلا جدال بأن تصرفات أبيه هى الصواب ، مهما تكن هذه التصرفات . إن هذا ما كان يحدث بالفعل فى المرحلة السابقة من عمر الطفل ، ولكن الأمر يختلف بعد سن السابعة أو الثامنة . فالطفل الآن يتطلع إلى العالم الخارجى بحثاً عن القواعد السليمة فى السلوك ، ويحاول أن يتغلب على انقياده السابق لأبيه بوصفه المرجع الأخير فى كل الأمور . لذلك فإنه فى مثل هــذه المناسبات — كقيادة السيارة — يغمره شعور بالرضا حين يكتشف أن هذا الرجل — أباه — الذى كان فيما مضى يحسبه إلها فى احترامه للقوانين ، هو فى الواقع رجل يخالف القوانين . فمن جهة ازدياد قدرة الطفل على تهذيب نفسه ، نجد أن هذا الانتباه إلى حدود السرعة فى قيادة السيارة ، ما هو إلا دلالة على الطريقة الحرفية التى ينظر بها إلى القواعد والقوانين . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن هذه هى المرحلة التى يصبح فيها ضمير الفرد أكثر ما يكون تشدداً وصرامة ، إذ ليست هناك أنصاف حلول أمام الطفل فى هــذه السن ، فإما خطأ وإما صواباً .

هناك علامة أخرى من علامات تشــدد الضمير ، ألا وهى شيوع ما يسميه الأطباء النفسانيون « الدوافع القهرية بين الأطفال » فى هذه الفترة . وهــذه الدوافع أشبه بالخرافات ، لكنها أكثر إقلاقاً للطفل وأكثر ذاتية من الخرافات . ومن أكثرها شيوعاً بين الأطفال فى حوالى سن الثامنــة والتاسعة والعاشرة ، حركة تخطى العقبات والشقوق فى بلاط الطوار . فهم يفعلون هذه الحركة تلقائياً ، حتى ولو لم يكن قد سبق لهم أن رأوا أحداً غيرهم يقوم بها . ففى الماضى البعيد ،

. قبل أن يوجد أطباء أو محللون نفسانيون بأمد طويل ، أدرك الأطفال معنى هذه العادة إدراكاً مبهماً ، وأطلقوا عليها قولاً مسجوعاً على سبيل الفكاهة : « إذا خطوت فوق شق ، تشق ظهر أمك » . وهذا القول إنما هو تعبير عن الفكرة التالية : « عند ما تغضب منى أمى ، ويخطر لى فى لمحة خاطفة أنى أتمنى لو أنها انزلقت على قشرة موز ، فإنى عندئذ أحس إحساسا حاداً بالإثم ، بحيث يتحتم على أن أتخطى شقا فى الطريق ، كى أبطل مفعول هذه الرغبة الشريرة » . إن هذا الاتجاه يختلف تمام الاختلاف عن اتجاه طفل الرابعة الذى لا يحس بوخز الضمير على الإطلاق عند ما يصوب مسدسه « اللعبة » نحو أمه قائلاً لها فى مرح : « طاخ ، أنا سأميتك بالمسدس » .

كما أن ظهور وازع الضمير عند الطفل ، وارتباطه بالجهد العنيف الذى يبذله للحصول على مزيد من الاستقلال عن والديه ، يتضحان فى موقفه الجديد من الدين ، إذا كان قد شب فى أسرة متدينة . فهو فى الماضى ، عند ما كان فى الرابعة أو الخامسة من عمره ، كان يرى أن أباه يتطلع إلى الله بنفس الطريقة التى كان هو يتطلع بها إلى أبيه . بل ويمكنك القول بأنه كان يحس أنه يرتبط بالله عن طريق أبيه ، ويتقبل فكرة الله على الأساس الذى يمليه عليه والداه . ولكنه حين يبدأ فى التباعد عن والديه ، ويأخذ فى مناقشة سلامة آرائهما وتصرفاتهما (على الأقل فى المسائل السطحية) ، ويتطلع إلى العالم الخارجى بحثاً عن سلطة جديدة يستلهمها الرأى السديد ، فمن الطبيعى جداً أن يحل الله — إلى حد ما — محل أبيه بوصفه السلطة العليا والمرجع النهائى فى كل الأمور . لذا فإن حاجته النفسية لأن يحدد الفرق بين الخطأ والصواب تحديداً قاطعاً ، تجعله مستعداً ، بل سعيداً ، لأن يتقبل تعاليم الدين . وأنا لا أعنى بذلك أن الأطفال يكون لديهم فى هذه المرحلة إحساس عميق باتصالهم بالله اتصالاً شخصياً وثيقاً ، وإنما أقصد

أنهم فى هـذه السن يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى الله ، كأفراد مستقلين لهم كيانهم الخاص .

* * *

ما هو المعنى الشامل لهذه المظاهر فى النمو التى تتمثل فى تطور مشاعر الحب ، والرغبة فى وضع قواعد السلوك ، والاتجاه إلى تهـذيب النفس ، ونمو وادع الضمير ، فى الفترة ما بين السادسة والثانية عشرة من عمر الطفل ؟ لقـد ناقشت فى الأبواب السابقة موضوع النمو الانفعالى للطفل فى المرحلة السالفة ما بين سن الثالثة والسادسة ، فبينت كيف ينمو عقله وشخصيته عن طريق تعلقه الشديد بوالديه ، وكيف تتكون مثله العليا عن الرجولة والأنوثة عن طريق اتخاذهما قدوة له . غير أن هذه الروابط التى تشده إلى والديه ، لا بد وأن تنحل فى نهاية الأمر ، إذا كان للطفل أن يستمر فى عملية التـكيف مع العالم الخارجى تـكيفاً سليماً . وهذا يحدث أساساً نتيجة إحساس الطفل المتزايد بالمنافسة مع الوالد الذى من نفس جنسه . فالأخطار التى يتوهم أنها تحيق به من جراء هذه المنافسة ، تجعله يقلع فى النهاية عن الفـكرة الوهمية التى توحى إليه بأنه يستطيع الاستئثار بالوالد الآخر على نحو ما . وبناء على ذلك فهو يكبت اهتماماته العاطفية والجنسية كبتاً عنيفاً ، ويتحول فى شىء من الارتياح إلى العالم الخارجى الأقل ذاتية ، فتستهويه المسائل المجردة مثل الحساب والقراءة والميكانيكا والطبيعة الحية .

وإذا لم يكن بوسع الولد أن يتغلب على أبيه فى مجال المنافسة ، فإن فى وسعه أن ينضم إليه ، كما يمكن للبنت أن تنضم إلى أمها . غير أن الولد فى هذه السن يكف عن محاولة التشبه بأبيه ، لأنه فى قرارة نفسه يزداد اقتناعاً بأنه قد أصبح فعلا رجلاً مستقلا مجرباً مثل أبيه بالضبط . كذلك لا يعود راغباً فى تقبل قواعـد السلوك التى يرسمها له والداه ، بسبب حساسيته الشديدة وشعوره بالـكبرياء من

ناحية استقلال شخصيته . ولكنه قد شب وفى نفسه إحساس بالخطأ والصواب ، ورغبة فى كسب رضا الناس ، لذلك فهو يجد نفسه مضطراً لملء الفراغ — الذى تركه والداه — بقواعد فى السلوك يستمدها من مصدر آخر غيرهما . ومن ثم فهو يتطلع إلى تعاليم الدين ، ويتطلع إلى زملائه ومعلميه فى المدرسة ، كى يستلهم منهم هذه القواعد . إلا أن شعوره بعدم الارتياح لأنه قد بدأ يشق طريقه بنفسه من ناحية السلوك الأخلاقى ، يجعله يستجيب استجابة عمياء للنواحى التى يمليها عليه ضميره الساذج . أما السبب فى أن والديه لا يلمسان ذلك الضمير الحى عنده ، فهو أنه كثيراً ما يبدى تمرده عليهما فى بعض المسائل السطحية ، مثل النظافة وآداب السلوك والواجبات اليومية .

إن الطفل فى الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يبذل جهداً شاقاً بكل جدية ، كى يهيىء نفسه للتكيف مع العالم الخارجى ، بأن يتعلم مهارات هذا العالم ، ويتبع نظمه وقوانينه ، ويتعاون مع مواطنيه . ومما يضاعف من مشقة هذه المهمة التى يقوم بها ، أنه مضطر فى نفس الوقت للقيام بعمل إيجابى كى يحرر نفسه من سيطرة والديه . وهذه المحاولة لتحرير نفسه تسبب ألماً لهما وله ، لأنه لم يبلغ بعد مبلغاً من النضج يؤهله للقيام بها فى رقة ولباقة . ولذا يجد نفسه مضطراً لأن يقوم بها عن طريق مخالفتهما فى الرأى ، والجدل معهما ، وإثارة غيظهما ، وهو يتبع هذا الأسلوب سواء حاول الوالدان أو لم يحاولا أن يبقياه معتمداً عليهما أكثر من اللازم . وبعبارة أخرى، فإن هذا الاعتماد على الوالدين هو الشىء الذى يكافح الطفل أساساً من أجل التحرر منه .

استمرار حاجة الطفل إلى رقابة الوالدين

« يجب أن تتمسكى بقواعد السلوك التى تعتقدين أنها أساسية »

كيف يتسنى للوالدين معالجة المتاعب والمضايقات التى يثيرها الطفل فى سنى المدرسة ؟

إن مجرد تفهم ظروف الطفل والصبر على تصرفاته ليس فيهما الكفاية ، فهذا الأسلوب لن يؤدى إلى تحسن فى سلوكه أو حالته المعنوية ، إذ ليس من مصلحته أن نطلق له الحرية فى إثارة المتاعب كما يحلو له ، فضلا عن أن هذا أمر لا يطيقه الوالدان . والواقع أنه ، كما تعلمون بشكل تأكيد ، لا توجد وسيلة ناجعة لمعالجة هذه المشكلة .

فلقد شرحت فى البابين السابقين بعض الصفات المميزة التى يتسم بها الطفل فى الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ؛ فالطفل يحاول فى هذه المرحلة أن يحقق ثلاثة تغييرات رئيسية فى حياته ، وأن يحققها جميعاً فى نفس الوقت :

١ — إنه يريد بشكل جدية أن يندمج فى العالم خارج محيط البيت ، وأن يقلد الأطفال الآخرين الذين هم فى مثل سنه من بنى جنسه .

٢ — إنه يريد أن يحصل على مزيد من الاستقلال عن والديه .

٣ — تلح عليه طبيعته أن يكرس جانباً كبيراً من طاقته لعملية تعلم المهارات ، وتنسيق الأشياء ، واحترام القوانين ، وتنمية الضمير .

ونحن عندما نعدد هذه الأهداف فى هذه الكلمات الموجزة ، قد لا يبدو من العسير على الآباء والأمهات معالجتها . ولكنها فى الواقع قد تصبح مصدر ضيق

شديد لهم ، لا سيما فى حالة الولد ؛ فالأشياء التى يميل الولد إلى تقليدها من الأولاد الآخرين ، قد تتمثل فى توسيخه لثيابه ، وامتناعه عن الاستحمام والاغتسال ، وتخليه عن آداب المائدة ، واستعماله لغة السوقة فى الحديث ، ورغبته فى الجدل ثم ســـلوكه لوقح فى بعض الأحيان . كما أن رغبته الشديدة فى اكتساب المهارات قد لا يكون لها وقع طيب فى البيت ، لأنها تتمثل فى أشياء مزعجة مثل العبث ببعض المواد الكيموية التى تصدر رائحة كريهة أو تحدث انفجارات ، أو اللعب بالنحلة طوال اليوم . لذا فهو يحاول أن يتعلم معظم المهارات فى المدرسة ولا يتحدث عنها فى البيت . كذلك شعوره بالمتعة فى التنظيم والتنسيق ، قد يبدو واضحاً فى تكوين مجموعات المجلات الهزلية أو الحشرات ، أكثر مما يبدو فى تنسيق مكتبه وأدراجه . كما أنه غالباً ما ينسى اتباع قواعد السلوك التى يلتقطها فى حماسة من العالم الخارجى ويستغلها أحياناً فى معارضة آراء والديه . أما بالنسبة لرادع الضمير عنده ، فإنه يبدو غالباً فى تخطيه الشقوق أثناء سيره فى الشارع ، أكثر مما يبدو فى أدائه لواجباته اليومية .

إن التصرفات العديدة التى يدأب عليها أطفال هذه السن وتثير غيظ الوالدين ، قد تدفعك إلى التساؤل عما إذا كانوا يقومون بها عن عمد . لقد أثبتت بعض الاختبارات النفسية التى أجريت على مجموعة من الأطفال فى سن السابعة ، أنهم يشعرون فى أعماقهم بأن آباءهم وأمهاتهم يضطهدونهم ، وأن حياتهم تخيم عليها التعاسة . وما دام هؤلاء هم الآباء والأمهات أنفسهم الذين كان الأطفال يبجلونهم ويسعدون بصحبتهم فى سن الثالثة والرابعة ، فلا بد إذن أن الأطفال هم الذين طرأ عليهم التغيير . وهذا يرجع فى اعتقادى إلى أن تصميم الأطفال على الإقلال من اعتمادهم على آبائهم ، يخلف عندهم شعوراً بالعداء نحوهم . لكنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون أن يعترفوا بهذا الشعور ، لذا فهم يتوهمون أن آباءهم يتحكمون

فيهم ويكنون لهم العداء . ونفس هذا الشعور يمكنك أن تلمسيه إلى حد ما فى الطفل ابن العام ، عند ما يحس لأول مرة أنه شخص منفصل عن والديه ، فيعارض أمه معارضة أوتوماتيكية ، كما لو كان يتصيد موضوعاً يثير حوله الجدل . ويمكنك أيضاً أن تلمسيه بصورة أكثر تعقيداً فى الحساسية المفرطة التى تبدو فى حوالى سن الخامسة عشرة عند كثير من الأطفال ، الذين يشكون —فى إجاباتهم على الاستفتاءات النفسية— من أن آباءهم لا يفهمونهم مطلقاً ، أو أنهم لا يعاملونهم معاملة عادلة . فى حين أن غيرهم من المراهقين الأكبر أو الأصغر سنا ، لا يحسون هذا الشعور الحاد من ناحية معاملة آبائهم لهم .

ومن ثم فإنى أعتقد أن الطفل بين سن السادسة والثانية عشرة يحاول بالفعل أن يثير غيظ والديه فى بعض الأحيان ، ولو أنه لا يدرك ذلك إدراكا واعياً . فلا عجب إذن أن الوالدين اللذين اعتادا منه الإعجاب الشديد بهما فى المرحلة السابقة من عمره ، يجدان أنه الآن قد أصبح طفلا متعباً ، يبعث على الكدر ، ويميل إلى النفور .

ألا توجد أية حلول لهذه المشكلة ؟ فى اعتقادى أن الوالد غير المجرب قد يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن الاحتكاكات التى تنشأ بينه وبين طفله فى سنى المدرسة ، لا تدل على أنه قدفقد تأثيره فى طفله ، أو أن الطفل يعانى بعض المتاعب النفسية . فلو أن الوالد نظر إلى هذه الاتجاهات الجديدة فى السلوك على أنها دلائل تنبيء بتقدم الطفل فى عملية النمو الطويلة الشاقة ، فإنه فى هذه الحالة — رغم عدم رضاه عن هذا السلوك — سوف يستطيع على الأقل أن يواجهه بابتسامة تدل على الفهم ، يتبادلها مع زوجته ، أو فيما بينه وبين نفسه . وبذلك سوف يقل شعوره بالتوتر فى بعض المواقف بينه وبين الطفل ، مما يمنع حدوث الانفجار فى كثير من الأحيان ، ويعود بالفائدة على جميع أفراد الأسرة .

ما هو الأسلوب الذى ينبغى أن ينتهجه الأب والأم فى معالجة أمور الطفل من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم ؟ إن الآباء والأمهات الذين يحاولون مراعاة الطفل والصبر على تصرفاته أكثر مما ينبغى ، يجدون فى العادة أن هـذا ليس هو الأسلوب السليم . فالطفل — شأنه شأن الكبار — عندما يجد أن أحداً لا يرغب فى وضع حدود لسلوكه ، يحس بالضيق وعدم الارتياح فى قرارة نفسه . فهو يشعر بأنه فى حاجة إلى شىء من السيطرة على تصرفاته . ويحتمل فى هذه الحالة أن يكون رد الفعل عنده هو محاولته استفزاز المحيطين به كى يوجهوا إليه شيئاً من اللوم والتعنيف. ويتمادى فى سلوكه الاستفزازى أكثر فأكثر، كما لو كان يقول: « إلى أى مدى ينبغى لى أن أسىء السلوك حتى توقفونى عند حدى ؟ » وهو بهذا الأسلوب يرغم أبويه على الانفجار فيه آخر الأمر. لـكنهما إذا كانا من النوع الذى يؤمن بضرورة الاحتفاظ بطابع الرقة واللطف مع الطفل فى جميع الظروف ، فإنهما سوف يشعران بموجة من الندم تجتاحهما بعد الانفجار مباشرة . ومن ثم فإنهما بطريقة أو بأخرى قد يميلان إلى الاعتذار للطفل، مما يضيع أثر التأديب والتقويم، ويتيح له الفرصة لأن يعود إلى نفس السلوك مرة أخرى .

إن جميع الأسباب تدعونا إلى الاعتقاد بأن الطفل ، رغم شعوره الداخلى القوى بالصواب والخطأ ، فى حاجة إلى من يردعه عن الإيذاء والتخريب والوقاحة والعصيان المتعمد . وهو كذلك فى حاجة إلى أن يشعر بالتزامه نحو القيـام بواجباته الروتينية ، ومد يد المعونة عندما يطلب إليه ذلك ، والحضور إلى البيت لتناول الوجبات فى مواعيدها . وفضلا عن ذلك ، فإن على الوالدين — من أجل مصلحتهما ومصلحة طفلهما — أن يحملاه على اتباع أبسط قواعد السلوك من ناحية آداب المائدة ، والتأدب مع الناس ، والنظافة الشخصية ؛ لأنهما

إذا لم يفعلا ذلك ، فسوف يتعذر عليهما احتمال تصرفاته ، مما سيؤدى إلى ازدياد ثورتهما عليه آخر الأمر .

* * *

قد يبدو من حديثى حتى الآن كما لو كنت أعترض على إعطاء الطفل أية مراعاة خاصة تتناسب مع سنه وطبيعته فى هذه المرحلة . ومع ذلك فما زال هناك أمام الوالدين مجال متسع للمراعاة الخاصة . فأكثر ما يثير استياء الطفل فى هذه السن هو أن يتحدث إليه أحد فى تعال ، بلهجة تنم عن اللوم والتعنيف . فهو فى قرارة نفسه يتوق لأن يصبح رجلا مجرباً له كرامته واحترامه . ويعتقد أنه قد قطع شوطاً كبيراً فى طريق الرجولة . فإذا حاولت أمه أن تقوم سلوكه فى لهجة توحى بأنه لا يفقه شيئاً من السلوك اللائق ، وأنه مجرد ولد صغير سيىء السلوك ، فإن هذا الأسلوب يحطم الصورة التى يتخيلها عن نفسه ، مما يؤلمه أشد الألم .

ورغم ذلك ، فحتى لو توافرت عند الطفل أحسن النوايا ، لا بد من تنبيهه إلى قواعد السلوك فى أغلب الأحيان كما تعلمين . لذلك أعتقد أن أول خطوة يجب عليك اتخاذها ، هى أن تضعى له بضع قواعد تعتقدين أنها أساسية ، مثل الاستحمام يومياً ، ووضع دراجته فى الجراج بالليل ، وعدم ضرب المائدة بقدميه ، والذهاب إلى فراشه للنوم فى الثامنة والنصف .

وعليك فى جميع الظروف أن تتمسكى بالقواعد التى تضعينها له . فإذا تجاوز ميعاده قليلا ، أو حاد عن النظام المرسوم ، فعليك أن تطلبى منه تنفيذ تعلياتك ، فى لهجة حازمة ولكنها تنم عن الود والصداقة ، كما لو كنت تتحدثين إلى صديق محترم قد طلب إليك أن تذكريه بواجبه . وفى هذه الحالة سينتظر الطفل لحظة

أخرى ليرى هل انتباهك سينصرف عنه أو لا ، ولكن لا تصرفى انتباهك عنه حتى ينفذ أوامرك .

من البديهى أن العامل غير الواقعى فى هذه النصيحة بشأن اتباع الحزم فى لهجة ودية ، هو أن الأم لا تمالك أن تثور ثائرتها ، بعد أن يستفزها الطفل ساعات طوالا ، سواء أكان ذلك الاستفزاز بسيطاً أم عنيفاً . ولكن عليها أن تذكر نفسها ، مرة كل يوم على الأقل ، بأن بعض تصرفات الطفل ما هى إلا نوع من الاستفزاز لها . فإذا أمكنها أن تنظر إلى هذه التصرفات على أنها نوع من مباريات «المبارزة» بينها وبينه ، يحس فيها الطفل أنه مضطر إلى بدء المعركة ، فإنها فى هذه الحالة بدلا من أن تشعر بالحيرة والألم والثورة كلما استفزها الطفل ، سوف تشعر بنوع من الزهو بذكائها ، لأنها تتوقع هجماته عليها وتصدها فى مهارة ، حتى تصل إلى هدفها فى النهاية .

عندما اقترحت عليك أن تتمسكى ببعض قواعد السلوك التى تعتقدين أنها أساسية ، كنت أعنى بذلك أن بوسعك فى هذه الفترة أن تتغاضى عن القواعد الأقل أهمية . وهذا بالطبع يختلف كثيراً من أسرة إلى أسرة . فمثلا عندما كان أطفالنا فى مثل هـذه السن ، اتفقت أنا وزوجتى على أن نتغاضى عن عادة ترك أربطة الأحذية مفكوكة (التى كانت رمزاً لاستقلال الشخصية عند أحدهم) وأن نتغاضى أيضاً عن ثيابهم المهوشة (إلا فى بعض المناسبات) وعن عدم تسريح شعرهم (إلا فى بداية اليوم) . كما كنا نتغاضى عن مطالبتهم دائماً بغسل أيديهم قبل الأكل ، إلا إذا كانت أيديهم قذرة بدرجة تصد النفس . لكنى من ناحية أخرى كنت دائماً أتبع معهم أسلوباً حازماً (بل وفى غاية الحزم كلما وسعنى ذلك) بشأن نظافة الأظافر ، لإدراكى أنى لا أستطيع أن أصبر طويلا على طفل أظافره قذرة .

كما أن الوالد الواعى يجب أن يراعى رغبة الطفل الجارفة فى أن يلبس مثل الأطفال الآخرين فى الحى ويقص شعره مثلهم ، حتى ولو كانت هذه الموضات لا تروق الوالد كثيراً . وأنا لا أعنى بذلك طبعاً أن الوالد ينبغى أن يشعر بأن من واجبه موافقة الطفل على أشياء لا تناسبه مطلقاً . ومما هو جدير بالاعتبار أيضاً أن نسمح للطفل فى غالبية الحالات بامتلاك نفس الأشياء التى يمتلكها معظم أطفال الجيران ، على شرط أن تكون هذه الأشياء معقولة وفى حدود إمكانيات الأسرة . وليس معنى هذا أن ندع الطفل يشعر بأن فى إمكانه أن يطلب كل ما يملكه الأطفال الآخرون ويحصل عليه (إذ يحتمل جداً أن يغالى فى مطالبه) . وقد يكون من المناسب له فى بعض الأحيان أن يشترى ما تهفو اليه نفسه من مصروفه الخاص ، أو أن يقوم بعمل خاص يكسب منه مبلغاً إضافياً ، أو أن ينتظر حتى يحين موعد عيد ميلاده . لكنى أشير إلى أن الآباء والأمهات الذين يغالون فى انتقادهم لتفاهة المجلات الفكاهية أو اللعب المنتشرة بين الأطفال ، يجب أن يضعوا فى اعتبارهم لهفة الطفل على أن يجارى التيار السائد ، قبل أن يحكموا على هذه المجلات واللعب طبقاً لأذواقهم الخاصة .

* * *

إن الاقتراحات التى قدمتها إليكم حتى الآن ، ليست اقتراحات بناءة إلى حد بعيد ، فقد كنت أتحدث كما لو كان الطفل فى سن المدرسة يتخذ دائماً موقفاً هجومياً يؤكد به استقلاله عن والديه ، وكما لو كان أقصى ما يمكن أن يفعله الوالدان إزاءه هو أن يتبعا معه أساليب ملتوية يتجنبان بها الشعور بالخيبة والألم . ولكن بوسع الآباء والأمهات ، إذا كانوا على قدر كبير من اللباقة ، أن يقدموا للطفل شيئاً من المساعدة فى إشباع الحافز الغريزى الذى يدفعه لأن يصبح مواطناً مسئولا ، وذلك عن طريق تكليفه بأداء بعض المهام ، أو السماح له بأداء بعض

الأعمـــال (مثل توزيع الصحف) التى تـكون على شىء من الصعوبة بحيث تتحدى قدرته ، لـكنها فى نفس الوقت لا تتطلب منه الـكثير من النضج بحيث يعجز عن أدائها ، أو يؤديها تحت ضغط المناكفة المستمرة من جانب الوالدين . وبوسع الأب غـير المجرب أن يستنير بنصيحة الآباء الآخرين الذين مروا بهذه التجربة ، أو يستعين بمدرس الطفل ، فى اختيار أنواع المهام المناسبة للطفل . كما أن هذا الموضوع يصلح للمناقشة فى مجلس الآباء والمعلمين بالمدرسة . لـكنى أود أن أنصحكم بألا تتوقعوا من أغلبية الأطفال أن يثابروا فى إخلاص على أداء عمل يستغرق وقتاً طويلا أو يتطلب تـكراراً مستمراً (مثل جرف الثلوج) ، مالم يشرف عليهم عن كثب أحد الـكبار ممن تتوافر فيهم صفات القيادة .

إلا أنى أعتقد بوجه عام أن الآباء والأمهات لا تتاح لهم فى هذه المرحلة فرص كثيرة تمـكنهم من صقل سلوك الطفل وصياغة اهتماماته — بطريقـــة إيجابية ومباشرة — مثلما كانوا يفعلون فى المرحلة السابقة ، التى كان الطفل يتلهف فيها على تقليد نماذج سلوكهم . لذا فإن مهمتهم — من زاوية معينة — تتركز الآن أساساً فى عملية ضبط الطفل ومنعه من الارتداد إلى الخلف . ويجب أن يعتمدوا على الطفل فى القيام بالجانب الأكبر من عملية نضجه ، فهو سوف يستفيد من المثل العليا التى تعلمها منهم فى المرحلة السابقة ، ومن الخبرات التى يكتسبها من أطفال الجيران ، ومن المدرسة ، وغيرها من الجماعات .

٧

توترات مرحلة المراهقة

حاجة المراهقين إلى التوجيه

« لا يظل المراهقون فى حاجة إلى
التوجيه فحسب ، بل إنهم يرغبون فيه »

منذ بضع سنوات جاءت إلى عيـادتى أم وابنتها البالغة خمسة عشر عاماً . ولم أكن أعرفهما من قبل ، أو أعرف شيئاً عن طبيعة المشـكلة التى جاءتا من أجلها . وبعد أن تعارفنا ، طلبت من البنت أن تدخل إلى حجرتى أولا .

فالبنت أو الولد فى هذه المرحلة من حياته ، يشعر شعوراً حاداً بأنه قد أصبح إنساناً كبيراً ناضجاً ، ويتلهف على أن يعتبره الناس شخصاً مستقلا له كيانه الخاص ، ويتضجر من اعتباره مجرد طفل ينتمى إلى شخص ما . وهو يقدر اعتراف الناس به على أنه صاحب الشأن ، عند زيارته للطبيب ، أو شرائه بعض الحاجات من السوق ، أو عند مقابلته لمسجل الـكلية . وإذا كانت زيارة الطبيب متعلقة بالخلافات الناشئة بينه وبين أبيه أو أمه ، فإنه يتـكدر أشد الـكدر ، إذا دعا الطبيب الأب أو الأم لمقـابلته أولا ، لأنه قد يتوهم أن والده سيلقى عليه معظم اللوم ، وأن الطبيب سيأخذ وجهة نظر الوالد على علاتها بلا جدال . فالـكبار — برغم كل شىء — يبدون فى العادة وكأنهم يساندون بعضهم بعضاً ، ويصدقون كلام بعضهم بعضاً فى المسائل المتعلقة بالأطفال .

وسألت البنت عن مشكلتها فقالت إن والديها لا يدعانها تتمتع بالاستقلال مثل غيرها من البنات اللائى فى مثل سنها . وقد انصبت شكواها على أن والديها لا يسمحان لها بالذهاب إلى مباريات كرة القدم مع زميلاتها ، أو بحضور حفلات السمر التى تقام مساء الجمعة فى المدرسة الثانوية . وتحدثنا فترة من الزمن عن

المدرسة ، والأصدقاء ، والهوايات ، والحياة فى البيت . ثم قلت لها إنى أود التحدث إلى أمها أيضاً على انفراد .

وعندما سألت الأم عن المشكلة ، أجابت بأنها قد انزعجت هى وزوجها على ابنتهما ، لأنها بدأت تنطوى على نفسها شيئاً فشيئاً ، وتنتحل مختلف الأعذار للتباعد عن صحبة صديقاتها . وقد ذكرت لى الأم على سبيل المثال أن ابنتها لم تعد ترغب فى حضور مباريات كرة القدم وحفلات السمر ، رغم أن والديها يحثانها ويحاولان إغراءها بحضورها ، بل ويرتبان لها سراً بعض الدعوات لحضور الحفلات مع زميلاتها بالمدرسة .

لم أكد أصدق أذنى فى بادىء الأمر . فرغم أنى كنت أعلم جيداً أن أفراد الأسرة الواحدة غالباً ما يصورون المشكلة تصويراً مختلفاً فى حالة المنازعات العائلية ، إلا أنه لم يحدث قط من قبل أنى سمعت اثنين من أسرة واحدة يعبران عن جوهر المشكلة هذا التعبير المتناقض تمام التناقض . ثم حدث — فى خلال شهرين من سماعى لهذه المشكلة — أن تحدثت إلى أفراد أسرة أخرى ، كانت فيها الابنة المراهقة تشكو مر الشكوى من أن والديها يمنعانها من أداء نفس الأشياء التى علمت منهما أنهما يحاولان إقناعها بأدائها . فأدركت حينئذ أنى لم أكن فى حلم فى المرة الأولى ، بل إن هناك ظاهرة ما لها دلالة عامة فى حالة المراهقين .

وأنا لا أعنى بذلك أن هاتين البنتين صاحبتى المشكلة تمثلان السلوك العادى للمراهقين ، أو أنه لا توجد مشكلة خطيرة فى حالتهما . فعندما يبدأ أحد المراهقين (أو أى شخص فى أية مرحلة من العمر) فى تجنب أصدقائه القدامى والابتعاد عن مجالات نشاطه القديمة ، فإن هذا السلوك منه يدل على أنه يرزح تحت وطأة توتر نفسى عنيف ، وأنه فى حاجة إلى المساعدة من الإخصائى النفسانى .

ولكنى أدركت من خلال هاتين الحالتين الحادثتين ، أن المراهق — حتى فى الظروف العائلية العادية — غالباً ما يشكو ثائراً من أن والديه لا يمنحانه القدر الكافى من الحرية أو الحقوق ، فى حين يتضح من البحث الدقيق غير المتحيز أنهما لا يقيدان حريته بالقدر الذى يشعر به . حقيقة أن الآباء يجب أن يؤدوا دورهم كآباء حتى بالنسبة لأبنائهم المراهقين ، فما زال من واجبهم أن يضعوا حدوداً معقولة لسلوكهم، لا لأنهم يريدون إيذاءهم ، بل لأنهم يحبونهم ويدركون نقص خبرتهم ، ويرغبون فى حمايتهم من الأذى ومن نقد الجيران لهم . وحقيقة أيضاً أن كل المراهقين يحتجون أحياناً على الحدود المرسومة لهم ، حتى تلك الحدود التى يدركون أنها معقولة فى دخيلة نفوسهم ، غير أن الآباء والأمهات — لأنهم بشر — يخطئون فى أحكامهم أحياناً ، فيعمدون فى بعض المواقف إلى الصرامة أكثر من اللازم أو أكثر من المألوف فى المنطقة التى يعيشون فيها (الأمر الذى يعطى الطفل العذر فى إبداء سخطه وتذمره) ، على حين يميلون فى مواقف أخرى إلى التساهل أكثر من المعقول (الأمر الذى يعطى الطفل سابقة يستند إليها فى مجادلاته فى بعض المواقف المشابهة مستقبلا) .

* * *

لكننا حتى لو وضعنا فى اعتبارنا جميع نواحى الضعف فى الطبيعة البشرية — عند الآباء والمراهقين على السواء — فإن هذا لن يبين لنا السبب فى ثورة المراهق على والديه بلا مسوغ فى بعض الأحيان . على أن هناك فى رأيى سببين بالذات لهذه الظاهرة : أولها شعور المراهق بالاعتماد على والديه ، وثانيهما عدم ثقته بقدرته على أداء دور الإنسان الكبير الناضج .

إننا فى العادة ننظر إلى الأطفال الأصغر سناً على أنهم يعتمدون على آبائهم

وأمهاتهم ، ويهرعون إليهم عندما يصيبهم أذى أو يقعون فى مأزق أو يحتاجون إلى أى نوع من المساعدة ، وأنهم يتقبلون فى المسائل الهامة قواعد ومعايير السلوك التى يرسمها لهم آباؤهم ، ولا يجادلونهم إلا فى بعض القواعد الثانوية مثل موعد النوم أو نوع الثياب . لكننا من ناحية أخرى ننظر إلى المراهقين على أنهم يلحون دائماً فى طلب الاستقلال عن آبائهم . وبالتدريج نقتنع كآباء — تحت ضغط إلحاحهم — بأنهم قد هيأوا أنفسهم لهذا الاستقلال ، وأنهم أهل له ؛ ذلك أن طرقهم المستمر فى مجادلاتهم معنا على ناحية واحدة هى الاستقلال عنا ، يجعلنا ننسى أنهم فى دخائل أنفسهم لا يستقرون على رأى واحد بشأن استعدادهم لممارسة الحرية . والواقع أن اقترابهم من مرحلة الاستقلال يبدو فى بعض الأحيان كما لو كان يثير فيهم شعوراً بالخوف ، يدفعهم إلى نوبات من التواكل قد لا تبدر من طفل فى الثامنة أو العاشرة من عمره .

ومن البديهى أن المراهقين لا يعترفون — قط سواء لأنفسهم أو لآبائهم — بهذه الرغبة فى الاعتماد والتواكل . لكنهم يظهرون حاجتهم إلى هذا الاعتماد بطريقة غير مباشرة . وأذكر الآن غلاماً كان فى السادسة عشرة من سنه يعلن دائماً أنه قد بلغ من السن ما يؤهله لأن يعنى بأمر نفسه على الوجه الأكمل ، لكنه رغم ذلك كان يغضب ويتألم إذا وجد فى بعض الأحيان أن أمه لم تعد له السندوتشات وكوب اللبن والحلوى على المائدة ، عند عودته إلى البيت لتناول طعام الغداء . وهناك مراهق آخر يفترض — كقضية مسلم بها — أن والديه يجب أن يتوقعا احتياجه إلى السيارة فى مساء يوم معين ، رغم أنه ينسى إخطارهما بالموعد مقدماً . وهناك أيضاً فتاة قد يحز فى نفسها أن أمها لا تتخلى عن جميع أعمالها الأخرى ، كى تؤدى لها مهمة عاجلة فى تنسيق ثيابها ، عندما تكون على موعد مع بعض

صديقاتها . إن مثل هذه الأشياء تحدث دائماً ، حتى ولو كان المراهق شخصاً متعاونا يعتمد على نفسه فى العادة ، ذلك أن مطالبة المراهق بالاستقلال ، التى تبدو فى الظاهر وكأنها مطلبه الوحيد فى الحياة ، ما هى فى الواقع إلا تعبير عن تردده العنيف بين ذلك المطلب وبين حنينه لأن يعنى به والداه مثل الأطفال الصغار .

وليس من العسير علينا أن نتفهم الشكوك الدفينة التى تنتاب المراهق بشأن قدرته على أداء دور الإنسان الناضج فى الحياة ، لو أننا تريثنا لنتأمل الأمر برهة ، أو لو أننا عدنا بالذاكرة إلى أيام شبابنا . فالمراهقون ، أولا وقبل كل شىء ، يرغبون رغبة جارفة فى أن يحدثوا أثراً طيباً فى الناس. فهم فى هذه المرحلة يفقدون القدرة على أن يأخذوا ذواتهم على علاتها ، تلك القدرة التى تجعل الأطفال الأصغر سناً أقل إحساساً بذواتهم بالنسبة للمراهقين . وستمر أعوام عديدة قبل أن يبلغ هؤلاء المراهقون مرحلة الرشد ، التى لا يؤرقهم فيها القلق معظم الوقت ، بشأن رأى الناس فيهم (إن كان للناس رأى فيهم على الإطلاق) .

ويحب المراهقون أن تتوافر لديهم جميع المميزات التى يعتبرونها مثالية فى هذه المرحلة ؛ كالشخصية الجذابة ، وسعة الاطلاع ، والتحذلق ، والمهارة فى مختلف مجالات النشاط . فهم لم يدركوا بعد ، كما يدرك معظمنا نحن الكبار ، أن فى هذا العالم متسعاً لعشرات الأنواع المختلفة من الناس ، وأن كل واحد منا يستطيع أن يتقدم فى ميدان الحياة ، ويجد لنفسه أصدقاء يعتزون به ، رغم العيوب الكثيرة التى توجد فينا جميعاً .

فهم قد أحسوا حديثاً هذا الإحساس الحاد بمثلهم العليا ، ولم يتح لهم الوقت الكافى لتطبيقها تطبيقاً عملياً ، لذا نجدهم يتظاهرون بالعلم والمعرفة ، مع أنهم

يفتقرون تماماً إلى العلم والمعرفة . كما يصعب عليهم مواجهة مشاعرهم الجديدة الدافقة عن طريق الجدل والتحذلق . وتنمو أجسامهم بسرعة فائقة ، بحيث يتعذر عليهم الاحتفاظ برشاقتهـــا ، وتلتهب بشرتهم من جراء الاضطرابات الجلدية ، فى الوقت الذى يحرصون فيه أشد الحرص على أن تكون بشرتهم فى أحسن حالاتها . ويفاجئهم الشعور الجنسى فى قوة عارمة ، بحيث يصعب عليهم الملاءمة بينه وبين الأسلوب العام فى الحياة . ولذلك يصبح هذا الشعور الجنسى مصدراً للحزن والكآبة بقدر ما هو مصدر للبهجة والنشوة . فالمراهق يسائل نفسه دائماً : « كيف يمكننى أن أجتذب الفتاة التى تستهوينى من الجنس الآخر ، وكيف أتصرف عندما تبدى اهتماماً بى ؟ » . من السهل عليه أن يتخيل فى أحلام اليقظة أنه قادر على مواجهة هذه المواقف مع الجنس الآخر بمنتهى المهارة وذلاقة اللسان ، غير أنه يضطرب اضطراباً شديداً عندما يواجهها بالفعل فى عالم الواقع . وبالنسبة لطفل خجول فى بداية مرحلة المراهقة ، فإن السؤال عما إذا كان يحاول أن يمسك يد صديقته أثناء نزهاته معها ، قد يطغى على تفكيره ويشغل باله طوال الليل ، بل إن السؤال عن كيفية شغل الوقت بالحديث معها قد يزيد من حيرته وبلبلة خاطره .

* * *

لقد أبرزت فيما سبق ناحية القلق فى طبيعة المراهق ، وما هى إلا وجه واحد من الصورة . فبعض الأطفال المحظوظين يتمكنون من اجتياز مرحلة المراهقة بأكملها دون أن يواجهوا سوى القليل من التيارات العاصفة (كما يمكنكم أن تتخيلوا ، لقد عانيت أنا نفسى الأمرين أثناء اجتيازى لهذه المرحلة) .

ولقد ركزت اهتمامى على قلق المراهق وخوفه من أن يعجز عن أداء دور

الإنسان الناضج فى الحياة ، وعلى الرغبة الدفينة التى تراوده أحياناً فى أن يظل تحت رعاية والديه ، لأن هذين العاملين معاً يساعدان على توضيح السبب فى شكوى المراهق بلا مبرر من أن والديه لا يمنحانه الحرية الكافية . فالواقع أن هذه اللحظات — لحظات الشكوى والتذمر — هى التى تكون فيها المراهقة أو المراهق خائفاً من فكرة الحرية أو من بعض مظاهر الحرية (مثل الفتاة التى تخشى ارتياد حفلات السمر) . ولكنه بلا شك لا يستطيع الاعتراف بهذا الخوف للناس ، وأولهم نفسه ؛ لأن فى ذلك الاعتراف تخلياً عن كل المبادىء التى يدافع عنها . غير أنه فى عقله الباطن لا يستطيع الهروب من الإحساس بالخجل من تهيبه وعجزه. وهذا الإحساس يثير ثائرته ، فتراوده رغبة ملحة فى أن يصب جام غضبه على شخص ما . ويسائل نفسه عمن يحاول تقييد حريته وربطه بوالديه ، فيتخيل إليه أن والديه هما اللذان يفعلان ذلك بلا أدنى شك ولكى يثبت لنفسه صحة هذا الرأى فإنه قد يطلب منهما مطلباً غير معقول ، فإذا ما رفضا الاستجابة لهذا المطلب ، انهال عليهما باللوم بكل ما وسعه من سخط وغضب .

ما الحل إذن ؟ من المفيد للآباء أن يدركوا أن هذا اللوم الذى ليس له ما يسوغه ، إنما هو صورة من صور الاحتجاج المتطرف لدى المراهقين . وبناء على ذلك يمكن للآباء أن يتمسكوا بقواعد السلوك المعقولة ، دون أن يسائلوا أنفسهم ، كلما ثار عليهم طفلهم المراهق ، عما إذا كانوا عادلين فى معاملته أم لا . ومن المفيد لهم أيضاً أن يدركوا أن المراهقين ليسوا فقط فى حاجة إلى التوجيه المعقول ، بل إنهم يرغبون فيه بالفعل. ورغم أنهم لا يصرحون بهذه الرغبة لآبائهم وأمهاتهم ، فإنهم يصرحون بها أحياناً لمن يثقون بهم من مدرسيهم بالمدرسة ، أو للطبيب النفسانى فى العيادات النفسية . ولقد سمعت بعض الفتيات يقلن : « كم أود لو أن أمى وضعت لى قواعد محددة أسير عليها ، مثلما تفعل أمهات صديقاتى » ذلك

لأن المراهقين يحسون أنهم ما زالوا يفتقرون إلى النضج . ويحسون أن معايير السلوك السليم تضفى على الحياة عزة وكرامة ، وأن اتباع القواعد والقوانين يريح الإنسان فى حياته . بل إنهم يحسون أيضاً أن سيطرة آبائهم وأمهاتهم عليهم بدرجة معقولة ، إنما هى مظهر من مظاهر الحب الأبوى ، ويشعرون بأنهم مهملون فى حالة عدم وجود هذه السيطرة من جانب الآباء والأمهات .

عبادة الأبطال عند المراهقين

« لاداعى لأن ييأس الآباء »

يثير المراهقون قلق آبائهم وأمهاتهم من نواح شتى . والناحية التى أريد أن أتناولها فى هذا الباب هى ذلك التعلق الواله الذى تبديه ملايين الفتيات نحو أحد المطربين أو نجوم السينما . ويعتقد بعض الآباء فى كل عقد من الزمان أن هذه محنة جديدة حلت بأطفالهم ، ويسائلون أنفسهم عما حدث للجيل الجديد . غير أن هذا النوع من العشق الجماعى لأحد النجوم كان يحدث بين الفينة والفينة منذ أعوام عديدة . وأظن أنه فى الأجيال الماضية — قبل ظهور التليفزيون والراديو والسينما والاسطوانات — لم تكن الظروف تساعد على تفشى هذه الظاهرة فى شتى أنحاء البلاد . ومع ذلك فقد كان بعض معبودى الجماهير من نجوم المسرح يثيرون نفس النوع من التحمس المتهوس فى المدن الكبرى .

ويصاب الكبار بالذهول حين يقرأون فى الصحف عن الصفوف المتراصة من المراهقين الذين يقفون ساعات وساعات خارج المسرح فى انتظار وصول نجمهم المحبوب ، ثم يستقبلونه كلما ظهر على خشبة المسرح بعاصفة مدوية من التصفيق . كما ينزعج الكبار حين يسمعون عن الفتيات اللائى يتأوهن وينشجن بالبكاء ويُغشى عليهن من شدة ولهن بالنجم المعبود . وإذا تصادف أن رأى الكبار أنفسهم عرضاً لهذا النجم فى أحد أفلام السينما أو التليفزيون ، فإنهم فى بعض الحالات قد يبدون امتعاضهم الشديد منه . بل لقد استبد الغضب والانزعاج ببعض المسئولين وغيرهم من الجماعات فى إحدى المدن ، لدرجة أنهم حاولوا منع أحد النجوم من المجىء إلى مدينتهم .

إن بعض مظاهر المراهقة تساعد على تفسير هذه الظاهرة . لكننى أود أن أتحدث أولا عن النمو الانفعالى والجنسى عند الأطفال بصفة عامة ، لا سيما عند الصبيان (لأنى أذكر مشكلاتهم تماماً) . على أن أعود إلى الحديث عن البنات فيما بعد .

* * *

فى الفترة ما بين سن الثالثة والخامسة ، يجتاز الأولاد والبنات مرحلة من مراحل النمو الانفعالى ، تتسم بالاهتمام الكبير بالجنس والعاطفة ، على مستوى طفلى . . فهم فى هذه المرحلة يحبون أن يمثلوا فى لعبهم دور الأب والأم ، ويتظاهروا برعاية أطفالهم الوهميين ، ويتولد عند الأولاد تعلق عاطفى شديد بأمهاتهم ، حتى إنهم غالباً ما يتحدثون عن الزواج منهن . كما أن البنات السويات يتربى عندهن نفس هذا الشعور نحو آبائهن . وفى هذه السن أيضاً قد ينغمس الأولاد والبنات فى اللعب الجنسى بعضهم مع البعض ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم .

وقد أدركنا من الدراسات النفسية أن الأطفال عندما يناهزون الخامسة أو السادسة ، يستولى عليهم شىء من الشعور بالقلق والشعور بالذنب بشأن اهتماماتهم الجنسية ، وذلك بسبب استنكار آبائهم للعب الجنسى من ناحية ، وبسبب شعورهم بالمنافسة مع آبائهم من ناحية أخرى ، ومن ناحية ثالثة بسبب فهمهم الخاطىء لمعنى الاختلاف الجسمانى بين الأولاد والبنات . وقد ناقشت هذه المسألة المعقدة بالتفصيل فى الجزء الخاص بـ « الارتباطات ومظاهر القلق فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة » . المهم أن الأطفال ينتهون إلى الاعتقاد بأن الجنس — إلى حد ما — شىء قبيح محفوف بالمخاطر ، فيبذلون جهوداً عنيفة لكبت اهتمامهم بالجنس . وتستمر هذه الفترة من الكبت العنيف من حوالى سن السادسة حتى بدء مرحلة البلوغ ، التى تبدأ فى سن الحادية عشرة عند البنت العادية ،

وفى الثالثة عشرة عند الغلام العادى . وينجح الأطفال فى كبت مشاعرهم الجنسية أثناء هذه الفترة ، لدرجة أن معظم الأولاد فى سن التاسعة أو العاشرة يجاهرون دائماً بأن البنات مخلوقات سخيفة غبية تبعث على الغيظ والنفور . وتقابلهن البنات بالمثل ، فيجمعن على أن الأولاد يتسمون بالخشونة والرغبة فى الإيذاء لدرجة غير معقولة ، وهذا صحيح فى حالة معظم الأولاد بالفعل . (من البديهى أن إصرار كل جنس على احتقار الجنس الآخر ، ومحاولتهم إغاظة بعضهم البعض فى هذه السن ، إنما يدل على أنهم مازالوا فى دخيلة أنفسهم يهتمون اهتماماً كبيراً كل جنس بالآخر) .

بيد أن التغيرات التى تطرأ على الغدد فى مرحلة البلوغ ، تحدث يقظة عنيفة فى أحاسيس الطفل الذاتية والجنسية ، وتقاوم عادة الكبت الجنسى الراسخة فى أعماقه . لذا فإن الطفل غالباً ما يجهل حقيقة مشاعره الجديدة فى بادىء الأمر ، ويستمر فى محاولة تجاهلها بعض الوقت، لكننا عرفنا ، عن طريق التحليل النفسى ، أن المراهق يدرك هذه المشاعر إدراكا جزئياً فى عقله الباطن ، ولو أنه يعجز إلى حد بعيد عن إدراكها بعقله الواعى . لأن إدراكه الواعى لها يظل غامضاً ومهوشا من جراء توتر أحاسيسه ، التى يختلط فيها الانفعال المثير مع الكبت والشعور بالذنب . وهذا هو السبب فى أن الجنس إجمالا يكون باعثاً على عدم الارتياح أكثر منه باعثاً على السرور والمتعة فى المراحل الأولى من المراهقة .

وهناك عدة اتجاهات مختلفة ، تمتزج بعضها مع بعض فى النهاية ، لتخلق الحب العاطفى الناضج ، وهى الرغبة فى مصاحبة الجنس الآخر ، والرغبة فى حمايته من الأذى ، والشعور بالبهجة عند رسم خطة المستقبل معه ، فضلا عن الجاذبية الجنسية . غير أن هذه الاتجاهات لا تنضج جميعاً بنفس السرعة عند المراهق الصغير ، كما أنها لا تمتزج بعضها مع بعض فى سهولة ويسر . لذا نجد أن رغبته

فى المصاحبة تتجه إلى إحدى الفتيات ، على حين تتجه رغبته فى إظهار شهامته إلى فتاة أخرى ، على حين تتجه رغبته الجنسية إلى فتاة ثالثة .

على أن كثيرين من الأولاد قد تكوّن عندهم اعتقاد قوى بأن الجنس شىء شائن يتنافى مع الأدب ، لدرجة أنهم فى بداية مرحلة المراهقة يعجزون عن الشعور بأية رغبة جنسية نحو الفتيات « المهذبات » اللائى يشعرون نحوهن بالاحترام والحنان . ولا يمكنهم التجاوب جنسياً إلا مع الفتيات اللائى تبدو عليهن الخلاعة وسوء السلوك . كما أن تقسيم شعور الحب إلى قسمين على هـذا النحو ، وتقسيم الجنس الآخر إلى نوعين ، يظهر أيضاً بدرجات متفاوتة عند كثير من الفتيات فى بداية المراهقة . (فى بضع حالات فردية من الجنسين يستمر هذا الاتجاه حتى مرحلة الرشد ، فيؤدى بطبيعة الحال إلى مشكلات خطيرة فى الحياة الزوجية) .

ويحصل المراهق على النضج الجنسى بالتدريج ، عن طريق تعوده شيئاً فشيئاً على ذاتيته الجديدة ، وكذلك عن طريق اهتمامه العاطفى بعدد من الفتيات واحدة بعد الأخرى . وهو عن طريق اتصاله بهن لا يكتسب معرفة بجنس البنات فحسب ، بل يكتسب معرفة بنفسه أيضاً .

والواقع أن أقوى مشاعر الإعجاب عند الغلام فى مستهل مرحلة البلوغ ، قد لا تتجه إلى الفتيـات — فهن ما زلن من الممنوعات بالنسبة إليه — وإنما تتجه إلى أحـد المدرسين من الرجال أو إلى مدرب الرياضة أو أحد الأبطال . كما أن كثيرات من الفتيات فى هـــذه المرحلة يبدين إعجاباً جارفاً ببعض الشخصيات النسائية اللامعة . أما عندما تواتى غلام الشجاعة لأن يفـكر فى الفتيات تفـكيراً عاطفياً ، فإنه قد يجد من الأسلم له أن يستغرق فى حلم من أحلام اليقظة ، يتخيل فيه مغامرة عاطفية بينه وبين نجمة من نجوم السينما ، التى تفصله عنها مسافات بعيدة ،

ذلك أسلم بالنسبة إليه من التفكير فى فتاة من أهل بلدته قد يصادفها فى الطريق بعد ساعة . وحتى بعد أن يدرك أنه مهتم بإحدى الفتيات من أهل الجيرة ، فإنه قد يظل شهوراً عديدة قانعاً بمجرد التفكير فيها ، دون أن يقوم بأى عمل إيجابى للتحدث إليها أو إظهار شعوره نحوها .

واختيار المراهق لحبيبته الأولى، قد يثير حيرة أسرته وأصدقائه ، فهم قد لا يلمسون أى ميول مشتركة بينه وبينها ، يمكن على أساسها أن تنشأ علاقة الحب . على أن ميوله نحو الفتيات قد تصبح أكثر واقعية ، ولها صفة الدوام بمرور الزمن . ومع ذلك فسوف تمر سنوات عديدة قبل أن يصبح مستعداً للتعرف على الفتاة التى تصلح زوجة له مدى الحياة ، وحينئذ سوف يمكنه أن يقدم إليها ذلك المزيج المتجانس من الاتجاهات الناضجة التى ستؤهله لأن يكون زوجاً صالحاً لها .

ربما تعتقدون أنى أغالى فى هذه الصورة التى رسمتها لكم عن الخجل والارتباك عند المراهقين . حقيقة أن هناك بعض الأولاد والبنات الذين يعرفون كيف يتعاملون بمنتهى اللباقة وطلاقة اللسان مع الجنس الآخر ، حتى منذ بداية مرحلة المراهقة . (والواقع أن هناك عدداً قليلا من الأطفال ، ممن نشئوا تنشئة منحرفة ، لا يتربى عندهم قط أى رادع جنسى ، حتى أثناء الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة) . لكننى أعتقد رغم ذلك أن بعض المراهقين الصغار يتقنون التمثيل ، فيتظاهرون بالتحذلق وذلاقة اللسان ، مع أنهم فى الحقيقة أقل ثقة بأنفسهم مما يبدو عليهم . غير أنهم إذ ينجحون فى هذا الادعاء الخادع يكتسبون ثقة حقيقية بأنفسهم . أما المراهقون الذين يتسمون بالهيبة والخجل ، فإنهم لا يعرفون كيف يستغلون الفرص التى يمكن أن تعطيهم مزيدا من الثقة بأنفسهم .

وإذا كنت قد أعطيتكم صورة غير متوازنة عن هذه المشكلة ، بأن ركزت اهتمامى على ذلك النوع من المراهقين الصغار الذى يعانى من الكبت أكثر من غيره ، فإن النقط التى ذكرتها فيما سلف تنطبق — إلى حد ما — على كل مراهق سوى .

* * *

يمكننا الآن أن نعود إلى مشكلة استجابة الفتيات فى مستهل مرحلة المراهقة لأغانى الحب والغرام ، وغيرها من عوامل الإغراء فى المطربين ونجوم الساعة . من البديهى أن الشخصيات التى تستهوى الفتيات تختلف باختلاف شخصية الفتاة نفسها . غير أن هناك أيضاً عنصر « الموضة السائدة » التى تجعل نموذجاً معيناً من النجوم موضع إعجاب الفتيات لبضع سنوات ، ثم يأتى نموذج آخر وهكذا ، تماماً مثل موضات الثياب ؛ وهناك نماذج مختلفة من الرجال الذين تعبدهم الفتيات ، منها الرجل القوى الصامت ، والفتى السليم البنية ، والشاب الصلب الخشن ، والشاب الحالم الولهان الذى يبدو أنه فى حاجة إلى حنان الأم ، والشاب الملتهب جنسياً . وأياً كان نوع النموذج ، فإن ميزة هذه النماذج جميعاً هى أن الفتاة يمكنها أن تحلم بنجمها المعبود على هواها ، دون أن تضطر إلى مواجهته أو التعامل معه فى يوم من الأيام . فهى تستطيع فى خيالها أن تجعله يتحدث إليها أو يفعل معها أى شىء تشتهيه نفسها ، ويمكنها أيضاً أن تتخيل أنه لا يستطيع مقاومة سحرها عليه ؛ إذ ليس هناك أى احتمال فى هذه الحالة أن يصدها عنه ، لأنها ليست جذابة ، أو لأنها معقودة اللسان ، أو لأنه صعب المراس . (لقد حدث فى عام ١٩٢٤ أثناء رحلة قمت بها إلى الخارج مع فريق الرياضة بالكلية ، أنى تمكنت أنا وبعض أصدقائى من التعرف إلى « جلوريا سوانسن » ملكة السينما المتوجة فى ذلك الحين . غير أنى أثناء رقصى معها فى حلبة الرقص على

سطح عابرة المحيط ، عجزت تماماً عن أن أجد كلمة واحدة أقولها لها ، رغم أنها حاولت فى رقة ولباقة أن تساعدنى على الحديث) .

ومن الأشياء التى يصعب على الآباء تقبلها بصفة خاصة ، الاستهواء الجنسى الذى يثيره أحد النجوم فى نفس ابنتهم ، فى حين أن هذا النجم لا يستهويهم على الإطلاق . والأدهى من ذلك أنهم يشاهدون فتيات كثيرات يستجبن لهذا الاستهواء الجنسى بنفس الطريقة. فيمتعض الكبار لانتشار هذا النوع من العشق الجماعى بين الفتيات . ويزعجهم أن يروا فتيات — يفترض فيهن البراءة والإدراك السليم — يعشقن مثل هذا النجم الماجن الذى لا يليق بهن على الإطلاق . كما أن الآباء وغيرهم من الرجال قد يحسون أيضاً بالغيرة من ذلك المعشوق الذى يحوز هذا النجاح الساحق .

بيد أن من الخطأ أن يفسر الآباء استجابة الفتيات المراهقات لهذا الاستهواء الجنسى طبقاً لمعايير الكبار فى السلوك . ففى اعتقادى أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية — قد تبدو متناقضة فى الظاهر — هى التى تدفع الفتاة السوية فى سن المراهقة إلى الاستجابة لاستهواء نجم ينفر منه والدها ، فهى تحس أنها لا تقترف إثماً فى عالم الواقع ، لأن عشقها لهـــذا النجم ما هو إلا حلم يراودها لا أكثر ولا أقل . كما أن الناحية الماجنة فى هذا النجم تساعدها على التنفيس عن رغباتها الجنسية المكبوتة التى قد لا يتسنى لها التعبير عنها نحو الرجال المهذبين ، فهو فى نظرها مجرد رمز للاستهواء الذى يكمن فى الخلاعة والمجون . وفى الوقت ذاته ، فإن براءتها النسبية — من الناحية الشعورية — لا تتيح لها أن تدرك المعانى الجنسية التى يوحى بها هذا النجم ، أو أن تدرك طبيعة استجابتها الجنسية له من الناحية اللاشعورية ، مما يجعل ضميرها مستريحاً .

ويمكن القول بأن الفتاة قد تذوب ولهاً حين يظهر نجمها المعبود على خشبة

المسرح ، لأنها لم تبلغ بعد من النضج مبلغاً يؤهلها لأن تذوب ولهاً بين ذراعى الفتى المناسب لها . أما بعد أن تمارس تجربة الحب العميق مع شخص حقيقى ، فإنها لن تبدى سوى ميل معتدل نحو أحد نجوم المسرح ، الذين يمثلون عاطفة الحب العميقة .

لماذا لا يتعلق الأولاد بالمطربات مثلما تتعلق الفتيات بالمطربين ؟ إنهم يتعلقون بهن ، ولكن بدرجة أخف كثيراً منها عند الفتيات . كما أن الأولاد فى كل سن ، يتحمسون أيضاً لواحدة أو أخرى من نجوم الإغراء المحبوبات . غير أنهم قد تعلموا منذ طفولتهم المبكرة أن يسيطروا على مشاعرهم ويخفوها . كما أنى أعتقد أنهم فى مرحلة المراهقة يدركون حقيقة مشاعرهم الجنسية قبل البنات ، لذلك فهم قد لا يعبرون عن هذه المشاعر صراحة مثلهن . وربما كان الأهم من ذلك ، هو أن الجنس — بالنسبة للذكر العادى — يعتبر أساساً عملية مبادأة إيجابية ، لا عملية استجابة سلبية . فالفتى قد تستهويه إحدى ممثلات الإغراء ، لكنه لن يندمج تماماً فى تمثيلية لا يلعب فيها دوراً إيجابياً .

* * *

هناك عوامل أخرى تؤدى إلى تفشى ظاهرة التعلق بأحد النجوم المعبودين بين المراهقين . منها أن غريزة القطيع حادة عندهم . وهذا يرجع جزئياً إلى أن كل مراهق يشعر بشىء من الخوف من التغيير الذى طرأ على جسمه ، وعلى اهتماماته وأحاسيسه . فهو يشعر بأنه غريب على نفسه ، بدرجة تجعله يتساءل أحياناً عما إذا كان طبيعياً أم لا . لذا فهو يتوق إلى أن يجد من يشابهه فى هواياته وميوله ومُثله العليا ، بين المراهقين الآخرين الذين فى مثل سنه . وقد بيَّن إريك أريكسون ، وهو أحد الذين درسوا مرحلة المراهقة دراسة عميقة ، أن الإنسان فى هذه السن يحقق ذاتيته فى أصدقائه . فالمراهق ينتابه الذهول ، ثم

يحس بالارتياح والسعادة ، عند ما يكتشف أن مراهقاً آخر يحب نفس الكتاب الذى يحبه ، ويكره نفس المدرس الذى يكرهه ، ويستجيب لنفس الموسيقى التى يستجيب لها ، وأنه قد توصل إلى فلسفة فى الحياة تشابه فلسفته . هذه الحاجة إلى المشاركة فى الأفكار تساعدنا على إدراك السبب فى أن فتاتين لا تفارق إحداهما الأخرى طوال النهار ، وما تكادان تفترقان حتى تهرع كل منهما إلى تليفون بيتها كى تستأنفا تبادل الأسرار فيما بينهما . وعلى ذلك فإن المراهقة تثق فى قرارة نفسها أنها فتاة طبيعية ، إذا وجدت أنها تعشق نفس الرجل الذى تعشقه خمسة ملايين من الفتيات الأخريات ، مهما كان رأى والديها فى هذا العشق .

كما أنه إذا اجتمعت آلاف مؤلفة من هؤلاء العاشقات المدلهات فى حضرة نجمهن المعبود بأحد المسارح ، فإن الهيستريا الجماعية تضفى على الموقف كله نوعاً من الهوس الممتع .

ومن مظاهر سلوك القطيع عند المراهقين ، انعزالهم عن الجماعات الأخرى التى تختلف عنهم فى السن ، فهم يحاولون جاهدين أن يكبروا على سلوكهم الطفلى ، ويميلوا ، إلى اعتبار أنفسهم على أنهم قد تجاوزوا مرحلة الطفولة تماماً . لكنهم فى نفس الوقت لا يُقبلون فى عالم الكبار ، على الأقل فى مجتمعنا الأمريكى . على حين أنه فى كثير من المجتمعات البدائية ، تقام للمراهقين طقوس معينة يدخلون بها عالم الكبار ، ثم يضطلعون بعد ذلك بدور له احترامه فى حياة الجماعة ، ويؤدون نفس العمل الذى يؤديه الكبار ، ويشتركون فى الاحتفالات الرسمية الهامة . وحتى فى أمريكا نفسها أيام الاستعمار ، كان بعض الشبان يشغلون مناصب هامة فى سن الواحدة والعشرين . لكننا فى أمريكا اليوم نبقى أطفالنا المراهقين فى المدارس والكليات سنوات عديدة ، حيث يستمرون

فى تعلم المزيد عن أساليب حضارتنا ، دون أن تتاح لهم سوى فرصة ضئيلة للشعور بأنهم أعضاء ناضجون لهم حقوقهم الكاملة فى المجتمع . فهم فى هذه السن لا يشغلون أية وظائف نظامية ، وما زالوا مضطرين إلى الاعتماد على المصروف الذى يأخذونه من ذويهم ، وإلى الخضوع لحكم آبائهم وسلطتهم . وحقيقة أن أطفالنا المراهقين يتفقون معنا على أن هذا أسلوب حكيم فى التربية . غير أن هذا الأسلوب من الناحية النفسية يحرمهم من الشعور بأنهم كبار ، ويدفعهم إلى الاستمرار فى التمرد . لذلك فهم يتباهون بانعزالهم عن عالم الكبار ، ويبتكرون لأنفسهم «موضات» خاصة فى الثياب و تصفيف الشعر ، ويستخدمون مصطلحات خاصة بهم ، وينمون هواياتهم الخاصة فى تحمس محموم ، ويحبون أن يكون لهم نجوم يعبدونهم فى مجال لهوهم . فإذا حدث أن أثارت نجومهم المعبودة غيظ آبائهم ، فإن هذا يعتبر ربحاً آخر فى معركتهم مع الكبار .

ومن الجدير بى أن أقطع الشك باليقين ، كيلا يسىء بعض الآباء فهم كلامى ، وأنا أحاول بث الطمأنينة فى نفوسهم بشأن هذه المشكلة . فأنا بالطبع لا أعنى أن افتتان المراهقات بأحد الممثلين ، أو أن هيستريا المراهقات فى المسارح ، تعتبر سلوكا سوياً مهما تكن درجة حدته . فالواقع أن هناك بلا ريب بعض الفتيات المتهوسات إلى أبعد حد ، بين جماهير المتفرجين الذين نقرأ عنهم فى الصحف . وإنما أعنى فقط أن المراهقة قد تجاهر بحبها لنجم يستنكره والدها ، ومع ذلك قد يكون سلوكها سوياً تماماً فى شتى النواحى الأخرى . فهذا التعلق بأحد النجوم لا يعنى عدم قدرتها على الإدراك السليم فى النواحى الأخرى ، أو عدم قدرتها على التمييز السليم بين أنواع الرجال فيما بعد .

ولكن ربما كان السبب فى أنى أنظر إلى الموضوع هذه النظرة الفلسفية ، هو أنى لم أنجب بناتاً على الإطلاق .

* * *

معنى انحراف الأحداث

« إن مختلف مظـــاهر الانحراف ترجع أسبابها إلى أنواع متباينة من الاضطرابات ، سواء أكانت هذه الاضطرابات فى نفس الطفل ، أم فى أسرته ، أم فى المنطقة التى يسكنها ، أم فى العصر الذى يعيش فيه» .

ينزعج الآباء والأمهات حين يقرأون دائماً فى الصحف عن ازدياد حالات الانحراف بين الأحداث بعد الحرب العالمية الثانية . فهم عندما يقرأون فى الصحف عن جريمة بشعة ارتكبتها جماعة من الصبية الذين ينحدرون من « أسر طيبة » ، يسائلون أنفسهم عما إذا كان من المحتمل أن يسرى هذا الوباء فى نهاية الأمر إلى أى واحد من الصبية ، بل وحتى إلى أحد أبنائهم الذين يفترضون فيهم السلوك السوى . لذا أود فى هذا الباب أن ألقى بعض الضوء على معنى الانحراف ، حتى لا يحس الآباء بكل هذه الحيرة والخوف إزاء هذه المشكلة .

والنقطة الأولى التى أود أن أوضحها هى أن « انحراف الأحداث » مجرد اصطلاح قانونى واسع ، يشمل كل أنواع سوء السلوك التى يمكن أن تدفع بالأحداث دون سن الثامنة عشرة إلى ساحة المحكمة ، ابتداء من التشرد حتى جريمة القتل . لذا فهو اصطلاح غير موفق ، لأنه يوحى بأن الملايين من شبابنا قد لوثتهم نزعة من الشر لا يعرف لها سبب أو علاج . فهذا الوضع يبدو فى نظرى كما لو كانت الصحف اليومية تعتبر جميع أخطاء الكبار — ابتداء من ركن السيارة فى الأماكن المحظورة حتى إشعال نار الثورة — على أنها جميعاً جرائم بشعة متفشية كالوباء بين الكبار .

والنقطة التالية هى أن مختلف مظاهر الانحراف ترجع أسبابها إلى أنواع

متباينة من الاضطرابات ، سواء أكانت هذه الاضطرابات فى نفس الطفل أم فى أسرته ، أم فى المنطقة التى يسكنها ، أم فى العصر الذى يعيش فيه . فمن الأشياء المضللة أن نعتقد أن هـذه الانحرافات ترجع جميعاً إلى سبب واحد ، تماماً كما لو كنا نعتقد أن جميع العلل الجسمانية ، كالسرطان والأمراض المعدية وسوء التغذية وكسور العظام ، ترجع كلها إلى سبب واحد . لذا أود أن أناقش — تحت عناوين مستقلة — بعض نماذج سوء السلوك عند الأحداث ، والعوامل الاجتماعية والنفسية التى يعتقد أنها تؤدى إليها .

* * *

العوامل الاجتماعية الخارجية :

كنت عضواً فى اللجنة الأهلية المؤقتة لدراسة مشكلة انحراف الأحداث ، فى مدينتين من المدن التى عشت فيها . وفى بداية الاجتماع الأول للجنة فى كلتا المدينتين ، كان المواطنون البارزون أعضاء اللجنة يجلسون حول مائدة كبيرة ، ينصتون إلى التقارير التى تدل على خطورة الحالة ، وهم يمصمصون بشفاههم أسفاً . لـكنى كنت ألاحظ بعد ساعة من بداية الاجتماع ، أن عدداً من الأعضاء قد أخذوا يتهامسون ويضحكون ضحكات مكتومة فيما بينهم ، فقد كانوا يعترفون لبعضهم البعض — فى شىء من الزهو — بأنهم هم أنفسهم كانوا يأتون بعض الأفعال المنحرفة فى حداثتهم .

والواقع أن الدراسات المبنية على استجواب مئات من المواطنين العاديين ، قد دلت على أن تسعة من بين كل عشرة أشخاص ، قد ارتكبوا فى فترة المراهقة أفعالا مخالفة للقانون ، كان من الممكن أن تـكون مصدر متاعب لهم ، لو أنهم وقعوا فى قبضة البوليس . وعلى ذلك يمكن القول بأن الانحرافات البسيطة من

المظاهر الشائعة جداً بين الأحداث فى كل الأزمنة ، وأن معظم المخالفات التى يرتكبها الأحداث هى فى الواقع مخالفات بسيطة هينة . فمن بين هذه المخالفات الشائعة بين الصبية من جميع الطبقات الاجتماعية «الإساءة الخبيثة إلى الآخرين» ، مثل قلب صفائح القمامة الخاصة بأحد الجيران المكروهين ، أو الكتابة على جدران المدرسة ، أو ثقب إطارات السيارات لتفريغها من الهواء . ومن بينها أيضاً ارتكاب بعض السرقات التافهة ، مثل سرقة بعض الفاكهة من منضدة البيع أمام أحد المحال ، أو سرقة بعض مواد البناء من عمارة مجاورة فى طور البناء . على أن مثل هذه المخالفات الهينة لا تدل إلا على رغبة بسيطة فى الإتلاف وتحدى حقوق الملكية. وهى ، شأنها شأن الهروب من المدرسة أو خرق قواعد المرور ، لا تعنى بالضرورة أن هناك اضطرابات انفعالية خطيرة عند الأحداث، الذين لا يرتكبونها بصفة مستمرة ، خصوصاً فى المناطق التى تكون فيها معايير السلوك مرنة وغير صارمة .

☆ ☆ ☆

إن معظم الأحداث المنحرفين الذين يقدمون إلى المحاكمة ، ينتمون عادة إلى أسر من الطبقات السفلى « اقتصادياً » وثقافياً ، ولكن من المعروف أنه عند ما يسىء طفل من الطبقة المتوسطة إلى أحد الأهالى ، فالأرجح فى هذه الحالة أن يتجه المجنى عليه إلى والدى الطفل بدلا من أن يتجه إلى رجال البوليس ، على افتراض أن الوالدين — بدافع الإنصاف والحرص على سمعتهما — سوف يدفعان التعويض الملائم ويبذلان قصارى جهدهما لمنع طفلهما من تكرار الخطأ . كما أن رجال البوليس عند ما يقدم إليهم بلاغ عن مخالفة بسيطة اقترفها أحد الأحداث ، فإنهم فى العادة يحاولون معالجة الأمر مع الوالدين مباشرة ، بدلا من

تحرير محضر بالحادث وتقديمه إلى المحكمة . فضلا عن ذلك ، فإنه فى حالة القضايا التى تقدم بالفعل إلى المحكمة ، يميل القاضى إلى شطب القضية ، إذا تعهد الوالدان بدفع التعويض للمجنى عليه ، وتعهدا بمعالجة انحراف الطفل ، سواء عن طريق عقابه فى البيت ، أو إلحاقه بإحدى المدارس الداخلية ،أو علاجه عندأحد الأطباء النفسانيين ، لذلك ربما كان صحيحاً أن عدداً كبيراً من أحداث الطبقة المتوسطة لا يحسبون فى الإحصائيات الخاصة بالمنحرفين ، لأن المصدر الوحيد الذى تستمد منه هذه الإحصائيات هو محاضر القضايا فى محاكم الأحداث .

ومع ذلك ربما كان صحيحاً أيضاً أن نسبة الذين يجنحون إلى الانحراف بين أطفال الأسر الفقيرة أكبرمنها بين أطفال الطبقات الأخرى . ولئن كان هذا صحيحاً بالفعل ، فإنه لايعنى أن الدخل المحدود وضعف الثقافة يؤديان فى حد ذاتهما إلى ضعف المستوى الأخلاقى . فقد ثبت بالدليل أنه لا توجد علاقة بين الفقر والانحراف الأخلاقى فى كثير من المجتمعات المستقرة . أما فى المدن الكبرى النامية ، فإن الأسر ذوات الدخل المحدود تضطر عادة إلى السكنى فى أكثر الأحياء ازدحاماً وفقراً ، دون أن يتوافر لها سوى الحد الأدنى من الوسائل اللازمة لإقامة حياة عائلية طيبة . كما أن هذه الأحياء يكاد ينعدم فيها عامل الاستقرار ، إذ تنتقل إليها باستمرار فئة المعدمين ، وتنتقل منها باستمرار الفئة التى تسمح لها ظروفها الاقتصادية بالهجرة منها . ونتيجة لذلك ، فإن علاقة الجيران ببعضهم البعض فى هذه الأحياء ، وروح التوجيه والريادة بينهم ، تكون عادة فى المستوى الأدنى .

وصحيح أيضاً أن بعض الجماعات والأفراد من ذوى الدخل القليل والثقافة المحدودة ، لا يشكلون أنفسهم على نمط الطبقة المتوسطة السائدة ، مثلما يفعل غيرهم من أفراد الشعب الأمريكى . فهم لم يكتسبوا بعد إيمان الطبقة المتوسطة القوى بأهمية

الثقافة ، والتخطيط للمستقبل ، وتوجيه نزعة العدوان فى اتجاه المنافسة والتقدم . لذا فإنهم لا يستطيعون أن يعلموا أبناءهم هذه القيم والأهداف عن اقتناع عميق بها . إذ يحسون بأنهم منفصلون بعض الشيء عن النظام السائد بين الطبقة المتوسطة . ومن ثم فإن أبناءهم حين يبلغون مرحلة المراهقة — بما فيها من حافز إلى تحدى الجماعة — يميلون إلى الاحتكاك بالسلطات ، أو يرفضون رفضاً باتاً البقاء فى المدرسة ، على خلاف أبناء الطبقة المتوسطة الذين يعلقون آمالا كباراً على المستقبل ، وعلى ذلك فالمشكلة التى نناقشها الآن ليست مشكلة فرق فى القيم الأخلاقية ، وإنما هى مشكلة فرق فى المطامح والأهداف بين الطبقتين .

* * *

ومن بين مظاهر الانحراف العنيف بين الأحداث ، تكوين عصابات الشوارع التى تمارس أنواعاً مختلفة من النشاط الذى يخضع أو لا يخضع للقانون ، بما فى ذلك الاشتباك فى معارك عنيفة مع العصابات الأخرى . وهذه العصابات غالباً ما تظهر بين أطفال المهاجرين الجدد إلى المدن الأمريكية . فقد هاجرت فى الأجيال السابقة أسر عديدة من مختلف البلاد الأوربية إلى أمريكا . وفى الفترة الأخيرة كثر ظهور عصابات الأحداث فى الأحياء التى يقطنها المهاجرون من بورتوريكو فى مدن أمريكا الشرقية ، وفى الأحياء التى يقطنها المهاجرون من المكسيك فى مدن الجنوب الغربى ، وفى مدن الشمال التى هاجر إليها عدد كبير من السود . على أن شيوع هذه الظاهرة بين شتى الجماعات التى وفدت إلى أمريكا من أجزاء مختلفة من العالم ، حاملة معها أنماطاً مختلفة من الثقافة والتقاليد ، إنما يدل على أنها — أى ظاهرة تكوين العصابات — ليست نتيجة سمات معينة يتسم بها عنصر أو سلالة بالذات ، وإنما هى أساساً نتيجة ظروف المعيشة التى تحيط بكل فوج جديد من أولئك المستوطنين ، ونتيجة موقف الجماعات الأخرى منهم .

ذلك أن أفراد كل فوج جديد من هؤلاء المستوطنين ، يضطرون بحكم كونهم أحدث الوافدين إلى أمريكا وأقلهم تدريباً ، إلى العمل بأقل الأجور فى أحط المهن ، وإلى السكنى فى أحقر البيوت . والأهم من ذلك أنهم يعاملون باحتقار بسبب فقرهم وجهلهم وغرابة عاداتهم ، وتطلق عليهم أسماء مستهجنة ، ويعانون من التفرقة العنصرية ، كما أن الآباء منهم يحسون بشيء من الإحباط والخيبة من جراء التغييرات العنيفة التى يضطرون إلى إجرائها للتكيف مع حياتهم الجديدة ، بحكم انتقالهم من بيئتهم الريفيـــة إلى مدن غريبة عليهم ، حيث يعولون أسرهم فى جو من الفقر والفاقة . كما أنهم فى بعض الحالات يعجزون عن إحاطة أطفالهم بجو من الكرامة والطمأنينة . وهم غالباً ما يشعرون بالانزعاج حين يرون أطفالهم يلتقطون أنماطاً جديدة من السلوك والاتجاهات ، تختلف تمام الاختلاف عن أنماط السلوك والاتجاهات التى كانت تعتبر لائقة فى موطنهم القديم وهم لذلك كثيراً ما يحاولون التدخل فى سلوك أبنائهم .

ثم إن أطفالهم يحسون من ناحية بأنهم موضع احتقار الجماعات الأخرى فى المدرسة والحى ، لكنهم من ناحية أخرى يأخذون فى انتهاج أساليب جديدة فى السلوك مقتبسة من الحياة الأمريكية ، ولذلك يفقدون بالتدريج إيمانهم الراسخ بالقيم العتيقة ، التى يؤمن بها آباؤهم . (أذكر أن إحدى المراهقات قد حدثتنى ذات مرة عن مدى شعورها العنيف بالاستياء ، عند ما كان والداها الإيطاليان الأصل ، طبقاً لتقاليدهما الوقورة المتحفظة ، يرفضان السماح لها بأخـذ مواعيد من أصدقائها ، حين كانت طالبة فى المدرسة الثانوية) . ومن ثم فإنهم فى مرحلة المراهقة ، التى يزداد فيها ضجر المراهقين بآبائهم فى جميع الظروف ، وتتحرك عندهم النزعة إلى العدوان من جراء التغيرات التى تطرأ على الغدد — فى هذه المرحلة ينتزع بعض الأبناء أنفسهم من سيطرة أسراتهم عليهم ، ويردون على

العداء الذى تبديه لهم الجماعات الأخرى ، بتكوين عصابات قوية متماسكة من بنى جنسهم . وهم يوجهون كل ولائهم وبسالتهم إلى العصابات التى ينتمون إليها ، ويوجهون كل شعورهم المتراكم بالعداء ضد العصابات المناوئة لهم .

بيد أن هذا الوصف لا يصور سوى جانب واحد من المشكلة . فقد كنت أتحدث فيما سبق كما لو كانت أخلاق هؤلاء الفتيان خالية من كل عيب ، وكأنما السبب الوحيد فى انحرافهم هو الموقف الاجتماعى الصعب الذى يواجهونه . والواقع أن أخلاق هؤلاء الفتيان تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، فمنهم مواطنون متماسكون يتسمون بمتانة الخلق ، ومنهم فتية قساة عتاة ، يعانون من مشكلات انفعالية خطيرة ، وينتمون إلى أسر مقلقلة يسودها الاضطراب .

ولكى تكتمل الصورة ، ينبغى أن أضيف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من الأسر التى هاجرت إلى أمريكا من البلاد الأوربية والمكسيك وبورتوريكو ، وكذلك الأسر التى هاجرت من مدن الجنوب إلى الشمال ، قد أثبتوا أنهم أناس منتجون يحافظون على القانون ، ولم يجد أبناؤهم داعيا لأن يتكتلوا فى عصابات ، كما أن الأسر التى تهاجر من مناطق نائية إلى مجتمع لهم فيه أقرباء وأصدقاء ومواطنون من بنى وطنهم الأصلى ، ولهم فيه تقاليد دينية راسخة ترشدهم سواء السبيل ، هذه الأسر لا تجد مشقة فى السيطرة على سلوك شبابها . فعلى سبيل المثال لا تكاد توجد حالات انحراف بين المراهقين فى الطائفة الصينية بمدينة نيويورك ، التى تعتبر من أكثر الطوائف تماسكا واتحاداً . وفضلا عن ذلك، فإن الأسر التى يتشبث فيها الآباء بالمبادىء والمثل العليا ، وتتوافر لديها القدرة على التكيف مع الظروف ، وتربطهم بأطفالهم علاقات طيبة ، تستطيع الهجرة إلى أى مكان من العالم دون خوف كبير من المتاعب .

* * *

الأسباب النفسية الباطنة

لقد كنا فيما سلف نناقش أنواعاً من الانحراف ، تلعب فيها العوامل الخارجية دوراً كبيراً . أما من الآن فصاعدا ، فسوف نعالج حالات الانحراف التي تنشأ أساساً عن الاضطرابات النفسية الباطنة . وهذه الحالات تختلف اختلافاً بيناً ، لا في درجة حدتها فحسب ، بل وفي طبيعتها وأسبابها . ولكي أوضح الفروق بينها ، فإني سوف أصف كل حالة على حدة ، وأطلق عليها اسماً معيناً من عندي ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالكم أن هذا سوف يكون مغالاة مني في تبسيط المشكلة ، لأن الانحراف يتولد عادة عن عوامل عديدة — نفسية واجتماعية — لذا فإن من المتعذر أن نجد اسماً جامعاً مانعا يشمل كل جوانب الحالة .

عند ما يرتكب أحد الشبان جريمة غير بالغة الخطورة ، فإن أهم مسألة يعنى بها الطبيب النفساني ، وقاضي المحكمة ، والمجتمع بصفة عامة ، هي معرفة هل في أخلاق هذا الشاب عيب أساسي بعيد الأثر ، كالقسوة أو تبلد الشعور أو انعدام وازع الضمير ؟ أم أنه أساساً إنسان حي الضمير إلى درجة معقولة ، بحيث يمكنه في الظروف المناسبة أن يتجاوب تجاوباً حسناً مع المجتمع ، لكن مشاعره تضطرب اضطراباً عنيفاً في موقف معين بالذات .

لذا أود أن أبدأ بالحديث عن ثلاثة نماذج من هذا النوع الأخير للشباب المنحرفين (النوع الذي يتصرف بطريقة معقولة ويمكن الاعتماد عليه في معظم نواحي الحياة ، لكنه ينحرف عن السلوك السوي في ناحية معينة) . وهذه النماذج الثلاثة يمكن أن توضع تحت عنوان واحد لمشكلة نسميها : « اضطراب المواقف اللاشعورية » .

النموذج الأول هو نموذج « المصابين بجنون السرقة » وهؤلاء يحسون برغبة

قهرية لا يمكنهم مقاومتها أو تعليلها ، تدفعهم إلى سرقة أشياء معينة ، ليست لها عندهم أية فائدة حقيقية . وهم يكونون عادة من البنات أو النساء ، وقد تكون لهن سمعة طيبة للغاية فى النواحى الأخرى (وهن يختلفن بالطبع كل الاختلاف عن لصوص المتاجر العاديين الذين يعوزهم رادع الضمير ، ويسرقون بهدف الربح المادى) . فالمصابة بجنون السرقة قد تسرق مثلا عشرات وعشرات من أقلام الحبر حتى ولو توافر لديها من المال ما يتيح لها أن تشترى كل ما تحتاج إليه من الأقلام . ومن ثم فإن الأشياء المسروقة فى هذه الحالة إنما تمثل بعض الرغبات الممنوعة التى كبتت فى أعماق عقلها الباطن ، والتى يمكن أن تتكشف عن طريق التحليل النفسى . أما النموذج الثانى فهو «هواة التجسس» على المشاهد الجنسية . ومعظم هؤلاء لا توجد عندهم نزعة إلى إيذاء الآخرين ، بل إنهم فى معظم الأحيان يميلون إلى احترام القانون . لكنهم بسبب نواح معينة فى تربيتهم الأولى ، يحسون برادع جنسى عنيف ، يمنعهم من التعامل مع الفتيات بالأساليب العادية للمراهقين ، لذلك فإن اهتماماتهم الجنسية المتزايدة فى فترة المراهقة تتركز فى شهوة النظر إلى المناظر الجنسية . كما أن هناك عند بعض المراهقين اضطرابات نفسية أخرى ذات طابع جنسى من نفس النوع ، بمعنى أنها لا تنطوى على عامل القسوة أو الرغبة فى اغتصاب الفتيات بالقوة . ومن المهم أن أوضح هذه النقطة ، لأنه عندما يسود الانزعاج أحد المجتمعات من جراء جريمة جنسية عنيفة ارتكبها أحد الشبان ، فإن الرأى العام يتجه إلى إدانة كل شاب عرف عنه التجسس على المشاهد الجنسية أو أى نوع آخر من الانحراف الجنسى البسيط ، كما لو كان هو الآخر مجرما أثيما .

أما النموذج الثالث فسوف أسميه « المحتاجين إلى العقاب » . ومثال ذلك أن أحد الفتية قد يرتكب جريمة سرقة بطريقة بدائية للغاية ، بحيث يترك آثاراً

تدل عليه فى كل بقعة من مكان الجريمة ، فيقبض عليه بمنتهى السهولة . ثم يكشف التحقيق أن له والدين من ذوى الضمائر الحية ، يهتمان بأمره اهتماماً كبيراً . بل قد يتضح أن له سمعة طيبة بين أصدقائه ومدرسيه . ولكن يتضح أيضاً أنه قد ظل طويلا يصطدم بأمه وأبيه اصطدامات عنيفة فى البيت ، مما يدفع الوالدين إلى الاعتقاد بأن مشكلات سلوكه إنما ترجع إلى هذا الصراع الحاد بينهما وبينه فى أيام صباه ، فيستبد بهما الشعور بالذنب من جراء ذلك . ولهذا السبب فإنهما يلقيان اللوم على نفسيهما ، بدلا من إلقائه عليه ، كلما انحرف عن السلوك السوى . على أن هذا الاستسلام من جانبهما لا يؤدى إلا إلى تشجيعه على التمادى فى تكديرهما ، كما لو كان يعتقد أنهما قد أساءا إليه. لكنه فى عقله الباطن يزداد شعوراً بالذنب بسبب سوء سلوكه ، ويحس بحاجته إلى أن تسيطر عليه سلطة ما وتعاقبه . وهذا هو الذى يدفعه — دون أن يعى — إلى الانطلاق من البيت ، ومحاولة استفزاز السلطات كى تقوم بالشىء الذى يأبى والداه القيام به . إن هذه الحاجة إلى العقاب عند بعض المراهقين ، حالة مألوفة للأطباء النفسانيين فى كثير من القضايا المختلفة التى تعرض على المحاكم .

* * *

يمكننا الآن أن نناقش نوعاً من الانحراف (يتداخل مع الأنواع الأخرى) يكون فيه ضمير الطفل حياً فى معظم النواحى ، غير أن به خللا معيناً فى ناحية بالذات ، يسهل عليه ارتكاب ذنب معين — وقد يرتكبه المرة تلو المرة — مع أنه يتنافى مع معايير السلوك الظاهرية المتعارف عليها فى الأسرة . وقد قام الدكتور ادليد جونسون والدكتور ستانيسلوس زيورك بدراسة هذا المظهر من مظاهر الانحراف دراسة مستفيضة ، فلاحظا أثناء مناقشة مشكلات بعض الأطفال المنحرفين مع آبائهم ، أن الأب — أو الأم — يبدر منه بطريقة غير مباشرة ما يدل على أن

فى نفسه نزعة مكبوتة إلى الانغماس فى نفس السلوك المنحرف الذى يمارسه ابنه ، ثم يتضح لها أثناء علاج الطفل نفسياً أنه قد التقط من أبيه هـذه النزعة الدفينة المكبوتة . وإليكم ثلاثة أمثلة بسيطة توضح لكم ما يعنيه هذان الطبيبان :

١ — تشتبه إحـدى الأمهات فى أن المطواة التى يلعب بها ابنها مسروقة من أحد المتاجر . وعند ما تنتزع منه اعترافاً بالسرقة عن طريق شىء من التعذيب فإنها تسأله تلقائياً : « هل رآك أحد عند ما سرقتها ؟ » . من البديهى أن هذا الأسلوب فى التفكير ليس أسلوب الأم الفاضلة التى ينبغى أن توجه كل اهتمامها فى مثل هذه الحالة نحو تقويم سلوك الطفل ومساعدته على إصلاح خطئه . فالأم بهذا السؤال ؛ بدلا من أن تقوم سلوك الطفل ، تبدو فى نظره كما لو كانت تتقمص إلى حد ما شخصية اللص ، مما يوحى إليه بأنها تسمح له بالسرقة ، بشرط أن ينجح فى ارتكاب الجريمة دون أن يراه أحد .

٢ — يشكو أحد الآباء — فى حضور ابنه الصغير — من أن هذا الابن قد دأب على الهروب من البيت مرارا . بيد أن لهجة الأب فى الحديث تنم عن الزهو ، وهو يصف قدرة الغلام الفائقة على قطع مسافات شاسعة قبل العثور عليه فى كل مرة يهرب فيها . إن هذا التعبير عن الاستحسان ، الذى يبديه الأب دون أن يعى ، كفيل بأن يضيع تماماً أثر الاستنكار الذى يظهره للغلام بحكم مركزه كأب .

٣ — تتحدث إحدى الأمهات حديثا عنيفا إلى ابنتها بشأن سهرها إلى ساعة متأخرة من الليل مع أحد الشبان ، ثم تنهى حديثها بقولها إنها تعلم أن الفتاة قد تجاوزت كل حد فى علاقتها بهذا الشاب . ويتصادف ألا يكون هذا الكلام صحيحاً ، بل إنه مجرد وهم فى ذهن الأم ، لكنه يبين للفتاة ما تتوقعه

الأم من هذه العلاقة ، ومن ثم فإنها تعتبر ذلك نوعا من التصريح لها بالتمادى فى علاقتها بالشبان مستقبلا .

وقد بين الدكتوران جونسون وزيورك أن نقطة الضعف فى ضمير الطفل فى مثل هذه الحالات ، تطابق فى الواقع إحدى الرغبات المكبوتة فى نفس أحد الوالدين ، وتنشأ عنها . فالوالد وإن كان يستطيع كبت هذه الرغبة فى نفسه ، إلا أنه يتمتع بها حين يحققها فى شخص طفله .

ومن ثم فعند ما يقول الوالدان فى لهجة جادة — لا على سبيل المزاح — إنهما يعتقدان أن طفلهما فى طريقه إلى الانحراف ، أو إنهما عاجزان عن السيطرة عليه ، فإن هذا يعتبر علامة على احتمال حدوث بعض المتاعب مستقبلا ، لأن مثل هذا القول من جانب الوالدين إنما يدل على أحد شيئين . إما أنهما يسمحان له — دون وعى منهما — بالانحراف عن السلوك السوى ، وإما أنهما يعانيان من شعور حاد بالذنب نحو الطفل ، مما يمنعهما من تأديبه بالأسلوب العادى ، وسوف يظل يمنعهما من تأديبه فى المستقبل أيضا .

* * *

ولننتقل الآن إلى مشكلة الشباب المنحرفين الذين يعانون من ضعف أساسى فى الخلق . وجدير بنا أن ننتهى أولا من تحليل مشكلة المنحرفين الذين يوجد عندهم اعوجاج بالغ فى الشخصية . وهؤلاء وإن كانوا قلة قليلة لحسن الحظ ، إلا أنهم يثيرون الرعب فى نفوس الناس ، بسبب الطابع الخبيث الشرير الذى تتسم به جرائمهم .

على سبيل المثال ، قد يقتل ثلاثة من الشبان — عمدا ومع سبق الإصرار — شخصا لم يسبب لهم أى أذى ، بل إنه فى الواقع لا يعنيهم فى قليل أو كثير . ومع

ذلك فإن هؤلاء الشبان لا تبدو عليهم أمارات الجنون بالمعنى المألوف . والتفسير الوحيد الذى يسوقونه لتبرير جريمتهم هو أنهم قد ارتكبوها بحثا عن شيء مثير . ما من شك أن مثل هذه الجريمة الشاذة القاسية لا يمكن أن يرتكبها أشخاص عاديون من الناحيتين الأخلاقية أو العاطفية ، حتى ولو بدوا عاديين فى نظر الناس الذين يعرفونهم معرفة عابرة . ففى إمكان أى إنسان يعرف أحد هؤلاء الشبان معرفة وثيقة ، أن يسوق أدلة عديدة على أن هذا الشاب عنده رغبة شاذة فى الإيذاء ، وتبلد فى الشعور ، يرجعان إلى المراحل الأولى من طفولته. وفضلا عن ذلك فإن المعرفة الوثيقة بعائلة الشاب ، أو البحث النفسى لظروف هذه الأسرة ، قد تبين أن والديه — مهما بدا عليهما من « وقار » — كانا يعاملانه نفس المعاملة القاسية المجردة من الإنسانية التى يعامل بها الآخرين ، والتى قد لا تتخذ بالضرورة مظهر الضرب أو غيره من صور القسوة البدائية . فالرغبة فى القسوة والإيذاء يمكن تحقيقها بيد من حديد فى قفاز من حرير .

هناك مثال آخر من أمثلة الاعوجاج الحاد فى الخلق ؛ ذلك هو الشاب الذى يرتكب جريمة بشعة ، قد تكون جريمة قتل جنسية . ومع ذلك تقول الصحف إنه لم يعرف عنه سوء السلوك من قبل . بل إنه فضلا عن ذلك قد اشتهر بالصلاح والاستقامة ، من حيث مواظبته على حضور مدارس الأحد الدينية أو اجتماعات فريق الكشافة . على أن المرء يجب ألا يخدع بالأخبار التى ينشرها مخبرو الصحف بدافع من رغبتهم فى إبراز المفارقات المسرحية المثيرة . فقد يكون صحيحاً أن هذا الشاب لم يتورط فى أى مأزق من قبل ، ولكن تأكدوا أنه لم يكن من النوع الودود المنطلق الذى نألفه فى الشباب الأمريكى . ومن الجائز أنه كانت عنده صفات شاذة ملحوظة فى شخصيته طوال مرحلة الطفولة ، لكنه استطاع رغم ذلك أن يتمشى مع مقتضيات السلوك فى المدرسة والحى . ثم جاءت توترات مرحلة المراهقة فحطمت قدرته الواهية على ضبط نفسه ، بنفس الطريقة

تقريبا التى تدفع بها هذه التوترات بعض المراهقين سيئى التكيف إلى الجنون.
وفى حالة هذا الشاب أيضا ، يستطيع المرء أن يلمس — على طول الخط — نوعاً من العلاقة الشاذة بينه وبين والديه .

* * *

بقى أمامنا الآن أن نناقش مشكلة الفئة الغالبة من معتادى الانحراف ، أولئك الذين يرتكبون « مراراً » بعض المخالفات ، التى تتراوح درجة حدتها بين البسيطة والمتوسطة ، كالتزويغ المستمر من المدرسة ، والهروب من البيت ، والسرقة ، وسرقة السيارات بهدف اللهو فى الأمسيات ، والانحلال الجنسى ، والدعارة بالنسبة للفتيات . وبوجه عام ، يمكن اعتبار معظم هؤلاء الشباب المنحرفين أنهم قد ضعف عندهم وازع الضمير ، من جراء ما تعرضوا له من إهمال جسيم فى طفولتهم المبكرة . والاصطلاح التقليدى الذى يستخدم لوصف هذا النوع من المنحرفين هو « الشخصية السيكوباتية » ، وهم يتسمون بالسطحية وعدم الشعور بالمسئولية ، والاندفاع ، وكثرة المطالب ، وعدم الاستفادة من التجارب . وهناك على الأقل بضع حالات سيكوباتية فى كل مجتمع من المجتمعات . وقد تذكر أنك صادفت واحدا من هذا النوع فى مدرستك ، أو تذكر آخر فشلت فى التعامل معه بعد أن بلغت مبلغ الكبار .

يمكننى أن أزيد الصورة وضوحا ، بوصف نوع من البحارة ، كنت أقوم بعلاجهم فى عنبر من عنابر سجن البحرية . كان هؤلاء البحارة ينتظرون تسريحهم نهائياً ، على اعتبار أنهم غير جديرين بالخدمة العسكرية ، لتكرار تغيبهم بدون ترخيص لفترات طويلة (ولارتكابهم مخالفات أخرى) رغم تشديد العقوبات عليهم المرة تلو المرة . وكانت الحجة التى يسوقونها عادة لتسويغ غيابهم هى : « لقد كنت مضطراً للذهاب إلى مكان ما ، فطلبت إجازة لكنهم

رفضوا أن يمنحوها لى » . وفى داخل السجن كانوا دائماً يطالبون بشىء أو آخر ، يطالبون بتحسين نوع الطعام وزيادة كمية اللحم ، على الرغم من حصولهم على غذاء أفضل مما يقدم للمدنيين . ويطالبون بإتاحة مزيد من الفرص لهم للاتصال تليفونياً بصديقاتهم ، ويطالبون بزيادة مجالات النشاط الترفيهى لهم (ولو أنهم كانوا يسأمون كل نوع من النشاط بعد فترة وجيزة) . كذلك كانوا يطالبون بالإسراع فى إجراءات تسريحهم من الخدمة . وعند ما كان أحد هؤلاء البحارة ينقطع عن عمله لمدة ستة أشهر ، فيوقف صرف مرتبه لأسرته ، فإنه كان يهرع إلى ثائراً ناقماً ، فأفهمه أنه ما من هيئة يمكنها أن تدفع مرتباً لرجل هجر عمله منذ أمد طويل ، لـكن مثل هذه الإجابة ما كانت لتحرجه أو تفت فى عضده . بل إنه كان يصيح فى وجهى بلهجة ثائرة : « كيف تتوقع سلطات البحرية من أسرتى أن تعيش بدون نقود ؟ » ولا يجول بخاطره مطلقاً أن عليه هو أيضاً التزامات نحو عمله .

كيف يصبح شخص ما حالة سيكوباتية ؟ يحدث هذا بصفة عامة لأنه قد حرم من الحب فى سنى حياته الأولى ، فقصص حياة معظم البحارة الذين كنت أتحدث عنهم ، تـكاد تـكون كلها متشابهة إلى حد بعيد ، فأحدهم ماتت أمه أثناء ولادته ، مما حدا بأبيه إلى تركه لدى إحدى قريباته أو جاراته ، وهو لا يزال يذكر حتى الآن أن هذه السيدة لم تـكن راغبة فيه . وآخر مات أبوه أو هجر البيت ، فاضطرت أمه للنزول إلى ميـدان العمل ، وتركته فى أحد الملاجىء الحقيرة . هذا هو نوع الأسر المفـككة التى تنشأ منها حالات الانحراف ، حيث لا تقتصر المشكلة على مجرد انفصـال الوالدين (بالموت أو الطلاق أو الهجران) ، بل تمتد إلى أبعد من ذلك ، إذ يعجز الوالد الموجود عن إعالة الطفل ، ولا يزوره بانتظام ، ويتراجع فى وعوده له ، وبوجه عام يخلف فى نفسه

شعوراً بأنه غير مرغوب فيه . كما أن نفس هذا الشعور قد يتولد عند الطفل الذى يعيش مع والديه ، إذا أحس بأن أحداً لا يعنى بأمره .

(على أن مجرد انفصال الوالدين لا يؤدى بالضرورة إلى خلق شخصيات سيكوباتية أو أطفال منحرفين . فمعظم الأرامل والمطلقات ، والآباء المنفصلين عن زوجاتهم ، يتفانون فى خدمة أطفالهم ، ويوفرون لهم الرعاية المناسبة ، وبذلك يحس الأطفال بالحب والحنان) .

والطفل الذى عانى من الإهمال الشديد ، يصبح عادة شخصاً متوترا قلقاً سطحياً ، عند ما يبلغ سن الالتحاق بالمدرسة ، ولهذا فإن اهتمامه بالعمل المدرسى يكون ضئيلا ، لأنه لا يجد أمامه والداً محبا يحتذيه كنموذج فى السلوك ، وليس له طموح معين فى حياته ، لذلك لا تتوافر لديه القدرة على أن يكرس نفسه لعملية التعلم . وحيث إنه لم يكن فى يوم من الأيام عضواً فى أسرة مترابطة ، فإنه لا يحس بالرغبة فى أن يصبح عضواً عاملا فى جماعة فصله المدرسى . وحيث إنه لم يذق طعم الشعور بالأمن والطمأنينة — الذى ينتج عن إحساس الفرد بأنه موضع الرضا والاستحسان — فإنه لا يخشى استهجان زملائه له كنتيجة لسوء سلوكه . بل إن العقاب لا يخلق عنده شعوراً بالندم ، وإنما يخلف فيه شعوراً بالسخط والحنق لا غير . وحيث إنه لم يعرف فى حياته متعة الشعور بالحب ، فإنه لا يحاول مطلقاً أن يثير حب الناس له . وحيث إن أحداً لم يعطه قط شيئاً له أهميته ، فإنه كذلك ليس لديه شىء يمكن أن يعطيه لأحد ، ولهذا كله فإنه فى حياته المدرسية يصبح عبداً لدوافعه الغريزية ، ويتورط غالباً فى المتاعب ، ويمضى جانباً كبيراً من الوقت فى مكتب ناظر المدرسة ، ويعمد إلى الغش والخداع فى سلوكه ، وقد ينتهى به الأمر إلى الرسوب فى امتحان النقل مرتين متتاليتين ، ثم يترك المدرسة إلى غير رجعة ، بمجرد أن تتاح له هذه الفرصة دون أن يلحق به العقاب . ومثل هذا الغلام لا يكون له أصدقاء حقيقيون .

وقد يتخيل الشخص السيكوباتى (المريض نفسيا) أنه سيجد الطريق سهلا ممهدا أمامه ، عند ما يترك المدرسة ويلتحق بإحدى الوظائف . على أن كل عيوبه ونقائصه تلازمه فى ميدان العمل ؛ إذ يتضح هناك أيضا أنه شخص لا يمكن الاعتماد عليه ، لا يلتفت إلى عمله ، أو يتعاون مع الآخرين ، لذلك فإنه إما أن يفصل من عمله ، أو يتركه من تلقاء نفسه بعد بضعة أسابيع .

لقد عرضت فيما سلف أنماطا من الشخصيات السيكوباتية (المريضة نفسياً) التى استفحل بها المرض النفسى . ولكن هناك كثيرين غيرهم يصيبهم المرض بدرجة أقل حدة . وبعض هؤلاء لم ينشأوا فى بيوت يسودها التفكك أو الفقر أو عدم الاكتراث بشكل واضح . فمن المهم ألا يغيب عن بالنا أن بعض أطفال الأسرة المتيسرة — حيث يكون الآباء والأمهات مواطنين محترمين ، بل وأعضاء بارزين فى المجتمع — قد ينشئون أيضا دون أن يحظوا بالحب العميق ، أو التفانى من جانب الوالدين . وفى مثل هذه الحالات قد لا يكون الإهمال واضحاً ، لأن الأسرة تحافظ على المظاهر التقليدية ، فتبدو كما لو كانت تزود الطفل بجميع المطالب التى يقرها المجتمع . بل إنه فى بعض الحالات ، يحاول الوالدان — بدافع من الشعور الغامض بالذنب — أن يعوضا الطفل عن حرمانه من الحب ، عن طريق الإغداق عليه بالهدايا ، ومنحه الحقوق والميزات بلا حساب . ولعل خير مثال يصور هذه الحالة ، هو ذلك المراهق التافه الفاشل الذى يهدى إليه والداه سيارة فاخرة .

☆ ☆ ☆

هل يمكننا أن نستخلص أية نتائج إيجابية من هذا العرض للاضطرابات النفسية التى ناقشتها فى هذا الفصل ؛ أعتقد أن هناك نتائج عديدة :

١ — أن الغالبية العظمى من الأفعال المنحرفة التى تحصرها الإحصائيات ،

ليست إلا مخالفات بسيطة لا تدل بالضرورة على وجود اضطرابات انفعالية لدى مرتكبيها من الشباب .

٢ —أن الانحراف لا ينشأ دون ما سبب على الإطلاق ، فالأطفال الذين أصبحوا من معتادى الانحراف ، أو الذين يرتكبون مخالفات خطيرة ، قد بدت عليهم أعراض تدل على سوء التكيف منذ طفولتهم المبكرة ، وكان يمكن مساعدتهم على مقاومة الانحراف فى الوقت المناسب .

٣ — أن الطفل إذا ما لقى حباً دافئاً وتوجيهاً ثابتاً من والديه ، حتى ولو ثارا عليه أو وهنت عزيمتهما أحياناً ، فإنه سيكتسب شعوراً بالانتماء ، ويتربى عنده وازع الضمير ، الذى يمنعه من ارتكاب مخالفات خطيرة فى مرحلة المراهقة ، ويجعله فى مرحلة الرشد عضوا يشعر بالمسئولية فى المجتمع .

ولسوف نناقش بعض ما تتضمنه هذه النقاط فى الفصول التالية ، التى تتناول المشكلات الخاصة بعلاج الانحراف ومنعه .

لماذا ينحرف سلوك المراهقين ؟

«تهدر العواصف فى أعماق النفس عند ما
يبحث الإنسان عن ذات جديدة »

ما هو السر فى أن معظم انحرافات الأطفال التى تسىء إلى المجتمع تتركز فى سنى المراهقة بالذات ؟ فالإحصائيات تدل على أن الانحراف يبلغ أقصى درجاته فى الفترة ما بين سن الخامسة عشرة والسابعة عشرة .

هناك أولاً فارق كبير بين مخالفات الأولاد ومخالفات البنات . فالأولاد يتورطون أساساً فى المتاعب نتيجة بعض الأفعال العدوانية كالسرقة والتخريب ، ونتيجة تحديهم لقوانين المدرسة ، كما أن فئة قليلة منهم تميل إلى العنف والقسوة . ولكننا قلما نسمع عن بنات عندهن مثل هذا الاستعداد للعدوان السافر ؛ فالغالبية العظمى فى الفتيات اللائى يمثلن أمام محاكم الأحداث ، يقدمن للمحاكمة بناء على شكاوى من آبائهن بسبب سلوك جنسى منحرف لم يستطع الآباء السيطرة عليه ، أو بسبب الهروب من البيت . وبعبارة أخرى ، فإن الفتيات يزعجن ويتحدين آباءهن وأمهاتهن ، فى حين أن الفتيان يهددون المجتمع كله .

وفى بعض الحالات ، تتورط الفتيات أساساً فى سلوك جنسى مستهجن ، بسبب افتقارهن إلى الحب وشعورهن بالإهمال منذ الطفولة المبكرة ، ولذلك تعوزهن معايير السلوك اللازمة للسيطرة على دوافعهن الغريزية . وفى حالات أخرى يكون الدافع إلى الانحراف أكثر تعقيداً ، فبعض الفتيات يهاجمن آباءهن بأعلى صوتهن أمام الإخصائيين الاجتماعيين فى محاكم الأحداث ، ويتهمنهم بأنهم لا يمنحونهن الحب والحنان ، أو أنهم يعاملونهن معاملة قاسية ، مما يوحى بأن أحد الحوافز العميقة التى تدفع مثل هؤلاء الفتيات إلى الانحراف هو الرغبة فى إيذاء شعور آبائهن وإشعارهم بالخزى . فعند ما تهاجم إحدى الفتيات أباها فى

لهجة تفيض بالمرارة لأنه لم يظهر أى حب أو استحسان لهـا ، يمكنك أن تلمس أنها لم تجد طريقة للانتقام منه خيراً من التباهى علناً بمغامرة غرامية تخوضها مع رجل يمقته أبوها . كما أثبتت الدراسات النفسية أن اشتداد الشعور بالمنافسة بين المراهقات وأمهاتهن ، يساعد على تفسير الطريقة التى بها تتورط بعض الفتيـات فى المتاعب . فهناك حالات معينة يتضح فيها أن الفتاة عند ما تكتشف أن أمها حامل ، تعرض نفسها هى أيضاً للحمل سفاحاً — فى تحد وحماقة — عن طريق الاتصال جنسياً بفتى أو رجل لا يعنى شيئاً بالنسبة إليها . وهناك حالات أخرى نجد فيها الفتاة تبحث عن المتاعب ، عند ما تكتشف أن أمها المطلقة أو الأرملة قد اتخذت لنفسها صديقاً حميماً من الرجال . كما أن من المشكلات المألوفة للاخصائيين الاجتماعيين فى الدور الخاصة بالفتيات اللائى حملن سفاحاً ، مشكلة الفتاة التى تنطلق ثائرة من البيت ، وتتورط فى علاقة جنسـية مع أحد الرجال ، لأن أمها قد اتهمتها ظلماً بسوء الخلق . وفى مثل هذه الحالات لا تكون فترة المراهقة هى المسئولة أساساً عن المشكلة ، لأنها لا تنشأ بسبب ازدياد اهتمام الفتاة فى هذه المرحلة بالشبان والرجال . والأجدر بنا أن نقول إن فترة المراهقـة تعمق كل المشاعر الإيجابية والسلبية التى تحملها الفتاة نحو أبويها منذ مرحلة الطفولة المبكرة . وهى بصفة خاصة تعمق شعورها بالمنافسة مع أمها ، وتدفعها إلى الاعتقاد بأنه قد حان دورها لتحظى باهتمام الرجال وإعجـابهم . كما أن البنت عند ما تتحول إلى فتاة جميلة جذابة ، فإن ذلك قد يثير عند أمها شعوراً بالحسد والغيرة دون أن تعى .

ويمكنك أن تلمس دلائل خفية على هـذه المنافسة ، حتى فى أسعد الأسر وأكثرها استقراراً . فالفتاة المراهقة قد تتصرف بطريقة ملؤها الثورة والغضب ، عند ما تعلم أن أمها حامل ، كما لو كانت تشعر بأن أمها يجب أن تترفع عن « مثل هذا الشيء » ، أو قد تنقد أمها نقداً حاداً ، إذا اعتقدت أن أمها تتصابى أكثر من اللازم فى ثيابها أو حركاتها ، أو قد تتظاهر المراهقـة بأنها تفهم أباها وتعامله

خيرا من أمها . وهذا يذكرنا بشعور المنافسة الذى ينشأ عند الطفلة فيما بين سن الثالثة والخامسة من جراء رغبتها فى الاستئثار باهتمام أبيها ؛ ذلك الشعور الذى يكبت كبتاً جزئياً بعد سن السادسة ، ثم يعود فيظهر ثانية فى سنى المراهقة ، تحت ضغط التغيرات التى تطرأ على غدد الفتاة فى هذه المرحلة . ولعل هذا يساعدنا على إدراك السبب فى أن بعض المراهقات يعاملن أمهاتهن معاملة فى غاية الوقاحة « والرزالة » . فهن يشعرن بالعداء نحو أمهاتهن ، بيد أن هذا الشعور يخلق عندهن أيضاً إحساساً بالذنب ورغبة فى العقاب . كما أن هذه الظاهرة توضح لنا السبب فى أن الفتاة المراهقة توجه إلى أبيها نقداً مريراً فى بعض الأحيان ؛ ذلك لأنها قد تحاول إخفاء مشاعرها الإيجابيـة نحوه وراء قناع من المشاعر السلبية ، تماماً مثلما يفعل الكبار عند ما يرغبون فى إخفاء استلطافهم لأشخاص معينين . فضلاً عن أن المراهقة قد تحاول بهذا الأسلوب استثارة أبيها حتى يمنحها شيئاً من اهتمامه ، حتى ولو اتخذ مظهر الخشونة . وإنى لأذكر فتاة من أسرة محافظة كانت دائماً تصرخ فى وجه أبيها ، متهمة إياه بأنه أداة طيعـة فى يد أمها ، وأنه ضعيف مسلوب الإرادة ، حتى وجد الوالد نفسه يصفعها بشدة على وجهها ذات يوم ثم أحس بالخجل من نفسه لهذا التصرف الذى بدر منه ، لكنه دهش حين وجد أنها قد تقبلت الصفعة بنفس راضية ، ولم تجرح مشاعرها على الإطلاق .

غير أن الفتاة المراهقـة تكتشف آخر الأمر نجوم السينما والمسرح ، كما تكتشف فتيان الحى ، الذين يستوعبون مشاعرها واهتماماتها العاطفية ، وهكذا تقل شيئاً فشيئا مشاكستها لأمها وأبيها .

والهروب من البيت فكرة تروق للفتاة التى لا تربطها علاقات طيبة بوالديها ، ولا تتمتع بشخصية ثابتة متزنة ، لكنها فى نفس الوقت تفتقر إلى الجرأة اللازمة لتحديهما تحدياً سافراً فى البيت . والهروب قد يشبع رغبات عديدة عند هـذه

الفتاة ، فهو يستهويها لأنه يفتح أمامها آفاق المغامرات العاطفية ، ولأنه يعذب والديها بنار القلق عليها ، ويدفع الجيران إلى التساؤل عن مدى معاملتهما السيئة لها التي دفعتها إلى الهروب من البيت . وقد تتوهم مثل هذه الفتاة أن الهروب إنما هو فرصة عظيمة للبحث عن أبوين مثاليين بدلاً من والديها ، يزودانها بالحب الذى لا حدود له ، ويمنحانها الفهم والاستحسان لتصرفاتها ، ويغدقان عليها الهدايا والمزايا ، دون أن يطلبا منها شيئاً مقابل ذلك كله .

والهروب من البيت ما هو إلا رد فعل متطرف لحالة التذمر الشائعة بين المراهقين — حتى فى الأسر المستقرة — من أن آباءهم وأمهاتهم لا يفهمونهم ، وإنى لأذكر مقالا نشر فى إحدى المجلات ، عن استفتاء اشترك فيه آلاف من المراهقين من مختلف الأعمار . ولقد تبين من هذا الاستفتاء أن شكوى المراهقين من عدم فهم ذويهم لهم ، تبلغ أقصى مداها فى حوالى سن الخامسة عشرة . أما قبل هذه السن وما بعدها ، فإن هذه الشكوى تكون أقل حدة من ذلك بكثير . وقد انتهى كاتب المقال إلى أن الآباء والأمهات يجب أن يقوموا بعمل حاسم فعال للتغلب على هذا العجز فى قدرتهم على فهم أطفالهم . ولكن يبدو لى أنه ليس من المنطق فى شىء أن الآباء والأمهات الذين يفهمون أبناءهم وبناتهم فهماً معقولاً فى سن الثالثة عشرة وفى سن الثامنة عشرة ، يعجزون بلا مقدمات عن فهمهم فى سن الخامسة عشرة . فالأقرب إلى الاحتمال هو أن شعور المراهقين فى هذه السن بأن ذويهم لا يفهمونهم ، ليس إلا ظاهرة عادية عند الأطفال فى منتصف مرحلة المراهقة . وأعتقد أنها مجرد انعكاس لرغبة المراهق فى التباعد عن والديه ، فهو يفصم عرى ارتباطاته القديمة ، ويتحرر من اعتماده على والديه ، كى يحقق لنفسه مزيداً من الاستقلال على أسس سليمة . ومن الطبيعى فى رأيى أن يحاول المراهق إلقاء اللوم على الوالدين ، لتسويغ هذا الشعور بالتباعد عنهما .

كما أن هناك بعض المراهقين المتهيبين الذين يستبد بهم الخوف من عجزهم عن مجابهة المطالب الجديدة لحياتهم الاجتماعية والعاطفية ، لدرجة أنهم لايجرؤون على الاشتراك فى أى نشاط اجتماعى . ومع ذلك فهم لايعترفون بهذا الشعور على الإطلاق ، بل يصرون بدلا من ذلك على أن آباءهم وأمهاتهم هم الذين يأبون السماح لهم بالذهاب إلى الحفلات أو مقابلة الأصدقاء والصديقات .

* * *

ومظاهر التوتر عند المراهقين تختلف كثيراً عن مظاهر التوتر عند المراهقات. ذلك أن أحد الاهتمامات الرئيسية لدى جميع الشبان والرجال هو أن يثبتوا رجولتهم للناس . والأهم من ذلك أن يثبتوها لأنفسهم . على أن الرجولة فى المجال الجنسى ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر هذا الاهتمام ، فهى تبـدو أكثر وضوحاً فى مجالات الشجاعة والقوة والمهارة والصلابة وكسب المال وإعالة الأسرة ، وفى طموح الذكر وتطلعه للتفوق على الآخرين فى مجال العمل .

وفى فترة المراهقة بصفة خاصة ، يستبد بالذكر شعوره بالحـاجة إلى إثبات رجولته . فلقد حدثت طفرة كبيرة فى نموه ، لذلك فهو يحس بالحرج والضيق ، لإدراكه أنه ما زال قريباً من عهد الطفولة . ويحس بالخيبة والإحباط ، لإدراكه أنه ما زال يقف موقف الطفل الصغير المعتمد ، فى نظر والديه ومعلميه ، وفى نظر القـانون أيضاً . كما أنه لا تتاح له فرص كثيرة لإثبات واستعراض رجولته ، أللهم إلا إذا كان من الرياضيين البارزين المرموقين . وهنا نجـد أن السـيارة تصبح أمراً هاما جداً بالنسبة للمراهق ، على اعتبـار أنها رمز للقوة ، وعلى اعتبار أنها وسيلة ناجعة للتأثير على الفتيات ، ولإظهار مهارته وشجاعته ، وللتسابق مع غيره من سائقى السيارات ، حتى ولو دفعه هذا السباق إلى المخاطرة بحياته أو مخالفة القوانين . كذلك فإن التدخين لا يبـدأ كعادة أو مزاج عند

الشاب ، وإنما كوسيلة لتأكيد رجولته ، ولتحدى قواعد السلوك التى يفرضها عليه الوالدان .

أما الشبان حسنو التكيف فهم عادة هؤلاء الذين يحرزون نجاحاً فى مجالات النشاط المدرسى ، وفى عقد صداقات مع الفتيات . مثل هؤلاء الشبان يتحينون الفرص الملائمة لهم ، وهم يتطلعون إلى المستقبل بعين التفاؤل والأمل . على أن هناك شباناً آخرين لا تتوافر لديهم هذه القدرة فى مجالات النشاط ، لكن آباءهم يضعون لهم مثلا عليا ، فيهذبون حوافزهم بحيث تتجه إلى المجالات الأكاديمية والفكرية والعلمية والفنية .

غير أن موازين الأمور تختلف بالنسبة للشبان الذين نشئوا على أيدى آباء لايؤمنون بأهمية التعليم أو بضرورة تخطيط مستقبل أبنائهم ، أو الذين نشئوا على أيدى آباء لا يظهرون سوى القليل من التفانى فى خدمة أبنائهم ولا يعلقون عليهم آمالا كباراً . فى مثل هذه الحالات نجد أن رغبة المراهق فى إثبات رجولته تنطلق على هواها ، وتصبح أحد الحوافز التى تدفعه فى هذه السن إلى السرقة والهروب من المدرسة وإيذاء الآخرين ؛ إذ يقترح أحد الشبان على بقية « الشلة » فكرة القيام بمغامرة مخالفة للقانون فيوافق كل منهم على ذلك ، بدافع من حاجته إلى إثبات رجولته أمام نفسه وأمام الآخرين . كما أن الرغبة فى تحدى السلطات جزء لا يتجزأ من الشعور بالرضا الذى تضفيه عليهم المغامرة .

عندما كنت أناقش مشكلة انحراف الفتيات ، ركزت اهتمامى على ناحية المنافسة المتطرفة بين الفتيات غير المتزنات وبين أمهاتهن ، وعلى رغبة بعض الفتيات فى الانتقام من آبائهن الذين لا يلتفتون إليهن أو يهتمون بهن . فهل هناك ما يقابل ذلك عند الفتيان ؟ نحن نعلم أن الفتى فى الفترة ما بين سن الثالثة

والخامسة يراوده شعور بالمنافسة مع أبيه ، بدافع من رغبته فى الاستئثار باهتمام أمه . ونعلم أيضاً أن القلق الذى يثيره هـذا الشعور بالمنافسة يدفعه إلى كبت الأمر كله كبتاً عنيفاً فى عقله الباطن . وعند غالبية الفتيان ، يؤدى هذا الكبت إلى خلق رادع شديد ، يجعلهم يتحاشون التعبيرات الجسدية عن الحب بينهم وبين أمهاتهم ، ليس فقط فى مرحلة الكمون ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، بل بصورة أشد فى مرحلة المراهقة أيضاً . فأنت قلما ترين فتى يربت رأس أمه أو يناديها بأسماء تنم على التدليل ، مثلما تفعل الفتيات كثيراً مع آبائهن . فالفتى غالباً ما ينفر من أمه عندما تحاول إظهار حبها له عن طريق الاقتراب الجسدى ، بل إنه قد ينقدها نقـداً حاداً عند ما ينزلق مئزرها « جونلتها » إلى ما فوق ركبتيها ، أو عندما يعتقد أن ثيابها تكشف جسدها أكثر من اللازم . وبعض الفتية يحرصون أشد الحرص على إخفاء أى شعور بالحب نحو أمهاتهم ، لدرجة أنهم يهاجمونهن فى قسوة على كل ما يقدمن عليه من تصرفات ، أو يفهن به من حديث .

وهناك دلائل كثيرة غير مباشرة على أن الشعور القديم بالمنافسة بين الابن وأبيه ، ولو أنه يكبت كبتاً شديداً فى نفس الابن ، إلا أنه يستمر عنده طوال مرحلة الصبا ، وفى مرحلة الرشد أيضاً ، وهو يتخـذ مظهر المنافسة مع الأب فى مجالات المباريات والمهارات والنجاح فى العمل . لـكننا نجد فى معظم الأسر أن خوف الابن من أبيه أقوى كثيراً من خوف البنت من أمهـا . ولذلك فهو لا يميل إلى مجادلة أبيه أو إثارته . أما عندما تستبد به الثورة عليه ، فإنه قد يعبس أو يتمتم فى سره .

وغالباً ما يحدث أن خوف الفتى اللاشعورى من معاداة أبيه ، قد يؤدى به إلى كبت شعوره بالغيظ منه ، لـكنه بدلا من ذلك يصب جام غيظه على أمه

(أو على مدرسيه) ، فيثور فى وجهها لأتفه الأسباب ، ويختلق موضوعات للجدل معها حول لا شيء على الإطلاق . قد يراودك بعض الشك فى صحة هذا القول ، وقد تتساءلين : ما هو الدليل عليه ؟ إليك الدليل : يدخل أحد المراهقين عيادة التحليل النفسى بسبب مشكلة من مشكلات التكيف مع الحياة ، مثل الفشل فى الدراسة أو العمل ، أو عدم القدرة على مسايرة الناس . وهو يعتقد أن معظم متاعبه ترجع إلى استبداد أمه به ، وأنه يتمشى مع أبيه بصورة رائعة ، لأن أباه رجل معقول إلى حد بعيد . بل إن الغرباء خارج محيط الأسرة يوافقونه على أن العلاقة بينه وبين أبيه علاقة ودية دافئة تقوم على الاحترام المتبادل . ولكن عندما يبدأ المريض فى سرد أحلامه (التى تنبع من عقله الباطن) فإن هذه الأحلام لا تلبث أن تصور مواقف عديدة يرى فيها نفسه مهدداً أو مستغلا من جانب رجل قوى ، يمثل أباه بصورة سافرة ، أو يحمل بعض سمات أبيه . (أما إذا ظهرت فى هذه الأحلام شخصية تشبه الأم ، فإنها فى العادة تلعب دوراً كله حب وتعاطف وحنان) . وعندما يفكر المريض عن طريق تداعى المعانى فى الأشياء التى تذكره بها التفصيلات المختلفة فى الأحلام ، فإن ذلك يعود به شيئاً فشيئاً إلى بعض المواقف التى طواها النسيان فى طفولته المبكرة ، تلك المواقف التى كان فيها يخشى غضب أبيه ، أو يحس بسخط عنيف على سلطته ، أو يحسده على المزايا التى يتمتع بها ، أو يحنق عليه لشعوره بأنه يظلمه . فإذا نجح العلاج فى إعطائه فهماً سليما لمشاعره العميقة ، وقدرة على التحكم فيها ، فإن ثلاثة تغيرات على الأقل سوف تطرأ على شخصيته ؛ فهو سيحل مشكلته فى المدرسة أو العمل ، وسيكف عن تقريع أمه ، وسيدرك أن هناك أحياناً اختلافات واقعية فى الرأى بينه وبين أبيه ، ولهذا فإنه لن يخشى الدفاع عن آرائه ، حتى ولو أدى ذلك إلى مناقشات حادة حامية .

وقد يكون من بين الأسباب التي تدفع المراهق المتمرد إلى مصادقة فتاة معينة ، شعوره بأن أمه لن تعجب بها . لكنه بصفة عامة لن يحس بحافز قوى يدفعه إلى استغلال علاقته الغرامية فى الانتقام من والديه ، بحيث يجعل منها فضيحة علنية تسيء إليهما. وعلى الرغم من أن الأم قد تراودها رغبة قوية فى بتر هذه العلاقة ، فإنها لن تتمكن من إقناع زوجها باستدعاء الشرطة للتدخل فى الأمر (وهو ما قد يقدم عليه الأب فى حالة ابنته المتمردة) . فالآباء لا تراودهم رغبة ملحة فى المحافظة على أخلاق أولادهم مثلما يفعلون مع بناتهم ، ذلك لأنه ما زالت هناك معايير مختلفة فى معاملة الأولاد والبنات ، فالأب ينظر إلى ابنه على اعتبار أنه قادر على مواجهة الحماقات التي يرتكبها فى مستهل شبابه .

ولنفس هذا السبب ، لا يستبد الذعر بالأب عند هروب ابنه الأكبر من البيت . فإذا كان الفتى صعب القياد ، وكان قد بلغ السادسة عشرة أو تجاوزها وقت هروبه ، فإن والديه قد يعتقدان أن من الأفضل له أن يشق طريقه بنفسه ، لاسيما إذا كانت الأسرة لا تؤمن بقيمة التعليم العالى . وإنى لأذكر مدى تأثرى أيام كنت فى البحرية ، عندما تبينت الطريقة التي انتقل بها بعض مرضاى — الذين ينحدرون من أسر تقطن المناطق الجبلية — من مرحلة المراهقة إلى طور الرجولة . فأحد هؤلاء الفتية مثلا وجد نفسه فى حوالى سن السادسة عشرة يرفض بغضب تنفيذ أوامر أبيه . وعندما هم أبوه بضربه ذات مرة كى يعطيه درساً فى الأدب ، إذا بالفتى دون سابق تفكير يلكم أباه فيوقعه على الأرض . إذ ذاك أدرك أنه قد كبر إلى الحد الذى لا يستطيع معه البقاء فى البيت تحت سيطرة والديه . ولهذا هجر البيت ، ثم انطلق للبحث عن عمل فى مكان آخر .

أما فى الأسر ذات المستوى الثقافى الرفيع ، فإن شعور الأبناء بالمنافسة مع

آبائهم قد لا يسبب متاعب عائلية بصورة سافرة ، لكنه غالباً ما يؤثر فى تقدم المراهق فى حياته المدرسية. فهناك مثلا شاب فى المدرسة الثانوية أو الكلية الجامعية ، يتمتع بمستوى جيد من الذكاء ، وكان فى الماضى يبدى الكثير من الطموح والتعاون فى حياته الدراسية ، لكنه قد يبدأ على حين فجأة فى إثارة الجدل مع مدرسيه أو يحاول استفزازهم ، أو قد يهبط مستواه هبوطاً ملموساً فى معظم المواد الدراسية . وفى حديث ودى بينه وبين معلمه ، قد يعبر هذا الشاب عن أسفه الشديد لما آلت إليه حالته ، قائلا إنه لا يدرى ماذا جرى له ، ولكنه يشعر بأنه عاجز عن أداء عمله فى همة وحماسة . وهناك شاب آخر يدل سلوكه العام على أنه يبذل قصارى جهده ، ويهتم اهتماماً شديداً بعمله ، لكنه فى الواقع لم يعد قادراً على تركيز انتباهه على دروسه ، أو لم يعد قادراً على فهم مادة معينة من المواد الدراسية . فى مثل هذه الحالات ، قد يتضح شيئاً فشيئاً أثناء عملية التحليل النفسى أن بعض المتاعب التى يعانيها الشاب إنما ترجع إلى بعض نواحى المنافسة مع أبيه الكامنة فى أعماق عقله الباطن (والتى ترجع جذورها إلى مرحلة الطفولة المبكرة) . فمن الجائز أن يكون هذا الشاب — دون أن يعى — متمرداً على سلطة أبيه أو على الخطط التى يرسمها له أبوه ، وقد يكون خائفاً ألا يحقق من النجاح فى الحياة ما حققه أبوه ، أو خائفاً من أن يتفوق على أبيه ، مما قد يثير سخطه وحنقه عليه .

* * *

لقد اعتدنا أن نركز اهتمامنا على ثورة الأبناء ضد آبائهم ، على حين أن هذه الثورة ليست إلا مقدمة للمشكلة الصعبة التى تجابه الشباب ، مشكلة اكتشاف نوع الشخصية التى يريد الشاب أن يكونها عندما يبلغ مرحلة الرشد . ما هو نوع العمل الذى يرغب فيه ؟ ما هو نوع اتجاهاته واهتماماته فى المستقبل ؟ ما هو نوع الزوجة التى سينشدها شريكة لحياته ؟ هذه هى مشكلة الشخصية التى قام

إريك إريكسون بالـكثير من الدراسات من أجل توضيحها والتى هى موضوع ، كتابه « لوثر الصغير » .

فبالنسبة لعدد كبير من الشباب ، لا تكون عملية اختيار الشخصية الملائمة ، مجرد انتقال مريح سهل من موقفهم القديم إلى موقف جديد واضح المعالم ، وإنما هى أشبه بعاصفة متقطعة فى مشاعرهم ، تستمر عدة سنوات . فالمراهق فى هذه الفترة يريد أن يحرر نفسه من سلطة والديه ، حتى يتسنى له أن يصبح إنساناً راشداً مستقلا له أثره وفاعليته . لـكنه فى نفس الوقت يشعر بأنه قطعة من والديه ، لا من ناحية لحمه ودمه فحسب ، وإنما أيضاً من ناحية مثله وميوله وأسلوبه العام فى السلوك ، لهذا يجد نفسه مضطراً إلى تحطيم بعض المقومات الأساسية لشخصيته الأولى ، ثم ينتهى به الأمر فى معظم الحالات إلى الإحساس بأنه قد حصل على كفايته من الحرية ، وحصل على كفايته من الثقة فى قدرته على انتقاء مقومات الشخصية التى تناسبه (حتى ولو كانت من وحى والديه) ثم إعادة تنسيق هذه المقومات والتوفيق بينها ، بحيث تتلاءم مع نوع الحياة التى اختارها لنفسه فى عالم الـكبار .

وأثناء هذه العملية البطيئة تكون مشاعره مضطربة ومتقلبة ؛ إذ تتوالى عليه نوبات من التحمس السريع (لأصدقاء غير مناسبين له فى الغالب) ، ونوبات من وهن العزيمة ، والحيرة الأليمة ، والغضب المفاجىء .

ويحاول المراهقون بطريقة غريزية أن يجربوا أنماطاً مختلفة من الشخصيات (بما فى ذلك الشخصيات المستهجنة) وكأنها ثياب يقيسونها على أنفسهم ، بحثاً عن الثوب الملائم ، الذى يضفى عليهم المظهر الخلاب ، ويبعث فى نفوسهم شعوراً بالرضا ، لذلك يوجد عندهم فى هذه المرحلة إحساس أليم بذاتيتهم ، إذ

يسائلون أنفسهم دائماً ما إذا كانت الشخصيات التى يتقمصونها قد أتت بالتأثير المقصود على الناس ، أم أنها قد أحدثت أثراً مضحكا يبعث على السخرية . وهم كذلك يسعون دائماً إلى عقد صداقات جديدة مع الفتيان والفتيات ، ويتخلون عن الصداقات القديمة ، لا لأنهم يتسمون بالغدر وتقلب الأهواء ، بل لأن هناك تغييرات ضخمة تحدث فى أعماق نفوسهم على مدى فترة وجيزة من الزمن .

وهناك بعض المراهقين تستبد بهم الحيرة أثناء بحثهم عن « ذات جديدة » ، لدرجة أنهم يشعرون بخوف رهيب من فقدان ما لديهم فعلا من شخصية هزيلة. لذلك فإنهم قد يتحولون فجأة ، وبطريقة محمومة ، نحو الدين والاستغراق فى العبادة ، أو قد يحدث لهم انهيار عصبى خطير .

ولقد بين إريكسون أن بعض المراهقين يصممون تصميما قاطعاً على مخالفة اتجاهات آبائهم ، ومع ذلك تستبد بهم الحيرة بشأن تحديد اتجاهات أخرى بناءة بدلا منها. لهذا يستقر بهم الأمر مؤقتاً على انتهاج أسلوب فى السلوك يتناقض تماماً مع ما يتوقعه منهم آباؤهم . فهناك فتى نشأ فى أسرة محافظة ، يتباهى بتحرره من العرف والتقاليد . وهناك فتاة نشأت نشأة قويمة ، تهرب من البيت ، وتختلط بنساء سيئات السمعة . فالمراهق يناقض فى عناد جميع تفصيلات أسلوب التربية التى نشأ عليها . لكنه ينتهج الأسلوب الشائع بين أقرانه من المراهقين ، حتى يحس أنه ينتمى إلى جماعة ما .

إن تكوين العصابات ، كما يقول إريكسون ، قد يكون متنفساً وملاذاً يلجأ إليه بعض الشبان الذين ينتمون إلى الأقليات المضطهدة التى وفدت حديثاً على المدن الأمريكية ، والتى تتعرض للاحتقار والتمييز العنصرى . فآباء هؤلاء الشبان يجدون عادة صعوبة كبرى فى التكيف مع البيئة الجديدة التى نزحوا إليها ،

من حيث النجاح فى ميدان العمل ، ومن حيث المحافظة على العلاقات الوثيقة بين أفراد الأسرة فى جو من الهدوء والطمأنينة . لذلك فإن أبناءهم لا يوجد عندهم حافز قوى يدفعهم إلى تقمص شخصيات آبائهم فى زهو وكبرياء . لكنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون أن يتمثلوا جيداً الحضارة الأمريكية السائدة فى المدن التى تنبذهم . ولهذا السبب يقوى لديهم الحافز إلى التكتل فى عصابات ، حيث يمكنهم أن يشعروا بالاحترام والتفاهم فيما بينهم ، ويكتسبوا شعوراً بالانتماء ، ويتعلموا التعاون فيما بينهم . وهو اتجاه سوىٌّ من حيث المبدأ .

وتكوين العصابات ليس إلا صورة متطرفة من صور تكتل المراهقين فى جماعات متماسكة . فهم فى هذه المرحلة يحاولون تحرير أنفسهم من الاعتماد على آبائهم . لكن حضارتنا الأمريكية لا تعترف بهم فى هذه السن كأعضاء ناضجين عاملين فى مجتمع الكبار ، لذا فإنهم يؤكدون انعزالهم عن بقية الجماعات التى تختلف عنهم فى السن ، بارتداء ثياب من طراز خاص بهم ، وباتباع أساليب خاصة فى اللهو ، بل وحتى استخدام مصطلحات خاصة بهم . وهم بهذه الأساليب يقاومون إحساسهم بضعف الشخصية ، ويدعمون فرديتهم فى فترة الانتقال من المراهقة إلى الرشد .

* * *

ومما يفيد آباء الأطفال العاديين — فى اعتقادى — أن تكون لديهم فكرة عن العواصف التى قد تهدر فى أعماق أطفالهم فى هذه السن حتى يعرفوا كيف يهدونهم سواء السبيل .

فكفاح المراهقين من أجل الحصول على الاستقلال لا يعنى مطلقاً أن يكف الآباء فجأة عن توجيههم توجيهاً حازماً . فالمراهق لا يحارب والديه بقدر ما يحارب

اعتماده عليهما الراسخ فى أعماقه . وهو فى حاجة لأن يعرف اتجـاهات والديه ، حتى يصبح فى موقف أفضل ، يتيح له أن يحدد اتجاهاته الخاصة . وهو بينه وبين نفسه يستمد العزيمة من والديه ، حتى تتربى عزيمته الخـاصة . فكل المراهقين يعترفون باحتياجهم ورغبتهم فى التوجيه والإرشـاد ، ولو أنهم قلما يصرحون بذلك لآبائهم وأمهاتهم . على أن الآباء يجب أن يبدوا استعداداً معقولا لمناقشة مختلف المشكلات مع أطفالهم . ومن المهم أيضاً أن يظهروا ثقتهم الكاملة فى أخلاق أطفالهم ، حتى وهم يضعون لهم قواعد محددة بشأن ارتياد الحفـلات ومقابلة الصديقات .

ومعرفة الأم بأن قسوة ابنتها عليها إنما هى تعبير عن الشعور العادى بالمنافسة ، لا تعنى أبداً أن تستسلم لها ، لأن هذا الاستسلام يثير عند البنت شعوراً بالذنب ، ويدفعها إلى مزيد من الاستفزاز . ومهما يكن من أمر ، فإن الأب ينتمى ، من الناحية العاطفية إلى الأم لا الابنة ، ومن ثم فليس هناك أدنى ذنب جنته الأم ، يدعوها إلى الاعتذار لابنتها ، أو الاستسلام لها . فالأم تدفع عملية نمو ابنتها واستقرارها النفسى ، بأن تتوقع منها السلوك المهذب والتعاون فى شئون البيت .

والأب الصالح لا يبتعد عن ابنته المراهقة ، فهى فى حاجة إلى صـداقته ، واستحسانه لها ، واهتمامه بشئونها . لكنه يساعدها على الاستقلال والنضج بأن يتخلى عن أساليب التدليل التى اعتاد أن يعاملها بها فى المراحل السابقة . كما أن عليه بالطبع أن يتحاشى الوقوع فى الفخ الذى قد تنصبه له الابنة لا شعورياً ، فتحاول أن تعقد معه حلفاً وثيقاً تستبعد منه الأم ، أو أن تستغله لإغاظة أمها وتقويض سلطتها . فالواقع أن الابنة حين تلمس فى جلاء ووضوح أن العلاقة بين أمها وأبيها تقوم على الاحترام والتفانى المتبادلين ولا يمكن هدمها بأى حال ،

فإن هذا سيساعدها على إقامة حياة زوجيــة سعيدة ، وينمى ثقتها بنفسها وثقتها ببناتها مستقبلا .

وغنى عن البيان أن دور الأب فى تربية الغــلام أثناء مرحلة المراهقة ، أهم كثيراً من دوره فى تربيتــه أثناء مراحل الطفولة السابقة ، ذلك أن الأم كانت تستطيع فى المراحل الأولى أن تفرض أوامرها عليه ، من حيث نوع الثياب التى يرتديها للذهاب إلى المدرسة ، ومن حيث موعد عودته إلى البيت ، وكيفية معاملته لأخواته . أما الآن وقد اقترب من طور الرجولة ، فإنه يحس أن أمه منفصلة تماماً عن التقاليد والعادات المتبعة فى عالم الرجال ، ويحس أيضاً أنه من غير اللائق ، بل ومن المهين له ، أن يتلقى منها الـكثير من التوجيه . ولـكى يحـدث هذا التحول فى مصدر السلطة ، فإن الأب الذى اعتاد فى الماضى أن يترك معظم مهمة تهذيب الطفل لزوجته ، لا ينبغى أن يستمر مبتعداً عن مشـكلات التهذيب والنظام ، ثم يتدخـل بعد ذلك ، فينقض القرارات التى تتخذها زوجته ؛ إذ لا بد له أن يتدخل منذ البداية ، ويقوم بدوره القيادى ، بمجرد نشوء المشـكلات .

هناك سبب آخر هام يدعو الأم إلى عدم القيام بدور التأديب بالنسبة لابنها فى هذه المرحلة ، ذلك أن الغلام فى هذه السن قد يميل لأن يصب على أمه الشعور بالعداء الذى يحسه عادة نحو أبيه ، لـكن بعض الأمهات قد يصعب عليهن التخلى عن دور السيطرة على أولادهن ، فيتصرفن معهم بطريقة تثير غيظهم . وفى مثل هذه الحالات تحتدم دائماً المناقشات والمنازعات الصاخبة بين الأم وابنها ، كلما اجتمعا معاً فى البيت. وهذه المناقشات تحتدم فى سرعة خاطفة، بحيث يصعب على الأب التدخل بينهما . ولهذا يجب أن تبذل الأم قصارى جهدها لتفادى الجدل مع ابنها حول موضوعات يستطيع زوجها أن يعالجها بطريقة أفضل .

(لكنها بطبيعة الحال لا ينبغى أن تستسلم للوقاحة واللوم من جانب الغلام) .
وعلى الوالد أن يسارع فوراً إلى حسم المشكلات التى يثيرها الابن ، وأن يزجره إذا استدعى الأمر ، لأنه بهذا الأسلوب يجنب الأم مؤونة الدخول طرفا فى النزاع . والأهم من ذلك أنه يخلق عند الغلام شعوراً واضحاً بأن معظم المشكلات التى يتعين عليه حلها فى ميدان الحياة ، ستكون مع جنس الرجال ، وأن هذه المشكلات لن تكون عسيرة الحل إذا أدركها على حقيقتها .

لماذا ازداد الانحراف ؟

«لقد تراخت معايير السلوك وظهر عدد من الاتجاهات التى تبعث على الانزعاج» .

إن السؤال الذى يلح علينا اليوم بشأن مشكلة الانحراف هو : « لماذا زادت نسبة الانحراف زيادة مطردة منذ أيام الحرب ؟ »

تقول فئة قليلة من المتخصصين : إنه ليس ثمة ما يدل على أن نسبة الانحراف قد ازدادت عن ذى قبل ، وهم يعتقدون أن هذه الزيادة الظاهرية ، قد ترجع إلى ازدياد إحساس الرأى العام بالمشكلة ، وإلى ازدياد نشاط رجال الشرطة والمؤسسات الاجتماعية والمعلمين . كذلك من المعتقد أن الزيادة المطردة التى سجلتها الإحصائيات فى نسبة الإصابة ببعض الأمراض العضوية والعقلية إنما ترجع جزئياً إلى تقدم الطب فى تشخيص الأمراض ، وإلى زيادة الدقة فى وصف أعراضها .

والواقع أن تشدد رجال الشرطة من العوامل المؤدية إلى هذا الارتفاع فى إحصائيات الانحراف ؛ ذلك لأنهم يقدمون المنحرفين إلى محاكم الأحداث ، بدلا من الاكتفاء بتوجيه اللوم إليهم. وكلما ازداد انزعاج الرأى العام والصحافة ، ازداد الضغط على رجال الشرطة لتشديد العقاب ، على أنه من المحال بالطبع أن نعقد مقارنة دقيقة بين إحصائيات الانحراف فى السنوات المختلفة أو فى المناطق المختلفة ، لأن القوانين تختلف من منطقة إلى أخرى ، وتتغير من وقت إلى آخر ، وتتفاوت طريقة تنفيذها تفاوتاً كبيراً .

ومع ذلك فإن معظم الخبراء يعتقدون أن نسبة الانحرافات قد زادت بالفعل

زيادة كبيرة فى السنوات التى أعقبت الحرب . على أن أحداً منهم لم يتوصل إلى دليل قاطع بشأن الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة . فالمحك الوحيد هو الإحصائيات .

بيد أن بعض الأرقام التى ترد فى هذه الإحصائيات ، تقدم إلينا مادة تدعو إلى الكثير من التأمل ؛ فمن الملاحظ أن نسبة الانحراف تبلغ الحد الأقصى فى المدن الكبرى . ومع ذلك فقد كانت الزيادة « النسبية » أسرع فى المدن الصغرى فى السنوات الأخيرة .

وقد نعتقد أن هذه الزيادة فى نسبة الانحراف ، مشكلة تنفرد بها أمريكا . ولكن الواقع أن معظم دول أوربا قد مرت بهذه المشكلة . كما أن روسيا بها عدد من المنحرفين لا يكشف عنه النقاب ، ولكن الصحافة الروسية قد ضجت بالسخط فى السنوات الأخيرة من انتشار العصابات ، حتى بين أبناء الموظفين الرسميين وأصحاب المهن .

* * *

تشير الإحصائيات إلى وجود ارتباط بين مشكلة الانحراف وبين الحالة الاقتصادية فى الدولة ، فالانحرافات تزداد فى سنوات الرخاء وتتناقص فى سنوات الكساد . وليس فى وسعنا إلا أن نخمن مغزى هذه الظاهرة . فى اعتقادى أن الأسر تتماسك فى ثبات واتزان تحت ضغط الأزمات العصيبة ، وأن المخلوقات البشرية تبذل عادة قصارى جهدها عندما يواجهها تحد معين فى ميدان الحياة ، ما دام هذا التحدى لا يغلبها على أمرها . أما عندما يأتى المال سهلا ، فإن القيود تتراخى ، وتقل سيطرة الإنسان على نفسه . وهكذا ينصرف كل فرد فى الأسرة إلى متابعة اهتماماته ومصالحه الخاصة . بل إن الآباء أنفسهم فى مثل هذه

الظروف ، قد لا يضربون مثلا أعلى فى التفانى فى خدمة أسرهم ، كذلك يصعب عليهم السيطرة على أبنائهم المراهقين فى حزم ، عند ما يتسنى لهؤلاء الأبناء أن يكسبوا فى وقت الفراغ كفايتهم من المال ، بحيث يصبحون شبه مستقلين عن آبائهم من الناحية المادية .

هناك عامل آخر يلعب دوره فى هـذه المشكلة ، عند ما يبلغ الرخاء مستوى لم يبلغه فى أى وقت مضى ، ذلك أن الملايين من الآباء يربون أطفالهم فى ظروف تختلف اختـلافاً ملحوظاً عن الظروف التى نشأوا هم فيها . فهؤلاء الآباء قد اضطرتهم ظروف الحاجـة فى طفولتهم إلى تكريس جانب كبير من وقتهم للقيام بعمل أساسى فى البيت أو المزرعة ، كما اضطرتهم إلى ارتداء ثياب قديمة بالية ، وإلى الاستغناء عن اللعب ، وإلى عدم التبذير فى شىء على الإطلاق ، وإلى تخصيص جانب من أجورهم للمساهمة فى نفقات الأسرة عند ما نزلوا إلى ميدان العمل ، لذلك فإنهم حين ينشئون أطفالهم فى ظروف اقتصادية مختلفة ، لا تتطلب شيئاً من هذه الالتزامات والمسئوليات ، قد تعتريهم الحيرة فى تحديد نوع الواجبات والالتزامات التى يتطلبونها من أطفالهم ، وقد ينتهى بهم الأمر إلى مطالبتهم بأقل القليل . والواقع أن بعض هؤلاء الآباء يميـلون أحياناً إلى الإغداق على أطفالهم بالهدايا والمزايا ، التى لا يحتاجون إليها ، بل ولا يطالبون بها ، كما لو كانوا يحاولون بهذه الوسيلة أن يعوضوا فى شخص أطفالهم ما لاقوه هم من حرمان فى طفولتهم المبكرة .

هناك عامل ميكانيكى بحت لعب دوراً كبيراً فى تحرير الشباب من سيطرة الآباء ، سواء من الناحية العملية أو الأخلاقية ، ذلك هو تضاعف عدد السيارات فى هذه الأيام ، فإنى عنـد ما أتأمل مدى سهولة الحصول على السيارات ، التى

تتيح للشباب فرصة الابتعاد عن رقابة الوالدين ، وإرضاء شهوة الظهور ، واصطحاب الفتيات ، والهروب من البيت ، وارتكاب جرائم الخطف والاغتصاب ، والابتعاد عن مسرح الجريمة ، عند ما أتأمل هذا كله ، أدرك كيف كانت وسائل الانحراف محدودة للغاية فى الأزمنة الماضية ، بالمقارنة مع هذه الأيام .

كما حدث تغيران آخران فى الحياة الأمريكية ، هما : هجرة السكان من القرى إلى المدن ، وعدم استقرار الأسر فى مكان واحد . فالأسر تنتقل من حى إلى آخر فى نفس المدينة ، كلما تحسنت ظروفها المادية ، وتهاجر من منطقة إلى أخرى بحثاً عن أعمال أفضل . كما أن الشركات تنقل موظفيها من مكان إلى آخر . وهذه الظاهرة التى أصبحت شائعة جداً فى هذه الأيام ، كانت تعتبر أمراً شاذاً لا يقبله العقل فى الأجيال السابقة .

وليس هناك كبير شك فى أن أحد العوامل التى تجعل الآباء يحرصون على سلامة سلوكهم وسلوك أطفالهم ، هو رغبتهم الطبيعية فى اكتساب سمعة طيبة بين الجيران . فإذا كان الآباء لا يحرصون فى قرارة نفوسهم على انتهاج السلوك السوىّ ، ولا يتوقعون البقاء طويلاً فى الحىّ ، أو إذا كانوا يعتقدون أن معظم الجيران لن يطيلوا المكث فيه ، أو إذا كان الجيران من الكثرة بحيث يجهل بعضهم بعضاً ، فإن الآباء لن يحرصوا فى هذه الحالة على اكتساب سمعة طيبة فى الحى .

وبنفس الطريقة نجد أن الرحالة ورجال القوات المسلحة عند ما يبتعدون عن موطنهم الأصلى ، يتغاضون غالباً عن بعض قواعد السلوك التى اعتادوها فى مسقط رأسهم . وإنى لأذكر أن أستاذاً جامعياً اتصف بالمثالية ، قد روى لى كيف أنه ، عند ما اشترك فى غزو بلاد الأعداء ، كجندى فى الجيش أثناء الحرب

العالمية الثانية ، كان يجد متعة فى تحطيم واجهات المحال وسرقة بعض الأشياء النافعة ، دون أن يحس بوخز الضمير ، أو الرادع النفسى ، الذى كان من الممكن أن يردعه عن مثل هذا التخريب ، أو يبعث فى نفسه شعوراً بالشقاء ، لو أنه كان فى موطنه الأصلى .

كما أن هذا الانحلال الخلقى الذى ينشأ عن ابتعاد الفرد عن أقربائه وجيرانه ، يمكن أن نلمسه بصورة مجسمة فى ارتفاع نسبة الجرائم بين العزاب الذين ينزحون إلى المدن الصناعية بحثاً عن العمل .

ومن النتائج المقلقة غير المتوقعة التى ترتبت على تنفيذ مشروعات التعمير والتوسع فى المدن ، ازدياد نسبة الانحراف زيادة مؤقتة بين أفراد الأسر التى اضطرت — عند ما هدمت بيوتها القديمة — إلى الانتقال من أحيائها الأصلية إلى أحياء أخرى ، وكذلك بين أفراد الأسر التى قدمت للسكنى فى البيوت الجديدة ، حيث لا توجد لها جذور أو روابط اجتماعية فى بادىء الأمر .

* * *

لكنى أعتقد أننا عند ما نبحث عن أسباب تزايد الانحراف فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، لا ينبغى أن نقصر البحث على العوامل المؤثرة فى هذه الفترة وحدها ، فهناك عوامل أخرى بدأت قبل الحرب بأمد بعيد ، وقد يكون لها أثرها حتى الآن .

فقد دعت الحرب العالمية الأولى الملايين من الرجال إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية ، كما دعت الملايين من النساء للنزول إلى ميدان العمل فى المصانع ، تحدوهم جميعاً آمال كبار فى إنقاذ العالم من الدمار . غير أن الحرب ، والآثار التى خلفتها ، كانت مخيبة للآمال ، لذلك تميز العقد الثالث من القرن العشرين بموجة

من الشك والسخرية ، لم يسبق لها مثيل فى هذا البلد ، فاتجه الأدب نحو الواقعية القاسية الخشنة . وعمد الروائيون فى رواياتهم إلى رسم شخصيات ظاهرها التقى والورع والأخلاق الحميدة ، وباطنها السوء والشر والنفاق . وراح كتاب السير والتراجم يحطون من قدر أبطال التاريخ ، كما أن التعديل الدستورى الخاص بتحريم المشروبات الروحيـة ، قد قوبل بموجة من الهزء والسخرية ، مما شجع الناس على الاستهانة بكل القوانين . وفى تلك الأعوام أصيبت بعض مظاهر المثالية والبراءة الأمريكية بضربات فى الصميم ، لم تفق منها تماماً حتى يومنا هذا . كما أن نتائج الحرب العالمية الثانية ، كانت مخيبة لآمال الشباب ، لاسيما وأن الحرب الـكورية جاءت فى أعقابها مباشرة ، وازداد التوتر الدولى . ومع ذلك يمـكن القول بأن الانحلال الاجتماعى الذى أعقب الحرب العالمية الثانية كان بدرجة أقل من الانحلال الذى أعقب الحرب العالمية الأولى . وربما كان السبب فى ذلك هو أن الناس لم يعقدوا قط آمالا كباراً على الحرب العالمية الثانية ، مثلما فعلوا أيام الحرب العالمية الأولى . ومما لاشك فيه أن نسبة معينة من انحرافات الشباب اليوم ، إنما ترجع إلى شعورهم بأن من حقهم التمتع بشىء من الحرية والانطلاق قبل أن يخضعوا للنظام العسكرى الصارم .

وقبل عام ١٩١٨ كان الآباء ورجال الدين هم الذين يصوغون مُثل الشباب ، دون أن تنازعهم فى ذلك قوى أخرى لها أثرها . أما بعد عام ١٩١٨ فقد ظهرت عدة عوامل أخرى بدأت تشارك الآباء ورجال الدين فى هذه المهمة بصورة متزايدة . من هذه العوامل السينما ، والإذاعة ، والأدب الشعبى ، والإعلانات ، وهى بطبيعة الحال تقدم للشباب أفكاراً مختلفة تمام الاختلاف عن أفكار آبائهم ورجال الدين . أضف إلى ذلك أن الآباء أنفسهم قد واجهوا فى هذه المرحلة مفاهيم جديدة بشأن نمو الطفل ، حتى لقد أثرت هذه المفاهيم على البعض منهم ،

بحيث فقدوا شيئاً من حزمهم وثقتهم بأنفسهم ، التى كانوا فى مسيس الحاجة إليها أكثر من أى وقت مضى ، كى يوجهوا أطفالهم التوجيه السليم فى هذه الأزمنة المقلقلة المضطربة .

* * *

بالإضافة إلى ما سبق مناقشته من اتجاهات اجتماعية ، ينبغى أن نضع فى اعتبارنا التيارات المتغيرة التى تؤثر فى جميع شئون بنى البشر . فأزياء الثياب لم تثبت على حال فى وقت من الأوقات ، حتى قبل ظهور دور الأزياء المنظمة التى تقوم اليوم بتوجيه الموضة . وفى تاريخ الموسيقى والعمارة والأدب ، نجد أن الاتجاهات الفنية قد تغيرت وتبدلت مراراً وتكراراً ، ما بين القيود الكلاسيكية ، والانطلاق الرومانتيكى فى عالم الخيال . كذلك تتابعت مراحل القوة والضعف بالنسبة للعقائد الدينية والتزمت الأخلاقى .

فعندما يظهر اتجاه جديد فى أى ناحية من نواحى الحياة ، فإنه يظل فترة من الزمن يكسب له أنصاراً ومؤيدين ، ويزداد قوة شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغ مداه آخر الأمر ، فيسأمه الناس ، أو يثوروا عليه أو ينزعجوا منه ، حسب طبيعته . ومن ثم يبدأ رد الفعل ضده .

وإنى أعتقد أن أحد الجذور العميقة التى نشأ عنها الانحراف الشديد فى هذه الأيام ، يمتد إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ؛ إذ يرجع إلى قرب نهاية القرن التاسع عشر ، عندما حدث رد فعل شديد ضد اتجاهات العصر الفيكتورى ؛ ففى ذلك العصر كانت معايير السلوك المتعارف عليها ، متزمتة إلى درجة أليمة . فقد حاول الناس جميعاً فى تلك الفترة أن يتجاهلوا وينكروا جميع النواحى البدائية فى طبيعة الإنسان ، لذلك كانت آداب السلوك تتسم بالطابع الرسمى ، وكانت

الثياب قاتمة يغلب عليها طابع الحشمة . وكان المفروض أن النساء يمثلن البراءة والتواضع والرقة ، إلى جانب احترامهن الزائد وخضوعهن لأزواجهن . وكان المفروض أن الوالدين — اللذين يربطهما رباط وثيق لا ينفصم مدى الحياة — يضربان المثل الأعلى فى السلوك القويم ، فهما دائماً على صواب ، لمجرد أنهما الوالدان . وكان المفروض فى الأطفال أن يكونوا آية فى الأدب والأخلاق الحميدة ، دون مراعاة للمشاعر العادية عندهم ، كالطمع والعناد والغيرة والغضب أو الفضول الجنسى .

ثم حدثت ثورة عارمة على كل هذه القيم . ولم تستمر هذه الثورة فحسب ، بل لقد ازدادت عنفاً على مر الأيام حتى يومنا هذا . فمن الواضح الآن أن هناك اتجاهاً سائداً نحو التجرد من الرسميات فى السلوك والأزياء . كما أن وضع المرأة قد تغير تغيراً كبيراً جداً (ربما إلى الحد الذى أزعج كل من يهمهم الأمر) . وإن الارتفاع الخيالى فى إحصائيات الطلاق ليدل على أن هناك شيئاً خطيراً قد أثر فى مفهوم الزواج فى أذهان الكثير من الناس . وقد سجل تقرير كينسى ذلك التغير الذى طرأ على السلوك الجنسى لدى الراشدين والمراهقين على السواء . أما فيما يختص بتربية الأطفال ، فقد وصل رد الفعل فى بعض الحالات إلى الحد الذى تجاوز معه فكرة فهم الأطفال بقصد توجيههم توجيهاً حكيما ، إلى التهاون معهم أكثر من اللازم ، فى أسلوب يغلب عليه التهيب منهم ، أو عدم الاكتراث بهم .

قد تظنون أنى رسول ينذر بسوء المصير ، إذ أنبهكم إلى هذا الانحلال فى معايير السلوك وإلى جميع المؤثرات المقلقة التى سادت فى النصف الثانى من القرن العشرين . كلا ، ليست هذه هى الفكرة التى أستهدفها ، فهدفى المباشر هو أن أقدم بعض التفسيرات التى توضح الأسباب المؤدية إلى زيادة نسبة الانحراف .

فأنا أبين لكم أن هناك أسباباً عديدة محتملة لهذه الظاهرة ، حتى لا تعتريكم الدهشة أو الحيرة ، وحتى لا تهن عزائمكم وتفقدوا الأمل ، حين تجدون أن نسبة كبيرة من شبابنا تفوق المعتاد قد انحرفت عن الطريق السوى . والواقع أننا عندما نضع جميع العوامل فى اعتبارنا ، سوف نلاحظ أن نسبة الشباب الذى يتعلم فى المدارس اليوم أكبر منها فى أى وقت مضى ، وأن معظم هؤلاء الشباب يبذلون جهداً كبيراً فى دراستهم ، ويظهرون نضجاً واضحاً فى فهمهم للحياة ، بل إنهم يفوقون آباءهم وأجدادهم فى هذا المجال . لكنى لا أعنى بذلك أننا نبذل قصارى جهدنا لمساعدة شبابنا . وسوف أناقش هذه النقطة فى الفصول التالية .

على أن الهبوط الواضح فى بعض معايير السلوك ليس بالضرورة خسارة لنا . فالكثير من مُثل القرن التاسع عشر كانت مثلاً جوفاء عمياء زائفة ، تعرقل الشباب أكثر مما تلهمه . وكان لزاماً علينا أن نصحح هذه المثل قبل أن نسير قدماً إلى الأمام . ولكن الشىء المؤسف حقاً هو أن ثورتنا على اتجاهات القرن التاسع عشر قد دفعتنا إلى التطرف فى بعض النواحى ، تماماً مثلما تدفع الثورة بعض المراهقين إلى الكفاح فترة من الزمن فى سبيل اتباع أسلوب فى السلوك يتنافى تماماً مع اتجاهات آبائهم . ونحن لا يمكننا بأية حال تجاهل التغييرات الصناعية والاجتماعية التى تؤثر على أسلوبنا فى الحياة . لكننا فى الوقت نفسه لا ينبغى أن نقبلها على علاتها فى سلبية تامة ، لذا يجب علينا أن نرقب الطريق الذى تجرنا إليه هذه التغييرات ، وأن نبذل جهوداً عاقلة للسيطرة عليها . وهذا يتطلب منا أن نضع لأنفسنا عدداً من المبادىء والعقائد الفعالة المثمرة — فى الناحيتين الروحية والعملية على السواء — التى تحدد لنا نوع المجتمع الذى نريد أن نخلقه لأطفالنا ، كما تحدد لنا الأسلوب الذى ينبغى أن نتبعه فى تربيتهم ، كى يحققوا أكبر قدر من الفائدة فى هذا المجتمع .

* * *

ولا يفوتنى أن أعبر عن بعض الآراء بشأن أساوب معاملة المراهقين ذوى الشخصيات السوية فى هذه الأزمنة المعقدة التى نعيش فيها . أعتقد أن إحدى المشكلات الشائعة اليوم هى أن بعض الآباء قد اعتراهم التردد فى تربية أطفالهم ، من جراء تغير العادات والتقاليد ، ومن جراء خوفهم أن يوصفوا بالشدة والتزمت والرجعية . وسرعان ما يكتشف المراهقون هذه الثغرة فى سلوك آبائهم ، فيحاولون فى كثير من الأحيان النفاذ منها ، كى يروا هل فى وسعهم تخفيف بعض القيود المفروضة عليهم . وهم يتعلمون بالمران كيف يصبون لومهم على آبائهم من خلال هذه الثغرة ، فيصيبون الهدف المنشود . وبالرغم من أنهم يتصرفون كما لو كانوا ينشدون التخلص من جميع القيود المفروضة عليهم ، فإنهم يحسون بالخوف ، إذا نجحوا فى التحرر منها . ذلك لأنهم فى الواقع يسائلون أنفسهم معظم الوقت عما إذا كان لديهم من الحذلقة ما يؤهلهم للقيام بأدوار الكبار . وهذا التردد الذى يعتمل فى نفوسهم ، قد يضطرهم إلى استئذان الوالدين بشأن الخروج مع أشخاص معينين ، أو بشأن زيارة أماكن غير مألوفة ، أو السهر إلى ساعة متأخرة من الليل . فإذا تردد الوالدان فى منحهم الإذن أو رفضا ذلك ، فإنهم يشرعون على الفور فى توجيه اللوم إليهما ، ذلك أنهم من ناحية المبدأ يرغبون فى الحصول على الإذن من الوالدين . أما إذا تعذر الحصول عليه ، فإنهم ينحون عليهما باللوم فى لهجة ثائرة ، لأنهم يريدون أن يخفوا عن أنفسهم شعورهم الدفين بعدم الثقة فى قدرتهم على السلوك المستقل . ولهذا فعلى الآباء والأمهات أن يتجاهلوا كلمات اللوم التى توجه إليهم ، ويحددوا موقفهم من كل مطلب يطلبه أبناؤهم على ضوء الظروف التى تحيط به .

ومن الظواهر الاجتماعية التى تفشت دون ضابط أو رابط فى هذه الأيام ، ظاهرة ارتباط الفتى بفتاة واحدة ارتباطاً ثابتاً فى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة . ولا يدرى أحد على وجه التحديد من أين نشأت هذه الظاهرة . فمعظم الآباء

والأمهات لا يشجعونها بطبيعة الحال ، لأن الغالبية العظمى من الفتيان والفتيات الذين يسيرون فى هذا الاتجاه ، لا يتوافر لديهم الاستعداد لمثل هـذه العلاقات العاطفية ، كما أنهم ليسوا على درجة كافية من النضج تؤهلهم لمثل هذا الاختيار المحدود فى مجال الصداقة . ومع ذلك فإن انتشار هـذا الاتجاه بين معظم الشباب قد دفع غيرهم من المراهقين الصغار الخجولين إلى اتباع نفس الأسلوب . وربما كان ذلك ناشئاً عن رغبتهم فى الشعور بالطمأنينة الاجتماعية فى الحفلات ، أو عن رغبتهم فى إثبات نجاحهم فى اكتساب الصديقات كغيرهم من الفتية . أما بالنسبة للآباء والأمهات ، فإن مشهد فتى وفتاة يراقصان أحدهما الآخر باستمرار طوال السهرة ، يبدو كما لو كان يفسد بهجة الحفلة ، إذ يقلقهم ثبات العلاقة بين فتى وفتاة لاعتقادهم أن هذه العلاقة تحرم كلا منهما من التعرف على الآخرين ، وقد تؤدى إلى خلق صلة وثيقة بينهما ، يمكن أن تكون لها فى المستقبل نتائج خطـيرة من الناحيتين العاطفية والاجتماعية . وفى اعتقادى أن الآباء والأمهات الذين يحسون بأن من الخطأ نشوء هذه العلاقات الثابتة بين الفتيان والفتيات فى سنى المراهقة المبكرة ، من حقهم أن يتدخلوا لمنع هذه العلاقات ، فى أسلوب يتسم باللباقة . وليس من الضرورى أن يظهر الوالدان استخفافاً بعلاقة ابنهما العاطفية ، أو شعوراً بأنه يفتقر إلى النضج . فالواقع أنه ينبغى عليهما التظاهر بالسرور ، لأنه قد عثر على مثل هذه الصديقة الجذابة ، لـكنهما يستطيعان فى نفس الوقت أن يوضحا له أن مثل هذا الارتباط الوثيق بفتاة واحدة قبل الزواج بسنين طويلة أمر بعيد عن الحـكمة والصواب ، وأن يوضحا له أيضاً أن الفتيان لا ينبغى أن يعقدوا صداقات مع الفتيات إلا فى نطاق الجماعة .

وعلى الآباء أن يتتبعوا أنواع الأفلام التى تعرض فى دور السينما بالحى ، ويطلبوا إلى أطفالهم عدم مشاهدة الأفلام غير اللائقة . فى هذه الحالة ، حتى لو خالف

الأطفال سراً تعليمات آبائهم ، فإن هذه التعليمات سوف تنير أمامهم السبيل ، بحيث يمكنهم الحكم على هذه الأفلام حكما سليما .

ومن الأساليب السديدة المفيدة أن يعتاد الآباء الاستفسار من أطفالهم عن الرفاق الذين يصحبونهم فى الحفلات والنزهات، وأن يشتركوا فى وضع الترتيبات وتحديد المواعيد المناسبة لهذه الحفلات والنزهات . ومن الممكن أن تبدأ هذه العادة بطريقة طبيعية فى مرحلة المراهقة المبكرة ، بحيث يمكن الاستمرار فيها دون ما حرج أو ضيق لعدة سنوات ، حتى يثبت الطفل نضجه وقدرته على تدبير أموره بنفسه .

ويكاد يكون من المؤكد أن الأطفال سيحتجون أحيانا احتجاجاً شديداً على هذا التدخل ، قائلين : إنه ما من أحد غيرهم يعود إلى البيت فى هذا الموعد المبكر ، أو إن المكان الذى يريدون الذهاب إليه مكان محترم ، أو إن الشخص الذى سيقود السيارة من نسور الكشافة . على أن خير ما يمكن أن يفعله الآباء لصد هذا الهجوم ، هو مداومة الاتصال بأهالى أصدقاء أطفالهم ، ومناقشة مثل هذه المسائل معهم فى مجالس الآباء والمعلمين . وليس معنى هذا أن تحس أى أسرة أنها ملزمة باتباع الأساليب التى تسير عليها غالبية الأسر . ولكن من المفيد جداً الحصول على صورة واضحة عن الموقف بوجه عام ، عن طريق الاستماع إلى مختلف وجهات النظر ، ومعرفة الأساليب التى ينتهجها الآباء على اختلاف أنواعهم . ومن الأشياء التى تبعث على السرور والارتياح ، أن تجد معظم الآباء متفقين معك فى وجهة نظرك (على عكس ما يصوره لك أطفالك) وأن تجد الجميع مستعدين للاتفاق معك فى كثير من الأمور الهامة الخاصة بتربية الأطفال فى الحى . كما أن مثل هذا الاتفاق يدخل الراحة على نفوس الأطفال أنفسهم ، لأنه يطمئنهم إلى أنهم لن يشذوا عن السلوك العام ؛ بشكل يجعلهم موضع الهزء والسخرية بين أقرانهم .

علاج الانحراف

« هنالك الكثير من الجهل وعدم
الاكتراث ، ينبغى التغلب عليه » .

عند ما يضبط أحد الجيران — مثلا — شاباً أثناء ارتكابه عملا غير مشروع ، فإن هناك نتائج عديدة قد تترتب على ذلك . فإذا اكتفى هذا الجار بإبلاغ الوالدين ، فإنهما سيعالجان الأمر . أما إذا استدعى رجال الشرطة ، فإنهم قد يخلون سبيل الشاب بعد توجيه اللوم إليه ، أو قد يودعونه مؤقتاً إحدى الإصلاحيات أو السجون حتى يمثل أمام المحكمة . وفى حالة تقديمه للمحاكمة ، قد يرفض القاضى الدعوى ، أو يحكم بوضع الشاب تحت المراقبة ، أو يحوله للعلاج فى إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو غيرها من المؤسسات الاجتماعية. وقد يحكم القاضى بإيداعه أحد بيوت التبنى إذا كانت ظروف الأسرة سيئة ، أو يقضى بإرساله إلى إحدى الإصلاحيات .

وأسلوب معالجة الفتى أو الفتاة فى أى من هذه المراحل ، قد تكون له نتائج حسنة أو سيئة ؛ فالمراهق فى هذه السن يتحسس طريقه بحثاً عن تكوين شخصية راشدة ، وتتنازعه فى هذه المرحلة مختلف الدوافع والنزعات التى تتصارع فى نفسه . فشعور الابن بالمنافسة مع أبيه (والبنت مع أمها) ، يدفعه إلى التمرد على كل السلطات باعتبارها متعسفة ظالمة . لكنه فى نفس الوقت يتطلع لأن يعترف به الناس كعضو مكتمل النضج فى المجتمع . لهذا السبب قد يكون من السهل فى مرحلة معينة من مراحل المراهقة ، أن ندفعه فى اتجاه البناء أو فى اتجاه الهدم . وبناء على ذلك فإن الطريقة التى يعامل بها من جانب والديه ومن جانب رجال الشرطة ورجال القضاء وغيرهم من الناس ، قد تلين قلبه أو تقسيه .

وعند ما يكتشف الوالدان ، عن طريق الجيران أو عن طريق المدرسة

أو رجال الشرطة ، أن أحد أبنائهما متهم بارتكاب مخالفة ما (حتى ولو كانت هذه المخالفة مجرد سرقة بعض الكوبونات من درج طفل آخر) فإن هناك عدة قواعد سليمة ينبغى أن يسيرا على هديها فى هذه الحالة . لابد أولا أن يسمعا القصة من الطفل نفسه ، وأن يظهرا له ثقتهما بصدقه وأمانته ، إذا ما كانت قصته معقولة ومقنعة . ومن ناحية أخرى ، لابد أن يصرا على استخلاص الحقيقة كاملة منه ، ولا يتحرجا من الإلحاح فى السؤال حول الموضوع ، ولا يسمحا له بتضليلهما عن طريق إخفاء الحقيقة عنهما ، ذلك لأن الطفل إذا كان مذنباً بالفعل ، وأحس فى قرارة نفسه أن والديه يخافان اكتشاف الحقيقة المرة ، أو أنهما مستعدان للتجاوز عن ذنبه ، أو مستعدان للتستر عليه ، فإنه يعتبر هذا التصرف منهما بمثابة تصريح صامت له بالتمادى فى الخطأ ، مما يفسد ضميره ، ويسهل عليه ارتكاب مخالفات أخرى. لذلك يجب أن يصر الوالدان على أن يعتذر الطفل فوراً عن ذنبه ، وأن يعيد الشىء المسروق إلى صاحبه ، أو يعوضه عنه . وهذا لا يعنى إذلال الطفل (فالإذلال بلا داع ليس من الحكمة فى شىء) ، وإنما يعنى إقرار العدالة والحق . وفى الوقت الذى يوضح فيه الوالدان للطفل بكل جلاء أنهما يستنكران فعلته ويحظران عليه تكرارها ، لا ينبغى فى ثورة غضبهما عليه أن يتصرفا معه كما لو كانا ينبذانه تماماً كابن لهما . فمن الصواب أن نفترض وجود جانب خير فى نفس كل إنسان . وهذا الجانب الخير فى الطفل هو الذى يخاطبه الوالدان . فالواقع أن الشىء الوحيد الذى يعيد المذنب إلى طريق الخير والصواب هو حاجته الماسة إلى الاحتفاظ بحب أقرب الناس إليه . فإذا شعر الطفل المذنب أنه قد فقد هذا الحب إلى الأبد ، فإن اتجاهاته المعادية للمجتمع لا تلبث أن تنطلق على هواها ، وتتحكم فى سلوكه .

والخطوة التالية هى أن يحاول الوالدان فهم المعنى الكامن وراء المخالفة التى ارتكبها الطفل . فإذا اتضح أنها تدل فقط على قصور مؤقت فى قدرته على

الإدراك السليم ، وكانت هناك ظروف مخففة تعطيه بعض العـــذر ، وإذا كان الطفل ذا شخصية سوية بصفة عامة ، فليس هناك فى هذه الحالة ما يدعو الوالدين إلى التمادى فى بحث المسألة . أما إذا كانت هناك ذنوب أخرى فى حياة الطفل ، أو كانت هناك دلائل أخرى على أنه يعانى من اضطراب نفسى ، أو يستبد به شعور بالسخط ، أو يفتقر إلى وازع الضمير ، فلابد فى هذه الحالة من أن ينشد الوالدان مساعدة خارجية من معلميه بالمدرسة ، أو من إحدى المؤسسات الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، أو من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية.

* * *

تقدر الإحصائيات أن ٧٥ ٪ من الشبان الذين يقبض عليهم لارتكابهم بعض المخالفات ، تسوى مشكلاتهم بمعرفة رجال الشرطة أنفسهم ، دون أن يحجزوا فى القسم أو يقدموا للمحاكمة . لهذا فإن من المهم أن تكون لدى رجال الشرطة دراية كافية بالعوامل التى تؤدى إلى اختلاف أنواع السلوك عند الأطفال ، وأن تكون لديهم القدرة على التمييز بين أولئك الذين لايحتاجون إلى أكثر من اللوم والتوجيه ، وأولئك الذين يعانون من اضطرابات نفسية خطيرة ، حتى لا يحرروا المحاضر بلا سبب لأطفال ليس لديهم اتجاهات حقيقية نحو الانحراف . بل إن الأهم من ذلك أن يعرف رجال الشرطة كيف يؤثرون على الشباب تأثيراً إيجابياً فعالا . وإنى لأذكر غلاماً ينتمى إلى أسرة مضطربة ، قد قبض عليه ذات مرة لارتكابه مخالفة بسيطة . ومع ذلك فقد كان غلاماً ذا نوايا طيبة ، من النوع الذى يستجيب للثقة . ولـكن شرطى الحى ، على أساس هذه المخالفة الوحيدة التى ارتكبها الغلام ، دأب بعد ذلك على أن ينظر إليه بعين الشك والارتياب . وكلما ارتكبت جريمة سرقة أو غيرها من الجرائم فى الحى ، فإن هذا الشرطى كان يتجه فوراً إلى منزل الغلام ، ويكيل له الاتهامات ، ويحاول أن ينتزع منه اعترافا

بالقوة والتهديد. إن هذا الأسلوب لن يجدى نفعاً مع أى غلام ، مهما يكن نوعه. فالشرطى الذى يلجأ إلى التهديدات والشتائم ، ويفخر بأنه السيد المهيب فى الحى ، قد يبعث الخوف فى نفوس الفتيان المتهيبين . أما تأثيره فى الفتيان الأشداء فهو من نوع مختلف . إذ أنه يتحداهم بأسلوبه هذا ، فيدفعهم إلى محاولة تضليله والتفوق عليه فى الحيلة والدهاء ، كما يدفعهم إلى التكتل معاً لتحدى كل السلطات والقانون بصفة عامة .

أما الشرطى الصالح ، فهو الذى يعرف بين أهل الحى بأنه يدرك واجبه ، ويتسم بالحزم فى الحق . كما أنه فى نفس الوقت يحظى بحب الناس ، لأنه يؤمن بأن هناك ناحية خيرة فى نفوس الشباب جميعاً ، ويحاول أن يخاطب فيهم هذه الناحية الخيرة . لذلك يفخر فتيان الحى بصداقتهم له . وعن طريق احترامهم له ، يتربى عندهم احترام القانون .

والشرطى الصالح يقدم للمجتمع خدمات تساوى أضعاف المرتب الذى يتقاضاه . فهو بجهوده يقلل من النفقات المادية — والانفعالية — التى تتكلفها انحرافات اليوم وجرائم الغد . كيف يتسنى لنا إذن زيادة عدد رجال الشرطة الصالحين ؟ عن طريق منحهم المرتبات المجزية وتوفير جو الاحترام لهم ، مما يغرى الرجال الناضجين بالعمل فى هذا الميدان ، كذلك عن طريق إعطائهم دراسات تدريبية فى المسائل المتصلة بنمو الطفل وتطوره .

وبالنسبة للشبان الذين يستلزم الأمر حجزهم فى انتظار إجراءات محاكمتهم ، ينبغى أن تخصص لهم دور خاصة يحجزون فيها ، تصمم بطريقة لا تجعلها تبدو كالسجون ، وتتوافر فيها مجالات النشاط التى تشغل وقت فراغهم بطريقة بناءة ، كما تتوافر فيها أيضاً هيئة من الإخصائيين تتسم بالكفاية والإدراك السليم . بيد

أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر سوى عدد قليل جداً من الدور التى تتوافر فيها هذه المستويات ، حتى فى مدننا الكبرى حتى أنه فى مناطق كثيرة من الولايات المتحدة ، يودع الأطفال الذين سيقدمون للمحاكمة (ويصل عددهم إلى ٥٠٫٠٠٠ طفل فى السنة) فى سجون الكبار العادية ، إذ لا توجد أماكن أخرى لهم . وسواء أكانت عند الطفل اتجاهات خطيرة معادية للمجتمع أم لا ، فإن من الأشياء الضارة به أن نعرضه لوصمة السجن والارتباطات التى يخلقها جو السجون .

لقد أنشئت محاكم الأحداث — بمقتضى القانون — على أساس سليم ، وهو اعتبار الأطفال دون سن السابعة عشر غير مسئولين مسئولية كاملة عن تصرفاتهم وأفعالهم ، فهم حتى هذه السن يفتقرون إلى النضج والمعرفة والإدراك السليم وضبط النفس . وهم أيضاً تحت رحمة البيئة التى تحيط بهم فى البيت . كما أنهم ، باعتبارهم أجهزة بشرية فى طور النمو ، مازالوا قابلين لأن يتشكلوا إلى ما هو أحسن أو أسوأ من ناحية السلوك . ويجب ألا يوصموا علنا أمام الناس ، بوضع أسمائهم فى سجلات الشرطة والمحاكم . فأغلب الظن أنهم فى حاجة إلى التعليم والعلاج أكثر من حاجتهم إلى السجن والعقاب . ولا ينبغى أن يختلطوا بالمجرمين الكبار العتاة فى السجن ، لهذا كله فإن هدف محاكم الأحداث ليس هو توقيع العقوبة أو توجيه اللوم للطفل المنحرف ، وإنما هو تحديد نوع المشكلة التى أدت إلى انحرافه ، وتقرير ما إذا كان الأمر يتطلب تغيير ظروف البيئة التى تحيط به ، أو تغيير الأسلوب الذى يتبع فى تدبير أموره ، أو يتطلب نوعاً معيناً من التعليم أو العلاج النفسى . فإذا كان الطفل فى حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن محكمة الأحداث تعمل على تنفيذ العلاج المناسب له . ومن ثم يجب أن يكون القاضى على دراية لا بالقانون فحسب ، بل بسيكلوجية الطفل أيضاً . ويجب أن يساعده فى مهمته عدد من الإخصائيين الاجتماعيين المدربين ، للقيام ببحوث

وتحريات دقيقة عن حالة الطفل المنحرف قبل نظر القضية ؛ وللاشراف على تنفيذ القرارات التى تصدرها المحكمة . وينبغى أيضاً أن تضم هيئة المحكمة متخصصاً نفسياً وطبيباً للأمراض النفسية مختصاً بالأطفال ، أو على الأقل أن يكون مثل هؤلاء الإخصائيين رهن إشارة المحكمة لاستشارتهم فى حالات الانحراف .

والواقع أن كل هذه المزايا لا تتوافر إلا فى عـــدد قليل جداً من محاكم الأحداث ، فالقاضى نفسه قد لا توجد عنده المؤهلات الخاصــة التى تساعده على فهم الأطفال والتعامل معهم ، بل إنه قد يكون جاهلا بالقانون . وفى مثل هذه الظروف السيئة ، قد يحرم الطفـــل من حريته ومن أسرته ، ويودع فى ملجأ لا يناسبه على الإطلاق ، دون أن يستفيد من أية ميزة من الميزات التى يكفلها له قانون الأحداث ، ودون أن يتمتع بالحماية التى تكفلها له الضمانات القانونية التى تطبق فى المحاكم العادية . كما أنه فى كثير من محاكم الأحـداث ، لا يتوافر العدد الكافى من الاخصائيين والباحثين المدربين .

* * *

فضلا عن ذلك ، فإن وسائل العلاج المتاحة لقاضى محكمة الأحداث ، ليست متوافرة على الإطلاق . فالمؤسسات الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة والطفل ، تعجز أحياناً عن تقديم التوجيه والإرشاد الكافيين للآباء والأطفال . كما أنه من الصعب العثور على البيوت الصالحة للتبنى ، وهى ذات أهمية حيوية بالنسبة للأطفال المنحرفين ، عنـــدما تكون أسرهم فى حالة من الفوضى الشاملة . والأصعب من ذلك هو العثور على بيوت التبنى التى تستطيع فهم ورعاية الأطفال المتمردين . ثم إن عيادات توجيه الأطفال النفسية والعيادات النفسية الخاصة ، قليلة العدد ، بحيث لا تفى بالغرض المنشود .

ومن الضرورى عنـد ذكر العلاج النفسى للأطفال المنحرفين (والمجرمين الراشدين) أن نوضح مدى صعوبة هذا العلاج . وإننى أقول هـذا لأن بعض

الناس لا يعرفون شيئاً عن العلاج النفسى ، اللهم إلا عن طريق بعض المناظر السريعة التى شاهدوها فى الأفلام السينمائية أو برامج التليفزيون . لذلك فهم قد يتخيلون أن هذا العلاج عملية سهلة سحرية ، وأنه فى خلال عدد بسيط من الجلسات يتذكر المريض أحداثاً وخبرات لها دلالتها فى طفولته المبكرة ، ثم يلاحظ الطبيب الفطن العلاقة بين هذه الخبرات وبين أعراض المرض النفسى أو السلوك الشاذ عند المريض ، ويشرح له هذه العلاقة ، فيشفى المريض على الفور .

والواقع أنه حتى فى أحسن الحالات ، قد يتطلب العلاج النفسى تحديد جلسات مع الطبيب ، مرة كل أسبوع على الأقل ، لمدة عام أو عامين ، ذلك لأن الخبرات الماضية التى جعلت المريض على درجة خطيرة من سوء التكيف ، كانت أليمة على نفسه فى حينها ، ومن ثم فإن عملية تذكرها تكون أليمة كذلك . وسرعان ما يحس المريض بهذا الألم ، فيقاوم لاشعورياً عملية تذكر هذه الخبرات ، ولا تلبث نزعاته العدائية نحو الناس — التى تولدت عنده فى المراحل السابقة من حياته — أن تبدو فى سلوكه مع الطبيب أيضاً . وبعبارة أخرى ، فإن العلاج النفسى عملية بطيئة وشاقة ، بالنسبة للطبيب والمريض على السواء ، إذ لابد أن تتوافر لدى المريض الرغبة فى تحسين أسلوب حياته ، والاستعداد للاعتراف بأن جزءاً من مشكلته يرجع إلى خطأ كامن فى أعماق نفسه ، وليس نتيجة خطأ من جانب الآخرين . على أن الشاب المنحرف يكون فى العادة ثائراً ساخطاً على أبويه وعلى عالم الكبار بصفة عامة ، لذلك فإنه لا يرغب مطلقاً فى أن يرى تصرفاته الاستفزازية على حقيقتها ، ومن ثم فهو قلما يطلب العلاج النفسى من تلقاء نفسه . وعند ما يقترح عليه أحد زيارة الطبيب النفسى ، فإنه قد يرفض هذه الفكرة ، على اعتبار أنها حيلة أخرى من حيل الكبار لإلقاء اللوم عليه .

لكن الأمر لن يكون على هذه الدرجة من السوء ، إذا كان الشاب مهذب السلوك وحى الضمير أساساً ، لكنه تورط فى بعض المتاعب ، نتيجة ثورته على والديه فى فترة المراهقة ، أو نتيجة اضطراب فى اتجاهاته اللاشعورية ، ففى هذه الحالة ، يدرك الشاب — لا شعورياً — حاجته إلى المساعدة ، وتتوافر لديه القدرة على تنمية شعوره بالثقة بالطبيب المعالج ، بعد أن يجربه فترة من الزمن ، ويلمس منه فهماً صادقاً لمشكلاته . أما الشخص السيكوباتى الذى لم يشعر يوماً بأن أحداً يكن له الحب ، والذى لم يوجد عنده قط أى شعور بالمسئولية ، فإنه لا يرجى منه أمل كبير فى العلاج ، إذ لا يتوافر لديه الحافز لتغيير سلوكه ، أو حتى للمحافظة على مواعيده مع الطبيب . والواقع أن معظم الأطفال المنحرفين لا هم أوغاد استبدت بهم نزعة الشر ، ولا هم قديسون أساء الناس فهمهم ، فالغالبية العظمى منهم مصابون باضطرابات فى الشخصية ، تجعل مهمة علاجهم النفسى شاقة أكثر من المعتاد ، لذلك لا ينبغى أن ننظر إلى هذا النوع من العلاج على أنه دواء لكل داء .

* * *

هناك مشروعان قانونيان قد اقترحا مراراً ، كلما ساد الانزعاج بعض المجتمعات بشأن مشكلة الانحراف هما : حظر التجول على الشباب بعد ساعة معينة من الليل ، وسن قانون يجعل الآباء مسئولين من الناحية المادية عن جرائم السرقة والنهب التى يرتكبها أبناؤهم . ولقد أثبتت الخبرة الواسعة عدم فاعلية كل من هذين القانونين ؛ إذا يتضح عادة أن قانون حظر التجول يصبح مصدر ضيق للأسر التى ليست بحاجة إليه ، لكنها تضطر للاذعان له . وبالنسبة للشبان الذين أوشكوا على احترام القوانين ، فإن مثل هذا القانون يمثل ضرباً من ضروب عدم الثقة

بهم من جانب المجتمع ، مما قد يدفعهم إلى تحديه . أما بالنسبة للشبان الذين يحملون فى نفوسهم نزعات خطيرة معادية للمجتمع ، ولا يخضعون مطلقاً لسيطرة آبائهم ، فإن قانون الحظر لن يعدو أن يكون مجرد « نكتة » يتندرون بها .

أما من ناحية قانون المسئولية المادية ، فإن الآباء الذين يشعرون بالمسئولية ، يسارعون عادة من تلقاء أنفسهم إلى دفع التعويض المادى مقابل الأفعال المنحرفة التى يأتيها أطفالهم ، بغض النظر عن وجود أى قانون يلزمهم بذلك . أما الآباء الذين يعجزون عن السيطرة على أبنائهم حرصاً على مصلحتهم ومن أجل المحافظة على سمعة أسرهم ، فإنهم كذلك سوف يعجزون عن السيطرة عليهم من أجل تجنب الغرامات المالية ، فضلا عن أنهم فى غالبية الحالات لن يجدوا المال اللازم لدفع هذه الغرامات . كما أن أسوأ عيب فى قانون مسئولية الآباء عن انحراف أطفالهم ، هو أنه قد يصبح بمثابة حافز خفى يدفع الطفل إلى التمادى فى الانحراف بدلا من أن يردعه عنه ؛ ذلك لأن معظم المنحرفين يتمردون على سلطة آبائهم ، ويرغبون لا شعورياً فى إيذائهم .

* * *

وإصلاحيات الأحداث (دور التربية أو دور الكفالة) لا تعتبر من الناحية النظرية سجوناً للعقاب ، على الرغم من أنها قد تتميز ببعض مظاهر الحراسة وإجراءات الأمن . فالغرض الأساسى منها هو تقويم وإصلاح بعض المنحرفين ، الذين يقرر قاضى الأحداث عدم بقائهم فى بيوتهم ، إما لأنهم خطرون على المجتمع ، وإما لأن أسرهم وبيئاتهم لا تستطيع أن توفر لهم الظروف الملائمة للسلوك السليم . وهذا أمر يسهل قوله ، ولكن يصعب تنفيذه . فهناك فئة قليلة من الشباب المنحرفين الذين استفحل بهم المرض ، بحيث أضحى من

الصعب جداً علاجهم أو تقويمهم ، حتى ولو وضعوا فى أحسن الإصلاحيات ، وزودوا بأحسن أساليب العلاج النفسى . ومثل هؤلاء قد يتمادون فى سلوكهم المنحرف ، حتى يصبحوا من المجرمين الكبار معتادى الإجرام . على أن هناك فئة أخرى أكبر عدداً من هؤلاء ، تتكون من أفراد يعانون من اضطرابات مختلفة فى الشخصية ، لكنها لم تبلغ مرحلة حادة خطيرة . ذلك أن هناك عوامل بيئية مختلفة قد ساعدت على انحرافهم : مثل الحرمان من الحب الكافى ، وعدم اتباع نظام ثابت فى التهذيب ، واضطراب سلوك الوالدين ، وتفكك شمل الأسرة ، والهجرة إلى الأحياء القذرة فى المدن ، والتمييز العنصرى ، وبعض نواحى العجز التام التى تعوق القدرة على التعلم فى المدرسة . ومثل هؤلاء المنحرفين عادة ما يتجاوبون — إلى حد ما — مع بيئة صحية سليمة ، ويستجيبون للمساعدة التى يقدمها إليهم الإخصائيون الاجتماعيون والنفسيون .

ومن ناحية أخرى ، يوجد فى الإصلاحيات بعض الشبان من ذوى الشخصيات السليمة إلى درجة معقولة ، الذين لاينبغى — من الناحية المثالية — أن يوجدوا فيها . فمن الجائز أن هؤلاء الشبان كانوا ضحية تهورهم واندفاعهم ، أو ضحية بعض المشكلات فى الحى ، أو سوء الحظ ، أو شدة القضاة ، أو عدم فهمهم لمشاكل الشباب . مثل هؤلاء الشبان يسيرون على خير ما يرام فى أية إصلاحية يودعون فيها . ومع ذلك فإن اضطرارهم إلى قضاء فترة من الزمن فى الإصلاحية ، سيكون بالنسبة إليهم تجربة أليمة ، تضعف احترامهم لأنفسهم ، وتخلف على الأقل بعض الآثار الطفيفة فى نفوسهم بقية حياتهم .

إن إدارة الإصلاحية الجيدة مهمة شاقة للغاية . فالأم التى تعرف جيداً ما تتطلبه منها تربية أطفالها العاديين ذوى النوايا الطيبة من طاقة وفهم وتقويم لسلوكهم ، والمدرس الذى يعرف جيداً مدى الجهد الذى يبذله فى ضبط وتعليم

فصل عادى بالمدرسة — هذه الأم وهذا المدرس — يستطيعان أن يتخيلا بعض المشكلات التى توجد فى إصلاحية بها مئات من المراهقين ، يتصف كل واحد منهم بنوع معين وبدرجة معينة من الميول والاتجاهات المعادية للمجتمع .

فبعض هؤلاء المراهقين قد يكون وقحاً أو عابساً أو مرتاباً أو عدوانياً ، ليس فقط فى لحظات عابرة (كما يحدث فى أية أسرة) وإنما بصفة مستمرة . ومثل هذه الاتجاهات تثير الغيظ والكدر ، لا سيما بالنسبة لأفراد هيئة الإصلاحية الذين يحاولون مخلصين التشبث بأهداب الصبر ، أكثر من أولئك الأفراد الذين يطلقون لأنفسهم حرية الأخذ بالثأر من هؤلاء المراهقين ومعاملتهم بالمثل . لذلك فإن التعامل البناء مع مثل هذه الأنماط من المراهقين المنحرفين ، يتطلب درجة عالية جداً من النضج عند جميع أفراد هيئة الإصلاحية ، سواء أكانوا من المشرفين ، أم المدرسين ، أم الإخصائيين الاجتماعيين ، أم الإخصائيين النفسيين . فبالإضافة إلى مهاراتهم الفنية ، ينبغى أن يتوافر لديهم حب طبيعى للشباب ، وفهم لسلوكهم ، واحترام حقيقى للصفات الطيبة فى الفرد ، وقدرة على تحريك النواحى الخيرة فيه . كما ينبغى أن تتوافر لديهم فى نفس الوقت القدرة على قيادة الشباب فى أسلوب يتسم بالحزم والوضوح . وبمعنى آخر ، لا بد أن يشعروا شعوراً كاملا بالأمن والطمأنينة فى قرارة نفوسهم ، حتى لا يحسوا بإهانة شخصية ، أو يتصرفوا بطريقة انتقامية ، إزاء الأسلوب الوقح المشحون بالتحدى الذى يواجهونه دائماً من جانب هؤلاء المنحرفين .

كما يجب أن يكون برنامج الإصلاحية الجيدة متعدد الجوانب ، يتسم بالذكاء والبراعة ؛ إذ لا بد أن يشتمل على دراسات أكاديمية لهؤلاء الذين يتوافر لديهم الميل والاستعداد لها ، وأن يتضمن أيضاً تدريباً مهنياً للآخرين ، فضلا عن أندية النشاط لممارسة الحرف ، ودراسة العلوم والطبيعة الحية .

وفى الإصلاحية ، قد تهن عزائم الكثيرين من الشبان فى بادىء الأمر ، بشأن قدرتهم على التعلم ، نتيجة ضعف التحصيل وسوء التكيف فى السنوات السابقة بالمدرسة . لذلك قد تبدو عليهم اتجاهات تنم عن الازدراء وعدم الاهتمام بالدراسة . لكن الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها مقاومة هذه الاتجاهات ، هى أن تنظم لها برامج ومجالات للنشاط ، تثير فيهم الحماسة للعمل ، بحيث تكون فى مستوى يتيح للمشتركين فيها أن يشعروا بالنجاح والتقدم .

على أن الأوصاف السابقة إنما تمثل ما يجب أن تكون عليه الإصلاحية النموذجية. ولكن الواقع أن معظم الإصلاحيات الموجودة فعلا ، تفتقر إلى هذه الصفات المثالية (بدرجة أو بأخرى) ، إذ أن هناك عجزاً مخيفاً فى عدد المشرفين والإخصائيين الصالحين الذين يقبلون العمل فى مثل هذه الإصلاحيات مقابل المرتبات الضئيلة التى تعرض عليهم . حتى إن بعض هذه الإصلاحيات لا يكاد يختلف عن بعض السجون الرديئة ، لأن معظم العاملين فيها لا يتوافر لديهم التدريب أو الاستعداد للعمل فى هذا المجال ، ولا يتوافر لديهم الحافز لأداء أى عمل أكثر من قيامهم بدور الحراس على الشبان فى الإصلاحية . وفى مثل هذه الظروف لن يكون أثر الإصلاحية فى المنحرفين هو التقويم والتأهيل لحياة سليمة. حتى إن بعض الشبان الذين يقفون على حافة الانحراف ، يخرجون من الإصلاحية أشد عداء للمجتمع منهم عند دخولها ، وذلك من جراء تأثرهم بالشخصيات المنحرفة انحرافاً خطيراً بين الشبان الآخرين ، أو بين أفراد هيئة الإصلاحية أنفسهم .

* ٭ *

قصارى القول : على من تقع مسئولية علاج المنحرفين ؟ إن بعض المواطنين الساخطين ينادون بأنها مسئولية الآباء . والواقع أنه فى معظم الحالات حين يكون الآباء من النوع السليم المتزن ، فإنهم يتقبلون هذه المسئولية ، مع شىء من

المساعدة من جانب الإخصائيين فى الغالب . غير أننا نجد من ناحية أخرى أن معظم آباء الأطفال المنحرفين يعانون من نفس الاضطرابات الانفعالية والاجتماعية التى يعانى منها أطفالهم ، ومن ثم لا يتسنى لهم مساعدتهم على مقاومة الانحراف ، ما لم يتلقوا هم أنفسهم الكثير من المساعدة على أيدى الإخصائيين . وفى هذه الحالات ، تقع مسئولية علاج هؤلاء الأطفال على عاتق المؤسسات الاجتماعية . وعيادات توجيه الأطفال النفسية ، ومحاكم الأحداث ، والإصلاحيات . ولما كانت معظم المجتمعات تفتقر إلى الإخصائيين والإمكانيات اللازمة لأداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، فإن المسئولية تعود إلى الجمهور نفسه ، وأعنى بالجمهور أنت وأنا والآباء الآخرين فى شتى الأنحاء ، ممن يحرصون على مستقبل أطفالهم ومستقبل الأطفال الذين يعاشرهم أبناؤهم . وفى استطاعة مجالس الآباء والمعلمين ، ونوادى الخدمة ، تنظيم محاضرات يلقيها بعض الإخصائيين الذين يعرفون ظروف البيئة المحلية ، ويدرسون العوامل المؤدية إلى الانحراف فى مختلف الحالات الشائعة بين الشباب ، ذلك أن هناك الكثير من الجهل ، وعدم الاكتراث ، ينبغى التغلب عليه فى سبيل علاج هذه المشكلة .

ولكى يمكن علاج المشكلة بشكل مرض ، فإن من واجب الكثير من المجتمعات زيادة المساعدات المادية التى تقدم للمؤسسات الاجتماعية . ولا بد أيضاً من زيادة الميزانية المخصصة لرعاية المنحرفين ، من حصيلة الضرائب المحلية والفيدرالية . فالإخصائيون فى هذا الميدان يعتقدون أنه بمرور الزمن سيكون من الأوفر لنا تقويم الأطفال المنحرفين الذين يمكن تقويمهم ، من أن ندعهم وشأنهم ثم نتحمل بعد ذلك التكاليف المالية والاجتماعية الباهظة التى ستفرضها علينا حياتهم الإجرامية فيما بعد .

منع انحراف الأحداث

« يمكن إحداث تغييرات كبيرة »
لو أننا طبقنا معلوماتنا وقمنا باستغلال
مواردنا استغلالا فعلياً » .

هل من الممكن منع انحراف الأحداث ؟ إن الآباء فى أشد الحاجة إلى معرفة جواب هذا السؤال . وقد يبدو أن احتمالات هذه المسألة لا تبعث على التفاؤل . فقد دلت الإحصاءات على أن واحداً من كل اثنين من الفتيان فى المدن الأمريكية اليوم ، يوضع تحت رقابة الشرطة مرة على الأقل ، قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره . (وقد ركزت اهتمامى على الفتيان خاصة ، إذ أن نسبة الفتيان الذين يخالفون القانون تبلغ خمسة أضعاف نسبة الفتيات) ومع هذا يمكن اعتبار الغالبية العظمى من هذه المخالفات هينة ، إذ أنها تتمثل فى التشرد والشقاوة والسرقة ، وهذه لا تنشأ بالضرورة عن ميول عدائية للمجتمع بدرجة خطيرة ، ومع ذلك ينبغى أن تكون موضع الاهتمام . وإنى لأعتقد أنه من الممكن إحداث تغييرات كبيرة ، لو أننا طبقنا معلوماتنا ، وقمنا باستغلال مواردنا استغلالا فعلياً .

* * *

وضع معايير للسلوك فى محيط الأسرة

فلنتحدث أولا عن منع الانحراف البسيط بين الأطفال العاديين فى الأحياء المتوسطة والأرستقراطية . من البديهى أن خير ضمان لمنع الانحراف يتمثل فى روابط المحبة والاحترام التى تربط بين الصالحين من الآباء والأمهات وبين أطفالهم . ومع هذا فإن خير الأطفال والآباء يتأثر تأثراً طيباً أو سيئاً بالبيئة التى تحيط بهم

وفى رأيى أن الرخاء الذى أعقب الحرب العالمية الأخيرة وكان سهل المنال ، قد أحدث هبوطاً بسيطاً فى معنويات كثير من الناس . على أن خير الوسائل التى يستطيع بها الآباء بث المبادىء السامية فى نفوس أطفالهم ، هى أن يشترك الآباء أنفسهم فى نشاط جماعى ، سواء أكان هذا النشاط دينياً ، أم إنسانياً ، أم قومياً. ولاشك أن الزيادة التى ظهرت حديثاً فى التردد على دور العبادة ، والاشتراك فى الدراسات الخاصة بالكبار ، والإسهام فى النشاط التمثيلى والموسيقى والمهنى ، لتدل على رغبة متزايدة عند الكبار فى البحث عن معنى أعمق للحياة ، ولابد أن تنعكس هذه الرغبة على أبنائهم فى النهاية . ومن ناحية معينة ، يتصدر هذه الحركة البناءة أغلبية من الشباب الذين يهدفون إلى مواصلة دراساتهم العالية ، ذلك لأنهم يدرسون بروح جادة لم تعهدها الأجيال السابقة .

وأهم من ذلك فى رأيى أن يتحقق المزيد من الثقة والوضوح فى الأساليب التى ينقل بها الآباء معايير السلوك عندهم إلى أطفالهم . ولسوء الحظ أن كثيراً من الآباء قد اعتراهم التردد فى القيام بتوجيه أطفالهم من جراء كل تعاليمنا ونصائحنا نحن المتخصصين فى رعاية الطفولة . وكذلك ظهر رد فعل مطرد فى هذا العصر ضد التزمت الأخلاقى والزهو الأجوف اللذين كانا سائدين فى القرن الماضى . فقد جعل ذلك الكثير من الآباء الصالحين — لا سيا من درس منهم دراسة عالية — يحسون بشىء من الحرج فى التحدث إلى أطفالهم عن العقيدة الدينية ، والاعتزاز بالوطن والولاء له ، والتعلق بالأسرة ، وكذلك النواحى الروحية فى الزواج ، وحب الغير . فقد افترض هؤلاء الآباء أن أبناءهم سوف يتمثلون هذه المبادىء بطريقة ما . حقاً إن الأطفال بوجه عام يتصرفون وفقاً لمعايير الآباء فى السلوك ، ولكن إلى حد محدود . وزيادة فى الدقة ، نقول إنه ما دام الآباء يحملون فى نفوسهم آثار نزعات معادية للمجتمع تكمن وراء نزعاتهم الخيرة ،

فإن بعض أطفالهم قد يلتقط منهم هذه النزعات العدائية إلى حد يبعث على الدهشة ، ما لم يدرك الآباء بوضوح معايير السلوك التي يتوقعونها من أطفالهم ، وينقلونها بوضوح إلى هؤلاء الأطفال . وأبسط مثال على هذا ، أولئك الآباء الذين يبالغون فى الأدب ، بحيث يتغاضون عن سلوك أبنائهم الوقح المنفر .

* * *

آمل ألا تأخذوا كلامى هذا مأخذاً جاداً أكثر من اللازم ، لو قلت إن عملية منع الانحراف البسيط بين الأحداث فى مرحلة المراهقة ، يمكن أن تبدأ منذ مرحلة الطفولة المبكرة . فالأم ، فى الوقت الذى تراعى فيه احتياجات وليدها الجديد مراعاة تامة ، يمكنها أن تدربه شيئاً فشيئاً على اتباع جدول منظم للرضاعة ، وبذلك تعلمه أن كل شىء فى الوجود يخضع لنظام معين ، وأن عليه مراعاة حاجتها إلى الراحة هى وزوجها . وطبعاً لا أعنى بذلك أن طريقة إرضاع الطفل « على هواه » لمدة عام أو حتى عامين ، سوف تؤدى فى حد ذاتها إلى خلق نزعة إلى الأنانية فى نفسه ، فما زالت أمامه فرص شتى للتعلم فى المراحل التالية . ولكن الأم التى تضحى براحتها تماماً لإرضاء نزوات طفلها فى العامين الأولين من عمره ، عرضة لأن تستمر على هذا المنوال فى علاقتها بطفلها .

فأنا من جانبى أدع الطفل ابن العام يجرب بلطف العبث بإصبعه فى قطرة من اللبن أو شىء من « البليلة » على الصينية . لكنى لا أسمح له بإلقاء ملء يده أو ملعقته من الطعام على الأرض ، أو « بالشعبطة » على طرف كرسيه العالى وأنا أحاول إعطاءه الطعام ، ولا أسمح له أيضاً بشد شعرى ، أو عضى بأسنانه .

غير أنى أسمح للطفل ابن العامين ، الذى يعوزه الإدراك الكافى لحقوق الملكية ، بأن يتشاجر من آن لآخر مع رفيق يباريه فى القوة ، على لعبة متنازع عليها ، فبذلك يتعلم كل منهما شيئاً من الآخر ، أما إذا دأب الطفل على اختطاف

اللعب واضطهاد غيره من الأطفال ، فإنى أتدخل فى هذه الحالة ، وأبحث له إذا لزم الأمر عن ند يكافئه فى القوة . كما أنى عند ما يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة ، أعاونه على تعلم مشاركة الآخرين ، وأعلمه كيف يراعى شعور الكبار ، دون أن أتوقع منه معاملتهم فى أدب إلى درجة الخنوع . ولا أسمح له فى أى سن بأن يسىء استعمال لعبه ، أو يخرب الأثاث ، أو يسىء إلىّ ، ولو أنى قد لا أخفى عنه أن كل طفل يثور على والديه فى بعض الأحيان .

وفى سن الخامسة أو السادسة ، أتوقع منه أن يساعد الأسرة فى بعض الأعمال البسيطة ، وأن يعامل الكبار فى أدب ، وأن يتعاون مع غيره من الأطفال . أما فى سنى المدرسة الابتدائية ، التى يبدى فيها الأطفال اهتماماً طبيعياً بقواعد السلوك والأخلاق ويتلهفون على معرفة آراء آبائهم فى هذا الشأن ، فإنى فى هذه الحالة أحدد لطفلى بكل جلاء معايير السلوك التى أومن بها .

وبعد ذلك تصبح المهمة أصعب من ذى قبل ، لأن المراهقين يحسون أحياناً بحافز قهرى يدفعهم إلى معارضة قواعد السلوك التى يؤمن بها آباؤهم ، بل ويدفعهم إلى معارضة فلسفتهم وعقيدتهم الدينية ، وآدابهم فى المعاملة ، وأسلوبهم العام فى الحياة . وهذه الظاهرة تشق على بعض الآباء — الذين يغالون فى التأدب ، أو الذين يسيطر عليهم إحساس حاد بأنهم من الطراز القديم « دقة قديمة » ، أو الذين يستبد بهم الخوف من الاستبداد بأطفالهم ، أو الذين يحرصون أشد الحرص على أن يكون أطفالهم موضع حب الناس . فمثل هؤلاء الآباء يحجمون عن الإفصاح لأطفالهم عن مشاعرهم الحقيقية ، أو عن توجيههم بطريقة واضحة . ذلك لأنهم لا يدركون أن المراهقين عند ما تثور ثائرتهم ، لا يعبرون عن عقيدة راسخة يؤمنون بها ، وإنما يعبرون عن الحيرة التى تستبد بهم . (أما عند ما يكفون عن المعارضة والجدل ، فإن ذلك يدل على أنهم قد تأهبوا لرسم طريقهم

فى الحياة) . وهذا لا يعنى أنهم يرغبون فى أن تفرض عليهم سيطرة جائرة من جانب آبائهم ، أو أن يعاملوا فى تعال وكأنهم أطفال صغار . فما من شك أن معاملتهم معاملة جائرة يسودها الشك والريبة فيهم ، من شأنها أن تحز فى نفوسهم لكنهم فى قرارة أنفسهم يتوقون إلى معرفة آراء آبائهم فى قواعد السلوك ونماذج الناس ، حتى ترشدهم هذه الآراء للوصول إلى القواعد السليمة .

* * *

تحدى الجماعة

يجب أن نناقش الآن فى إيجاز الوسائل التى تكفل منع الانحراف الخطير فى المجتمع . وهذا النوع من الانحراف يتركز أساساً فى الأحياء الفقيرة بالمدن ، حيث ينعدم عامل الاستقرار بين السكان ، ويكاد ينعدم الترابط والتوجيه والاعتزاز بالجماعة بينهم . فالجماعات الجديدة التى تفد على هذه الأحياء ، تتعرض عادة للعداء والازدراء من جانب السكان القدامى ، كما لا تتوافر لهم فى أغلب الأحيان وسائل الترفيه والتسلية . ثم إن سلطة الآباء على أطفالهم تقوضها العادات المحلية التى تتنافى مع عاداتهم .

وقد شكلت بعض الحكومات المحلية التقدمية فى السنوات الأخيرة ، عدداً من اللجان للقيام بعملية مسح للمناطق التى تزداد فيها نسبة انحراف الشباب ، كى تركز اهتمام الهيئات الأهلية والحكومية على الاحتياجات المحلية ، وتشجعها على تنسيق خدماتها المختلفة (التى تتداخل أحياناً ، ويفوتها الكثير من المشكلات فى أحيان أخرى) ، وكى تحث القادة فى المدارس والكنائس والنوادى فى المنطقة على التضامن فى بذل جهودهم ، وحشد مواردهم المادية ، وتخطيط المشروعات الخاصة بالشباب ، وتوفير مجالات النشاط الترفيهى للأسر (مستغلين فى ذلك

مثلا المبانى الخالية وقاعات الاجتماعات التى لا تستخدم إلا فى النادر) ، وتشجيع تكوين الجمعيات الشعبية . فنحن نلمس التحسن فى معنويات جميع الأسر فى الحى ، عند ما يقوى عامل الترابط بينها ، والشعور بأن هناك هدفاً مشتركا يجمعها . وقد أثبتت التجارب أن من الممكن توجيه الحوافز التى تسيطر على أفراد عصابات الشوارع فى اتجاه بناء ، لو تكفل بذلك رواد مهرة فى توجيه الجماعات .

وهذه كلها مهام ضخام عسيرة ، غير أن بعض الجماعات قد أثبتت أنه من الممكن تحقيقها لو توافرت العزيمة والنية الصادقة .

* * *

إن معظم الأطفال المنحرفين انحرافاً مزمناً وخطيراً ، هم الأولاد والبنات الذين لم يحظوا بالقدر الكافى من الحب ، والذين عانوا من الإهمال أو سوء المعاملة منذ طفولتهم المبكرة . كيف يمكن منع الاعوجاج الأخلاقى عند هؤلاء الأطفال ؟ .

يكون آباء هؤلاء المنحرفين عادة قد عانوا نفس المعاملة فى صباهم ، ولم يستفيدوا سوى القليل من المدرسة ، وشبوا على الاندفاع وعدم الشعور بالمسئولية ، ثم أصبحوا من العمال الفقراء ، وتزوجوا زيجات مقلقلة تفتقر إلى الاستقرار . ومن ثم ينتقل هذا النمط بنفس الصورة من جيل إلى جيل . على أن محكمة الأحداث عندما تلمس أن الأطفال يلقون معاملة فى غاية السوء ، يمكنها أن تتدخل فى الأمر ، وتسلمهم إلى إحدى الهيئات المهتمة بشئون الطفولة ، التى تعهد بهم إلى بعض بيوت التبنى ، وغالباً ما يتضح أن هذا هو الحل السليم لمشكلة هؤلاء الأطفال ، إذا لم تكن أخلاقهم قد أصيبت فعلا بضرر بالغ يستعصى علاجه ، وإذا أمكن العثور على بيوت التبنى الملائمة لهم .

وفى الأزمنة الماضية كان الأطفال الصغار الذين يهملهم آباؤهم ، يودعون فى « ملاجىء الأيتام » التى يتصادف أن يوجد بها عدد قليل من اليتامى . غير أنه قد ثبت بالتجربة أن معظم هذه الملاجىء كانت تفتقر إلى المشرفين الصالحين ، الذين يمكنهم أن يمنحوا الأطفال الحب ، والشعور بالانتماء ، والإحساس بالأمن والطمأنينة ، التى تعتبر عوامل أساسية فى تكوين الشخصية المتزنة المستقرة . وبمرور السنين أغلقت معظم هذه الملاجىء ، وأصبح الأطفال المهملون يودعون فى بيوت للتبنى ، تختارها وتشرف عليها بعض الجمعيات الاجتماعية ، حيث يمكن لهؤلاء الأطفال أن يشبوا فى محيط عائلى مع الآباء والأمهات الذين يتبنونهم بدلا من ذويهم الحقيقيين . إلا أن بعض هؤلاء الأطفال يكون صعب القياد بحيث يتعذر على أى أب بالتبنى معالجته ، لذلك حولت بعض المؤسسات الاجتماعية إلى « إصلاحيات لعلاج الأطفال » ، حيث يتولى بعض الإخصائيين إصلاحهم وتقويم سلوكهم ، كى يمكن رعايتهم فى بيوت التبنى (أو فى بيوتهم الأصلية) ، بعد خروجهم من هذه الإصلاحيات .

على أن هناك دائماً عدداً كبيراً من الأطفال الذين ينشأون فى جو من الحرمان وسوء المعاملة ، ولكن ليس بالدرجة العنيفة التى تبرر للمحكمة حجزهم فى بعض المؤسسات الاجتماعية ، وإن كان بالدرجة الكافية لأن تخلق عندهم استعداداً للانحراف فى المستقبل . وكثيراً ما اشتركت فى بعض المؤتمرات مع مشرفات صحيات صادفن مثل هذه الحالات فى العيادات النفسية أو فى الأحياء التى يعملن بها . فالطفل الصغير فى مثل هذه الحالة ، تبدو عليه أمارات تدل على عدم الثقة بالناس ، أو على الرغبة فى الإيذاء ، أو على الجموح والتمرد . وتشير المشرفة الصحية على والدى الطفل بأنه سوف يستفيد من إلحاقه بإحدى مدارس الحضانة الداخلية أو بإحدى دور الحضانة النهارية . ولكن غالباً ما يتضح أنه لا توجد مدرسة

ممتازة للحضانة فى الحى ، أو أنه لا توجد بها أماكن خالية ، أو أن الأم نفسها لا تبدى اهتماماً كبيراً بمشكلة طفلها . وقد يكون الأفيد من ذلك — من الناحية النظرية — لو أن أحد الوالدين أو كليهما ظل مدة طويلة يتلقى النصح والتوجيه من إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . ولكن تكون مشاعر الوالدين وتصرفاتهما عادة مهوشة ومضطربة إلى حد بعيد ، بحيث يتعذر عليهما المبادرة بطلب مثل هذه المساعدة من جمعيات الخدمة الاجتماعية أو المحافظة على المواعيد التى تحدد لهما . وفضلا عن ذلك ، فإن معظم جمعيات خدمة الأسرة مشغولة للغاية بالعمل مع الآباء والأمهات الذين يتعاونون معها ، بحيث لا يتوافر لها سوى القليل من الوقت أو الميل لمطاردة « الزبائن » الذين لا تبشر تصرفاتهم بالخير . وقد يتوهم المرء أن الآباء والأمهات الذين يعوزهم الشعور بالمسئولية ، يمكن شيئاً فشيئاً أن يكتسبوا المزيد من النضج ، إذا قبلوا واشتركوا فى مجالات النشاط الجماعى بالكنائس أو غيرها من المراكز الاجتماعية بالحى . غير أنهم فى الواقع من السطحية والأنانية بحيث يتعذر عليهم خلق صداقات حقيقية مع الآخرين ، أو المساهمة بأى شىء فى خدمة الجماعة

* * *

لقد ركزت اهتمامى على النواحى السلبية من المشكلة ؛ لأننا بتنظيمنا الحالى للخدمات الاجتماعية لا نفعل سوى أقل القليل للخروج من هذه الحلقات المفرغة التى ندور فيها . ومهما يكن من أمر فإن الإخصائيين الذين عملوا جاهدين على علاج حالات بعض الناس السطحيين عديمى الإحساس بالمسئولية ، يعرفون جيداً أن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس يمكن مساعدتهم على النمو والنضج — إلى حد ما — لو أن مرشداً متخصصاً مد يده إليهم لكسب صداقتهم ، وأبدى لهم قدراً كبيراً من التسامح والفهم ، وأعطاهم الكثير دون أن يطلب سوى القليل ،

وحاول توجيههم فى صبر وأناة ؛ إذ يمكن القول بأن هذا المرشد — من ناحية معينة — إنما يمد هؤلاء الناس الذين يشبهون الأطفال فى سلوكهم بالحب الأبوى الذى افتقدوه فى طفولتهم ، مما يدفع عملية نضجهم التى تأخرت طويلا .

لكننا قبل أن نستطيع الحد فعلا من الزيادة المطردة فى حالات معتادى الانحراف والإجرام ، يجب علينا أولا أن نزيد إلى حد كبير الإمكانيات اللازمة للوصول إلى هذه الأسر المنحرفة ، عن طريق التوسع فى الخدمات الاجتماعية . وسوف يتطلب هـذا زيادة المساعدات المادية التى تقدم إلى حملات الخدمة الاجتماعية ، بل وقد يتطلب أيضـاً زيادة الضرائب . لقد قرأت أن القبض على مجرم واحد لا غير ، ومحاكمته ، وتوقيع العقوبة عليه ، يكلف المجتمع ٣٠٠٠٠ دولار . على حـين أننا بـ ٣٠٠٠٠ دولار نستطيع أن نفعل الكثير فى مجال مكافحة الجريمة والانحراف .

* * *

فى إمكان المدارس الصالحة أن تخلق أطفالا يشعرون بالمسئولية

المدرسة هى القوة التى تلى الأسرة من حيث أثرها الفعال فى تكوين أخلاق الطفل . فهى من نواح عديدة ، تستطيع أن تدفعه فى اتجـاه التوافق مع المجتمع واحترام القانون ، أو تدفعه — بدون قصد منها — فى الاتجاه المضـاد . وأنا شخصياً أعتقد أن الأمل المرتجى فى تخفيض نسبة الانحراف بين الأحداث يتمثل فى رفع مستوى جميع مدارسنا ، بحيث تدنو من مستوى المدرسة المثالية .

إن نسبة كبيرة جداً من المنحرفين كانت تعانى من مشكلات فى المدرسة . فالطفل الذى يعجز عن مسايرة تلاميذ فصله من الناحية الدراسية ، أو الذى يشعر بأنه منبوذ من زملائه ومدرسيه بسبب سوء سلوكه ، عرضة لأن يصبح — إلى

ـحد ما — طفلا معادياً يحتقر الآخرين ، كرد فعل لشعوره بعدم الانتماء إلى الجماعة؛ ذلك لأن كبرياءه توحى إليه بأنه ما دام عاجزاً عن الانضمام إلى الآخرين ، فإن فى وسعه أن يعاديهم . وشعور الطفل بالانتماء أو عـدم الانتماء إلى رفاق الفصل فى سن الثامنة ، غالباً ما يتحول إلى شعور بالانتماء أو عدم الانتماء إلى المجتمع فى سن الثامنة عشرة ، لأن المدرسة هى المجتمع بالنسبة إليه فى مرحلة الطفولة .

وقد أثبتت البحوث أن شخصية المعلمة ، واتجاهها الأساسى نحو الأطفال ، لها أثر حاسم فيهم . فإذا كانت المعلمة (أو المعلم) شخصية تميل إلى اللوم والنقد ، وتشك فى بعض الأطفال بالذات ، ولا تثق بقدرتها على معالجتهم ، فإنها بذلك تبعث فى نفوسهم شعوراً بأنهم منبوذون من حظيرة الجماعة ، وأنهم قد يكونون أطفالا خطرين . حقيقة إن معظم هؤلاء الأطفال يتوافر عندهم القدر الكافى من الاتزان النفسى ، بحيث لاتجرح مشاعرهم جرحاً بالغاً من جراء معاملة المعلمة لهم. غير أنه قد يوجد فى الفصل عديد من الأطفال الذين يتأثرون من هذه المعاملة ، فينضمون إلى صفوف الـكارهين للمدرسات والمدارس ، لا سيما فى الأحياء التى يسودها الاضطراب وعـدم الاستقرار . ومن الملحوظ أن الأطفال الذين يشعرون بالعداء من جانب معلمتهم ، يتشاجرون أكثر من غيرهم فيما بينهم أثناء الفسحة وبعد انتهاء اليوم المدرسى . أما المعلمة المحبـة الودود فإنها تبث شعوراً بالانتماء فى نفوس جميع الأطفال — سواء أكان سلوكهم حسناً أم سيئاً ، وسواء أكانوا أذكياء أم أغبياء . والوسيلة التى يمكننا بها أن نحصل على العدد الكافى من المعلمات المحبات الودودات ، هى أن نجعـل التدريس مهنة جذابة ، بحيث يتقدم إلى معاهد تدريب المعلمين والمعلمات عدد يزيد على حاجتنا ، فيمكننا فى هذه الحالة أن نرفض أولئك الذين لا يحسون فعلا بميل كبير إلى الأطفال .

* * *

هناك عوامل عديدة تؤدى إلى تخلف الطفل فى الدراسة . لكنى سأذكر بضعة عوامل منها فقط ، فإذا كان الطفل من الذين يستبد بهم القلق ، أو الذين عانوا من الحرمان أشد المعاناة فى طفولتهم المبكرة ، فإن قدرته على الانتباه إلى أى موضوع من الموضوعات قد تكون محدودة . كما أن هناك أيضاً ناحية القدرة العقلية ، وهى تتفاوت تفاوتاً كبيراً من طفل إلى آخر بطبيعة الحال . ونحن عرضة لأن نفكر فقط فى المشكلات الخاصة بالطفل الممتاز والطفل المتخلف تخلفاً واضحاً ، ناسين أن فى الفصل الدراسى العادى يوجد عادة فرق ملحوظ بين مستوى الاستجابة عند الطفل الذى يكون معامل ذكائه ١١٠ ، وبينه عند الطفل الذى معامل ذكائه ٩٠. ثم إن هناك أيضاً بعض نواحى العجز التى تعوق الطفل فى عملية التعلم ، لاسيما تعلم القراءة ، والحساب كذلك. وهى كثيراً ماتظهر عند الأطفال ، حتى الذين يكون مستوى ذكائهم عادياً أو مرتفعاً . فهناك نسبة تتراوح ما بين ١٠ ، ١٥ فى المائة من الأولاد (وما بين ٢ ، ٣ فى المائة من البنات) تلاقى صعوبة ملحوظة فى تعلم القراءة . وحيث إن القراءة عامل أساسى فى تعلم المواد الأخرى ، فإن هؤلاء الأطفال يفقدون من جراء هذه الصعوبة شيئاً من شعورهم بالثقة بأنفسهم ، وشيئاً من حماستهم للمدرسة . وهذه الناحية ، عند ما تمتزج مع بعض العوامل الأخرى ، يمكن أن تؤدى إلى هروب « تزويغ » الطفل من المدرسة ، وإلى غير ذلك من النتائج. ومن ثم فإن المدرسة الصالحة — أو النظام المدرسى الصالح — ينبغى أن يوجد بها إخصائى نفسى لفحص الأطفال الذين لا يتقدمون تقدماً طيباً فى دراستهم ، وأن توجد بها فصول خاصة للأطفال المتخلفين بوجه عام . كذلك يجب أن تضع المدرسة برامج علاجية لمساعدة الأطفال الذين يكون مستوى ذكائهم جيداً، لكنهم يعانون من عجز معين فى تعلم القراءة أو الحساب . وينبغى أن يكون بها أيضاً مرشدون للتوجيه أو إخصائيون اجتماعيون ، لمساعدة الأطفال وآبائهم على اكتشاف العوامل الانفعالية التى

تعوق توافق الطفل مع المدرسة ، والعمل على إيجاد حل لها . وأن يكون لها طبيب للأمراض النفسية لاستشارته فى بعض المشكلات .

هناك عامل حيوى آخر يؤدى إلى سـوء توافق الطفل مع المدرسة ، وهو ضعف الحافز على التعلم . هذه الظاهرة نلمسها فى أبسط صورها عند بعض الأطفال فى سنوات الدراسة الأولى . فهم لا يهتمون اهتماماً كبيراً بتعلم القراءة ، لأن آباءهم وأمهاتهم لا يكادون يقرأون شيئاً فى البيت ؛ ولم يسبق أن قرأوا لهم قصصاً على الإطلاق . (فنحن الذين ننتمى إلى أسر تهوى القراءة ، قد لا ندرك أن ذلك الشغف بالقراءة الذى كنا نحن وأطفالنا نبديه فى السنة الأولى الابتدائية ، قد نشأ عن رغبتنا فى تقليد آبائنا ؛ وعن شعورنا بالمتعة حين كانوا يقرأون لنا بعض الكتب) . على أن الأطفال فى سنى الدراسة الابتدائية ؛ يسهل قيادهم نسبياً ، فيمتثل معظمهم لنظام المدرسـة ، حتى ولو كان تحمسهم للعمل ضعيفاً . لكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة للأطفال فى سنى الدراسة الثانوية ، إذ تقوى عندهم فى هذه المرحلة ، النزعة إلى التمرد على السلطة ، والرغبـة فى الحصول على عمل لكسب المال كالرجال ، كما تقوى عنـدهم الحوافز العاطفية واللهفة إلى الأشياء المثيرة . ولذلك يضعف اهتمامهم نسبياً بالعمـل المدرسى ، ما لم تكن أسرة الطفل تؤمن إيماناً راسخاً بالتقدم عن طريق العـلم والثقافة . والواقع أنه — حتى فى الأسر التى بلغت أعلى مستوى فى الثقافة والتعليم — تتعثر نسبة كبيرة من الأولاد ، مؤقتاً ، فى بعض العثرات والعقبات أثناء سنى الدراسة الثانوية والجامعية .

إن هذه المشكلة السائدة الخاصة بضعف الحافز على الدراسـة الأكاديمية ، تغيب عن بال المفكرين الذين ينقدون مدارسنا ، مثل بعض أسـاتذة التربية

فى الجامعات ، ورجال الفكر ، وغيرهم من العلماء الذين تمخضت عقولهم عن أعمال كبيرة باهرة . فهؤلاء المفكرون يشكون فى قيمة الجهود التى يبذلها رجال التربية الحديثة ، كى يجعلوا العمل المدرسى شيقاً وطريفاً بقدر الإمكان . وهم يريدون من مدارسنا أن تتخلى عما يسمونه المواد السهلة ، وعن الدراسات العملية ، والمناقشات التى تدور حول « توافق الطفل مع الحياة » ، ويريدونها أن تركز اهتمامها على دراسة الرياضيات واللغات والعلوم البحتة (لا التطبيقية) . وهم يعتقدون أن الهدف الوحيد السليم للمدرسة هو تدريب العقل ، وأن التدريب الأخلاقى هو مهمة البيت . وهم يعترضون على نقل الطفل إلى فصل أعلى ، ما لم ينجح نجاحاً مرموقاً فى جميع المواد الدراسية الخاصة بفرقته .

على أن الشىء الذى يخفى على هؤلاء النقاد هو أن أقلية ضئيلة محدودة من الأطفال هى التى يتوافر لديها مستوى مرتفع من القدرة العقلية والحافز الأكاديمى، بحيث تستهويها الموضوعات المعنوية المجردة ، مهما تكن جافة . فلو أننا وضعنا توصيات هؤلاء النقاد موضع التنفيذ ، فإن الصفوة القليلة من الطلبة فى المدارس الأمريكية العادية هى التى ستتمكن من الالتحاق بالكليات (ولو أنى أعتقد أن مستواهم سيكون متخلفاً عن مستوى غيرهم من خريجى المدارس الممتازة فى الأحياء التى تتسم بالتعاون والمبادرة والقدرة على مواجهة المشكلات الجديدة) . أما الغالبية الساحقة من الطلبة الآخرين ، فإنهم قد يتقدمون فى دراستهم تقدماً معقولا أول الأمر . لكننا فى مرحلة الدراسة الإعدادية ، سوف نجد أن كل فصل يضم عدداً لا يستهان به من الطلبة المتخلفين عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام ، الذين انتهى بهم الأمر إلى الاشمئزاز من المدرسة ومن أنفسهم . أما فى المرحلة الثانوية فسوف نجد أن أغلبية الطلبة قد أصبحوا إما هاربين « مزوغين » من المدرسة وإما مشاغبين ، وإما حالمين لا يسهمون بشىء فى العمل المدرسى .

قد يبدو منطقياً ذلك القول بأن مهمة المدرسة هى تدريب عقل الطالب ، وأن تكوين شخصيته هى مهمة البيت . فما من شك فى أن المعلمين والمعلمات سوف يسعدون لو أمكن حل المشكلة بهذه البساطة . إلا أن الطلبة لا يتركون أخلاقهم وشخصياتهم فى البيت ، حين تذهب عقولهم إلى المدرسة . فهناك نسبة كبيرة من هؤلاء الطلبة (شأنهم شأن الكبار) تعانى من مشكلات خاصة بالشخصية — من نوع أو آخر — من شأنها أن تعوق إسهامهم فى العمل المدرسى . ومن واجب المدرسة أن تحاول معالجتهم ، ليس فقط بأن تعلمهم قدر استطاعتها ، بل بأن تساعدهم على حل هذه المشكلات (فالكليات الجامعية يمكنها أن تتخلص من الطلبة الذين يعانون من مشكلات سلوكية أو دراسية عن طريق فصلهم . أما المدارس الثانوية فلا مناص من أن تحتفظ بطلبتها جميعاً مهما كان الأمر) .

* * *

ولنتأمل الآن الوسائل التى تستخدمها المدارس الممتازة ، كى تساعد الطالب على التوافق مع عملية التعلم، ومع رفاقه فى الفصل ، ومع الحياة بوجه عام. إننا نجد أولا أن المعلمين فى هذه المدارس يختارون من بين الذين تتوافر لديهم اتجاهات سوية نحو الأطفال ، والذين دربوا التدريب الكافى فى ميدان تربية الطفل ، وفى المواد التى سيقومون بتدريسها ، وفى طرق تدريسها (وما على الناقدين الذين يزعمون أن كليات المعلمين تضيع الوقت سدى فى تعليم الطلبة طرق التدريس ، إلا أن يزوروا فصلا فى مدرسة ابتدائية ، كى يلمسوا بأنفسهم مدى أهمية طرق التدريس). كما أن الفصول بهذه المدارس قليلة العدد ، بحيث يتسنى للمعلم أن يتابع كل تلميذ على حدة ، وأن يؤدى عمله على أساس الفروق الفردية بين التلاميذ . ويستحسن أن يكون ترتيب أدراج الأطفال ومكاتبهم مرناً وقابلا للتغيير ، كى يتسنى للأطفال الذين يعملون فى مستويات مختلفة أو فى مشروعات خاصة ، أن يجتمعوا معاً ،

بعيداً عن المجموعات الأخرى . وفى مجال تأليف الكتب المدرسية ، والكتب الخاصة بإرشاد المعلم ، وفى تحضير المعلم نفسه لدروسه اليومية ، يبذل كل جهد ممكن لمعالجة المادة بطريقة تتلاءم مع مستوى ذكاء مختلف الأطفال ، وتثير لديهم الحد الأقصى من الاهتمام والتحمس . وهــذا لا يعنى تبسيط المادة ، وإنما يعنى استهواء خيال الأطفال ، كى يبذلوا جهدهم فى العمل والتفكير . كما أن هناك صوراً وأشياء مجسمة إلى جانب الكلمات . ويتاح للتلاميذ أن يعبروا عن خبراتهم الخاصة ، ويحضروا من بيوتهم أشياء متصلة بالمادة التى يقومون بدراستها. ويستنفد المعلم معظم وقت الحصة فى المناقشة والاستنتاج ، أكثر مما يستنفد فى اختبار قدرة التلاميذ على حفظ الدرس عن ظهر قلب .

إلا أن هذه الوسائل العامة ليست كل شيء فى الأمر . فمهما تحرص المدرسة على وضع التلاميذ ذوى القدرات المتكافئة فى فصل واحد ، فلابد من أن توجد بعض الفروق الفردية بينهم فيما يختص بمختلف المواد . بل إن استجابة التلاميذ لمادة واحدة ، تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين تلميذ وآخر ، لذلك ينبغى أن تكون الأسئلة والواجبات التى تعطى للتلميذ ملائمة إلى حد ما لمستواه الفردى . فهذه هى الناحية التى يمكن فيها دفع تقدم التلميذ أو إعاقته ، والتى يمكن فيها إشعاره بأنه إنسان ناجح ينتمى إلى الجماعة ، أو أنه إنسان تافه منبوذ من الجماعة ، ولهذا السبب فإن الواجبات التى تطلب منه ينبغى أن تتحدى قدرته ، لكنها فى نفس الوقت يجب ألا تتجاوز حدود هذه القدرة . فالطفل المتأخر فى القراءة ، لكنه ماهر فى الأعمال اليدوية ، لا ينبغى أن يطلب منه سوى قراءة الأجزاء التى يستطيع أن يؤديها أداءً حسناً لدرجة معقولة . على أنه من الممكن فى نفس الوقت إشراكه فى جماعة من التلاميذ ، تتولى عمل نموذج للمزرعة التى يقرأون عنها فى الكتاب المدرسى ، ذلك أن نجاح هذا التلميذ فى عمل النموذج مع زملائه ،

من شأنه أن يزيد ثقته بنفسه ، ويقوى شعوره بالانتماء إلى الجماعة . وفضلا عن ذلك ، فإن هذا النجاح يخلق عنده حافزاً قوياً يدفعه إلى محاولة تنمية قدرته على قراءة الكتاب الذى يدور حول موضوع المزرعة .

ومن الممكن مثلا فى حالة التلميذ المتقدم فى القراءة ، لكنه مكروه من زملائه ، أن يدبر المعلم الأمر فى لباقة وكياسة ، بحيث يختار طلبة الفصل هذا التلميذ ، كى يقوم بقراءة بعض الكتب الإضافية فى المكتبة ، ثم يقدم لهم تقريراً عن هذه الكتب . فبهذه الوسيلة يشبع التلميذ رغبته الزائدة فى القراءة ، وفى نفس الوقت ينال شيئاً من تقدير زملائه فى الفصل . بيد أن كل هذه الوسائل التى تتبعها المدارس النموذجية ، قد تبدو لكم فى غاية التفاهة والبساطة ، بحيث لا يمكن أن تكون لها أهميتها فى تقويم الطفل . وأنا لا أعنى طبعاً أن أى طفل يمكن أن تحل جميع مشكلاته ومتاعبه ، فى خلال بضعة أشهر ، أو حتى بضعة أعوام ، يقضيها فى هذه الدراسة النموذجية . ومع ذلك فإن أى أم لها طفل يعانى من مشكلات فى المدرسة ، يمكنها أن تحدثكم عن الفوائد الجمة أو الأضرار الجسيمة التى عادت على طفلها ، عندما انتقل من فصل إلى آخر .

ويميل كثير من رجال التربية الحديثة إلى نقل بعض الأطفال من فرقتهم إلى الفرقة التالية ، حتى ولو لم يكونوا قد تقدموا تقدماً حسناً فى بعض مواد دراستهم ، بشرط أن يكون المنهج فى الفرقة الأعلى مرناً بما فيه الكفاية ، كى يتسنى لهؤلاء الأطفال متابعة العمل المدرسى ؛ ذلك لأنه قد ثبت بالتجربة الطويلة أن مثل هؤلاء الأطفال حين ينقلون إلى الفرقة التالية ، يحرزون تقدماً فى دراستهم ، أكثر مما لو أجبروا على التخلف فى فرقتهم ، حيث يحتمل أن يفقدوا تحمسهم للعمل وتهن عزيمتهم . ومع ذلك فما من معلم يشعر بالمسئولية ، ينقل طفلا إلى فرقة أعلى ، يصبح فيها منعزلا تماماً عن العمل المدرسى .

وتهتم المدرسة الصالحة بأن تنمى فى كل طفل الشعور بالمسئولية نحو الآخرين والقدرة على التعاون معهم. والطفل لا يكتسب هذه الصفات عن طريق المواعظ الكلامية ، وإنما يكتسبها عن طريق إتاحة الفرص له كى يمارسها ممارسة عملية . لذلك يجب أن يكون المعلم رائداً ديمقراطياً ، يشجع الطلبة على المناقشة ، ويترك لهم — كجماعة — فرصة إصدار بعض القرارات بأنفسهم ، ويساعدهم على تكوين الجمعيات لتنفيذ بعض المشروعات . فقد أثبتت التجارب الدقيقة أن هذا الأسلوب ينمى الصداقة والثقة المتبادلتين بين أفراد أى جماعة من الجماعات ، ويزيد من قدرتهم على ضبط أنفسهم — فى تصرفاتهم الفردية والجماعية — حتى يمكنهم بمرور الشهور أن يسلكوا أكثر فأكثر سلوكا يدل على الشعور بالمسئولية ، سواء أكان معهم أحد الكبار من ذوى السلطة عليهم ، أم كانوا بمفردهم .

أما عندما يدخل الأطفال مرحلة الدراسة الثانوية فإن الفروق بين مستويات ذكائهم ، وحوافزهم بصفة خاصة ، تظهر بشكل حاد شيئاً فشيئاً ، ولذلك فإن العمل الجيد الرائع الذى قامت به خير المدارس الثانوية الأمريكية — منذ تعميم التعليم حتى سن السادسة عشر — هو أنها وضعت برامج عديدة متنوعة ، تتحدى قدرات مختلف التلاميذ . فهناك برامج تعد التلميذ إعداداً مباشراً للدراسة الجامعية ، وهناك برامج عامة ذات طابع عملى ، وأخرى للتدريب على الأعمال التجارية. وهذه المرونة فى البرامج تشجع كل طالب على التقدم فى الدراسة إلى أقصى حدود قدرته ، فى الاتجاه الذى يقوده إليه طموحه ، تحت إشراف المدرسة وتوجيهها . وقد ثبت أن مثل هذه البرامج عندما تفهم وتدرس بطريقة سليمة ، لها قيمتها فى تخفيض نسبة الهروب « التزويغ » والغياب من المدرسة إلى الحد الأدنى ، كما أن لها قيمتها فى رفع المستوى الثقافى لشعبنا ارتفاعاً مطرداً .

على أن الكثير من المناطق فى الولايات المتحدة ، لا يتسنى لها الإنفاق على مدارس عالية المستوى ، لأن مستوى الدخل منخفض فيها ، ولأنها قد بلغت الحد الأقصى للقرض الممنوح لها من الحكومة . (منذ نهاية الحرب ، ازدادت القروض الممنوحة من الحكومات المحلية بنسبة ٣٢٠ فى المائة ، على حين ازدادت القروض الممنوحة من الحكومة الفيدرالية بنسبة ٤ فى المائة) ، ومع ذلك فإن أمتنا هى فى مجموعها أكثر أمم العالم رخاء ، والحكومة الفيدرالية هى التى تحصل على نصيب الأسد من الضرائب ، لذلك فإنى شخصياً ، ومعظم رجال التربية ، نعتقد أن الحل الوحيد للمشكلة هو أن تعطى الحكومة الفيدرالية أطفالنا حقهم من العدل والإنصاف ، عن طريق تقديم المعونات إلى هيئات التعليم .

كشاف تحليلى

ظ

ع

غ

هذا الكتاب

المشاكل فى حياة الطفل عديدة ، والطفل مخلوق ضعيف قاصر ، يرقب الأفق من بعيد فيخاله فى قبضة يده ، ويعيش للساعة التى هو فيها ، غير مفرق بين أمسه وغده . وهو أحياناً جبار عنيد عنيف يتخطى المسئوليات دون مبالاة .

وما من والد مد له الله حبل العمر حتى عاصر ابنه المراهق إلا أدرك جو الحيرة الذى أحاط به لمواجهة هذا الانقلاب الطارىء الذى ساد الجو العائلى فأظلته سحب الشقاء بعد أن كانت السعادة ترفرف بسخاء فى أرجائه .

وهناك فترة من حياة الطفل لا تقل حرجاً عن فترة المراهقة ، وهى الفترة بين السنة الثالثة والسنة السادسة من العمر ، وفيها يصول الدكتور سپوك ويجول ، شارحاً ما خفى من مشكلات خالدة ، مثل الأحلام المزعجة ، والمخاوف ، والاهتمام الجنسى ، والأسئلة المحرجة التى قد يوجهها الطفل إلى أمه فى هذا الصدد .

وإنك حين تقلب صفحات هذا الكتاب تعجب كيف ينتقل بك الدكتور سپوك من دوح إلى دوح ، فهو لا يقتصر على النفسيات ، بل يلمس فى بعض الصفحات مشاكل مرضية وصحية ، مثل التبول الليلى ، وفوائد الهواء الطلق النقى ، وفوائد ومضار إعطاء الحلوى للأطفال ، ومشكلات الشهية للطعام . ثم يرشد الأم كيف تربى فى طفلها ملكة (الضمير) . ولم يفته أبداً الاهتمام بموضوع انحراف الشباب ، وهو مشكلة المجتمع فى كل مكان ، فأفرد له باباً خاصاً مفصلا أسبابه الاجتماعية والنفسية ، وسرد طريق تجنيب الولد اليافع من السقوط بين براثنه قبل فوات الأوان .

من تقديم

الدكتور مصطفى الديوانى



الثمن ٥٠ قرشاً

١٩٦٣

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة